AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01162 6656

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

The Am

Happy is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding

PROVERBS 3-13

Ex libris datis
n memoriam
Polk McKinney
burgh, Pennsylvania

SITY
الجا

06-B1840

محمد أحمد برانق

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

DS
238
A1
B3

البرامكة في ظلال الخلفاء

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر
١٩٥٢ ؟

297.613
B23

٩٥٣,٠٤
ب م . ب

31091

فهرس

١ – ١٥ البرامكة :

أصلهم ، بلخ . النوبهار . خالد البرمكى وصلته بالخلفاء .

١٦ – ١٠٥ يحيى بن خالد البرمكى :

يحيى زمن الهادى ١٩ – موقف يحيى من الهادى عند إرادته خلع الرشيد ٢٣ – مناقشة الحوار الذى جرى بين يحيى والهادى ٢٦ – موقف الهادى من الخيزران ٢٧ – موقف الهادى من الرشيد ٣٠ – حيلة ليحيى ٣٢ – التخلص من الهادى ٣٣ – يحيى بعد موت الهادى ٣٦ – ابن الربيع ٣٨ – موقف يحيى من بيعة الأمين ٤٠ – موقف يحيى من بيعة المأمون ٤٢ – قلق الرشيد على البيعة ٤٥ – نظرة فى نظام البيعة ٤٦ – مناقشة هذا النظام ٤٧ – مناقشة موقف يحيى من المبايعات ٤٩ – نفسية هرون الرشيد ومناقشة موقفه ٥٤ – موقف يحيى ٥٦ – مناقشة رواية البيعة ٦٠ – يحيى وأولاده فى معالجة المشاكل ٦٢ – موسى بن يحيى بين النزارية واليمانية ٦٤ – سياسة يحيى مع أهل إفريقية ٦٧ – الفضل بن يحيى ٦٨ – جعفر بن يحيى ٧٥ – أخلاق يحيى وولديه ٨١ – من قصص كرمهم ٨٢ – مع إبراهيم الموصلى ٨٢ – قصة يحيى مع أحمد بن أبى خالد ٨٧ – قصة الفضل مع محمد بن إبراهيم الإمام ٩١ – قصة الفضل مع رجل من السوقة ٩٢ – قصة يحيى مع أصغر كتابه ٩٣ – قصة يحيى مع رجاء بن عبد العزيز ٩٥ – قصة يحيى مع الخياط ٩٦ – قصة

يحيي مع كاتبه ٩٧ – بخل محمد بن يحيي ٩٨ – ما قاله الشعراء فى جودهم ٩٩ – تعليق على مسلك الشعراء معهم ١٠٢ – تشجيعهم للأدباء ١٠٣

١٠٦ – ١٦٣ البرامكة والأدب :

بعض الشعراء الذين مدحوهم : أبو نواس ١٠٧ – مسلم بن الوليد ١١٠ – سلم الخاسر ١١٨ – سعيد بن وهب ١٢٠ – نصيب العباسى ١٢١ – أبان اللاحقى ١٢٥ – العتابى ١٢٨ – الرقاشى ١٢٩ – ابن مناذر ١٣١ – أشجع ١٣٢ – نقد وتعليق ١٤١ – هجاء البرامكة ١٤٥ – المعانى التى وصفهم بها الشعراء ١٥٠ – الجود والكرم ١٥٠ – الشجاعة والحزم ١٥٢ – الفصاحة والبلاغة ١٥٣ – كرم الأصل ١٥٣ – أدب البرامكة ١٥٦ – من كلام يحيي ١٥٩ – من كلام جعفر ١٦١

١٦٤ – ١٧٩ البرامكة والغناء :

يحيي البرمكى ودنانير ١٦٤ – جعفر والغناء ١٧١

١٨٠ – ٢٥٧ نكبة البرامكة :

العباسة ١٨١ – يحيي بن عبد الله العلوى ١٩١ – الزندقة ٢١٧ – موقف عبد الملك بن صالح ٢٢٢ – أصبع الفضل بن الربيع ٢٣٤ – موسى بن يحيي فى خراسان ٢٤٠ – السرف والبذخ ٢٤٥ – تضييق البرامكة على الرشيد ٢٥٥

٢٥٨ – ٢٩٦ النكبة :

مقدمات ٢٥٨ – مقتل جعفر ٢٦٧ – أنس بن أبى شيخ ٢٧٣ – مصير يحيي وأولاده ٢٧٦ – أم جعفر ٢٨٣ – من ذيول النكبة ٢٨٧ – نفسية الرشيد بعد النكبة ٢٩٠

٢٩٦ ـ ٣٠١ مصر فى عهد البرامكة :

٣٠٢ ـ ٣٣٥ أثر النكبة فى الأدب :

مراثى الشعراء ٣٠٤ ـ الأدباء من غير الشعراء وموقف القصّاص من النكبة ٣٠٨ ـ تعليق على ما رويناه من القصص ٣٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما زال يجرى على ألسنة كثير من الناس ، حتى العامة منهم — ذكر هرون الرشيد والبرامكة ، وينسجون حولهم قصصاً يذكرونها فى مجالسهم ، ويتندرون بها فيما بينهم ؛ وهذه القصص تتوارثها الأجيال ، ويتناقلها الرواة ، فيزيدون فيها ، أوينقصون منها ؛ وقد يخترع مخترع قصة لمناسبة تصادفه ، وينسبها إلى الرشيد ، ويذكر فيها يحيى البرمكى أو جعفراً أو زبيدة ، أو يذكرهم جميعاً .

والرجال الذين شغلوا التاريخ جميعاً ؛ بجدهم أو لهوهم ، يهتم الناس بهم ، ولا سيما العامة منهم ، وتجرى أسماؤهم وحوادثهم على ألسنتهم ، وينسب إليهم ما ليس لهم أو عليهم .

وصلة الرشيد بالبرامكة لا تعتبر صلة بين خليفة وأعوانه ، وإنما هى صلة بين عقليتين ، وصراع بين حضارتين ؛ وقد بدأ ذلك الصراع منذ استولى المسلمون على فارس ، ولكنه كان يظهر فى صور مختلفة ، وكان قويًّا فى أواخر دولة بنى أمية ، ثم ازداد قوة فى العهد العباسى ؛ وكان أخطره ما وقع فى زمن الرشيد ، ومع أن هذه الحقبة لم تكن أكثر من سبعة عشر عاماً ، فإنها كانت حافلة بالأحداث التى جعلت المؤرخين يهتمون بها ويروونها ، وهذه الأحداث لكثرة من يتناولونها تكون عرضة للتغيير والتبديل ، والنقص والزيادة ؛ حتى لتكاد الحقيقة تختفى وراء هذا كله ، وقد يطغى عليها ما ليس منها ، فتلتبس به .

وقد حاولنا أن نستعرض هذه الحوادث من مظانها المختلفة ، ونعرضها للبحث غير مبالين شيئاً سوى الحق والصراحة ، فكتبنا هذه الفصول ، وعرضنا لما رواه الرواة ، ولما رآه الباحثون ، وميّزنا الخبيث من الطيّب ، وفرّقنا بين الصحيح والزائف ، وفنّدنا مزاعم الزاعمين ، ودحضنا إرجاف المرجفين ، وقلنا للمصيب أصبت ، وللمخطئ أخطأت ، وأبدينا الرأى الذى يهدى إليه منهج البحث مدعوماً بالدليل العقلى ، ومؤيداً بالدليل النقلى ؛ ولعلنا بذلك نكون قد أرسلنا ضوءاً على ما كان يكتنف تلك الحقبة من التاريخ الإسلامى من شكوك وأوهام ، فيستطيع القارئ بعد قراءة هذا الكتاب أن يراها واضحة المعالم .

وهذه المرحلة من التاريخ الإسلامى تعتبر أخطر المراحل التى مرّت به ، فهى صراع عنيف بين الكسروية العريقة التى قُضى عليها فيما يزعم المؤرخون القدامى ، وبين الإسلام الذى حلّ محلها ، وبسط سلطانه عليها ؛ أو هى صراع عنيف بين السياسة الإسلامية والحضارة الفارسية ؛ وانجلى ذلك الصراع عن نكبة من أخطر النكبات التى عرفها التاريخ .

وقد كان له أثره فى حياة المسلمين السياسية والاجتماعية والأدبية والدينية .

البرامكة

فى رقعة معمورة من خراسان تقع مدينة بلخ ، وهى – فيما يذكر الرواة – مدينة مشهورة مذكورة ، كثيرة الأخبار ، واسعة الغلات ، حتى لقد كان أهل خراسان يعتمدون فى كثير من معايشهم ، على ما تنتجه هذه المدينة من غلة وحيوان .

وأقام فى هذه المدينة أسر كبيرة ، توارثت المجد جيلا بعد جيل ، حتى لقد تقادمت الأحقاب ببعض هذه الأسر إلى ما قبل عصر ملوك الطوائف (١) .

ومن هذه الأسر أسرة كانت أهل شرف على وجه الدهر ، وكان أهل هذه الأسرة على عبادة الأوثان ، فهم – فيما كانوا يعتقدون – أهل دين ، اعتزوا بدينهم ، وأحبوا آلهتهم ، وأخلصوا لها ، وعملوا على أن ينافسوا غيرها من الآلهة .

هذه الأسرة هى أسرة البرامكة(٢) .

---

(١) ملوك الطوائف : هم ملوك الطبقة الثالثة من الفرس حسب تقسيم مؤرخى العرب لهم ، ويسمون « الإشكانية » بكاف أقرب إلى الغين « ابن خلدون ج ٢ ص ١٦٧ » .

(٢) وكلمة « برمك » معناها الجد ؛ وبعض الكتب الفارسية تزعم أن البرامكة وزروا للساسانيين من ملوك الفرس ، منذ أيام أردشير بن بابك ثم زالت عنهم الوزارة بزوال ملك آل ساسان ؛ فوضعوا كتباً فى أصول الحكم توارثها أبناؤهم عن آبائهم ، وزاد فيها الأبناء ما جد من تجاربهم ؛ وبعد أن ذهب عنهم سلطان الوزارة تولوا القوامة على بيت النوبهار ، فخرجوا من سلطة زمنية إلى سلطة دينية « سياست نامه ص ٤٢ » .

وكلمة البرامكة مأخوذة من فعل « برمكيدن » بمعنى المص ، أى مص السم . مادة برمك فى : فرهنك أنجمن آراى ناصرى . ويزعمون أن برمك كان يلبس فى أصبعه خاتماً مسموماً يمص منه السم فيسرع إليه الموت بابتلاعه إذا وقع فى ضيق لا يقدر على احتماله ؛ وهذا الخاتم كانوا يتوارثونه برمكاً بعد برمك .

رأوا أن لقريش بيتاً للعبادة هو الكعبة ، وعلموا أن قريشاً ومن والاها من العرب يأتون إلى الكعبة ، ويعظمونها ؛ وأن القرشيين أنفسهم ينافس بعضهم بعضاً فى تولى أعمال هذا البيت لما يلحق القائم بها من عظيم الشرف ورفيع المكانة ؛ فأشرفهم هو الذى يتولى حجابة الكعبة ، ومن أرفعهم بيتاً يختار السدنة ، وهكذا كانت الكعبة رمزاً روحيا لقريش وغير قريش من العرب .

فكر البرامكة فى هذا ، ورأوا أن يكون لهم فى خراسان ما لقريش فى بلاد العرب ، فبنوا لهم بيتاً يضاهون به الكعبة ، ونصبوا حوله الأصنام كما نصبت قريش الأصنام حول الكعبة ، وزينوه بالديباج والحرير ، وعلقوا عليه الجواهر النفيسة ، كما كانت تفعل قريش فى الكعبة ، أو أكثر مما كانت تفعل .

عرف الناس فى خراسان أمر هذا البيت الجديد ، وكان لهؤلاء الناس صلة روحية بمن بنوا هذا البيت من البرامكة ؛ فعظموه ، وحجوا إليه ، وألبسوه أفخر الثياب ، ونصبوا فوق قبته الكبيرة الأعلام .

افتنّ البرامكة فى بناء هذا البيت ، فشغلوا به رقعة كبيرة من الأرض ، وأقاموا بناء تعددت قبابه ، وتناثرت المقاصير من حوله ، واحتشد له خدام وقوّام وسدنة ؛ وكثر هؤلاء كثرة جعلتهم يتبادلون خدمة البيت ، لكل فرقة يوم معلوم من العام لا يعود إلا فى العام الذى يليه .

وشيخ السدنة هو برمك ، فإذا مات برمك قام مقامه برمك آخر .

وذاع خبر هذا البيت حتى عرفه الهند خاصتهم وعامتهم ، وعرفه الصينيون خاصتهم وعامتهم، وعرفه غير هؤلاء وأولئك من ملوك الشرق وشعوبه ، ودانوا بهذا النوع من الوثنية، وعظم النوبهار(١) فى أعينهم ، وتقدس برمك شيخ السدنة عندهم ؛ فحجوا إليه ، وسجدوا لصنمه الأكبر ، وقبلوا يد برمك التماساً للبركة والرضا .

(١) النوبهار : هو الاسم الذى أطلق على هذا البيت ومعناه : بيت النار .

أما برمك فقد بالغ الناس فى إرضائه زلفى له ، وتقرباً إليه ؛ فلم يكتفوا بذلك التعظيم الروحى الذى كان يبدو فى تعظيمهم له ، وتقبيلهم يده ، ولم يكتفوا بذلك التعظيم المادى الذى كان يظهر فيما يحمله إليه الملوك والرعايا من كريم الهدايا ؛ ولكنهم جعلوا للبرمك ما حول النوبهار من الأرض المحدودة بدائرة مركزها النوبهار ، ونصف قطرها سبعة فراسخ .

وسكان هذه المساحة من الأرض يسعدهم أن يكونوا جميعاً عبيداً لبرمك ، يأتمرون إذا أمر ، وينتهون إذا نهى ، فهم يبيعونه أنفسهم وأموالهم .

والذين لم يسعدهم الحظ أن يكونوا عبيداً لبرمك فإنهم يقفون عليه من أرضهم وقوفاً عظيمة ، وضياعاً كثيرة ، بالقدر الذى تسمح به حالهم ؛ ويحملون إليه - راضين - ما تغله هذه الوقوف ، وتلك الضياع ، ويقدمونه هدية له ، لعلهم ينعمون برضاه .

من هذا نعلم أنه كانت لبرمك سلطة روحية واسعة ، تمتد إلى آفاق بعيدة فى الهند والصين وكابل وغيرها ، وكان يخضع له خضوعاً روحيا ملوك زمنيون فى كثير من بقاع آسيا .

ولذلك كانت سلطة برمك سادن النوبهار تفوق كثيراً سلطة سادن الكعبة فى بلاد العرب ؛ فإن سادن الكعبة كان لا يدين له إلا بعض القبائل العربية فى جزيرة العرب ؛ أما سادن النوبهار فإنه كان يدين له ملوك من أعظم ملوك الأرض فى زمانه .

آخر برمك :

ما زال البرامكة يتولون سدانة النوبهار برمكاً من بعد برمك حتى كان آخرهم فى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه حيث فتحت خراسان ، وأسر آخر برمك وحمل إلى عثمان فى المدينة مع رهائن ضمنوا عن بلدهم مالاً يؤدَّى للمسلمين .

ويقولون : إنه أسلم ، فعز ذلك على أهله وولده ، وأنكروا عليه إسلامه ، وأعظموا ما فعله من تغيير دينه ، ودعوه إلى الرجوع إلى دين آبائه وأجداده ؛ فلم يجبهم لأنه – كما قال لبعضهم – دخل فى هذا الدين اختياراً ، وعلماً بفضله من غير رهبة ؛ ولم يكن ليرجع إلى دين بادى العوار ، مهتك الأستار .

ولكن بعض قومه لم يزالوا به حتى قتلوه ، وقتلوا أولاده إلا طفلا صغيراً فرت به أمه إلى بلاد الهند ، وهناك تعلم الطب والنجوم وأنواعاً من الحكمة ؛ ثم كتب إليه أهل بلده وجعلوه برمكاً عليهم ، وتولى النوبهار ، وتزوج بنت أحد الملوك ، وكان من أولاده خالد البرمكى (١) .

أما النوبهار فلم يزل قائماً حتى دخل عطاء بن السائب بلخ ، فخربه ، وعفّى على أثره ؛ وأما المسلمون من البرامكة فإن رأسهم خالد بن برمك ، اتصل بالمسلمين وأسلم ، ثم عمل فى جيش قحطبة بن شبيب (٢) ، وتقلد خراج ما كان يفتتحه جيش قحطبة من البلاد ، وتولى الغنائم ووزعها بين الجند .

وكان خبيراً فطناً ذكيا كيّساً ، يشير على قحطبة فيعمل بإشارته ؛ ولأنه كان خراسانياً ؛ ودعاة بنى العباس نشئوا فى خراسان فإنه حطب فى حبلهم ، وكان من دعاتهم .

ولعلو منزلته فى قومه ، وسابق شرفه فيهم ، كان لدعوته أثر عظيم ، وكان أحد الذين ذهبوا إلى السفاح ليبايعوه بالخلافة ، وتمثل أمامه بقول الكميت :

ومالى إلا آل أحمد شيعة ... ومالى إلا مذهب الحق مذهب

* * *

(١) ولبعض مؤرخى المسلمين فى نسب خالد كلام غير هذا ؛ وبعضهم يرى أن برمكيا اسمه جعفر وفد زمن بنى أمية على عبد الملك بن مروان وتولى علاج ولده مسلمة .

(٢) قحطبة بن شبيب الطائى : قائد شجاع ، من ذوى الرأى والشأن ، صحب أبا مسلم الخراسانى ، واشترك معه فى إقامة الدعوة العباسية فى خراسان ، وكان أحد النقباء الاثنى عشر الذين اختارهم محمد بن على ممن استجاب له فى خراسان سنة ١٠٣ هـ ، وقاد جيوش أبى مسلم وكان مظفراً فى وقائعه جميعها ؛ غرق فى الفرات على أثر وقعة له مع ابن هبيرة سنة ١٣٢ هـ ، سنة ٧٥٠ م .

من ذلك الحين بدأ خالد البرمكى يستظل بظل الخلافة الإسلامية ، وظل ينعم فى ظلها بقية حياته ، وقد ورف ذلك الظل حتى ضم أولاد خالد جميعاً .

* * *

فقد أقره السفاح على ما كان تحت يده من الغنائم ، وقلده بعض الدواوين فنظمها ؛ ثم خصه به ، وألحقه بمجلسه وجعله مستشاره فيما يجل من الأمور ، وصار يشكو إليه همه ، ويبثه حزنه ، ويفضى إليه بسره ، ويرسم معه السياسة الحازمة الرشيدة التى يجب أن يسير عليها الخليفة فى مهام الأمور .

نَفَسَ كثير من الأعاجم على خالد منزلته عند السفاح ، فأسروها فى أنفسهم ولم يكد يموت السفاح حتى وشوا به عند المنصور .

تولى المنصور ، فتقلص ظل الخلافة عن خالد بعض التقلص ، وأقصى عما كان يتولاه من الأعمال زمن السفاح ، وأبعد عن الخلافة إلى فارس حيث تولاها بضع سنين ؛ ثم ألزمه أن يدفع لبيت المال مالا كثيراً لا قبل له به ، ولولا أنه أعفاه بعد ذلك لركبه دين كبير ؛ ومع ذلك فقد كان له شأنه فى تغيير ولاية العهد على هوى المنصور .

وكذلك كان حاله مع المهدى ، فإن الظل ازداد عن خالد تقلصاً ؛ ولكنه لم يلبث أن أغزاه مع ابنه هرون سنة ١٦٣ هـ ، ثم كتب لهرون أيضاً حينما تولى بعض الولايات .

بدأ خالد بذلك يزرع لنفسه ولولده شجرة خلافة يتفيئون ظلالها ، وينعمون بها ؛ وظل يفتل فى الذروة والغارب فى بلاط الخلفاء مرة ، وبين الجماهير مرة أخرى ؛ ثم فى جو الشعراء حيناً ؛ وفى جو السياسة الفارسية حيناً آخر حتى مكن لهم من بعده على ما سيأتى تفصيله (١) .

---

(١) تفصيل الحديث عن خالد فى الجزء الأول من كتاب « الوزراء العباسيون » للمؤلف .

يحيى بن خالد البرمكى

نشأ يحيى فى رعاية أبيه خالد، فهو ناشىء فى النعيم، متقلب فى أحضانه ؛ أمامه أبوه يلى الإمارات ، ويتصرف فيها ، ويزر للخلفاء ، ويعمل لهم ، ويصرّف الأمور ، ويحسن القيام عليها ؛ وكل ذلك تحت سمع يحيى وبصره ؛ حتى إذا شب وترعرع شارك فى الأعمال فأحسن المشاركة ، وتعاطى التدبير فأحسن تعاطيه ؛ فعرفه المنصور وقدره ، وقربه إليه ، وجعل له بعض منزلة أبيه ؛ ودربه أبوه على العمل فى الولايات ، فجعله على الرى حين ولاه أبو جعفر الرّى(١) وطبرستان(٢) ودُنباوند(٣) .

وحدث أن الخليفة المنصور أرسل ابنه المهدى إلى الرى ، فلقيه يحيى هناك ورحب به ، وأقام على خدمته فأحبه المهدى ، وخف على قلبه ، فبدأ اتصالهما بدءاً حميداً ، كسب به يحيى عطف الخليفة المنتظر ، وحبه وتقديره ؛ ولا سيما أن المهدى ولد له فى هذه الأثناء ولد ، سماه هرون ، ويحيى ولد له ولد قبل ذلك

---

(١) الرى : مدينة مشهورة فى بلاد فارس ، كثيرة الفواكه ، وكانت أعمر مدن الشرق بعد بغداد ، إلا أنها خربت لخلاف قام بين الشيعة وأهل السنة ، ثم بين الشافعية والحنفية ، أدى الخلاف بينهم إلى حروب أباد بها بعضهم بعضا .

(٢) طبرستان : بفتح أوله وثانيه وكسر الراء : والنسبة إليه طبرى . وطبرستان بلدان واسعة كثيرة ، خرج من نواحيها كثير من أهل العلم والأدب والفقه ، وهو إقليم جبلى ، تعب المسلمون فى فتحه والاستيلاء عليه .

(٣) دنباوند : بضم أوله وسكون ثانيه وبعده باء موحدة وبعد الألف واو مفتوحة ثم نون ساكنة وآخره دال مهملة . ودنباوند : جبل من نواحى الرى ، شامخ عليه ثلج ، وفى سفحه عيون ماء كبريتية ، وهو من فتوح سعيد بن العاص زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه .

بقليل سماه الفضل ، فهرون والفضل رضيعان ، والخيزران أم هرون ، وزبيدة[١] أم الفضل صديقتان ، تحب كل منهما الأخرى وتتبادلان العطف والمودة وتعطف كل منهما على ابن صديقتها ، عطفها على ابنها ، وتحبه محبتها لابنها ؛ فإذا طلب أحدهما ثدى أمه وكانت مشغولة عنه لأمر من الأمور ، قدمت إليه الأخرى ثديها ، وأرضعته وأشبعته .

إذن ؛ تآخى الولدان بعد أن رضع كل منهما من ثدى أخيه ، وصار لكل منهما أمّان وأبوان ، فزبيدة أم لهرون ويحيى أب لهرون ، وهرون هو الذى صار فيما بعد هرون الرشيد خليفة المسلمين .

وكان يحيى عاقلا فطناً أديباً ، عرف أبوه ذلك فيه ، فجعله رسوله إلى أبى عبيد الله وزير المهدى حينما تغيرت الحال بينهما ، وقد تقدم ذلك فى بعض الحديث عن أبى عبيد الله[٢] ، فكان سفيراً بين أبيه وبين الوزير يحسن السفارة وكان أبو عبيد الله يكرمه ، ويقدمه ، ويقضى حوائجه ؛ ويحيى يعتز بنفسه ، ولا يضعها إلا فى المواضع الكريمة ، التى تجعل الوزير يجد عليه أحياناً ، وإن كان يكبره فى نفسه .

وظل يحيى على اتصاله بهرون زمن المهدى ، وكان المهدى وخالد يمكنان له ذلك ، فإذا أغزى المهدى هرون سنة ١٦٣ هـ « قلد كتابته ونفقاته وتدبير أمر عسكره : يحيى[٣] . قال يحيى : لما ندب المهدى هرون الرشيد لما ندبه

---

(١) زبيدة : واسمها فى بعض الروايات زينب ، ويطعن فى أن كلا من الأمين أرضعت ولد الأخرى ما يذكر من أن الرشيد ولد سنة ١٤٥ هـ وأن الفضل ولد سنة ١٤٨ هـ . ويزعم البرامكة تحقيقاً للرواية أن الرشيد ولد أول المحرم سنة ١٤٩ هـ ، وأن الفضل ولد قبله بسبعة أيام فى ذى الحجة سنة ١٤٨ هـ .

(٢) الجزء الأول من كتاب « الوزراء العباسيون » .

(٣) الوزراء صفحة ١٠٩ .

له من الغزو ، أمر أن يدخل عليه كتاب أبناء الدعوة(١) لينظر إليهم ، ويختار منهم رجلا ، فأدخلونى عليه معهم فوقفوا بين يديه ، ووقفت فى آخرهم ؛ قال لى : يا يحيى ؛ ادن ، فدنوت ، ثم قال لى : اجلس ، فجلست ، فجثوت بين يديه ، فقال لى : إنى قد تصفحت أبناء شيعتى ، وأهل دولتى ، واخترت منهم رجلا لهرون ابنى ، أضمه إليه ، ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته — فوقعت عليك خيرتى له ، ورأيتك أولى به ، إذ كنت مربِّيه وخاصته ، وقد وليتك كتابته ، وأمر عسكره . قال : فشكرت ذلك له ، وقبلت يده ، وأمر لى بألف درهم معونة لى على سفرى ، فوجهت فى ذلك العسكر لما وجهت له(٢) .

يحسن يحيى القيام على كل ما وكل إليه من الأمور ، فيزداد حب هرون له ، وتقوى ثقته به ، ويحمد فعله ، ويعجب لتدبيره ، فيتمكن من قلبه .

وقد فطن يحيى إلى أن استرضاء العامة من أسباب النجاح ، فعمل على استجلاب محبته فى كل تصرف يتصرفه ، وليس أحب إلى الناس من أن يسقط عنهم الوالى الخراج ، ولا سيما إذا كان ثقيلا ، وأن يكثر الجوائز والصلات وأن يبالغ فى الإحسان إلى الناس ، عامتهم وخاصتهم ؛ ولكنّ إفراطه فى هذه الناحية جعل الجند يسخطون عليه ويشغبون ، فعنف عليهم ، وقتل قائدهم ؛ فوجد خصومه مجالا للكلام عنه ، فأطلقوا ألسنتهم فيه عند المهدى حتى أحفظوه عليه ، فعرض عليه مالا كثيراً يؤديه ، وعزله عن عمله ، وحبسه ؛ وكان يصح أن تودى به هذه الحادثة ، ولا سيما أنه كان ما يزال فى بادئ أمره ، فلم يستمكن من قلب الخليفة ، ولم يستمكن من قلوب الشعب ؛ إلا أن هناك قلباً عزيزاً على الخليفة يعطف عليه ، ذلك هو قلب الخيزران زوج الخليفة ، وصديقة

---

(١) أبناء الفرس الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية كأبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى وخالد بن برمك وغيرهم .

(٢) الطبرى ج ٩ .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY U.A.R.

زبيدة زوج يحيي ، ومرضع الفضل بن يحيي ؛ فإنها ما كادت تعلم أن الخليفة غضب على يحيي حتى شفعت فيه ، وذكرت أمر الرضاع الذى كان بين هرون وبين الفضل ؛ فتأثر الخليفة لتلك الشفاعة ، وعفا عن يحيي ، ورضى عنه ، ورده إلى منزلته التى كان عليها .

يحيي زمن الهادى :

وفى سنة تسع وستين ومائة هجرية توفى المهدى ، وبدأ يحيي يمثل أدواره الخطيرة فى السياسة الإسلامية ويظهر هواه فى هرون ولده رضاعاً ، وأخى ابنه الفضل رضاعاً . فقد مات المهدى والهادى ولى عهده مقيم بجرجان(١) يحارب أهل طبرستان ؛ وكان هرون بجانب أبيه حينما مات بماسَبَذان(٢) ؛ فأشار عليه الموالى والقواد أن ينادى فى الجند بالعودة إلى بغداد ، وأن تحمل رفات المهدى إليها ، ويوارى فيها ، فلا يشغب الجند .

فتريث هرون قليلا ، ثم أمر باستدعاء أبيه يحيي ، ليستشيره فيما يفعل ، فصار يحيي إليه ، فقال له : يا أبت ؛ ما تقول فيما أشار به على فلان وفلان من الموالى والقواد ؟

قال يحيي : ما أرى ذلك رأياً .

فقال هرون : ولم ؟

قال : لأن هذا مما لا يخفى ، ولا آمن إذا علم الجند أن يتعلقوا بنعشه ، ويقولوا : لا نُخَلِّيه حتى نُعطَى لثلاث سنين أو أكثر ، ويتحكموا ويشتطوا ،

---

(١) جرجان : بالضم وآخره نون : مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، وقيل إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة ، وتخرج فيها كثير من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ؛ تنبت الفواكه ، ويصنع أهلها حرير القز .

(٢) ماسبذان : بفتح السين والباء الموحدة والذال المعجمة وآخره نون : مدينة فى الصحراء بين جبال كثيرة الشجر ، خربت ولم يبق من قبر المهدى إلا بناء قد تعفت رسومه .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

ولكن أرى أن يوارى – رحمه الله – ها هنا . وتوجه إلى أمير المؤمنين الهادى بالخاتم والقضيب والتهنئة والتعزية ، وأن توجه إليه بذلك كله مع صاحب البريد ، فلا ينكر خروجه أحد ، وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز مائتين مائتين ، وتنادى فيهم بالقفول ، فإنهم إذا قبضوا الدراهم لم تكن لهم همة سوى أهليهم وأوطانهم ، ولا عَرْجة على شىء دون بغداد(١) .

فكان ما أشار به يحيى : أرسل الخاتم والقضيب والتهنئة والتعزية مع صاحب البريد إلى الهادى بجرجان ، وأعطى كل جندى فى ماسبذان مائتى درهم ، وأمر بتسريحه ، ففرح الجند بذلك أيما فرح ، وما كادوا يملأون جيوبهم بالدراهم حتى قالوا : بغداد بغداد ؛ يسارعون إليها ، ويخرجون من ماسبذان .

ولكن خبر وفاة الخليفة لم يعد سراً مكتوماً ؛ فقد انتشر فى بغداد وعلم به الجند بمجرد وصولهم إليها ، فشغبوا وضجوا ، وذهبوا إلى دور الربيع(٢) ، وأشعلوا النار فى أبوابها ، وطالبوا بالأرزاق ، وصارت بغداد مغدى ومراحاً للجند الثائرين ، وأوشكت الفتنة أن تقوم فيها ؛ والخليفة الجديد غائب ، ولم تؤخذ له البيعة بعد ، وليس فى بغداد سوى هرون ، وهو لا يزال بعدُ فتى ، ، وأمه الخيزران ؛ فكان عليهما أن يدبرا الأمر حتى يحضر الهادى.

وكانت الخيزران عاقلة ، فإنها رأت أول ما رأت أن تستشير أصحاب الرأى فى بغداد ، وليس أمامها سوى الربيع ويحيى بن خالد ، فاستدعتهما لتشاورهما ؛ فأما الربيع فإنه دخل إليها ، وأما يحيى فإنه لم يدخل لأنه يعلم أن الهادى شديد الغيرة ، وليس يرضى أن تبرز أمه للرجال ، وقد كان ما توقعه يحيى ، فنقم الهادى من الربيع أن يدخل عند أمه ، وأن تستشيره فيشير عليها ، وأن يتبادل وإياها الرأى وقد انتشر خبر مقابلته إياها فى بغداد ، ووصل إلى الهادى وهو

---

(١) الطبرى ج ١٠ .

(٢) الربيع بن يونس : وزير المهدى . انظر الجزء الأول من « الوزراء العباسيون » .

ما يزال فى جرجان ، فكتب إليه كتاباً يتوعده فيه ويتهدده ، ويلوح له بقتله عند قدومه إلى بغداد .

ويحسن أن نقف هنا ، ونسائل أنفسنا :

من الذى أذاع أمر مقابلة الربيع للخيزران ؟ أهو يحيى نفسه ليوغر صدر الهادى عليه ؟ ، أم هو الربيع ليعرف الناس مكانه من الخيزران ؟ أم هو شخص غير يحيى والربيع ؟

وإذا كان الربيع هو الذى أذاع هذا الخبر ، فلماذا أذاع أن يحيى امتنع عليها ؛ ولم يرض أن يلقاها والخليفة غائب ؟ .

ثم من الذى أرسل هذا الخبر إلى الخليفة ، وجعله يتوعد الربيع بالقتل فى كتاب يرسله إليه ، ويجزى يحيى خيراً لموقفه هذا فى كتاب يرسله إليه أيضاً ، ثم يأمره فى الكتاب نفسه أن يقوم على هرون ، وأن يتولى من أمره كل ما كان يقوم به أيام أبيه المهدى ؟

ويجوز أن يكون الذين أذاعوا الخبر أعداء للربيع أرادوا أن يقصوه عن الخليفة الجديد لأمر أو أمور فى نفوسهم .

كل هذه أسئلة تتوارد على الذهن ، وتحديد الإجابة عنها ليس يسيراً ، إذ أن كلا منها جائز ؛ ولا سيما أن الهادى عرف بعد ذلك أن الربيع أرسل إلى الأمصار وفوداً تنعى إليهم المهدى ، وتأخذ البيعة للهادى ، وولايته العهد لهرون الرشيد ؛ وقد ظهر بعد أن الهادى ما كان يسره أن تجدد ولاية العهد لهرون على ما سيأتى ؛ وعرف أيضاً أن الربيع أخمد ثورة الجند فى بغداد بإعطائهم الأعطيات

وأيا كان الأمر ، فإن الربيع أحس حرج موقفه ، وأيقن أن الخليفة لا بد قاتله ، أو أنه على أيسر الفروض سيقصيه عن الخلافة إقصاء يُشمت الأعداء ؛ فإلى من يلجأ ؟ وبمن يعتصم ؟ ومن ذا الذى يجعله شفيعه لدى الخليفة ؟ .

بحث فيمن حوله ، فلم يجد خيراً من يحيى الذى أحبه الخليفة ، وشكر له

تصرفه في أثناء غيبته ، وكتب له يخبره ويقره على صلته بأخيه ، وولى عهده هرون ، ولا سيما أنه كانت بينهم مودة قديمة ، أساسها الثقة وخلوص النية ، وصفاء القلب ؛ فاستشاره فى موقفه هذا الذى أحرجه ، وضاق به صدره ، فأقض مضجعه ، وخيل إليه أن الهادى وافى بغداد ، فقبض عليه ، ووضع الأغلال فى وسطه وقدميه ، فعجز عن جر الحديد ، فابتذله الحراس ، وكلفوه ما ليس فى وسعه .

كل هذه أوهام ساورته ، ووساوس اختلجت فى نفسه ، وسأل يحيي أن يشير عليه ، فأشار ألا يذهب لملاقاة الهادى عند قدومه إلى بغداد ، حتى لا يقع نظره عليه أول ما يقع وهو غضبان ، فتبدر منه كلمات لا يملك الرجوع عنها ، ولكن يرسل إليه ابنه الفضل ليلقاه مع من يلقاه من الناس ، حاملا معه ما يستطيع من الطرف والهدايا والألطاف ، فلعله يرجع بعد ذلك وقد زال من نفسه ما بها ، أو بعض ما بها ، وبعض الشر أهون من بعض .

وقد كان يحيي مخلصاً له فى هذه النصيحة حقاً ، أو أن ما أشار به أتى بالنتيجة التى أملها الربيع ، سواء أكان يحيي مخلصاً فيها أم كان غير مخلص ، فإن الفضل استقبل الهادى فى همذان[١] ، فأدناه إليه ، وقربه منه ، وسأله عن أبيه ؛ وهذا السؤال دليل الرضا والعطف ، فكتب الفضل إلى أبيه ، وبلغه الخبر ، فخرج لاستقباله مع الناس ، وسرى عنه بعض ما به من الخوف ؛ فلما لقيه الهادى لم يزد على أن عتب عليه بعض تصرفه ، فاعتذر إليه ، وشرح له موقفه ، وأثبت له سلامته ؛ فقبل منه عذره ، وولاه وزارته على النحو الذى أشرنا إليه عند الحديث عنه[٢] .

---

(١) همذان : بفتحات وذال معجمة وفى الآخر نون ، مدينة فارسية قديمة فتحها المسلمون أواخر خلافة عمر أو أوائل خلافة عثمان رضى الله عنهما على يد المغيرة بن شعبة .

(٢) الجزء الأول من كتاب « الوزراء العباسيون » .

موقف يحيى من الهادى :

عند إرادته خلع الرشيد من ولاية العهد :

كل ولىّ أمر تجد حوله فئة من الناس يتقربون إليه ، ويلتفون حوله ، ويشيرون عليه بما يرونه خيراً له ، وقد لا يكون فيه خير . والهادى واحد من الناس التف حوله بعض الأمراء والقواد ، وزينوا له أن يخلع أخاه هرون من ولاية العهد ، وأن يجعل ولى العهد من بعده ابنه جعفراً : فأعجب هذا الحديث الهادى ، ووقع من نفسه موقعاً حسناً ، وأخذ يعمل على إنفاذه ، وحصر همه فى : هرون وأمه الخيزران ويحيى البرمكى ، فلا بد أن يوافق هؤلاء الثلاثة على أن يتخلى هرون عن ولاية العهد ، لأنه إذا أصر أحدهم على ألا يتنازل فلن يكون هناك تنازل ؛ ولهذا نجد ليحيى فى هذه المسألة دوراً من أخطر الأدوار التى مثلها فى حياته ، إن لم يكن أخطرها جميعاً .

اتجه إليه الهادى أولا ، واستدعاه إلى مجلسه ، واستدناه منه ، وحادثه ، ولاطفه ، ولاينه ؛ لعله ينفذ إلى قلبه ، ويتمكن منه حتى يكون له بعد ذلك ما يريد ، ومما قاله له : أنت الذى يقول فيك القائل :

لو يَمَسُّ البخِيلُ راحةَ يحيى   لَسَخَتْ كَفُّه بِبَذْلِ النَّوال

فقال يحيى : تلك راحتك يا أمير المؤمنين ، لا راحة عبدك ، وقبل يده ورجله ؛ فأقطعه إقطاعاً ، وأعطاه مالا ؛ ثم ناظره فى خلع هرون من ولاية العهد ، وأخذها لابنه جعفر ، فلم يبال يحيى غضبه ، ولم يطغ عليه عطف أمير المؤمنين وإقطاعه وماله ، فقال له : يا أمير المؤمنين ؛ إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم ، وجرأتهم على حل العقود التى تعقد عليهم ولو تركت الأمر فى بيعة أخيك بحاله ، وبويع لجعفر من بعده — كان

ذلك أوكد لبيعته . فقال له : صدقت ونصحت ، وأنا أنظر فى هذا ، ولى فيه تدبير ، ثم صرفه .

ولكن عصبة الهادى لم يعجبهم أن يجيب هذه الإجابة ، وسعوا عليه عنده ، حتى غيروه عليه وأوقعوا فى نفسه أنه هو الذى يفسد هرون ، ويمنعه من الاستجابة إلى ترك ولاية العهد ، فأثر كلامهم فى نفس الهادى ، وكذلك خاف يحيى على نفسه ، وصار غير مطمئن إلى ما يدور حوله ، ولقد بلغ به الخوف أن الهادى بعث إليه ذات ليلة فأيس من نفسه ، وودع أهله ، وتحفظ ، وجدد ثيابه ، ولم يشك أنه يقتله(١) ، وما كاد يدخل عليه حتى رآه عابس الوجه ، مقطب الجبين ، حائل اللون مما به من الغيظ ، حائر النظر ؛ فازداد خوف يحيى حتى صار لا يدرى ، أين هو ؟ ولا سيما أنه بدهه (٢) بقوله : يا يحيى ؛ مالى ولك ؟

قال : أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته ؟

قال الهادى : فلم تدخل بينى وبين أخى وتفسده على ؟

قال يحيى : يا أمير المؤمنين ؛ من أنا حتى أدخل بينكما ؟ ؛ إنما صيرنى المهدى معه ، وأمرنى بالقيام بأمره ، فقمت بما أمرنى به ، ثم أمرتنى بذلك فانتهيت إلى أمرك .

قال الهادى : فما الذى صنع هرون ؟

قال يحيى : لم يصنع شيئاً ، ولا ذلك فيه ولا عنده .

إذ ذاك سكن غضبه ، وعاد إلى تقريب يحيى إليه ، ومنادمته ، وإجلاسه فى مجلسه أطول وقت ممكن حتى يحول بينه وبين هرون ، فلعل الإقبال عليه

---

(١) الطبرى ج ١٠ .

(٢) بدهه بكذا : استقبله به .

يصرفه عنه ؛ وبالغ فى ذلك ، فهو سميره فى وحدته ، وجليسه فى خلوته ، والشفيع الذى لا ترد شفاعته ، والجالس على مرتبة فوق مرتبة وزرائه وقواده وأهله ، حتى لكان الناس يعجبون من ذلك أشد العجب .

إلا أن ذلك كله لم يغر يحيى ، ولم يغير رأيه فى ولاية العهد ؛ فتغيظ عليه الهادى ، ولم يطق عليه صبراً ، وأمر بحبسه فحبس ، ورضى بالحبس على ألا يوافق على نكث[1] العهد ، ثم كتب إلى الهادى يخبره أن عنده نصيحة يريد أن يقدمها إليه ، فاستحضره ، فلما حضر طلب إليه أن يخليه ، فأخلاه ؛ فقال :

يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان الأمر[2] — أسأل الله ألا تبلغه ، وأن يقدمنا قبلك — أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر ، وهو لم يبلغ الحلم ، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ؟

قال الهادى : والله ما أظن ذلك .

قال يحيى : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسمو إليها أهلك ، وجِلّتهم مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيك .

فقال له : نبهتنى يا يحيى .

ثم قال له يحيى : لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ، أما كان ينبغى أن تعقده له ؟ فكيف بأن تحله عنه ، وقد عقده المهدى له ؟ ؛ ولكن : أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر — وبلغ الله به — أتيته بالرشيد ، فخلع نفسه ، وكان أول من يبايعه ، ويعطيه صفقة يده .

فقبل الهادى قوله ورأيه ، وأمر بإطلاقه .

---

(١) نكث العهد : نقضه .

(٢) أى إذا أنزل بالخليفة الموت .

مناقشة هذا الحوار :

وإذا أردت أن تناقش هذا الحوار الذى كان بين الهادى ويحيى ، فإن أقل ما تصف يحيى به أنه رجل مؤمن بمبدئه إيمانه بدينه ، لا يحيد عنه تحت تأثير وعد ولا وعيد ، ولا يثنيه عنه ترغيب ولا تهديد ، ولو كان هذا أو ذاك من الخليفة نفسه ، وكان الهادى رجلا عاقلا ، يستمع للنقاش ، ويسير فيه مع العقل ، ثم ينتهى إلى النتيجة التى يريدها يحيى ، لأنه رجل منطقى قوى الحجة ، بالغ التأثير ، فلا مجال للانتقاض عليه فى نتيجة يريد أن يصل إليها ، إلا أن متابعة العقل لمنطق المناطقة ، مهما اقتنع به ، لا يدوم إلا المدة التى ينتهى عندها الإقناع ، أو بعدها بقليل : ثم لا تلبث العاطفة أن تطغى على عقل الرجل ، وتملك عليه تفكيره وتخلع عليه غشاوة تحول بينه وبين النتائج الصحيحة السليمة التى وصل إليها . فإذا خرج يحيى من حضرة الهادى والتف حوله ولاته وقواده ، والمنافقون من رجاله ، وذكروه الخلافة وجلالها ، والسلطان ونعيمه ، وعظم ما يحدث إذا خرج الأمر منه إلى أخيه دون ابنه — تأثر بهذا الكلام ، واهتزت عاطفة البنوة ، واستولت عليه الحسرة والألم ، وتمنى أن يتم الأمر لابنه ، ولو كان هذا الابن صغيراً لم يبلغ مبلغ الرجال بعد .

أما أن يضطغن عليه هرون بعد هذا ، أو أن يخرج عليه أحد من أهله وأقاربه ، أو أن يخلع رداء الطاعة قواده وأجناده — فهذا أمر ليس فى الحساب ، لأنه لا يفكر إلا فى أن يكون ابنه ولى عهده ، وخليفة المسلمين من بعده ، ويكون بعد ذلك ما يكون .

لهذا يجب ان نحمد ليحيى هذا الموقف الذى يدل على حرية الرأى ، والشجاعة ، والقدرة على مواجهة الخليفة بما يرى ، سواء أكان ذلك صادراً عن عقيدة ، أم كان ممالأة لهرون والخيزران ؛ وإن كنا نرجح أنه كان لا يمالئ

لأنه لو كان كذلك لكان الخليفة أولى ، فهو يستطيع أن ينتفع من ورائه نفعاً قريباً ، وممالأة الخليفة تدفع عنه شراً عاجلا كان يتوقعه فى كل حين . ولا سيما أن الخيزران وهرون كانا لا ينصرانه فى كل حين ، ولولاه لانفلت حبل الخلافة من يد هرون إلى يد جعفر ، وهرون راض وأمه راضية .

موقف الهادى من الخيزران :

فأما الخيزران أم هرون فهى أم الهادى أيضاً ، فكل منهما ابنها ، له من قلبها عاطفة البنوة وحنانها ، إلا أن هرون كان أحب إليها من الهادى ، لأن الهادى كان كما قدمنا ، شديد الغيرة على أمه ونسائه ، وكان رجلا فيه قسوة وغلظة ، وكانت الخيزران زمن أبيه صاحبة سلطان ، تأمر فتطاع ، وتستشفع فتشفع ، وبالغت فى ذلك حتى افتاتت على زوجها المهدى فى أموره ، وظهر سلطانها على سلطانه .

فلما تولى ابنها الهادى ، ظنت أن الأمور تجرى على أيسر مما كانت عليه أيام ابيه ، لأن الابن أطوع من الزوج ؛ فكان غير ما ظنت ؛ كان أن وجدت ابناً صلباً جَلْداً ، لا يرضى لأمه أن تفتات على سلطانه ، ولا أن تدخل فى شئون الخلافة ، ولا أن تبرز للرجال تسمع لهم ، وتعدهم وتمنيهم ، ولا أن تسلك به مسلك أبيه من قبله فى الاستبداد بالأمر والنهى ، فأرسل إليها : ألا تخرجى من خفر التصون إلى بذاذة التبذل(١) ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك(٢) ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك .

فهو ينهاها فى تقريع شديد يشبه أن يكون مؤاخذة وعقاباً ، لأنه ضاق بها

(١) البذاذة : سوء الحال ؛ التبذل : ترك التصون .
(٢) التبتل : الانقطاع عن الدنيا إلى الله .

وبتوصياتها ذرعاً ، وطمع الناس فيها ، لأنها امرأة تتأثر بالرجاء ، وانثالوا عليها من كل جانب ، فلم ير بدأ أن يقفها حيث يجب أن تقف وأن يضعها فى المكان الذى يجب أن تكون فيه ، وإلا فإن هيبة الخلافة تضيع ، فقال لها فى بعض الحديث ، وهو غضبان : لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى ، أو أحد من خاصتى أو خدمى — لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ؛ فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم ؟ ؛ أما لك منزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ ؛ إياك ثم إياك ، ما فتحت بابك لملى أو ذمى (١) .

فكأنه أحس أنها لا تريد أن تكون ذات سلطان ، وأمر ونهى ، وإشارة مطاعة ، وشفاعة مستجابة ، فحسب ؛ بل أرادت أن تغلبه على أمره ، وأن يكون لها فى الدولة شأن دونه شأنه ، وسلطان دونه سلطانه ففتحت بابها للأمراء والقواد ، وذوى الحاجات ؛ فشق عليه ذلك وأحزنه ، وضاق عنه صدره ، وقال : ما للنساء والكلام فى أمر الرجال ؟ ؛ ثم جمع قواده يوماً ، وقال لهم : أينا خير ، أنا أم أنتم ؟ .

قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين .

قال : فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولوا : فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ، وقالت أم فلان ؟

قالوا : ما أحد منا يحب ذلك .

قال : فما بال الرجال يأتون أمى ، فيتحدثون بحديثها ؟ ؛

فلما سمع منه قواده هذا ، ولما وصل إليهم خبر مغاضبتها إياه ، ومخاشنتها ، ومغالظتها — انقطعوا عنها ، فانقطعت هى عنه ، وما لقيته حتى حضرته الوفاة .

فإذا كان الهادى قسا على أمه هذه القسوة ، فإن ذلك كان لصالح الخلافة ،

---

(١) الملى : ذو الشريعة أو الدين ؛ الذمى : المعاهد .

ولصالح الدولة ، وما كان لكراهية لها ، أو انحراف عنها ؛ ولكنها لا يعجبها أن يكون ذلك من ابنها ، ولا سيما أنها كانت فى الوضع الذى تحبه زمن زوجها .

بغض إليها ذلك ابنها ، وبغضها إلى ابنها ، حتى فكر كل منهما فى نهاية صاحبه ، وليس هذا موضع تفصيله ، ولا يعنينا منه إلا أنها زادت تعلقاً بهرون وحباله ، وجعلت فى بنوته عوضاً من بنوة الهادى ، وحبها لهرون جعلها تفكر فى الموقف الذى نشأ بينه وبين أخيه ، وأخذت توازن بين أن يجيب هرون أخاه إلى التنازل عن ولاية العهد ، وبين ألا يجيب ؛ فإذا أجاب سلمت حياته ، وإن ضاع عنه السلطان ؛ وإن لم يجب عاش مهدداً بالخطر ، وقد يكون فى ذلك القضاء عليه ؛ لذلك أرسلت إلى يحيى بن خالد يوماً عاتكة ، وكانت ظئراً لهرون[1] ، فشقت جيبها بين يديه ، وبكت بكاء مراً ، ونشجت نشيجاً محزناً ، وبلغته رسالة سيدتها الخيزران إليه ، وهى : الله الله فى ابنى ، لا تقتله ، ودعه يُجِبْ أخاه إلى ما يسأله ، ويريده منه ؛ فبقاؤه أحب إلى من الدنيا بجميع ما فيها . فلما سمع ذلك يحيى صاح بها ، وقال لها : وما أنت وهذا ؟ ! ! ! إن يكن ما تقولين فإنى وولدى وأهلى سنقتل قبله ، فإن اتهمت عليه فلست بمتهم على نفسى ولا عليهم .

فهذه الخيزران تخاف على هرون أن يقتله أخوه ، وترى أن يتنازل عن ولاية العهد خوفاً عليه ، لأن الذى عق أمه – فى رأيها – ووقفها عند حدها ، وحال بينها وبين ما تشتهيه من سيطرة على الخلافة – لا يكثر عليه أن يقتل أمه ، وأن يقتل أخاه ، ليخلو الجو له ولولده ، وهى بعد هذا تعلم حق العلم أن يحيى هو الذى يشجع هرون على ضرورة الاستمساك بحقه فى ولاية العهد ، وهرون يسمع له ؛ ولذلك بعثت إليه تعتب عليه فى ذلك ، وترجوه أن يدع ابنها

---

(١) الظئر : المرأة الأجنبية تحضن ولد غيرها ، وكذلك الرجل ، وأصله الناقة تعطف على ولد غيرها .

يتنازل عن ولاية العهد ؛ وهذا يدلنا على مقدار ما كان من صلة بين يحيى وهرون ، وعلى مقدار ما كان ليحيى من تأثير على هرون ، وعلى مقدار ما كان ليحيى من فضل على هرون فى صيرورة الخلافة إليه مضحياً فى سبيل ذلك بنفسه وولده وماله .

موقف الهادى من الرشيد :

أما هرون نفسه ، فإنه ما كان يدور بخلده أن أخاه يريد أن ينزع منه ولاية العهد ، وأن ينقلها إلى طفل حدث مثل ابنه جعفر ، ولكنه كان حسن الظن ، فإن الهادى فكر فيه ، وفكر فيه أول عهده بالخلافة ؛ فبينما كان جالساً ذات يوم جلوساً خاصاً ، استأذن عليه هرون ، فأذن له ، فدخل عليه ، وسلم كما يسلم الناس وقبل يديه كما يقبل الناس ، ثم جلس فى المكان الذى يجلس فيه الأخ الأصغر من الأخ الأكبر ، مراعياً تقاليد الخلافة ، وتقاليد الأسرة العربية معا ، فسكت الهادى ، وأطرق إلى الأرض برأسه ، ونظر إلى هرون وهو مطرق وأدام فيه النظر بعض الوقت ، كأنه كان يستعد لحديث خطير ، أو كأنه كان يعجب من أن يكون هذا ولى عهده ، وغلامه جعفر موجود ؛ وبعد أن سكت ما شاء أن يسكت ، وأطرق برأسه ما شاء أن يطرق ، وأدمن النظر ما شاء أن يدمن — رفع رأسه ، والتفت إليه ، ثم قال : يا هرون ؛ كأنى بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا[1] ، وتؤمل ما أنت منه بعيد ، ودون ذلك خرط القتاد ، تؤمل الخلافة ؟ ؛

---

(١) الرؤيا التى وردت فى كلام الهادى هى أن المهدى قال : رأيت فى منامى كأنى دفعت إلى موسى قضيباً ، وإلى هارون قضيباً ، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلا ، فأما هرون فأورق قضيبه من أوله إلى آخره ، فدعا المهدى رجلا عبر له هذه الرؤيا بأنهما سيملكان جميعاً ؛ فأما موسى فستقل أيامه ، وأما هرون فيبلغ مدى ما عاش خليفة ، وتكون أيامه أحسن أيام ، ودهره أحسن دهر — الطبرى ج ١٠ .

فبرك هرون على ركبتيه ، وقال : يا موسى ؛ إنك إن تجبرت وضعت ، وإن تواضعت رُفعت ، وإن ظلمت خُذلت ؛ وإنى لأرجو أن يفضى الأمر إلىّ . فأنصف من ظلمت ، وأصل من قطعت ، وأصير أولادك أعلى من أولادى ، وأزوجهم من بناتى ، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدى .

هذا الحوار بين أخ وأخيه ، أو بين خليفة وولى عهده ، تعرف منه أن الخليفة محنق ، ضيق الصدر ، حاسد أخاه على ولاية العهد ، ينفسها عليه ، ويمتلئ قلبه من أجلها غلا وحقداً ؛ فما كاد يسمع الصغير حديث الكبير ، ويفهم ما وراءه من غل النفس ، وسوء القصد ؛ حتى أجاب بحزم شديد ، ورد إلى أخيه كيده ، فأفحمه ، وجعله يرجع ولو إلى حين عن غيه وضلاله ، فيقول له : ذلك الظن بك يا أبا جعفر . ثم يدنيه منه ويعانقه ، ويجلسه فى فى صدر المجلس معه ، ويأمر بأن تفتح له الخزائن ليحمل منها ما يريد ، حتى إذا هم بالانصراف ، أدنيت دابته من بساط الخليفة فركبها ، وانصرف .

فهل اقتنع الهادى بضرورة العدول عن رأيه فى ولاية العهد حينما صارحه هرون بالقول ، وأظهر أنه ليس من صالحه ، ولا من صالح ابنه ، ولا من صالح دينه — أن يغير الوضع الذى وضعه أبوه ، وقد بدت عليه أمارات الارتياح لكلام هرون ، والرضا به ؟ .

الحق أنه اقتنع ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا الاقتناع تحت تأثير العاطفة ، وتحت تاثير كلام العصبة التى حوله ، كما كان يفعل مع يحيى ، يقنعه يحيى ويتركه على نية ترك الأمور كما أوصى أبوه ، ثم لا يلبث أن يعدل كما قدمنا .

لذلك أخذ هرون يفكر فى الأمر تفكير الجد والاهتمام ، ويوازن بين أن يعيش هنيئاً رضى البال ، مطمئن الضمير ، يؤثر السلامة ، ويفضل الراحة ؛ وبين أن يثبت لأخيه ، ولا يتنازل عن حقه فى الخلافة ، ويصمد للعاصفة ، فإما أن ينجو منها ، وإما أن تعصف به .

هذه خواطر كانت تدور فى رأسه ، ويتأرجح بينها تفكيره ، فيلجأ إلى أمه الخيزران ، فترجح له جانب السلامة والدعة ، فيميل إلى التنازل ، وتطيب نفسه بالخلع ، ثم يذهب إلى يحيى مستشاره وأمينه ، ويقول له : أليس يترك لى الهنىء والمرىء ، فهما يسعاننى ، وأعيش مع ابنة عمى(١) ، أم جعفر ؟ ؛ وكان يجد بها وجداً شديداً ، ويحبها حباً لا يدعه يطيق فراقها ؛ فيغضب يحيى حينما يراه متخاذلا متهاوناً ، وينصح له ألا يفعل ويحول بينه وبين الموافقة ، لأنها الخلافة ، وأين من الخلافة أى شىء ، ولو كان أم جعفر؟ ! !

* * *

ألح الهادى فى الطلب ، وأمعن هرون فى الامتناع ، حتى تحرج الأمر بين الأخوين ، ولعل يحيى أحس أن الهادى يدبر له ولهرون ولأمه شيئاً خطيراً ، ظهرت بوادره فى أن أرسل إلى أمه الخيزران طعاماً قال إنه استطابه حين أكل منه ، فرأى ألا يمتع به نفسه من دون أمه ، فلما قدم إليها الطعام نصحت لها خالصة وصيفتها أو صديقتها — ألا تفعل ؛ فلا بد أن تمسك عن تناوله حتى تنظر فيه ، لأنها تخاف أن يكون فيه شىء تكرهه ؛ ثم جاءوا بكلب ، وقدموا إليه من الطعام ، فأكل منه ، فتهرأ لحمه ، وتساقط ، ثم مات ، ولم يسكت الهادى بعد هذا ، بل أرسل إليها يسألها : كيف وجدت التحفة التى أرسلتها إليك ؟ فقالت : وجدتها طيبة ، فقال : لِمَ تأكلى منها ؟! ولو أكلت لاسترحت منك ، متى أفلح خليفة له أم ؟ !

* * *

حيلة ليحيى :

الآن وضح الأمر ، وأصبح كل من الفريقين لا يدارى صاحبه ، ولا يواريه

(١) يعنى زوجته زبيدة بنت جعفر بن المنصور .

وصار كل منهما يعمل على التخلص من الآخر .

أما هرون فقد خشى عليه صاحباه : يحيى والخيزران ؛ أن يغتاله أخوه ، ولا سيما أنه لا بد خالعه من ولاية العهد ، أجابه أو لم يجبه ، وبدأ يشتد عليه ، ويضايقه ، ويراقب كل حركاته وسكناته ؛ فلم ير يحيى بدأ من أن يباعد بينهما بعض الوقت لعل الفرج يكون قريباً ؛ فأشار عليه أن يستأذنه فى الخروج إلى الصيد حتى إذا أذن له ، استبعد ، ودافع الأيام ، ففعل ذلك هرون ، وكتب إلى الهادى يستأذنه فى الخروج للصيد فأذن له فخرج ، وأبعد ، وأطال المدة ، حتى غضب الهادى لطول غيابه ، وأنكر عليه ذلك ، وأظهر غمه وألمه ، وكتب إليه يطلب منه أن يعود ، فتعلل عليه ، واعتذر إليه ، وكلما عاود الهادى الكتابة عاود هرون التعلل والاعتذار ؛ فدخله الشك ، وتفاقم بينهما الأمر ، وأطلق لسانه فيه ، وبسطه أمام قواده ومواليه ؛ كل ذلك كان يجرى أمام يحيى وعلى عينه ، فكان يكتب به إلى هرون ، فيمعن فى التعلل والاعتذار ، ويمعن فى المباعدة .

التخلص من الهادى :

اشتدت الأزمة بين الهادى وهرون ، وكان لا بد من إنهائها ، ولا يكون ذلك إلا بتخلص أحدهما من الآخر ففكرت الخيزران ، وفكر يحيى فى التخلص من الهادى ، وهان على الخيزران ذلك ، لأنه حاول سمها من قبل ، وهو على نية التخلص من هرون كذلك ، فلا بأس أن تتخلص هى منه لتنجو بحياتها أولا ، وحياة هرون ثانيا ، وإن كان ابنها ؛ لأنه عقها وبالغ فى العقوق ، وكرهها وبالغ فى الكره ، حتى حاول قتلها ، وليس بعد هذا شفاعة ، فليكن هو المقتول بدلا من أن يكون القاتل ، ودسوا عليه ما أصابته العلة بسببه فكانت القاضية .

ولما عرف ذلك رجاله ، رأوا أن يحتاطوا لأنفسهم ، وكانوا لا يخافون إلا

يحيى بن خالد ، فعزموا على قتله قبل أن يموت الهادى ، ولكن القدر كان أسبق منهم ، فإن الخيزران أرسلت إلى يحيى أن الهادى منته فدبر أمرك لهرون ، فكتب الكتب ، وعجل بها إلى العمال فى الولايات أن الهادى مات ، وأن الخليفة هرون ، وأنه يقرهم على ولايتهم . وكتب إلى هرون فعاد إلى بغداد ، وصح ما تنبأت به الخيزران ، وتحدثت به إلى خواصها ، وهو أنه سيموت فى هذه الليلة خليفة ويتولى خليفة ويولد خليفة ، ، فمات الهادى ، وملك هرون ، وولد المأمون ؛ فمن أين كانت للخيزران هذه النبوءة ؟ ؛

ويقولون ؛ إنها حينما بلغها وفاة الهادى قالت : وما أصنع به ؟ ، ولم تستطع أن تخفى سرورها ، أو تستر عاطفتها ، وصرحت بأنه إن كان مات موسى فقد بقى هرون ، ولكن وصيفتها خالصة عتبت عليها ، ونصحت لها أن تقوم إلى ابنها ، فليس هذا وقت تعتب ولا تغضب .

وإنه بموت الهادى أسدل الستار على رواية كان بطلها يحيى بن خالد ، وقد نجح فى تمثيلها أيما نجاح ، وانتهى إلى الغرض الذى رمى إليه ، بعد أن عرض حياته وحياة صديقه هرون لأخطار جسام ، وكانت نجاتهما مشكوكاً فيها(١) ولكن الأقدار تخفى بين طياتها ما لا يدور فى حسبان إنسان .

* * *

وأيا كان السبب الذى به مات الهادى ، وأيا كانت العلة التى اعتل بها ، إذا كانت هناك علة ، وأيا كانت الجريمة التى ارتكبها قاتلوه إن كان هناك قتل — فإن الهادى الخليفة مات ، ولا بد أن يقوم مقامه خليفة .

فمن هو الخليفة الجديد ؟ أهو جعفر بن الهادى ، الذى بايع له بولاية العهد عصبة أبيه ، وتجرءوا على الرشيد ، وصرحوا بذلك فى وجهه ؟ فإنه ركب

---

(١) يقولون : إن الهادى كان مبيتاً أن يقتل يحيى وهرون فى الليلة التى مات فيها .

يوماً هو وجعفر هذا ركوبتين ، ومرا فى طريق من طرق عيساباذ(١) حتى انتهى بهما الطريق إلى قنطرة ، لا يمران عليها إلا واحداً بعد واحد، أى متتالبين — هم رجل يقال له « أبو عصمة » وأخذ بلجام دابة هرون ، وزجره ، وقال له : مكانك ، حتى يجوز ولى العهد ، جعفر بن الهادى ، فقال هرون السمع والطاعة للأمير ، ووقف حتى جاز جعفر .

فهل يبقى هؤلاء الناس على ولائهم لجعفر بعد قتل أبيه ؟ ؛

إنهم لم يكونوا كذلك ، وظهر الضعف الخلقى المزرى الذى لا يختص به عصر دون عصر ، فإن أحد هؤلاء المتحمسين له فى عهد أبيه ، الذين كانوا يصفقون له ويهتفون باسمه ولياً للعهد — هو الذى هجم فى الليلة التى مات فيها الهادى على دار جعفر ، وأخذ جعفراً من فراشه ، وقال له : والله لأضربن عنقك أو تخلعها ؛ حتى إذا أصبح الصباح ، وذهب الناس إلى دار جعفر ، وجدوا الأبواب مغلقة ، ورأوا جعفراً يطل عليهم من أعلى الدار ، وينادى : يا معشر المسلمين ، من كانت لى فى عنقه بيعة ، فقد أحللته منها ، والخلافة لعمى هرون ، ولا حق لى فيها .

وهكذا خلع عنه الثوب من ألبسه الثوب ، ونزع عنه القلادة من طوقه بالقلادة ، ولم يبق حوله واحد ممن كانوا له زمن أبيه ، ولا ممن كانوا يدسون ليحيى بن خالد عنده ، لشرف موقفه ، ونبل مقصده فإنه ما كان غاشا ، ولا خادعاً ، يوم كان يقف وحده فى وجه الهادى ينصح له ألا ينقل ولاية العهد من هرون أخيه إلى جعفر ابنه ، مع أن هرون نفسه كان برم به وبرم بالخلافة ، وتمنى أن يخرج منها ، كما تمنت ذلك أمه ، لولا موقف يحيى ، وصلابته فى

---

(١) عيسا باذ : باذ كلمة فارسية معناها عمارة ، فتكون عيسا باذ معناها عمارة عيسى ، وهى محلة كانت بشرقى بغداد ، منسوبة إلى عيسى بن المهدى شقيق الهادى والرشيد ، وبنى بها المهدى قصره الذى سماه قصر السلام .

الحق ، وافق صاحبه أو لم يوافق .

انفض الناس ، إذن ، من حول جعفر ، حتى المتحرجون منهم والمتأثمون ، الذين أقسموا الأيمان المغلظة ألا يخلعوا هذه البيعة من أعناقهم ، وكل ما فعله هؤلاء : أنهم شاوروا الفقهاء فى أيمانهم ، فأفتاهم الفقهاء أنهم خارجون منها إلا المشى إلى بيت الله فليس فيه حيلة .

يحيى بعد موت الهادى :

أما يحيى فإنه لم يكد يعلم بموت الهادى ، حتى ذهب إلى هرون مسرعا(١) ، فوجده نائماً فى لحاف ، فأيقظه ، وقال له : قم يا أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : كم تروعنى إعجاباً منك بخلافتى ، وأنت تعلم حالى عند هذا الرجل « يعنى الهادى » فإن بلغه هذا فما تكون حالى ؟ ؛ فقال له يحيى : هذا الحرانى وزير موسى ، وهذا خاتمه . فلما سمع الرشيد هذا قعد فى فراشه ، ونظر فيما حوله ، فرأى يحيى جذلان فرحاً ، ورأى الحرانى فى يده الخاتم — فصدق أنه سيصبح خليفة المسلمين ، فقال ليحيى : أشر على ، فأشار عليه يحيى بما رآه ، وأصبح خليفة بفضل رجل أخلص له فى الشدة ، وعرض حياته للهلاك مرات ، ولكنه كان يؤمن بمبدأ ، فهو يدافع عنه ما قدر على الدفاع ، ويثبت عليه ما دام فى صدره نفس يتردد ، ولا يحفل بما يكون بعد هذا ؛ ولعل ذلك هو سر نجاحه برغم تردد هرون وأمه كثيرا ، واستعدادهما لخذلانه ، طلباً للسلامة ، وحرصاً على الحياة .

---

(١) ولا يمنع ذلك أن يحيى فى بعض الروايات كان محبوساً فى الوقت الذى مات فيه الهادى ، إذ من الجائز أن يكون خرج من السجن بمجرد علمه بذلك ، أو أنه كان يعلم ما يجرى ، حتى إذا أخبرته الخيزران بوفاته — خرج من السجن ، وذهب إلى هرون ، ولذلك كانت إجابة هرون له إجابة تدل على الدهش والاستغراب ، وعلى أنه ضاق بولاية العهد ذرعا ، وبرم بها ، فلا يشتهيها .

وكان على هرون أول ما يعمل ، أن يعرف ليحيي فضله ، وأن يضعه فى المكان الذى ينبغى أن يكون فيه من الخلافة ويتناسب مع إخلاصه وتضحيته وكفايته ؛ لذلك لم يكن عجباً منه أن يقلد يحيي الوزارة ، وأن يقول له : قد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، واقض الأمور على ما ترى . ثم دفع إليه خاتمه . فقال إبراهيم الموصلى :

أَلم ترَ أن الشمسَ كانت سَقِيمةً ... فلما ولى هرونُ أشرق نورها

بِيُمْنِ أَمِينِ اللهِ هرونَ ذى الندى ... فهرونُ واليها ويحيى وزيرُها

وكان على هرون أيضاً أن يعرف لأمه الخيزران فضلها فى توليه الخلافة ، وفى استخلاصه من يد الهادى وقسوته ، فخولها حق النظر فى الأمور ، وصار يحيي يعرض عليها ، ويصدر عن رأيها ؛ فهى التى تنقض وتبرم ، وتحل وتعقد ، وتمضى وتحكم ؛ لأنها كانت تشاور فى الأمور كلها ، إلا أن مدتها لم تطل ، فقد ماتت سنة ١٧٣ ﻫ ، بعد أن مكنت ليحيي ، ودفع إليه هرون الخاتم ، فصارت له الوزارتان : وزارة الخاتم ، ووزارة التدبير .

فحزن الرشيد عليها حزناً شديداً ، وأبدى جزعه ولم يستره ، فقد رآه الناس وهو يلبس جبة ، ويشد وسطه بطيلسان خز أزرق ، ويسير فى جنازتها حافياً ، يعدو فى الطين متعلقاً بقائمة نعشها ، حتى إذا أتى مقابر قريش فى بغداد غسل رجليه ، ثم دعا بخف ، وصلى عليها ، ودخل قبرها ، وتمثل بقول الشاعر(١) :

وكنا كَنَدْمانَىْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً ... من الدهرِ حتى قيل لن يَتَصَدَّعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... لِطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معا

---

(١) والبيتان من قصيدة قالها متمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك بن نويرة .

ابن الربيع :

ويظهر أنها كانت قوية الشخصية ، وأن هرون كان لا يستطيع أن يطغى عليها ، وكذلك يحيى ، ولذلك كانت تقصى عن باب الخلافة كل من لا تحب أن يتصل بالخليفة ، ولو كان ذلك على غير رغبته ؛ فالخليفة مثلا كان يحب الفضل ابن الربيع ، و يقربه إليه ويحب أن يوليه عملا من الأعمال الكبيرة فى الدولة ، لكفايته وقدرته ، ولكن الخيزران كانت لا تحب ذلك ، ولا تريد أن يكون الأمر والنهى إلا لها ولمن يطيعها ، وينفذ رغبتها ، مثل يحيى بن خالد ؛ لهذا كانت تعارض فى أن يتولى ابن الربيع عملا أيا كان ، وكان الخليفة يسكت على مضض وحسرة حتى إذا ماتت دعا الرشيد ابن الربيع ، وقال له : وحق المهدى ، إنى لأهم لك بشىء من التولية وغيرها ، فتمنعنى أمى ، فأطيع أمرها ، فخذ الخاتم من يحيى .

وقد كان ابن الربيع حريصاً لبقاً ، فهو يعلم منزلة يحيى من الرشيد ، ويعلم تضحيته لأجل خلافة الرشيد ، ويعلم منزلة يحيى عند الخاصة والعامة ، فلا يمكن أن يكتب إليه بطلب الخاتم منه كما أمر أمير المؤمنين ، ولكن إن رأى هو أن يرسله إليه فعل . وعلى أى حال فقد بدأ يظهر من اليوم الذى ماتت فيه الخيزران منافس ليحيى قوى يجب على يحيى أن يحذره .

ومع ذلك فقد كان يحيى لا يوافقها على كل ما تريد ، فهو يراجعها أحياناً ، ويناقشها بعض رأيها ، ويحملها على أن تعدل عنه ، بماله من قوة الحجة ، وبما طبع عليه من سلامة التفكير ، والصلابة فى الحق ؛ ومن ذلك مثلا أنها آمرت بقتل كل من أسرع إلى خلع الرشيد من ولاية العهد ، والمبايعة لجعفر بن الهادى ، فرأى هو غير هذا الرأى ، لأن هؤلاء جماعة من وجوه القوم ، لكل منهم مقامه ومنزلته فى الدولة ، فإذا قتل غضب له ناس قلوا أو كثروا ، وقد يسبب

لهم ذلك أزمات هم فى غنى عنها ، وإن استرضاءهم بالعفو ، وتألف قلوبهم بالرضا ، أحب إليه ، وأنفع للدولة ، وأعود بالنفع على الخلافة ؛ ثم يدفعهم بعد ذلك للغزو فقد يخلصه الله منهم ، أو ينفعه بهم ؛ ولذلك قال لها حينما بدأته بهذا الرأى : أو خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : نرمى بهم فى نحور الأعداء ، فإن دفعوا عن أنفسهم ، كان لهم فى الدفع عنها شغل ، وإن أصابهم العدو كنت قد استرحت منهم . فأعجبها رأيه ، وأمرته بإنفاذه ، فأنفذه ، فتخلص من كثير منهم .

وبمثل هذا أيضاً استطاع أن يسترضى الخليفة على كثير منهم ؛ وممن رضى عنهم الخليفة على يد يحيى إبراهيم ابن ذكوان الحرانى ، فإنه كانت له يد فى عنق يحيى ، وذلك أن الهادى ليلة مات دعا بيحيى ، وأنبه على أن أفسد عليه أخاه ، وأمر بقتله ، فتوسط له إبراهيم الحرانى لدى الهادى حتى وهبه له فى هذه الليلة ، على آن يفعل به ما يشاء بعدها ، فما أصبح الهادى إلا ميتاً ، ونجا يحيى ، واتصلت حياته بسبب إبراهيم : فلما استخلف الرشيد أخذ كل منهما وضع صاحبه ؛ فإن الرشيد سخط على إبراهيم ، وحبسه ، وقبض على أمواله فأخذه يحيى عنده وحبسه فى داره ، ثم ما زال يتلطف إلى الرشيد ، حتى عفا عنه واستكتبه لبعض الولاة .

سار يحيى بعد ذلك فى الناس سيرة حسنة ، جعلته حبيباً إليهم ، قريباً من قلوبهم ، فعطف على اليتيم والمسكين ، وفتح الكتاتيب ليتعلم فيها هؤلاء بالمجان وعمل على نشر العلم ، وأحيا مجالس الشعر والأدب والمناظرة ، وسخا بالمال على السائلين وغير السائلين ، حتى صار كعبة القاصدين ، وقبلة المحتاجين[١] .

---

(١) سيأتى تفصيل ذلك بعد .

موقف يحيى من بيعة الأمين :

ومن العجب أن الرأى الذى كان يحاربه يحيى زمن الهادى صار يسعى إليه هو وأولاده زمن الرشيد ، فقد ذكرنا من قبل أنه كان يعارض فى جعل ولاية العهد لجعفر معارضة شديدة ، وكان يعرض نفسه للتلف ، وما كانت له حجة فى المعارضة ، إلا أن جعفراً غلام صغير ، فلو بايع له الناس بولاية العهد ، ثم مات أبوه مُعجلا ؛ فإن هذا يجعل بعض الناس يثبون إلى الخلافة من غير حق ، ويطمع فيها من ليس ذا مطمع من قبل ، وقد سبق تفصيل موقفه هذا . ثم هو بعد ذلك ينسى هذا ؛ أو يتناساه ، ولم يمض عليه غير خمس سنين ، ويقف يطالب بالبيعة لمحمد الأمين بولاية العهد ، وهو لا يزال طفلا لم يعد الخامسة من عمره ؛ فلم غير رأيه ؟ وصار عنده المانع بالأمس مقتضياً اليوم ؟ .

فهل هناك فرق فى الحداثة ؟

أو هو تغيير فى السياسة ، وتلوينها باللون الذى يميل إليه ؟

أو هو يبايع للأمين ، ويضمن للرشيد عمراً طويلا ، وخلافة مديدة ، لا تنقضى حتى يبلغ الأمين مبلغ الرجال ؟

أو هو ابنه الفضل أثر عليه ، وأحرجه ، وجعله أمام وضع لا خلاص له منه ، ولا يستطيع أن يعارض فيه ، فسكت على مضض ؟

لأنهم قالوا : إن عيسى بن جعفر بن المنصور صار إلى الفضل بن يحيى ، قال له : أنشدك الله أن تعمل فى البيعة لابن أختى — يعنى الأمين ، لأنه ابن زبيدة بنت جعفر بن المنصور — فإنه ولد لك ، وخلافته لك ؛ فوعده أن يفعل ؛ وتوجه الفضل على ذلك ، وقد شجعه عليه أن جماعة من بنى العباس قد مدوا أعناقهم إلى الخلافة بعد الرشيد ، لأنه ليس له ولى عهد ؛ فأراد الفضل أن يسر

الرشيد بشيء يفجؤه به ، فذهب إلى خراسان والياً عليها ، وفرق فى أهلها مالا عظيما ، ومنح الجند أعطيات متتابعات ، فالتف الناس حوله جنداً وشعباً وأحبوه وأطاعوه فى كل ما أمر به ، حتى إذا استمكن منهم ، أظهر البيعة لمحمد الأمين ، فبايع الناس له ، ثم أنهى الخبر إلى الرشيد ، فكتب إلى الآفاق ، فبويع له فى جميع الأمصار .

وسواء أعجبت هذه السياسة الرشيد أم لم تعجبه ، فإنها أعجبت يحيى حتما ؛ لأن ابنه الفضل لا يستطيع أن يفعل هذا من غير أن يتفقا عليه ، وقد اتفقا عليه استرضاء للرشيد ، أو استبعادا لمن طمعوا فى الخلافة ، وقد يكونون من الذين لا يحبونهم .

أما الرشيد فلعل هذا ما كان رأيه ، ولكنه أحرج ، إذ قد يرى أن يؤخر هذا إلى أن يشب ابنه ثم يبايع له حتى لا يتقول عليه الناس ؛ وقد يرى أن غير الأمين من أبنائه تبدو عليه سمات النجابة ، فهو أحق بها ، وأقدر على الاضطلاع بحملها ، وقد يرى غير هذا وذاك . ولذلك ينسبون إليه أنه قال :

لقد بان وَجْهُ الرأى لى غَيْرَ أننى غُلِبْت على الأمر الذى كان أحزما
وكيف يرُدّ الدَّرّ فى الضَّرع بعدما تَوَزَّعَ حتى صار نَهْبًا مُقَسَّما
أخافُ الْتواءَ الأمرِ بعد استوائه وأن يُنْقَضَ الأمرُ الذى كان أُبْرِما

أما الشعراء فقد وجدوا مجالا لطبلهم وزمرهم ، فذهبوا يهرعون إلى دار الخلافة يمدحون الفضل بن يحيى ، ويشيدون بفضله على الإسلام والمسلمين بأخذ البيعة للأمين وكان من هؤلاء الشعراء النمرى الذى قال :

أمست بِمَرْوٍ على التَّوفيق قد صَفَقت على يد الفضل أيدى العُجْم والعرب
ببيعةٍ لولىِّ العهدِ أحْكَمها بالنصحِ منه وبالإشْفاق والحدَب

قد وَكَدَّ الفضلُ عقداً لا انتِقاضَ له   لِمُصْطَفَى من بنى العباسِ منتخَب

ومنهم سَلْمٌ الخاسر الذى قال للرشيد :

قد وَفَّقَ اللهُ الخليفة إذ بَنى   بَيْتَ الخلافةِ للهِجان الأزهر

فهو الخليفةُ عن أبيه وجَدِّه   شَهِدا عليه بمَنْظَرٍ وبمَخْبَرِ

قد بايع الثَّقَلانِ فى مَهْدِ الهُدى   لمحمدِ بن زُبَيْدَةَ ابنةِ جَعْفَرِ

موقف يحيى من بيعة المأمون

ولم يمض على ذلك بضع سنين حتى فكر الرشيد مرة أخرى فى ولده الثانى عبد الله بن مراجل الباذ غيسية ، فمن يستشير ؟

إن المستشار يحيى بن خالد ؛ حدث الأصمعى قال : بينما أنا أساير الرشيد ذات ليلة ، إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ، فكان يقعد مرة ، ويضطجع مرة ، ويبكى ، ثم أنشأ يقول :

قَلِّدْ أمورَ عبادِ اللهِ ذا ثقةٍ   مُوَحَّدَ الرأى لا نَكْثٌ ولا بَرَمُ

واتركْ مقالةَ أقوامٍ ذوى خَطَلٍ   لا يفهمون إذا ما مَعْشَرٌ فهموا

فلما سمعت منه ذلك ، علمت أنه يريد أمراً عظيما ؛ ثم قال لمروان الخادم : علىّ بيحيى ، فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصية ، والإسلام جذع (١) ، والإيمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة ؛ قد أمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل ؛ فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر ، وكان من خيرة ما قد علمت ؛ وإن أبا بكر صير الأمر إلى عمر ، فسلمت الأمة له ، ورضيت بخلافته ؛ ثم صيرها عمر

(١) جذع : حديث المولد .

شورى ، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن ، حتى صارت إلى غير أهلها ؛ وقد عنيتُ بتصحيح هذا العهد ، وتصييره إلى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ؛ وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم ، وفيه ما فيه من الانقياد إلى هواه ، والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء فى رأيه ؛ وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصيل الرأى ، الموثوق به فى الأمر العظيم ؛ فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم ، وإن أفردت محمداً بالأمر ، لم آمن تخليطه على الرعية ؛ فأشر فى هذا الأمر شورى يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك الرأى ، لطيف النظر ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن كل زلة مستقالة ، وكل رأى يتلافى ، خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا .

قال الأصمعى : فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة ، فأمرنى بالتنحى ، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلا منهما ، فما زالا فى مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل ، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد .

ويظهر أن الفضل بن يحيى كان قد ورط الرشيد حين أخذ البيعة للأمين بخراسان ، وجعله يضطر إلى الكتابة إلى الولاة فى الأقاليم لأخذها وإتمامها ، وكان الأمين طفلا فى الخامسة من عمره ، وإن كان ذلك يسر أمه زبيدة بنت جعفر ، فلما شدا وبدأ يدرك الحياة ، ويميز بين الضار والنافع ، رأى أبوه قصر مواهبه ، وأنه لا يستطيع أن يضطلع بأعباء الخلافة ، وخشى أن يطغى عليه أخواله من بنى هاشم ، ووجد فى ابنه عبد الله صفات تهيئه للخلافة ، وتقدره على حمل عبئها .

وليس هذا مقام المفاضلة بين الأخوين : أيهما أحق بالخلافة ؟ ، وإنما

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ .

نريد أن نقول : إن يحيى بن خالد رأى الرشيد يفعل ما كان ينهى عنه الهادى ، فهو على الأقل وافقه إن لم يكن ساعده ؛ ولم أجد أحداً من كبار المؤرخين القدماء علق على هذا إلا ابن الأثير ، فيما أعلم ، فإنه قال فى حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة : فى هذه السنة بايع الرشيد لعبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين ، وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همذان ، ولقبه المأمون وسلمه إلى جعفر بن يحيى . وهذا من العجائب ، فإن الرشيد قد رأى ما صنع أبوه وجده المنصور بعيسى بن موسى حين خلع نفسه من ولاية العهد ، وما صنع أخوه الهادى ليخلعه نفسه من العهد ، فلو لم يعاجله الموت لخلعه . ثم هو يبايع للمأمون بعد الأمين ، وحبك الشيء يعمى ويصم[1] .

ولعل الرشيد رأى قلق الناس ، وأن القالة شاعت فيهم من جراء هذا التدبير ، فأراد أن يوثق عليهم البيعة ؛ بأن يجعلها ديناً فى أعناقهم ؛ فحج بالناس سنة ست وثمانين ومائة ، وأخرج معه إلى الحجاز ابنيه : محمدا الأمين ، وعبد الله المأمون ، وليى عهده ؛ ومر فى طريقه بالمدينة ، وأعطى أهلها ثلاث أعطيات ، أولها قدمه هو ، وثانيها قدمه الأمين ، وثالثها قدمه المأمون ؛ ولما وصل إلى مكة فرق فى أهلها مالا جزيلا ، يقولون : إنه كان أكثر من مليون دينار .

ولكل ولد من أولاد الخليفة شيعة ، يلتفون حوله ، ويدورون به ، ويغرون الخليفة به ؛ فللأمين شيعة ، وللمأمون شيعة ، وللقاسم شيعة ؛ فإذا كان الرشيد أخذ البيعة للأمين والمأمون بولاية العهد متعاقبين ، فلم لا يكون القاسم ولى عهد من بعدهما أيضاً ؟ والقاسم فى حجر عبد الملك بن صالح ، لهذا تقدم إلى الرشيد ، وكتب إليه :

يأيها المَلِكُ الذى لو كان نجْما كان سَعْدا

---

(١) ابن الأثير ج ٦ .

اعقِدْ لقاسمَ بيْعة واقدَح لها فى المُلكْ زَنْدا
اللهُ فَرْدٌ واحِدٌ فاجعَلْ وُلاةَ العهدِ فَرْدا

وهذا الشعر على غثاثته ، فيه حض للرشيد على البيعة للقاسم ، فبايع له ، وسماه المؤتمن . فقال عبد الملك بن صالح :

حُبُّ الخليفةِ حبٌّ لايَدينُ به من البَرِيَّة عاصٍ يعمل الْفتنا
اللهُ قَلَّدَ هروناً سِياستَنا لما اصطفاهُ فأَحْيا الدِّينَ والسُّنَنا
وقَلَّدَ الأرضَ هرونٌ لرأفتِه بنا أمينا ومأمونا ومؤتمنا

قلق الرشيد على البيعة :

والرشيد كان يقدر أن عاقبة ما تؤول إليه الخلافة خسر غالباً ، ولكن عاطفة الأبوة جعلته لا يفكر فى هذه العاقبة ، فاحتال على الناس بما أوثق به البيعة من العهود ، واحتال على أبنائه أن يجعلهم أوفياء بعضهم لبعض ، فكتب للمأمون كتابين ، أحدهما على الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولى عبد الله من الأعمال وصير إليه من الضياع والغلات والجواهر والأموال ؛ والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة ، والشروط لعبد الله على محمد وعليهم ؛ وجعل الكتابين فى الكعبة توثيقاً للعمل بهما ؛ وأخذ على الأمين العهود والمواثيق فى بيت الله ، وأمام مجلس عام من القواد والوزراء والقضاة ، ومن أولاده وأهله وخاصته ومواليه وكتابه وغيرهم — أن ينفذ ما جاء فى العهدين .

هذا التصرف من هرون أثار الشبه والشكوك ، وجعل الناس يتكلمون بالحق وبالباطل فى الخلافة والخليفة وفيما صارت إليه ، وفى سوء سياسة الخلافة بضرورة تشبثهم بأن يكون أولياء العهود من بعدهم أولادهم أيا كانت صفاتهم وأخلاقهم

وأعمارهم ، فهم لا يهمهم صالح الدين ، ولا صالح الدولة ؛ وإنما يهمهم أن تكون الخلافة وراثة فى أعقابهم ، أيا كان هؤلاء الأعقاب ، وكان فى ذلك جناية شنيعة على الدولة عجلت بها .

نظرة فى نظام البيعة :

وإن هذه السياسة الحمقاء بذر بذورها فى الملة الإسلامية معاوية بن أبى سفيان حين أخذ البيعة لابنه يزيد ، ثم يزيد حين أخذ البيعة لابنه معاوية ؛ أما معاوية بن يزيد فإنه رفض أن يعهد بها إلى أحد ، وقد لامه الناس على ذلك ، وعنفته أمه ، فأبى وأصر على الإباء ، وقد كان ذلك منه خروجاً على تقليد وضعه جده وأبوه ، إلا أنه تطرف إذ لم يعهد ؛ لأن العهد ليس حتماً أن يكون فى الولد ، ولكن يجب أن يكون للأصلح ، ولهذا كان تطرفه سبباً فى خلاف شديد بين أحزاب المسلمين ، عانت فيه الدولة ما عانت من حروب جرت عليهم وبالا شديداً ؛ وعلى أى حال وثب إليها من بنى أمية أصلحهم لها ، وإن لم يرضوا جميعاً عنه ؛ وهو مروان بن الحكم الذى وثب إليها بالسيف كرها ؛ وقد بايع مروان من بعده لخالد بن يزيد ، ثم لعمرو بن سعيد بن خالد ، ولكنه لم يلبث أن غير إلى ابنيه عبد الملك فعبد العزيز ، ولما تولى عبد الملك جعلها لابنيه الوليد وسليمان ، وكان على نية خلع أخيه عبد العزيز لولا موته[1] ؛ فلما تولى الوليد احترم عهد أبيه ، ولم يبايع لأحد من ولده[2] ، فتولى بعده أخوه سليمان ، وأبى سليمان أن يجعلها فى ابنه لحداثته وعهد بها إلى عمر بن عبد العزيز ، رغم أن ذلك يخرجها من بنى مروان مدة ، لأنه جعلها من بعد عمر ليزيد بن

(١) ابن خلدون جـ ٣ .

(٢) مروج الذهب جـ ٣ .

عبد الملك ، فلما تولى يزيد جعلها فى هشام أخيه أولا ، ثم فى ابنه الوليد من بعده ، ولم يجعلها فى ابنه أولا لأنه كان صغيراً ، فسارت على توجيهه ، ولما تولى الوليد أساء السيرة ، وأراد أن يجعلها فى ولديه ، فخرج عليه الناس ، وأنكروا منه ذلك ، وقتله يزيد بن عبد الملك ، وتولى هو الخلافة من بعده ، ولم يطل وقته ، ثم وثب عليها مروان بن محمد .

فلما تولى السفاح العباسى الخلافة ، جعل البيعة من بعده لأخيه المنصور ، ثم لابن أخيه عيسى بن موسى فلما تولى المنصور ، أراد أن يقدم ابنه المهدى على عيسى ، فاعتل عليه عيسى بالأيمان التى عليه وعلى المسلمين ، وأبى من بعد ذلك ، فتغير له المنصور ، وباعده ، وغير مرتبته ، فلم يلبث عيسى أن رضى بتقديم المهدى عليه ، فلما جاء المهدى خلع عيسى ، وعهد للهادى ، ثم عهد للرشيد[1] .

* * *

مناقشة هذا النظام :

بعد استقراء هذه السلسلة من البيعات ، نرى أن أكثر الخلفاء لم يراعوا صالح الدين والدولة كما قلنا ، وقلما تجد منهم الحاكم الذى لم تستهوه شهوة الحكم ، ولم تغلب عليه نزوة السلطان ، فأخرج منها أخاً أو عماً أو ابن عم ، من أجل طفل غرير فى مهده ، أو يكاد يكون فى مهده .

وإذا بحثنا فيما وراء الظاهر من هذه الأمور – استطعنا أن نلتمس للخلفاء العذر كله أو بعضه ، واستطعنا أن نلوم خاصتهم الذين ينادمونهم ، ويسامرونهم ، ويلزمونهم فى مجالسهم الخاصة والعامة ، وإن كان ذلك لا ينجى أصحاب السلطان من بعض اللوم فى أكثر الأحيان ؛ وقديماً قالوا : ليس من

(١) الوزراء العباسيون جـ ١ ص ١٠ ، ص ١٧٢ .

أخلاق الملك أن يدنى من عظم قدره ، واتسع علمه ، وطاب مركبه ، أو ظهرت أمانته ، أو كملت آدابه(١) ، وهذا صحيح ؛ لأن أهل العقل والحلم والعلم والوفاء من الناس ، لا يطلبون أبواب الخلفاء ، ولا يقفون عليها ، يمنعهم من ذلك شرفهم ، وكرامتهم ، وماء وجوههم ، ومنزلتهم فى الناس ، إلا أن الخلفاء لا يستغنون عن بعض هؤلاء ، فهم يحتاجون إلى قليل منهم : يحتاج الخليفة ، أو صاحب السلطان أيا كان ، إلى الطبيب للعلاج ، فيتخيرون له أمهر الأطباء وأبرعهم ، ويحتاج إلى الفقيه ليفتيه فى مسائل الدين ، فيختار له أعلم الفقهاء وأحكمهم ؛ ومثل هؤلاء يضطر الخلفاء إليهم اضطراراً ، ولذلك لم يقعوا منهم موقع الأصدقاء والسمار والندماء ، وإنما هم معارف ضرورة ، ألجأت إليهم الحاجة ، وقد تنتهى معرفتهم بانتهاء مهمتهم التى استحضروا لها ، أما المقربون من السلطان ، والملازمون له ، فهم الذين يدورون حوله ، ويتعلقون به ، ويتملقونه ، يدورون معه حيثما يدور ، وكيفما يدور ؛ يلمحون فى نظرته أو بسمته أو عبسته أو إشارته أو حركته ما يريده ، فيسارعون إليه من غير تفكير ولا ترو ولا نظر فى العواقب ، وليس همهم إلا أن السلطان يريد ، أو قدر أنه يريد ، فلا بد أن يجاب ؛ وليس كل الناس يرضون لأنفسهم أن يكونوا فى هذا الموضع الذى على ما به محفوف المخاطر ، فلا يسعى إليه الأبيون ؛ ولذلك قال صاحب كليلة ودمنة : إن الملك مثل الكرم لا يتعلق بأكرم الشجر ، إنما يتعلق بما دنا منه(٢) .

وإذا سلمنا أن هذا الصنف من الناس هو الذى يتصل بالخلفاء — فإنه لا يدع فرصة يتقرب بها إلى الخليفة حتى ينتهزها ، ولعل أسعد هذه الفرص ، أن يزين للخليفة جعل ابنه ولى عهده ، ولو كان فى ذلك حنث فى يمين ، أو

---

(١) التاج ص ١٣٧ .

(٢) كليلة ودمنة ص ٥٧ من طبعة الأب لويس شيخو اليسوعى سنة ١٩٠٥ م .

نقض لعهد ، أو إغضاب للناس كلهم أو بعضهم ، أو قطع للرحم ، أو عقوق لأبوة أو أمومة ، أو غير ذلك مما يعتبر خطيراً فى نظر الناس ، ويعتبر هيناً فى نظر الخليفة وأصحابه بجانب ما يريدون .

فهل نلتمس للخلفاء عذراً فى تورطهم هذا ، لأن جلساءهم أتوهم من الناحية الضعيفة التى لا يقوون أمامها على الدفاع عن الدولة أو الملة ؟

إنهم لا عذر لهم ، وإن قليلا منهم رفضوا أن ينساقوا فى تيار العاطفة ، ومنعوا أنفسهم من متابعة كلام هؤلاء الناس ؛ فمعاوية بن يزيد بن معاوية رفض أن يأخذ البيعة بولاية العهد لابنه كما قدمنا رغم إلحاح الأصدقاء ، وغضب الأم ، وتعنيفها إياه ؛ والوليد بن عبد الملك لم يغير عهد أبيه ، وسليمان ابن عبد الملك أبى أن يعهد لابنه لحداثته ، وأخرجها من أولاده جميعاً ؛ فخلفاء بنى أمية رغم ابتداعهم لهذا اللون من المبايعات لولاة العهود ، كان بعضهم يتحرج بعض التحرج لصغر سن ابنه مثلا ؛ أو لوجود عهد من أبيه ، لا يجعلها فى ابنه أو فى أخيه أو فى غيرهما ، وقد ظهرت المسألة فى صورة بشعة زمن العباسيين ، وقد بدأها المنصور بإرغام عيسى بن موسى على تقديم المهدى ، ثم أرغمه المهدى على التنازل للهادى ثم للرشيد ، حتى إذا جاء الهادى حاول أن يجعلها فى ابنه جعفر ، وشغل نفسه وأصدقاءه ومستشاريه بها وقتاً ، على النحو الذى قدمناه فى صدر هذا البحث ، أما الرشيد فإنه بالغ فيها أيما مبالغة ، فبايع للأمين طفلا ، ثم للمأمون يافعاً ، ثم للقاسم من بعده .

مناقشة موقف يحيى من المبايعات :

فماذا كان موقف يحيى بن خالد من هذا كله ؟

أما موقفه من الهادى حين كان يريد أن ينزعها من عنق الرشيد ليقلدها ابنه جعفراً فقد تحدثنا عنه ، وعرفنا أنه كان لا يوافق لأمور :

أولها صغر سن جعفر .

وثانيها فداحة الإخلاف ، ونقض العهد ، والخروج على المواثيق ، وهول العقوق .

وثالثها استبقاء الخلاف فى بنى هاشم ؛ لأنه إن فعل تطالت إليها الأعناق ، وتطلعت إليها أنظار كانت تتقطع دونها .

وكان يحيى مقتنعاً بما يقول اقتناعاً تمكن من نفسه تمكن الإيمان ، ونزل منها منزلة اليقين ، ألا ترى أنه كان لا يدع الهادى حين يناقشه فى هذا الأمر إلا مفحماً ، ساقط الحجة ، فيتخلص منه بالنظر فى الأمر على ضوء ما يقول ؟ وكان يضيق صدره ، ولا ينطلق لسانه ، وتهتز أعصابه ، تغيظاً على يحيى ، وحنقاً عليه ، فيأمر بحبسه . ونكاد نقول : إن يحيى كان لا يفعل هذا تعصباً لهرون ، وتحيزاً له ، وإنما كان يفعله مخلصاً للدولة ، حريصاً على سلامتها ، مشفقاً على وحدتها .

* * *

أما ما فعله هرون فقد كان حدثاً لم يسبق له نظير فى الدولة الإسلامية ، فقد بايع لأولاده الثلاثة بصورة عجيبة تسترعى النظر ؛ إذ زعم أن هذا رغبة الأمة نفسها ، وأنه لم يسعه إلا أن يجيبها إلى هذه الرغبة ، إذ كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين ، وعند ولاته وعماله بالولايات ، وعند عوام المسلمين « ما تولى الله من محمد وعبد الله ابنى أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أملت الأمة ، ومدت إليه أعناقها ، وقذف الله لهما فى قلوب العامة من المودة والمحبة ، والسكون إليهما ، والثقة بهما ، لعماد دينهم ، وقوام أمورهم ، وجمع ألفتهم ، وصلاح دهمائهم ، ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم — حتى ألقوا إليهما أزمتهم ، وأعطوهما بيعتهم ، وصفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلظة عليهم ؛ أراد الله فلم يكن له مرد ، وأمضاه فلم يقدر

AUC - LIBRARY

أحد من العباد على نقضه ، ولا إزالته ولا صرف له عن محبته ومشيئته ، وما سبق فى علمه منه » .

وإذ رأت الأمة ذلك ، فهو يعمل فكره ورأيه ونظره ، ورؤيته فيما فيه الإصلاح لهما ولجميع الرعية ، والجمع للكلمة ، واللم للشعث ، والدفع للشتات والفرقة ، والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق .

وبعد التفكير رأى أن يأخذ ولديه أو أولاده إلى مكة ، وأن يصحب معه من استطاع من أهله وقواده وقضاته ؛ ليأخذ عليهما الشروط التى تكفل لهما الوحدة ، وتضمن دوام المحبة ، وتوثق عرا التعاون ؛ فاستكتب محمداً بخط يده كتاباً شرط فيه شروطاً عجيبة ، لا تستقيم معها سياسة ، ولا تبقى وحدة ، ولا يدوم تعاون وائتلاف ؛ ولعل نفسه حدثته أنه يخشى أن تقع الفرقة بين الأخوين ، وأن البيعة لهما بولاية العهد ستكون مصدر شر لهما ، ووبال عليهما ، فحاول أن يستوثق لهما . بما شاء من المواثيق والأيمان ، ولكن المواثيق والأيمان ليس لها قيمة إذ لم تكن القلوب راضية ، والنفوس مطمئنة

ولعل نفسه حدثته أيضاً أن محمداً الأمين ،أخواله من بنى هاشم، فستكون له عصبية قوية فى الدولة يستطيع أن يقهر بها المأمون ، وأن يحولها إلى أولاده ، فجعله يكتب بخط يده : إن أمير المؤمنين ولى عبد الله المأمون العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين من بعده برضى منه وتسليم ، طائعاً غير مكره ، وجعله يعترف بأنه ولاه خراسان ، وثغورها وكورها ، وحربها وجندها ، وخراجها وطرزها وبريدها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشرها وعشورها ، وجميع أعمالها فى حياته ، ويقر أنها تبقى له كذلك بعد وفاته ، وطول أيام خلافة الأمين ، وأن يكون له أيضاً كل ما يقطعه أمير المؤمنين من قطيعة ، أو يجعل من عقدة أو ضيعة ، أو يبتاعه هو من مثل هذا ، وكل ما يكون له من مال أو حلى أو جوهر أو متاع أو كسوة أو منزل أو دواب ما قل منها وما كثر ، ثم عليه أن يقره على

خراسان ، ومن ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين وعسكره ؛ فلا يحول عنه قائداً ، ولا مقوداً ، ولا رجلا واحدا ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين ، ولا يبعث عليه ، ولا على أحد من عماله وولاة أموره بنداراً(١) ، ولا محاسباً ، ولا عاملا ، ولا يدخل عليه فى صغير ولا كبير من أمره ضرراً ، ولا يحول بينه وبين العمل برأيه فى ولايته كما يشاء ، ولا يعرض لأحد من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتابه وقواده وخدمه ومواليه وجنده — بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم فى أنفسهم ، ولا قراباتهم ، ولا مواليهم ولا أحد يتنسل منهم ، ولا فى دمائهم ، ولا فى أموالهم ، ولا فى ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ، ودوابهم ولا يحكم فى أمرهم هو ولا أحد من قضاته وعماله ، ومن كان منه بسبب ، وإنما مرد ذلك كله إلى عبد الله المأمون ؛ وإن نزع إليه أحد من الذين ضمهم أمير المؤمنين إلى الأمين ، أيا كانت مرتبته ، فعليه رده إليه صاغرا لينفذ فيه رأيه وأمره .

وأما إذا أراد الأمين خلع المأمون من ولاية العهد ، أو عزله عن ولاية خراسان زمن خلافته ، أو عزل أحد من قواده ، أو نقص أى شيء مما ولاه أمير المؤمنين ، وجعله له بأى وسيلة من الوسائل ، أو حيلة من الحيل — إذا أراد الأمين هذا كله ، أو بعضه ، فإن للمأمون أن يخلعه من الخلافة ، وأن يثب هو إلى الخلافة من دونه . وعلى جميع القواد أن يطيعوه ، وأن يدفعوا عنه ، ويحاربوا من يحاربه ، ويجاهدوا من يخالفه ، وينصروه ما دامت الحياة فى أبدانهم ، وهم جميعاً فى حل من طاعة الأمين ، وفى حل من بيعته ؛ وليس لأحد ، من كانوا ، أو حيث كانوا ، أن يقفوا فى وجه المأمون ، أو أن يتهموه فيما يقول ، فقوله الصدق .

وبعد أن شرط هذه الشروط كلها ، جعل للقاسم البيعة بعد المأمون ، فليس

---

(١) البندار : التاجر الذى يخزن سلعته للغلاء .

لهما معاً أن يصرفاها عنه حتى إذا وصل المأمون إلى الخلافة فهو فى حل من أن يقدم من يشاء من ولده وإخوته عليه ، على أن يكون له العهد بعد ذلك .

بعد ذلك أقسم على الناس ، أن يفوا بهذه العهود والمواثيق التى أخذها للمأمون على الأمين ، ثم بالعهود التى أخذها لهم جميعاً ، وجعل كل من غير أو بدل أو نكث أو خالف شيئاً من هذا بريئاً من ذمة الله ورسوله والمسلمين ، وجعل كل مال استفاده أو يستفيده لخمسين سنة صدقة على المساكين ، وجعل عليه أن يحج خمسين حجة ماشياً نذراً واجب الأداء ، وجعل كل مملوك له أو يملكه إلى خمسين سنة حراً ، وجعل كل امرأة له طالقاً البتة طلاق الحرج .

هذا ملخص ما كتبه الأمين بخط يده مشترطاً فيه على نفسه كما أمره أبوه .

* * *

أما المأمون فإنه كتب بيده كتاباً آخر ، لخص فى أوله كتاب الأمين ، ثم جعل عليه للأمين أن يسمع له ، وأن يطيعه ولا يعصيه ، وأن ينصحه ولا يغشه ، وأن يفى ببيعته وولايته ، وألا يغدر ولا ينكث ، وأن ينفذ كتبه وأموره ، وأن يحسن مؤازرته وجهاد عدوه فى خراسان وما وليه من البلدان ، وفى حدود الشروط التى شرطها على نفسه ؛ يفعل ذلك كله له ما دام قائماً عند شروطه التى قبلها على نفسه فى كتابه ، وإذا استعان به فى حرب أمده بجنده ، وأنفذ أمره ، وجعل له أن يبايع لولده من بعد المأمون إذا أراد ، إلا إذا ولى هرون أحداً من ولده بعد المأمون ، وقد سقط هذا الحق بأخذ البيعة للقاسم ، ثم أكد على نفسه الأيمان والمواثيق أن ينفذ ما على نفسه ، وإلا فهو برىء من الله ورسوله ودينه ، ولقبه كافراً مشركاً ، وكل امرأة له اليوم أو سيتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج ، وكل مملوك له اليوم ، أو يملكه إلى ثلاثين سنة حر ، وعليه الحج ثلاثين سنة ماشياً حافياً نذراً واجباً ، وكل مال له أو يملكه إلى ثلاثين سنة صدقة .

* * *

والرشيد بهذا يعمل على ما فيه الخير لهما ولجميع الأمة ، والقوة فى أمر الله وحقه ، وائتلاف أهوائهما وصلاح ذات بينهما ، وتحصينهما من كيد أعداء النعم ، فحملهما إلى بيت الله ، وكتب الشرط على كل منهما متضمناً أشد المواثيق والعهود ، وأغلظ الأيمان والتوكيد ، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهما ومودتهما وتواصلهما ومؤازرتهما وتكاتفهما على حسن النظر لأنفسهما ، ولرعية أمير المؤمنين التى استرعاهما ، والجماعة لدين الله وكتابه وسنن نبيه ، والجهاد لأعداء المسلمين من كانوا وحيث كانوا ، وأهل الأهواء الضالة المضلة .

ولما قدم بهما إلى مكة ، أظهرهما على رأيه فقبلاه ، وكتبا له فى بطن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما ، بمحضر ممن شهد الموسم من أهل بيت أمير المؤمنين وقواده وصحابته وقضاته وحجبة الكعبة وشهاداتهم عليهما — كتابين ، استودعهما الحجبة ، وأمر بتعليقهما فى داخل الكعبة ، ثم أمر قضاته أن يعلموا جميع من حضر الموسم ما شهدوا عليه ، وأن يفهموهم إياه ، ليؤدوه بعد عودتهم إلى أهليهم وإخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم ، ففعل القضاة ذلك ، وأبلغ كله إلى ولاة الأقاليم ، ليقرءوه على من قبلهم من المسلمين ، ويقوموا به بينهم ، ويثبتوه فى فى ديوانهم ، ثم يردوا على أمير المؤمنين بما يتم من ذلك .

نفسية هرون ومناقشة موقفه :

من هذا ترى أن هرون كان قلقاً ، وكان يعلم أنه يأتى أمراً عظيما ، وأن هذا الأمر يشبه بعض الشبه ما كان يريد أن يفعله الهادى معه ، ولافرق بينهما إلا أن الهادى كان يريد أن يفتات على ولاية العهد ، وهرون يريد أن ينشىء ولاية عهد غير موجودة ؛ فهو كان عليه أن يعين ولياً للعهد من بعده ، حتى

لا يتركها تثير بين المسلمين خلافاً قد يشتد ، وقد يثير حرباً شعواء ، وقد يبعث روح العصبية بين طوائف المسلمين ، فهى فى يد العباسيين ، ويريدون أن تبقى لهم ، وفى الوقت نفسه يريدها العلويون ، وقد صار العلويون كذلك شيعاً وأحزاباً ، كل حزب يرى فى الخلافة رأياً غير الذى يراه الآخر ؛ ويريدها كذلك الأمويون ؛ لأنهم يرون أنها كانت فيهم ، فلا بد أن تبقى فيهم ؛ ويريدها الخوارج تجرى على الوضع الذى يرونه فى الخلافة ، ومن يجب أن يتولاها من المسلمين . وهكذا لو تركها الرشيد بدون وصية لكانت موضع خلاف ، ومثار فرقة بين المسلمين ؛ ولكن الطريقة التى سار عليها فى ولاية العهد كانت غير سليمة ، فهو يوصى لغلمان من أولاده ، ويحس أنه يجترئ على المصلحة العامة للدولة ، ويدرك أن عمله هذا يغضب كثيراً من الناس ، ولهذا كان يحتاط لذلك أشد الاحتياط : فهو يذهب إلى الكعبة ، ويستكتب ابنيه الأمين والمأمون العهود ، ويملؤها بالأيمان الغليظة ، ويشهد عليها الناس ، عامتهم وخاصتهم ، ويأمر بتعليقها فى الكعبة مبالغة فى الحيطة والحذر ؛ ولقد كان خوفه من أبنائه بعضهم على بعض لا يقل عن خوفه عليهم من الناس ، ولذلك جعل لعبد الله المأمون على محمد الأمين حقوقاً كبيرة ، جعلته يستقل بخراسان استقلالا ذاتياً ، أو استقلالا داخلياً كما يقولون ، بل هو فى الواقع استقلال يكاد يكون تاماً ؛ فليس للأمين عليه أى سلطان إلا أن يستعين بجنده زمن الحرب ، فهى فى الواقع دولة فى داخل دولة ، وسلطان يشترك مع سلطان ، وهما بهذا ندان متكافئان ، لكل منهما دولة ، يرعى شعبها ، ويبسط عليها سلطانه ، لا يتدخل الآخر فى أى أمر من أموره ، وكل ما بينهما من فرق أن الأمين له لقب الخلافة ، وإمارة المؤمنين ؛ فإذا انقضت أيامه ، انتقل اللقب والإمارة من الأمين إلى المأمون ، وانتقلت معهما الدولة كلها ؛ ولقد كان أمراً قاسياً أن يجعل المأمون فى حل من الخروج على الأمين ، ونقض البيعة له ، ومحاربته ؛ إذا أخل بأى شرط من الشروط

المأخوذة عليه ، فكأن الرشيد كان يقدر كل هذا ، وكل ما قدره كان بعد وفاته .

* * *

موقف يحيي :

وبعد ، فأين يحيي بن خالد من هذا كله ؟ إن المراجع التاريخية لم تحدثنا حديثاً صريحاً عن موقفه ، كما حدثتنا عنه مع الهادى فى شأن الرشيد ، وأكثر ما تنسبه إليه نستطيع أن نستنبطه استنباطاً من سير الحوادث التاريخية المروية ، واتصالها بعضها ببعض .

أما رأيه فى بيعة الأمين ، فقد نستطيع أن نقول : إنه لم يكن ذا رأى فيها ، أو كان رأيه من وراء ستار لأن ابنه الفضل هو الذى أخذ له البيعة بولاية العهد فى خراسان ، ثم أرسل إلى الرشيد يخبره بذلك ، فأتمها الرشيد فى بقية المدن والأمصار كما قدمنا .

فهل كان هذا من الفضل تدبيرا من غير علم أبيه ؟

وهل كان أبوه يعلم ، ولكنه آثر الصمت ؟

وهل وافق الرشيد على المبايعة للأمين بعد أن ورطه الفضل ؟

وهل عارض يحيي الرشيد فى إتمام هذه البيعة ؟

كل هذه أسئلة تجرى فى نفس الباحث ، ولكنه لا يستطيع أن يجيب عنها إجابة تشفى ؛ وكل ما نرجحه أن يحيي سكت ، ولم يعارض الفضل ليدع له فرصة يستطيع أن يكسب بها مجداً عند الرشيد .

أما البيعة للمأمون بعد الأمين ؛ فقد سبق أن ذكرنا أن الرشيد استدعى يحيي ليشاوره فى هذا الأمر ، وأنهما ظلا فى خلوة يتناجيان فيها ، ويتناظران طول الليل ، ثم افترقا على أن يعقد الأمر للمأمون بعد الأمين .

ففيم كان التناظر ليلة كاملة ؟

لو أنهما كانا متفقين لما طلب يحيي الخلوة ، ولما استغرقت الاستشارة ذلك الوقت الطويل ؛ ولكنهما ظلا فى أخذ ورد ، حتى خرجا متفقين ؛ وأيا كان الخلاف بينهما ، وأيا كان موقف يحيي من حيث المعارضة أو الموافقة — فإن الأمر بينهما انتهى على الاتفاق ، ولو ظاهراً ، فلا يمكن أن يقف يحيي بعد ذلك أمام الناس موقف المعارض ، ولو كان فيما بينه وبين نفسه ، يعتقد أن الدولة مقدمة على حوادث كبار بسبب هذا الخلل والفساد فى نظام ولاية العهد .

ونقرأ بعد هذا أن الرشيد حينما خرج إلى الكعبة لاستكتاب ولديه الشرطين السابقين ، حمل معه فيمن حمل وزراءه ، وما كان له وزراء غير يحيي بن خالد وولديه الفضل وجعفر ، فلا بد أن يكونوا هم الوزراء ، الذين حضروا الحفل الذى أقيم بالكعبة ، ولا بد أن يكونوا بعض شهوده .

ونحن نرجح أن يحيي أبان للرشيد فى الخلوة التى تناظرا فيها ليلة طويلة ، ما عسى أن يكون لذلك النظام من الأثر السيئ بين الإخوة ، ثم ما عسى أن يكون له من الأثر السيئ أيضاً فى نفوس المسلمين ، وفى علاقتهم بعضهم ببعض ؛ وإذا صح هذا ، فقد صدق ظن يحيي ، وكان أن عقلاء الناس تشاءموا من هذا الأمر ، وتنبأوا بأنه لا بد أن يحدث بين المسلمين خلاف شديد، ولا بد أن يتعادى الإخوة تعادياً مرًّا ، وأن أباهم هو الذى هيأ لهم هذه الكئوس، وملأها لهم صاباً وعلقما ، وأنهم سيتجرعونها حتى ثمالتها .

فإنه لم يكد يجف ثراه حتى وقعت الفرقة ، واشتد الخلاف ، واشتعلت نار الحرب بين الأخوين ، وقدم لها الناس وقوداً من الدس والخيانة ، والغدر والحفيظة ، وإيغار الصدور — زادها اشتعالا .

ولقد فطن لذلك بعض الشعراء ، فنظموا الشعر ، وأرسلوه إلى الرشيد ، وتنكروا حتى لا يعرفوا ، ومنهم الشاعر الذى قال :

أَقُولُ لِغُمَّةٍ فى النَّفْسِ مِنِّى ... وَدَمْعُ العين يطَّرِدُ اطِّرَادا
خُذِى للهَوْلِ عُدَّتَهُ بحَزْمٍ ... سَتَلْقَىْ ما يُمَنِّعُكِ الرُّقادا(١)
فإنكِ إن بقيت رأيْتِ أمرًا ... يُطِيلُ لكِ الكآبة والسُّهادا
رأى الْمِلكُ المهذَّبُ شر رأى ... بِقِسْمَتِه الخلافةَ والبلادا
رأى ما لو تعقبَهُ بِعِلْمٍ ... لَبَيَّضَ من مفارقه السوادا
أراد به ليقْطَعَ عن بَنِيه ... خلافهُمُو ويَبْتَذِلوا الودادا
فقد غَرَسَ العداوة غير آلٍ ... وأورث شَمْلَ ألفتهم بِدَادا(٢)
وأَلْقَحَ بينهم حربا عَوانا ... وأسلس لاجتنابهم القيادا
فويلٌ للرعية عن قليلٍ ... لقد أهدى لها الكُرَبَ الشِّدادا
وألبسها بلاءً غير فان ... وألزمها التضَعْضُعَ والفسادا
ستجرى من دمائهمُ بحورٌ ... زواخرُ لا يرَوْن لها نَفَادا
فَوِزْرُ بَلائِهم أبداً عليه ... أَغَيًّا كان ذلك أم رشادا

فهذا شاعر حر الرأى ، بصير بالعواقب ، قدر ما سيكون ، فصح تقديره ، وكان كل ما تنبأ به : فقد كان الهول ، ووقعت الواقعة ، وتقاطع الإخوة ، ونبتت فى نفوسهم العداوة والبغضاء ، وتفرق شملهم ، واندلعت نيران الحرب بينهم ، واستحر القتال فى جنودهم ، وعانى الشعب من اختلافهم ما عانى ، فسالت الدماء ، وتعادى الأصدقاء ، وتخاذل النصراء .

فهل كان ذلك كله يخفى على فطنة يحيى بن خالد ؟ اللهم لا ، ولكنه كان

(١) منع بتشديد النون كمنع بتخفيفها .
(٢) غير آل : غير مصلح وسائس من : آل الملك رعيته إيالا : ساسهم ؛ وآل المال : أصلحه وساسه .

لا يستطيع أن يفعل ، ولا سيما أن الرشيد بدأت تهوم حوله حاشية مخوفة من ذوى العصبيات يجب أن يتنبه يحيى إليها ، وهذه الحاشية استعانت بالملق والرياء ؛ وكان منهم شعراء ينشدون الشعر ، يمجدون فيه كل تصرف للخليفة ، ولو كان ذلك التصرف مبايعته لأطفاله الثلاثة بولاية العهد ، ومن هؤلاء الشعراء إبراهيم الموصلى الذى قال فى بيعة الكعبة :

خيرُ الأمورِ مَغَبَّةً وأحقُّ أمرٍ بالتَّمام
أَمْرٌ قضى إحكامه الرَّ حمنُ فى البيت الحرام

ومنهم أبو العتاهية الذى أرسل إليه يمدحه :

وراعٍ يراعى الليلَ فى حفظ أمة يدافع عنها الشرَّ غيرَ رَقود
بألويةٍ ، جبريلُ يقدم أهلَها ورايات نَصْرٍ حولَها وبُنود
تجافَى عن الدنيا فأيقَن أنها مفارِقَةٌ ليست بدارِ خلود
وشَدَّ عُرَا الإسلام منه بِفِتْيَةٍ ثلاثة أمْلاك ولاة عهود
همُو خيرُ أولادٍ ، لهم خيرُ والدٍ له خيرُ آباء مضت وجُدود
بنو المصطفى هرونَ حَوْلَ سَرِيرِه فخيرُ قيامٍ حوله وقعود
تقلبُ ألحاظَ المهابة بينهم عيون ظباء فى قلوب أسود
جُدود همو شمسٌ أتَتْ فى أهِلَّةٍ تبَدَّت لراء فى نجوم سعود

فماذا كان يفعل يحيى وهو يرى أن جمهور الناس : سيوفهم وألسنتهم مع الرشيد ، وإن كانت قلوبهم عليه ألا ترى أنه خرج إلى الطواف بعد توكيد البيعة ، وجعل يتعلق بأستار الكعبة ، ويردد هذا الدعاء : اللهم إن ذنوبى

جمة لا يحصيها غيرك ، ولا يعرفها سواك ؛ اللهم إن كنت معاقبي فاجعل عقوبتي في هذه الدنيا ، وإن أحاط ذاك بسمعي وبصري ومالي وولدي حتى تبلغ مني رضاك .

فما هي الذنوب التي ارتكبها يحيى حتى فزعته وهالته ، وجعلته يدعو الله في أطيب بقعة ، وفي سر من الناس أن يؤاخذه بذنوبه ؟ ! لا شيء غير أخذ البيعة على الصورة التي قدمناها ، والسعي لها ، أو موافقته عليها ، أو سكوته عنها .

مناقشة رواية البيعة :

هذا الحديث كله على أن الكتب التي استكتبها الرشيد ولديه ، والتي أرسلها إلى العمال في الأقاليم لإعلام الناس بأمر البيعة صحيحة : ومع ذلك فإن من الجائز أن نشك في صحة الكتابين اللذين كتبهما الأمين والمأمون على نفسيهما ، ويكون لنا العذر كله أو بعضه في هذا الشك ، وذلك لأسباب :

منها : أن الكتابين صادران لناحية واحدة هي ناحية المأمون الذي صار حاكماً مستقلا ، لا ينقص عن الأمين إلا لقب الخلافة .

ومنها : أنه يجعل للمأمون على الأمين حق الخروج والخلع والحرب لأسباب قد تسيء إلى نظام الدولة .

ومنها : أن زبيدة أم الأمين ، أين كانت عند استكتاب ابنها هذه الشروط القاسية ، وهي زوج الرشيد القريبة إليه ، الحبيبة إلى قلبه ، التي كان يرى أن يتنازل عن ولاية العهد راضياً ؛ لأن له في ابنة عمه زبيدة عزاء عن الخلافة ؟

ومنها : أن أخوال الأمين من بني هاشم ، كانوا لايقبلون أن توجه هذه السهام المسمومة إلى ابن أختهم أو بنت عمهم بيده ؛ ومن صنع أبيه .

ومنها : أن الرشيد نفسه كان يقدر ما يترتب على مثل هذه الشروط من الخطورة ، فما كان يفعلها .

وكل ما نستطيع أن نقول إن الرشيد قبله من غير شك ، هو أخذه البيعة لولديه أو لأولاده الثلاثة ، على أى صورة من الصور ، وفى البيت الحرام ، ولم يكبل الأمين بهذه الأغلال من الشروط ؛ ولكن أنصار المأمون هم الذين وضعوا هذه الكتب ، ودسوها على الرشيد ؛ ليبرروا بها ما كان بين الأخوين من حرب انتهت بقتل الأمين على أبشع صورة ، كما تفصل كتب التاريخ ، ثم أشاعوا عن الأمين شائعات كثيرة ، وتقولوا عليه أقوالا ، ونسبوا إليه أفعالا لا يمكن أن تصدر إلا من شخص أبله ، فقد عقله وإيمانه ، وليس هذا موضع الخوض فى تحقيقها ، والحديث لنفيها أو إثباتها .

ثم ما شأن هذين العهدين ، يضطربان فى ولاية العهد للقاسم ، فكتاب الأمين يذكر فيه أن ولى العهد بعد الأمين والمأمون ، القاسم ابن أمير المؤمنين ، وليس لهما أن يخلعاه ، ولا أن يقدما عليه أحداً من أولادهما ، وقراباتهما ، ولا غيرهم من جميع البرية ، وبعد ذلك يجعل للمأمون حينما تصير إليه الخلافة أن يمضى ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو أن يصرف ذلك عنه إلى من يرى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله وتصيير القاسم بعد من يقدم عليه . وكتاب المأمون يذكر فيه أنه إن أراد الأمين أن يولى رجلا من ولده العهد والخلافة من بعده ، فذلك له ما وفى بما جعله أمير المؤمنين إليه ، واشترط عليه ؛ فهو يمنح فى كتاب المأمون ما منعه هو فى كتابه ، وكلا الكتابين من إملاء أبيهما فى وقت واحد ، وفى جلسة واحدة ، وأمام جمهور كبير من المسلمين ، فكيف يقع هذا الخلط والاضطراب فيهما ، فى مسألة خطيرة كهذه ؛ فكتاب الأمين يحرم عليهما معا العبث بالبيعة للقاسم ، ثم يبيحها للمأمون حينما تؤول إليه الخلافة وحده ، على أن يؤخر القاسم لا على أن يخلع ؛

وكتاب المأمون يحل للأمين ما حرم عليه كتابه ، ويجعله يغير فى نظام ولاية العهد بشرط الوفاء . والكتاب الذى أرسله هرون إلى العمال ، لم يتحدث مطلقاً عن المبايعة للقاسم ، ولم يتعرض لها جملة ولا تفصيلا .

هذه الكتب كلها لا يمكن أن تصدر عن الخلافة العاقلة الرشيدة ، وقد كان يحيي بن خالد إلى وقت المبايعة متمتعاً « إلى حد ما » بثقة الرشيد ، ورضاه عنه ، فلا أقل من أنه كان يعترض على نصوص هذه الكتب كلها أو بعضها ، وكان قادراً على أن يجعل الرشيد يعدل عن رأيه كله أو بعضه أيضاً بما كان معروفاً عنه من حرية الرأى ، والصراحة ، وقوة الحجة .

يحيي وأولاد يحيي فى معالجة المشاكل :

وقد كان ليحيي بن خالد وأولاده طرق خاصة فى معالجة الأمور ، وخاصة ما يتصل منها بالخروج على الخليفة ، والحروب التى تقع بين بعض المسلمين وبعض ؛ فإنهم كانوا يحاولون جهدهم أن يحلوا هذه المسائل بالحسنى ، فلا يتورطون فى حرب ، ولا يسفكون دماء ، ولا يدعون المسلمين يشهرون سيوف بعضهم فى وجوه بعض ؛ وهم الذين يحقنون الدماء ، ويستلون السخائم ، ويجعلون أمير المؤمنين يرضى عن أعدائه .

موقف الفضل من يحيي العلوى :

وكان من ذلك أن يحيي بن عبد الله بن حسن العلوى ظهر بالديلم[1] ، وقويت شوكته ، وخرج على الخليفة ، وأعد لحربه جنداً عظيما ، ونزع إليه كثير من الناس ، والتفوا حوله ؛ فلما علم الرشيد ذلك ، اغتم له ؛ وزاد قلقه أن نفوذه يزداد يوماً بعد يوم ، فلم ير بداً من أن يندب إليه من يحاربه ويهزمه ،

(١) الديلم : جيل من الناس ، سموا باسم الأرض التى كانوا يسكنون فيها .

ويرده هو ومن اتبعه إلى حظيرة الخلافة ؛ فندب إليه الفضل بن يحيى بن خالد ، وجهز له الجند ، وحمله الأموال : فخرج الفضل إليه ، وتبعته كتب الرشيد ، وألطافه ، وهداياه ، وخلعه ، وجوائزه ، تشجيعاً له ، واستحثاثاً لقواده وجنده ، فبدأ الفضل بالكتابة إلى يحيى ورفق به ، واستماله ، وناشده وحذره ، وأشار عليه ، وبسط أمله ؛ ولم يزل يواتر عليه كتبه حتى أجابه إلى الصلح ، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه ؛ فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد ، فلم يكد الرشيد يقرأ الكتاب حتى بلغ السرور منه مبلغاً عظيما ، وعظم وقع الخبر فى نفسه حتى إنه أسرع إلى إجابة الفضل إلى طلبه ، فاستدعى القضاة والفقهاء ، وجلة بنى هاشم ومشايخهم ، وكتب ليحيى الأمان أمامهم ، وأشهدهم على نفسه ، وأرسل معه جوائز وكرامات وهدايا ، وجه بها الفضل إلى يحيى ؛ ثم ما زال يتلطف به ، ويبره ، حتى حمله معه إلى بغداد ، وأنزله فى منزل أبيه يحيى بن خالد أياماً ، كان فيها موضع إجلال يحيى وإكرامه ، حتى لقد كان يقوم على خدمته بنفسه ، ولا يكل ذلك إلى غيره ؛ ثم قدمه الفضل وأبوه يحيى إلى الرشيد ، فلقيه أحسن لقاء ، وأمر له بمال كثير ، وأجرى له رزقاً من بيت مال المسلمين ، وأنزله منزلا سرياً ، وأمر الناس بزيارته والتسليم عليه .

لم ينكر الرشيد أن الفضل هو صاحب الفضل فى إنهاء مشكلة يحيى بن عبد الله العلوى ، وأنه كفاه مئونة حرب عوان كانت على وشك الوقوع بين جيشين من جيوش المسلمين ، لهذا أكرمه الرشيد إكراماً أى إكرام ، ومدحه الشعراء فأجازهم ؛ ومن ذلك قول مروان بن أبى حفصة :

ظَفِرْتَ فلا شلَّت يد برْمكية رتَقْت بها الفتْقَ الذى بين هاشم

على حين أعيا الراتِقِين التئامه فكفُّوا وقالوا ليس بالمتلائم

فأصبحتَ قد فازت يداك بخطَّةٍ — من المجد باقٍ ذكرُها فى المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزاً — لكم كلما ضمت قداح المساهم

وقال أبو ثمامة الخطيب :

للفضل يوم الطالقان وقبلَه — يومٌ أناخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللَّذَيْن تواليا — فى غزوتَيْن توالتا يومان
سدَّ الثغورَ ورد ألفة هاشم — بعد الشتات فشعبها متدان
عَصَمت حكومتُه جماعةَ هاشم — من أن يُجرَّد بينها سيفان
تلك الحكومةُ لا التى عن لبسها — عظم البنا وتفرق الحكَمان(١)

* * *

موسى بن يحيى بين النزارية واليمنية :

وفى السنة نفسها ، هاجت العصبية فى الشام بين النزارية واليمنية ، وقامت بين الفريقين فتنة عظيمة جردت فيها السيوف ، وسفكت الدماء ، وأوشكت أن تحدث بين المسلمين ثغرة لا تسد ، وبلاء لا يرد ، ولكن الخليفة أرسل إلى الشام موسى بن يحيى بن خالد ، وضم إليه جماعة من القواد والأجناد والكتاب ؛ وما زال موسى يتردد بين اليمنيين والنزاريين حتى أصلح بينهما ، وسكنت الفتنة ، واستقامت الأمور ؛ فكتب بذلك إلى الرشيد ، فكان سروره عظيما ، وقدم إلى بغداد شيوخ الثائرين من الفريقين ، ولقيهم الرشيد خير لقاء ، ورد أمرهم إلى يحيى ، فعفا عنهم ، ثم انصرفوا شاكرين مسرورين ، وأفاض الشعراء فى الحديث عن هذا الصلح ، وفضل القائمين به ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) يشير إلى الحكومة التى كانت بين على ومعاوية على يد أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص .

قد هاجتِ الشام هَيْجا　　يشيب رأسُ وَليده
فصَبَّ موسى عليها　　بِخَيْلِهِ وجنوده
فدانت الشام لما　　أتى بنَسْج وَحِيده
هو الجوادُ الذى ب ـ (م) ذ كل جود بجوده
أعداه جودُ أبيه　　يحيي وجودُ جدوده
فجاد موسى بنُ يحيي　　بطارفٍ وتليده
ونال موسى ذرا المجـ　　دِ وهْو حَشْوُ مُهوده
خصَصْتُهُ بمديحى　　منثوره وقصيده
من البرامك عُود　　له فأكرم بعوده
حَووا على الشعر طرا　　خفيفه ومديده

إلا أن هذه الفتنة لم تلبث أن هاجت مرة أخرى سنة ١٨٠ ﻫ ، وتفاقم أمرها ؛ فاغتم الرشيد لها اغتماماً شديداً ، وهاله أمرها ، وفزع منها ؛ فلم ير إلا أن يعقد لجعفر بن يحيي بن خالد على الشام ، فعقد له وشجعه ، وأثاره بقوله له : إما أن تخرج أنت ، و إما أن أخرج أنا . فقال جعفر : بل أقيك بنفسى يا أمير المؤمنين ؛ وشخص إليها فى جماعة من الأمراء والقواد والجند ؛ ولما وصل إليها أصلح بين المتخاصمين ، وقتل زواقيلهم (١) والمتلصصة فيهم ، وجمع منهم أسلحتهم ، وخيلهم ، فلم يدع بها رمحاً ولا سيفاً ولا فرساً إلا استلبه من صاحبه ، وبذلك انطفأت نار الفتنة ، وهدأ الرشيد ، وقرت عينه ، وقال منصور النمرى حين خروج جعفر إلى الشام :

---

(١) الزواقيل : اللصوص .

لقد أُوقدت بالشام نيرانُ فتنةٍ   فهذا أوانُ : الشامُ تُخْمَد نارُها
إذاجاشَ موجُ البحرمن آل برْمكٍ   عليها خَبَتْ شُهبَانها وشَرارُها
رماها أميرُ المؤمنين بجعفرٍ   وفيه تلافِى صدْعِها وانْجِبارُها
رماها بِمَيْمُونِ النَّقيبة ماجد   تراضَى به قَحْطَانُها ونزارها
تَدَلَّت عليهم صَخْرةٌ برمكيَّةٌ   دَموعٌ لِهامِ الناكثين انحدارها
غَدَوْت تُزَجِّى غابةً فى رءوسها   نجومُ الثريا والمنايا ثمارها
إذا خَفَقَتْ راياتُها وتَجرَّسَت   بهاالريح—هالَ السامعين انبِهارها
فقولوا لأهل الشام لا يَسْلُبَنَّكم   حِجاكم طويلاتُ المنى وقصارها
فإن أمير المؤمنين بنفسه   أتاكم ، وإلا نَفْسُه فَخِيارها (١)
هو الملِكُ المأمولُ للبرِّ والتُّقَى   وصَوْلاتُه لا يستطاع حِظارها
وزيرُ أميرِ المؤمنين وسيفُهُ   وصَعْدَتُه ، والحرب تُدْنَى شفارها
ومَن تُطْوَ أسرارُ الخليفة دونه   فعندك مأواها وأنت قرارها
وَفَيْتَ فلم تَغْدِرْ لقوم بذمَّةٍ   ولم تَدْنُ من حال ينالك عارها
طبيب بإحياء الأمور ، إذا التوت   من الدهرِ أعناقٌ فأنت جبارها
إذا ما ابنُ يحيي جعفرٌ قَصَدَت له   مُلِمات خَطْبٍ لم تَرُعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامةٌ   يُؤَمَّلُ جَدْواها ، ويُخْشَى دمارها
فَطُوبَى لأهل الشام يا وَيْلَ أُمها   أتاها حيَاها ، أو أتاها بَوارها

(١) وإلا نفسه فخيارها : أى وإن لم تكن نفسه أتت إليكم فقد جاء من اختاره ، وفعل الشرط محذوف .

فإن سالموا كانت غمامةُ نائلٍ وغَيْثٌ وإلا فالدماءُ قِطارها
أبوك أبو الأملاك يحيى بن خالد أخو الجود والنعمى الكبارُ صغارها
كأَيٍّ ترَى فى البرمكيين من ندًى ومن سابقاتٍ ما يُشَقُّ غُبارها
غدا بنجوم السَّعْدِ مَنْ حَلَّ رَحْلَه إليك ،وعَزَّتْ عُصْبَةٌ أنت جارها
عَذيرِ من الأقدار ، هل عَزَماتُها مُخَلِّفتى عن جعفر واقتسارها
فَعَيْنُ الأسَى مَطروفةٌ لِفِراقِه ونفسى إليه ما ينام ادِّ كارها

سياسة يحيى مع أهل إفريقية :

وفى سنة ١٧٨ هـ وثب أهل إفريقية بحاكمها ، وخلعوا السلطان ، ونزع الناس إليهم من النواحى ، فوجه إليهم يحيى بن خالد بن برمك بفطين بن موسى وغيره ، ثم أرسل الكتب إلى عبدويهِ زعيم الثائرين ورأسهم ، وما زال يواتر إليه بالترغيب فى الطاعة ، والتخويف للمعصية ، والإعذار إليه ، والإطماع والعِدَة — حتى قبل الأمان ، وعاد إلى الطاعة ، وقدم بغداد ، واستقبله يحيى ، وأنزله عنده ، ثم أقدمه للرشيد ، فأكرمه ، ووفى له بكل ما ضمن له وأحسن إليه ووصله .

* * *

من هذا وغيره ترى أن سياسة يحيى وأولاده مجانبة العنف ، وتأليف القلوب ، واستدناء المتباعدين وهى سياسة حكيمة رشيدة ، لا تُعَنِّى السلطان ، ولا ترهق القواد ، ولا تقلل الأجناد بإراقة الدماء ؛ فتحفظ على الدولة جهدها ورجالها ومالها ، ويهدأ بال السلطان ورجاله ، ويتفرغون للعمل لصالح الرعية ؛ ولا تجد شيئاً يستل السخائم من الصدور ، وينمى الود فى القلوب مِثل المسالمة ؛ وإن السيف يقهر الضعيف ، ويخضعه للقوى ، ولكنه لا يغير ما بين القلوب من

تنافر ، وما فى الصدور من غل وحقد ؛ لهذا كانت سياسة البرمكيين أجدى على الرعية .

وكانت سياستهم من هذه الناحية يمثلها الحديث الذى دار بين جعفر وبين عبد الملك بن صالح أثناء خروجه إلى الشام ، فإن عبد الملك كان قد خرج لتوديعه ، فلما ودعه قال له جعفر : اذكر حاجتك ، فقال له : حاجتى — أعز الله الأمير — أن تكون كما قال الشاعر :

وكونى على الواشين لدَّاء شَغْبَةً ... كما أنا للواشى أَلَدُّ شغوب

فقال جعفر : بل أكون كما قال الآخر :

وإذا الواشى أتى يسعى بها ... نفع الواشى بما جاء يضر[1]

* * *

الفضل بن يحيى :

والآن نخص الفضل بن يحيى ببعض الحديث ؛ فإنه كان له شأن أى شأن فى توجيه السياسة فى أيامه ، وكان عضداً للرشيد ، وعوناً لأبيه ؛ وقد قدمنا فى صدر هذا البحث أنه أخو الرشيد رضاعاً[2] ، ونستطيع أن نشك فى هذه الرواية بعض الشك ، لأن بعض الروايات تذكر أن الرشيد ولد بالرى لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ فى خلافة المنصور ، وولد الفضل لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٤٨ هـ وبهذا يكبر الرشيد الفضل بثلاث سنين وبضعة أيام ؛

---

(١) الجهشيارى ص ١٦٢ .

(٢) وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصه يمدح الفضل :

كفى لك فضلا أن أفضل حرة ... غذتك بثدى والخليفة واحد
لقد زنت يحيى فى المشاهد كلها ... كما زان يحيى خالداً فى المشاهد

والبرامكة يزعمون أن الرشيد ولد أول يوم من المحرم سنة ١٤٩ هـ فيكون بينه وبين الفضل سبعة أيام فقط ، ويجوز أنهم وضعوا هذا التاريخ هم أو أولياؤهم لحاجة فى نفوسهم ، وأيا كان الأمر فإنه نشأ مع الرشيد فى حجر واحد ، أو فى حجرين قريبين جداً ، فترعرعا معاً ، وشبا معاً ، وقاسى الرشيد ما قاسى زمن الهادى على مرأى ومسمع من الفضل ؛ فلما تمكن الأمر للرشيد ، وأسلم قياده ليحيى ، شاركه الفضل وتولى الوزارة مع أبيه وقبل أخيه جعفر .

وقد بدا للرشيد يوماً أن ينقل الوزارة من يد الفضل إلى يد جعفر ، ولكن الفضل أخوه ، ويجد فى الحديث إليه بهذا حرجاً — ولهذا كلم يحيى ، وطلب إليه أن يكفيه هذا الأمر لأنه يحتشم من الكتابة إليه فيه ، فكتب يحيى إلى الفضل :

قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك .

فكتب إليه الفضل :

قد سمعت مقالة أمير المؤمنين فى أخى ، وأطعت ، وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ، وما غربت عنى نعمة طلعت عليه .

فقال جعفر : لله أخى ، ما أنفس نفسه ، وأبين دلائل الفضل عليه ، وأقوى منة العقل فيه وأوفى فى البلاغة ذرعه .

والرشيد جعل ابنه محمداً الأمين فى حجر الفضل ، يتولاه ، ويقوم عليه ، ويرعاه ، ولعل هذا هو السر فى أن الفضل كان أكثر الناس اهتماماً بأخذ البيعة بولاية العهد للأمين كما قدمنا ، فإن الأمين تلميذه ، ويسره أن يضعه فى أحسن موضع ، وكان أخذه البيعة للأمين بخراسان بدء ظهوره على مسرح السياسة الإسلامية ، وولاه الرشيد جميع الأقاليم الشرقية (كور الجبال[١] ،

---

(١) كور الجبال : لم أعثر على الاسم ، ولعله محرف عن كور دجلة ، وهو اسم إذا أطلق أريد به أعمال البصرة ما بين ميسان إلى البحر .

وطبرستان ، ودنباوند ، وقوسى [1] ، وأرمينية [2] ، وأذربيجان [3]) ولما ظهر يحيى بن عبد الله العلوى جعله الفضل يعدل ويعتذر للرشيد على النحو الذى قدمناه ، فضم إليه خراسان سنة ١٧٧ هـ فلما ذهب إليها قيل : إنه تشاغل بالصيد ، وإدمان اللذات عن النظر فى أمور الرعية ، وقد أبلغ صاحب البريد ذلك فى كتاب إلى الرشيد ، فلما قرأ الرشيد الكتاب ، وكان يحيى جالساً معه ، قال له : يا أبت ؛ اقرأ هذا الكتاب ، واكتب إليه بما يردعه عن هذا .

فكتب يحيى على ظهر كتاب البريد : حفظك الله يا بنى ، وأمتع بك ، قد انتهى إلى أمير المؤمنين مما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر فى أمور الرعية — ما أنكره ، فعاود ما هو أزين بك ، فإنه من عاد إلى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به ، والسلام . وكتب فى أسفله الأبيات الآتية [4] :

انصَبْ نهاراً فى طِلاب العلا   واصبر على فَقْد لِقاء الحبيب
حتى إذا الليلُ أتى مُقْبلا   واستَتَرت فيه وجوهُ العيوب
فَكابِدِ الليلَ بما تشتهى   فإنما الليلُ نهارُ الأريب
كم مِن فتًى تحسَبه ناسكا   يستقبل الليلَ بأمرٍ عجيب

---

(١) قوسى : بالفتح ثم السكون وسين ثم ألف مقصورة ؛ بلد بالسراة ، وبه قتل عروة الهذلى أخو أبى خراش الهذلى ، ونجا ولده فقال القصيدة المشهورة التى منها :

حمدت إلهى بعد عروة إذ نجا   خراش وبعض الشر أهون من بعض

(٢) أرمينية : بكسر أوله وبفتح وسكون ثانيه وكسر الميم وياء ساكنة وكسر النون وياء خفيفة مفتوحة : اسم لإقليم واسع فى جهة الشمال والنسب إليه أرمنى .

(٣) أذربيجان : بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة وجيم ، وقيل غير ذلك : وهو إقليم واسع من مدنه تبريز ، تغلب عليه الجبال ، واسع الخيرات ، كثير الفواكه ، غزير المياه ، فتحه المسلمون زمن عمر بن الخطاب .

(٤) معجم الأدباء جـ ٢٠ .

أرخى عليه الليلُ أستارَه   فبات فى لهوٍ وعيشٍ خصيب
ولذَّةُ الأحمقِ مكشوفةٌ   يسعى بها كلُّ عدوّ رقيب

وكان الرشيد ينظر إلى ما يكتب يحيى ، فلما فرغ قال : بلغت يا أبت .

ويقولون : إن الكتاب لما ورد على الفضل أحسن السيرة بها ، وعمل أعمالا عظيمة، حببتهُ إلى الناس : فإنه بنى المساجد والرباطات ، وأزال سيرة الجور ، وأعفى المدينين لبيت المال من ديونهم ، ووصل الزوار والقواد والكتاب واتخذ بها جنداً من العجم ، وسماهم العباسية ، وأغزاهم بعض البلاد المجاورة ، وكان عددهم خمسمائة ألف جندى ، وقدم منهم بغداد عشرون ألفاً ، وسموا الكرنبية ، وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة الشاعر (١) :

ما الفضلُ إلا شهابٌ لا أُفولَ له   عند الحروب إذا ما تأفِل الشهب (٢)
حامٍ على مُلْك قومٍ عزَّ سَهْمُهُمُ   من الوراثةِ فى أيديهم سَبَب (٣)
أمست يدٌ لبنى ساقى الحجيجِ بها   كتائبٌ مالها فى غيرهم أرَب (٤)
كتائبٌ لبنى العبَّاس قد عَرَفت   ما ألَّف الفضلُ منها العُجْمُ والعرب
أثْبَتَّ خَمْسَ مئينٍ فى عِدادهمُ   مِن الألوف التى أحصت لك الكتب
يُقارِعُون عن القوم الذين همُ   أَوْلَى بِأحمَدَ فى الفرقان إذ نُسِبوا
إنَّ الجوادَ ابنَ يحيى الفضلَ لا وَرِقٌ   يَبْقَى على جود كفَّيه ولا ذهب (٥)

---

(١) طبرى ج ١٠ .

(٢) أفل النجم : كضرب ونصر وعلم — غاب . الشهب ج شهاب : النجوم اللوامع .

(٣) السبب : ما يتوصل به إلى غيره واعتلاق قرابه .

(٤) الكتائب : جمع كتيبة ، وهى الجيش أو جماعة الخيل إذا أغارت من المائة إلى الألف .

(٥) الورق : بسكون الراء وتثليث الواو ، وككتف وجبل : الدراهم المضروبة ، والجمع أوراق وورِاق .

ما مَرَّ يومٌ له مُذْ شُدَّ مِئْزَرُهُ   إلا تَموَّل أقوامٌ بما يَهَب
كم غايةٍ فى الندى والبأسِ أحرزها   لِلطَّالبين مـداها دونها تعب
يمطى اللُّهَى حين لا يُعْطِى الجوادُ ولا   يَنْبو إذا سلت الهندية القضب (١)
ولا الرضا — والرضا لله غايته —   إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
قد فاض عُرْفك حتى ما يُعَادله   غيث مغيث ولا بحر له حَدَب

ويقول إسحق بن إبراهيم الموصلى ، يمدحه :

لو كان بينى و بين الفضل معرفةٌ   فَضْلِ بن يحيى لَأَعْدَانى على الزمن
هو الفتى الماجـدُ الميمون طائرُه   والمشْترى الحمـد بالغالى من الثمن

وبعد أن أقام الفضل فى خراسان ما أقام ، عاد إلى بغداد ، وكانت أخباره تتواتر إلى الرشيد بحسن السيرة ، والعدل فى الرعية . فلما قدم منها ، خرج الرشيد يستقبله ، واستقبله معه بنو هاشم والقواد والكتاب والأشراف فوصل الناس ما وصلهم ، واجتمع له الشعراء ومدحوه بأمر الرشيد ، ومنهم مروان بن أبى حفصة الذى قال فيه :

حَمِدنا الذى أدَّى ابنُ يحيى فأصبحت   بِمَقْدَمِه تجرى لنـا الطيرُ أسعدا
وما هَجَعَتْ حتى رأته عُيُونُنا   وما زِلْن حتى آب بالدمع حُشَّدا
لقـد صَبَّحَتْنا خَيْلُه ورجالُه   بأروعَ بَذَّ الناس بأساً وسوددا
نَفَى عن خراسانَ العدوَّ كما نَفَى   ضُحَى الصبحِ جلبابَ الدُّجى فتعرَّدا
لقـد راع من أمسى بِمَرْوٍ مسيرُه   إلينـا وقالوا شَعْبُنا قـد تبدَّدا

(١) اللها : العطايا ، أو أفضلها ، أو أجزلها .

على حين ألقى ثقل كل ظلامة — وأطلق بالعفو الأسيرَ المقيَّدا
وأفشى بلا مَنٍّ مع العدل فيهم — أيادىَ عُرْف باقيات وعُوَّدا
فأذهب رَوْعاتِ المخاوفِ عنهمُ — وأصدرَ باغى الأمْنِ فيهمْ وأوْرَدا
وأجدى على الأيتام فيهم بعُرْفه — وفى البأس ألْفَوْه من النجم أبْعَدا
سما صاعداً بالفضل يحيى وخالدٌ — إلى كلِّ أمرٍ كان أسْنَى وأمْجدا
يلين لمن أعطى الخليفةَ طاعةً — ويَسْقِى دمَ العاصى الحسامَ المهنَّدا
أذَلَّت مع الشرك النفاق سيوفُه — وكانت لأهل الدِّين عزًّا مؤبدا
وشدَّ القوى مِن بَيْعة المصطفى الذى — على فضله عهد الخلافة قلدا
سمىِّ النبى الفاتح الخاتم الذى — به اللهُ أعطى كلَّ خير وسددا
أبحْتَ جبالَ الكابلِىِّ ولم تدَع — بهِنَّ لنيران الضَّلالَةِ مُوقدا
فأطْلَعْتها خيلا وَطِئْنَ جموعه — قتيلاً ومأسوراً وفلًّا مُشرَّدا
وعادت على ابن البرم نُعماك بَعْدما — تحَوَّبَ مخذولا يرى الموتَ مُفرَدا

وأراد الفضل أن يتزوج ابنة خاقان ملك الخزر ، فحملت إليه سنة ١٨٢ هـ ، ولكنها ماتت فى الطريق ، وقيل : إنها ماتت مسمومة أو مقتولة ، فهل كان زواج الفضل منها على غير رغبة أحد من أولى الأمر ، فأغروا بها من قتلها وهى فى طريقها إلى زوجها .

ولقد كان ذلك سبباً فى حنق أبيها على الإسلام والمسلمين ، واستعداده لمحاربتهم ، ثم خرج إليهم ، وأوقع بمن لقيه من المسلمين وأهل الذمة ، وسبى منهم خلقاً كثيراً ، ويقولون : إنه أتى أموراً كثيرة لم يسمع فى الإسلام بمثلها قبل هذا العهد ، ولكن الرشيد أرسل إليهم يزيد بن مزيد ، فانتقم للمسلمين ، وأصلح ما أفسده الخزر .

وكان فى الفضل بن يحيى كبر وتيه وعجب بنفسه . وكان أبوه يكره ذلك منه ؛ ويذكرون أنه حدث أن الفضل دخل على أبيه يوماً يتبختر فى مشيته ، والناس فى مجلسه ، فآلمه ذلك ، فقال : إن البخل والجهل مع التواضع أزين بالرجل من الكبر مع السخاء والعلم ، فيا لها حسنة غطت على عيبين عظيمين ، ويا لها سيئة غطت على حسنتين كبيرتين .

وقيل له[1] يوماً : ما أحسن كرمك لولا تيه فيك ! ! ، فقال : تعلمت الكرم والتيه من عمارة بن حمزة ؛ فقيل له : وكيف ذلك ؛ قال :

كان أبى عاملا على بعض كور بلاد فارس ؛ فانكسرت عليه جملة مستكثرة ، فحمل إلى بغداد ، وطولب بالمال فدفع جميع ما يملكه ، وبقيت عليه ثلاثة آلاف ألف درهم لا يعرف لها وجهاً ، والطلب عليه حثيث ، فبقى حائراً فى أمره ، وكانت بينه وبين عمارة بن حمزة منافرة ومواحشة ، لكنه علم أنه ما يقدر على مساعدته إلا هو ، فقال لى يوماً وأنا صبى : امض إلى عمارة ، وسلم عليه عنى ، وعرفه الضرورة التى قد صرنا إليها ، واطلب منه هذا المبلغ على سبيل القرض إلى أن يسهل الله تعالى بالميسرة .

فقلت له : أنت تعلم ما بينكما ، فكيف أمضى إلى عدوك بهذه الرسالة ، وأنا أعلم أنه لو قدر على إتلافك لأتلفك ؟

فقال : لا بد أن تمضى إليه لعل الله أن يسخره ، ويوقع فى قلبه الرحمة ! .

قال الفضل : فلم يمكننى معاودته ، وخرجت وأنا أقدم رجلا ، وأؤخر أخرى ، حتى أتيت داره واستأذنت فى الدخول عليه ، فأذن لى ، فلما دخلت وجدته فى صدر إيوانه متكئاً على مفارش وثيرة ، وقد غلف شعر رأسه ولحيته بالمسك ووجهه إلى الحائط ، وكان من شدة تيهه لا يقعد إلا كذلك .

قال الفضل : فوقفت أسفل الإيوان وسلمت عليه ، فلم يرد السلام ،

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ .

فسلمت عليه عن أبي ، وقصصت عليه القصة ؛ فسكت ساعة ، ثم قال : حتى ننظر ، فخرجت من عنده نادماً على نقل خطاى إليه ، وموقناً بالحرمان ، عاتباً على أبي كونه كلفني إذلال نفسي بما لا فائدة فيه ، وعزمت على ألا أعود إليه غيظاً منه .

فغبت عنه ساعة ثم جئته وقد سكن ما عندي ، فلما وصلت إلى الباب وجدت أبغالا محملة ، فقلت : ما هذه ؛ فقيل : إن عمارة قد سير المال ، فدخلت على أبي ، ولم أخبره بشيء مما جرى لي معه كي لا أكدر إحسانه عليه ، فكثنا قليلا ، وعاد أبي إلى الولاية ، وحصلت له أموال كثيرة ، فدفع إلى ذلك المبلغ ، وقال : تحمله إلى عمارة ، فجئت به ، ودخلت عليه ، فوجدته على الهيئة الأولى ، فسلمت عليه ، فلم يرد، فسلمت عليه عن أبي، وشكرت إحسانه ، وعرفته بوصول المال ،فقال لي : تحرّد(١) ، ويحك ! . أقسطاراً(٢) كنت لأبيك ؟ ، اخرج عني ، لا بارك الله فيك ، وهولك ، فخرجت ، ورددت المال إلى أبي ، وعجبنا من حاله ، فقال لي : يا بني ؛ والله ما تسمح نفسي لك بذلك ، ولكن ،خذ ألف ألف درهم ، واترك لأبيك ألفي ألف درهم .

* * *

جعفر بن يحيى :

أما جعفر بن يحيى فكان فيه من الصفات ما ليس في أخيه الفضل ، وبخاصة بلاغة القلم ، وفصاحة اللسان وسماحة الأخلاق ، والتواضع ؛ لذلك كان عظيم المحل ، جليل المنزلة عند الرشيد ، وكان في الموضع الذي لا يشاركه فيه ، ولا يدانيه أحد من العرب والعجم ، وكان من تلاميذ القاضي أبي يوسف ،

(١) الحرد : المبالغة في التأنى ، أو ما نسميه ثقلا .
(٢) القسطار : منتقد الدراهم أو ما نسميه الصراف .

درس عليه الفقه ، وأجاده ، وكان إذا ولى أناب ؛ لأن الرشيد لا يقدر على فراقه . ويظهر أنه كان له سميراً ومؤنساً ، وينسبون إليه أنه بلغه أن الرشيد مغموم ، لأن منجماً يهودياً زعم أنه يموت فى تلك السنة ، فاغتم لدنو أجله ، وتولى الحياة عنه ، فركب جعفر إلى الرشيد ، وكان اليهودى ما يزال قائماً بحضرته ، فقال لليهودى : أنت تزعم أن أمير المؤمنين يموت بعد كذا وكذا يوماً ، قال : نعم ، قال : وأنت كم بقى من عمرك ؟ قال : كذا ، وذكر سنيناً طويلة ؛ فقال جعفر للرشيد : اقتله الساعة حتى تعلم أنه كذاب فى تنجيمه لك ، كما كذب فى تنجيمه على نفسه ، فقتله الرشيد ، وذهب ما كان به من الغم ، وشكر جعفراً ، وصلب اليهودى ، فقال أشجع السلمى فى ذلك(١) :

سَلِ الراكبَ الموفى على الجذْعِ هل رأى ... لراكبه نجماً بَدا غيْرَ أعْوَرَ

ولو كان نجمٌ مُخْبِراً عن مَنِيَّةٍ ... لَأَخْبَرَه عن رأسه المُتَحَيِّرِ

يُعَرِّفُنا موتَ الإمامِ كأنّه ... يُعَرِّفُنَا أنباء كِسْرَى وقَيْصَرِ

أَتُخْبِرُ عن نَحْسٍ لغيرك شُؤْمُه ... ونَجْمُكَ بادى الشَّرِّ يا شَرَّ مُخْبِرِ

وقد ازداد تمكن جعفر عند الرشيد حتى غلب عليه ، ووصل من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى لقد بالغ من عرف ذلك فى الإخبار به ، وزعم أن الرشيد اتخذ ثوباً له زيقان ، فكان يلبسه هو وجعفر فى وقت واحد ، وهذا وإن كان لا يجرى على العقل جوازه ، فإنه يدل على عظيم صلة جعفر بالرشيد ، وعلى أن الرشيد لم يكن له صبر عنه ، حتى قال العامة ذلك ، وحتى استنبط المستشرقون أنه كانت بين الرشيد وجعفر صلة من يأتزران فى ثوب واحد .

وفى سنة ١٧٦ هـ ولى الرشيد جعفراً مصر ، فأناب عنه عمر بن مهران فى خبر طويل .

---

(١) ابن خلكان ج ١ .

وعند ما هاجت العصبية بالشام سنة ١٨٠ هـ عقد لجعفر بن يحيى عليها ، وأصلح بين أهلها على ما قدمنا ، فزاد إكرام الرشيد له ؛ وحينما عاد من الشام دخل على الرشيد ، وقبل يديه ورجليه ، ثم مثل بين يديه ، وقال :

الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى آنس وحشتى (١) ، وأجاب دعوتى ، ورحم تضرعى ، وأنسأ فى أجلى ، حتى أرانى وجه سيدى ، وأكرمنى بقربه ، وامتن على بتقبيل يده ، وردنى إلى خدمته ؛ فوالله إن كنت لأذكر غيبتى عنه ، ومخرجى ، والمقادير التى أزعجتنى ؛ فأعلم أنها كانت بمعاص لحقتنى ، وخطايا أحاطت بى ولو طال مقامى عنك يا أمير المؤمنين — جعلنى الله فداك — لخفت أن يذهب عقلى ، إشفاقاً على قربك ، وأسفاً على فراقك ، وأن يعجل بى عن إذنك الاشتياق إلى رؤيتك ، والحمد لله الذى عصمنى فى حال الغيبة وأمتعنى بالعافية ، وعرفنى الإجابة ، ومسكنى بالطاعة ، وحال بينى وبين استعمال المعصية ، فلم أشخص إلا عن رأيك ، ولم أقدم إلا عن إذنك وأمرك ، ولم يخترمنى أجل دونك ، والله يا أمير المؤمنين ، فلا أعظم من اليمين بالله ، لقد عاينت ما لو تعرض لى الدنيا كلها ، لاخترت عليها قربك ، ولما رأيتها عوضاً من المقام معك .

ثم قال له بعقب هذا الكلام فى هذا المقام :

إن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يبليك فى خلافتك بقدر ما يعلم من نيتك ، ويريك فى رعيتك ، غاية أمنيتك فيصلح لك جماعتهم ، ويجمع ألفتهم ، ويلم شعثهم ، حفظاً لك فيهم ، ورحمة لهم ؛ وإنما هذا للتمسك بطاعتك والاعتصام بحبل مرضاتك ، والله المحمود على ذلك ، وهو مستحقه . وفارقت — يا أمير المؤمنين — أهل كور الشأم وهم منقادون لأمرك ، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلك ، نازلون على حكمك ، طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤملون فضلك ،

(١) طبرى ج ١٠ .

آمنون بادرتك ، حالهم فى ائتلافهم ، كحالهم كانت فى اختلافهم ، وحالهم فى ألفتهم ، كحالهم كانت فى امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم ، وتغمده لهم سابق لمعذرتهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم ، وعطفه عليهم ، متقدم عنده لمسألتهم ، وايم الله — يا أمير المؤمنين — لئن كنت قد شخصت عنهم ، وقد أخمد الله شرارهم ، وأطفأ نارهم ، ونفى مراقهم ، وأصلح دهماءهم ، وأولانى الجميل فيهم ، ورزقنى الانتصار منهم ؛ فما ذلك كله إلا ببركتك ويمنك وريحك ، ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة ، وتخوفهم منك ، ورجائهم إليك .

والله يا أمير المؤمنين : ما تقدمت إليهم إلا بوصيتك ، وما عاملتهم إلا بأمرك ، ولا سرت فيهم إلا على حد ما مثلته لى ورسمته ، ووقفتنى عليه ، ووالله ما انقادوا إلا لدعوتك ، وتوحد الله بالصنع لك وتخوفهم من سطوتك ، وما كان الذى كان منى ؛ وإن كنت قد بذلت جهدى ، وبلغت مجهودى ، قاضياً ببعض حقك على ، بل ما ازدادت نعمتك على عظما إلا ازددت عن شكرك عجزاً وضعفاً ، وما خلق الله أحداً من رعيتك أبعد من أن يطمع نفسه فى قضاء حقك منى ، وما ذلك إلا أن أكون باذلا مهجتى فى طاعتك ، وكل ما يقرب إلى موافقتك ، ولكنى أعرف من أياديك عندى ما لا أعرف مثلها عند غيرى ، فكيف بشكرى وقد أصبحت واحد أهل دهرى فيما صنعته فى وبى ؟ أم كيف بشكرى وإنما أقوى على شكرك بإكرامك إياى ؟ وكيف بشكرى ، ولو جعل الله شكرى فى إحصاء ما أوليتنى ، لم يأت على ذلك عدى؟ وكيف بشكرى وأنت كهفى دون كل كهف لى ؟ وكيف بشكرى وأنت لا ترضى لى ما أرضاه لى ؟ وكيف بشكرى وأنت تجدد من نعمتك عندى ما يستغرق كل ما سلف عندك لى ؟ أم كيف بشكرى وأنت تنسينى ما تقدم من إحسانك إلى بما تجدده لى ؟ أم كيف بشكرى وأنت تقدمنى بقولك على

جميع أكفائى ؟ أم كيف بشكرى وأنت وليى ؟ أم كيف بشكرى وأنت المكرم لى ؟ وأنا أسأل الله الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاق له ، إذ كان الشكر مقصراً عن بلوغ تأدية بعضه بل دون شقص من عشر عشيره : أن يتولى مكافأتك عنى بما هو أوسع له ، وأقدر عليه ، وأن يقضى عنى حقك وجليل منتك ، فإن ذلك بيده وهو القادر عليه .

* * *

هذا الكلام الذى خاطب به جعفر الرشيد ما محله ؟ وما موضعه ؟ وما الداعى إليه ؟ .

رجل عقد له الخليفة لإخماد فتنة خطيرة اشتعلت نارها بين طائفتين من المسلمين فإن لم يسارع إلى إخمادها سحقت ومحقت ، فوفقه الله ، وأخمدها من غير أن يجرد سيفاً ، ومن يعمل هذا يستحق من الخليفة الشكر والتقدير وخير الجزاء ، فما بال جعفر يمثل بين يدى الرشيد ، ويذكر هذا الكلام ؟! ولئن جاز له أن يتحدث عن البعد والفراق ، وعما كان به من شوق إلى يوم التلاق ، وأن يتحدث عن النصر الذى لقيه ، وعن الألفة والائتلاف ، وعن أن روح أمير المؤمنين كانت تلازمهم فى كل حال من حالهم — فلم يقسم بغليظ الأيمان أنه لم يتقدم إلا بوصيته ، وأنه ما عاملهم إلا بأمره ، وأنه ما سار فيهم إلا على حد ما رسمه له ؟ !

ولم يقسم بغليظ الأيمان أنهم ما انقادوا إلا لدعوة الخليفة خوفاً من سطوته ، وأن كل مجهود كان منه ما فعله إلا ليقضى بعض حق الخليفة عليه ؟ !

ولم يتحدث عن الطاعة ، وتنفيذ الأمر ، ومقابلة الجميل بالشكر ؟ !

إن هذا الموقف من جعفر يدل على أن فى الأمر سراً ، وأنه نمى إلى الخليفة أخبار ، قد تكون صحيحة ، وقد تكون غير صحيحة ، فخاف جعفر على نفسه ، فأراد أن يدفع عنها ، فكان هذا الخطاب ؛ وإلا فلم يأخذ منه هرون فى هذه

السنة الخاتم ويدفعه إلى أبيه يحيى ؟

ولم يعزله عن خراسان بعد أن يوليه إياها عشرين يوماً ، ويقصره على الحرس ، وعلى رعاية عبد الله المأمون ؟

مع أنه كان يميل إلى جعفر أكثر من ميله إلى الفضل مراضعه ، كما يقولون ، وكان يقول ليحيي : أنت للفضل وأنا لجعفر ؛ وما زال به يدنيه إليه ، ويقربه منه حتى غلب عليه غلبة شديدة ، وحتى صار لا يقدم عليه أحداً ، وأنس به كل الأنس ، وأنزله بالخلد[1] بالقرب من قصره ، وقد كان ذلك سبباً فى المباعدة بين الأخوين جعفر والفضل ، ونقم الفضل من أخيه أن تكون هذه الحظوة له ، وقد كان صاحبها ؛ وأن جعفرا لا يعطيه من نفسه مثل الذى كان يعطيه قبل ذلك ، فصار كل منهما يسب أخاه ، ويقع فيه .

حدث هذا بينه وبين أخيه بسبب التزاحم على باب الخليفة مع أنه شهر عنه أنه اجتمعت له صفات قلما تجتمع فى غيره ، ومن اتصف بها تمنعه من الزلل فى حق الخليفة ، وفى حق أخيه ، وفى حق الناس .

ومن أخص هذه الصفات أنه جمع بين الهدوء والتمهل والبلاغة والحلاوة ، وأنه له قدرة على فهم وإفهام يغنيانه عن الإعادة ، وقالوا عنها ، إنه لو كان فى الأرض ناطق يستغنى عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة ؛ وفيه تقول عنان :

بَدِيهتُه وفِكْرَته سواءٌ إذا التبَسَت على الناسِ الأمورُ
وصَدْرٌ فيه للهَمِّ اتساعٌ إذا ضاقت من الهَمِّ الصُّدورُ
وأَحْزَمُ ما يكونُ الدَّهْرَ رأيا إذا عَجزَ المشاورُ والمشِيرُ

---

(١) الخلد : بضم أوله وتسكين ثانيه : قصر بناه المنصور العباسى ببغداد على شاطىء دجلة سنة ١٩٥ هـ ثم بنيت حواليه منازل وصارت محلة كبيرة عرفت بالخلد .

وهو الذى قالوا فيه : إن كتابته سوادية ، وبلاغته سحبانية ، وسياسته يونانية ، وآدابه عربية ، وشمائله عراقية[١] .

وجعفر هو الذى أخذ البيعة للمأمون كما أخذ الفضل البيعة للأمين ، وهو الذى جلس فى العطاء الثالث لأهل مكة مع المأمون ، كما جلس الفضل فى العطاء الثانى مع الأمين . وجعفر هذا هو الذى طالب الأمين وهو فى البيت الحرام أن يقول بعد كتابة الشرطين اللذين سبق الحديث عنهما : خذلنى الله إن خذلتك . وطالبه أن يقولها ثلاث مرات ، توكيداً للميثاق ، ومبالغة فى الأمان، وضماناً للوفاء للمأمون .

* * *

أخلاق يحيى وولديه :

تحدثنا عن كل من يحيى وولديه الفضل وجعفر حديثاً يتصل بحياتهما السياسية التى ساسوا بها الرعية خدمة للرشيد سبعة عشر عاماً وبعض عام ، والآن نتحدث عن النواحى الخلقية فيهم ، فقد كانت لهم أخلاق جعلتهم يسمون على رجال العصر ، ويختصون بالرشيد أكثر زمن خلافته : ؛ ولعل أخص ما كانوا يتصفون به الجود والكرم ، فإنهم ناس أقبلت عليهم الدنيا إقبالا شديداً ، وكثر عندهم المال ، وهم محدثون فى الإسلام ، وقد وصلوا بجميل التدبير فى الدولة إلى أعلى ما يصل إليه حاكم فى دولة ، فكان عليهم أن يتألفوا الناس ، ويجعلوا لهم مكاناً فى قلوبهم لا يزحمهم فيه أحد ، ولا سيما أنهم لا بد مدركون أن من يكون فى مثل موضعهم محسود ، تكثر حوله السعايات من العريقين فى الإسلام ، عرباً أو عجماً ، لهذا صار البرامكة مع الناس فى الطريق السهل الميسر ، وجعلوا لهم من مالهم نصيباً موفوراً ، فما ردوا سائلا ، ولم يدعوا يتيما ولا مسكيناً ولا محتاجاً ولا مرزأ من غير أن يكون له مشاركة فى مالهم غير قليلة ، وشاع عنهم ذلك فى

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى .

الناس شيوعاً جعل القصاص والمتندرين والإخباريين ينسبون إليهم حديث الكرم، وقصة الكريم الجواد، وإن يكن الكريم الجواد غيرهم، مثلهم فى ذلك مثل أبى نواس وأبى العتاهية؛ فكل حديث ماجن، أو قصة خليعة صاحبها لا يحضر المحدث أو الإخبارى أو القاص، يجعله أبا نواس؛ وكل حديث زاهد، أو مترمت؛ صاحبها لايحضر المحدث أو الإخبارى أو القاص، يجعله أبا العتاهية؛ وكذلك كل حديث عن الجود والكرم، حقيقة أو مخترعاً لا يحضر المحدث أو الإخبارى أو القاص صاحبه، يجعله يحيى البرمكى، أو الفضل، أو جعفراً، وإن لم يذكر اسماً معيناً من هؤلاء الثلاثة فهو ينسب إلى البرامكة من غير تحديد؛ لهذا كثرت أحاديث الناس عن كرم البرامكة، وانتشرت هذه الأحاديث فى بطون كتب التاريخ والأدب، ونحن موردون شيئاً منها.

من قصص كرمهم:

إن أصحاب الحوائج كانوا يكثرون على دكان مجاور لباب يحيى بن خالد، فإذا رآهم يحيى وقف عليهم، ولقيهم ببشر وطلاقة؛ وخرج يوماً مبكراً فلم ير منهم أحداً فأنشد متمثلا:

وليس أخو الحاجات من بات نائماً ولكن أخوها من يبيت على وجل

مع إبراهيم الموصلى:

ومن القصص العجيبة ما ذكره الأصفهانى فى كتابه الأغانى؛ أخبرنى إسماعيل بن يونس قال: حدثنى عمر بن شبه، قال: قال مخارق[1]:

أذن لنا أمير المؤمنين الرشيد أن نقيم فى منازلنا ثلاثة أيام، وأعلمنا أنه

---

(١) الأغانى جـ ٥ ونهاية الأرب جـ ٤ ص ٣٢٧.

مشتغل فيها مع الحرم ، فمضى الجلساء أجمعون إلى منازلهم — وأخبرنى وسواسه ، وهو أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الموصلى ، بهذا الخبر ، فقال : حدثنى أبى عن أبيه عن مخارق قال : اشتغل الرشيد يوماً ، واصطبح مع الحرم ، وقد أصبحت السماء متغيمة ، فانصرفنا إلى منازلنا ، ولم يذكر فى الخبر ما ذكره عمر بن شبه مما قدمت ذكره ، واتفقا ها هنا فى أكثر الحكايات ، واللفظ فأكثره لرواية ابن الموصلى — قال مخارق : وأصبحت السماء متغيمة ، تطش طشاً خفيفاً ، فقلت : والله لأذهبن إلى أستاذى إبراهيم فأعرف خبره ثم أعود ؛ فأمرت من عندى أن يسووا مجلساً لنا إلى وقت رجوعى ، فجئت إلى إبراهم الموصلى فإذا الباب مفتوح ، والبواب قاعد ، فقلت : ما خبر أستاذى ؟ فقال : ادخل ، فدخلت ، فإذا هو جالس فى رواق له ، وبين يديه قدور تغرغر ، وأباريق تزهر ، والستارة منصوبة ، والجوارى خلفها ، وإذا قدامه طست فيه رطلية وكوز وكأس ، فدخلت أترنم ببعض الأصوات ، وقلت له : ما بال الستارة لست أسمع من ورائها صوتاً ؟ فقال : اقعد ، ويحك ، إنى أصبحت على الذى ظننت ، فأتانى خبر ضيعة تجاورنى ، قد والله طلبتها زماناً وتمنيتها فلم أملكها ، وقد أعطى بها مائة ألف درهم ؛ فقلت : وما يمنعك منها ؟ فوالله لقد أعطاك الله أضعاف هذا المال وأكثر ؛ قال : صدقت ، ولكن لست أطيب نفساً أن أخرج هذا المال ؛ فقلت : فمن يعطيك الساعة مائة ألف درهم ؟ والله ما أطمع فى ذلك من الرشيد ، فكيف بمن دونه ! فقال : اجلس ، خذ هذا الصوت ، ونقر بقضيب معه على الدواة ، وألقى على :

نام الخليون من هم ومن سقم ... وبت من كثرة الأحزان لم أنم [1]

---

(١) الشعر لأبى النضير : واسمه عمر بن عبد الملك البصرى مولى بنى جمح ، شاعر من شعراء البصرة ، صالح المذهب ، ليس من المغمورين المتقدمين ، ولا من المولدين الساقطين ، وكان يغنى بالبصرة على جوار له مولدات ، ويظهر الخلاعة والمجون والفسق ، ويعاشر جماعة =

يا طالب الجود والمعروف مجتهدا　　اعمد ليحيى حليف الجود والكرم

قال : فأخذته فأحكمته ؛ ثم قال لى : امض الساعة إلى باب الوزير يحيى ابن خالد ، فإنك تجد الناس عليه وتجد الباب قد فتح ، ولم يجلس بعد ، فاستأذن عليه قبل أن يصل إليه أحد ، فإنه سينكر عليك مجيئك ، ويقول : من أين أقبلت فى هذا الوقت ؟ فحدثه بقصدك إياى ، وما ألقيت إليك من خبر الضيعة ، وأعلمه أنى صنعت هذا الصوت وأعجبنى ، ولم أر أحداً يستحقه إلا فلانة جاريته ، وأنى ألقيته عليك حتى أحكمته لتطرحه عليها ؛ فسيدعو بها ، ويأمر بالستارة أن تنصب ، ويوضع له كرسى ، ويقول لك : اطرحه عليها بحضرتى ، فافعل ، وأتنى بالخبر بعد ذلك . قال : فجئت باب يحيى ، فوجدته كما وصف ، وسألنى ، فأعلمته ما أمرنى به ، ففعل كل شىء قال لى إبراهيم ، وأحضر الجارية ؛ فألقيته عليها ؛ ثم قال لى : تقيم عندنا يا أبا المهنأ أو تنصرف ؟ فقلت : أنصرف ، أطال الله بقاءك ، فقد علمت ما أذن لنا فيه ، قال : يا غلام ؛ احمل مع أبى المهنأ عشرة آلاف درهم ، واحمل إلى أبى إسحق مائة ألف درهم ثمن الضيعة ، فحملت عشرة الآلاف الدرهم إلى ، وأتيت منزلى ، فقلت : أسر يومى هذا ، وأسر من عندى ، ومضى الرسول إليه بالمال ؛ فدخلت منزلى ، ونثرت على من عندى من الجوارى دراهم من تلك البدرة ، وتوسدتها ، وأكلت وشربت وطربت وسررت يومى كله ؛ فلما أصبحت قلت : والله لآتين أستاذى ولأعرفن خبره ، فأتيته فوجدت الباب كهيئته بالأمس ، ودخلت فوجدته على مثل ما كان عليه ، فترنمت وطربت ، فلم يتلق ذلك بما يجب ؛ فقلت له : ما الخبر ؟ ألم يأتك المال ؟ قال : بلى ، فما كان خبرك أنت بالأمس ؟ فأخبرته

= من يعرف بذلك الشأن ، وكان أبان اللاحق يعاشره ثم تصادما وهجاه وهجا جواريه وافترقا على قلى ؛ ثم انقطع أبو النضير إلى البرامكة فأغنوه إلى أن مات .

بما كان وهب لى ، وقلت : ما ينتظر من خلف الستارة ، فقال : ارفع السجف ، فرفعته ، فإذا عشر بدر ، فقلت : وأى شيء بقى عليك فى أمر الضيعة ؟ قال : ويحك ! ، ما هو والله إلا أن دخلت منزلى حتى شححت عليها فصارت مثل ما حويت قديماً ؛ فقلت : سبحان الله العظيم ! فتصنع ماذا ؟ ! ، قال : قم حتى ألقى عليك صوتاً صنعته يفوق ذلك الصوت ؛ فقمت ، وجلست بين يديه ، فألقى على[1] :

ويفرح بالمولود من آل برمك بغاة الندى والسيف والرمح ذو النصل
وتنبسط الآمال فيه لفضله ولا سيما إن كان من ولد الفضل

فلما ألقى على الصوت ، سمعت ما لم أسمع مثله قط ، وصغر عندى الأول ، فأحكمته ؛ ثم قال : انهض الساعة إلى الفضل بن يحيى ، فإنك تجده لم يأذن لأحد بعد ، وهو يريد الخلوة مع جواريه اليوم ، فاستأذن عليه ، وحدثه بحديثنا أمس ، وما كان من أبيه إلينا وإليك ، وأعلمه أنى قد صنعت هذا الصوت ، وكان عندى أرفع منزلة من الصوت الذى صنعته بالأمس ، وأنى ألقيته عليك حتى أحكمته ، ووجهت بك قاصداً لتلقيه على فلانة جاريته ؛ فصرت إلى باب الفضل ، فوجدت الأمر على ما ذكر ، فاستأذنت ، فوصلت ؛ وسألنى : ما الخبر ؟ فأعلمته بخبرى فى اليوم الماضى ، وما وصل إلىّ وإليه من المال ؛ فقال : أخزى الله إبراهيم ؛ فما أبخله على نفسه ! ! ثم دعا خادماً ، فقال : اضرب الستارة ، فضربها ، فقال لى : ألقه ؛ فلما غنيته ، لم أتمه حتى أقبل يجر مطرفه ، ثم قعد على وسادة دون الستارة ، وقال : أحسن والله أستاذك ، وأحسنت أنت يا مخارق ، فلم أخرج حتى أخذته الجارية ، وأحكمته ، فسر بذلك سروراً شديداً ، وقال : أقم عندى اليوم ؛ فقلت :

(١) الشعر لأبى النضير .

يا سيدى ، إنما بقى لنا يوم واحد ، ولولا أنى أحب سرورك لم أخرج من منزلى ؛ فقال : يا غلام ، احمل مع أبى المهنأ عشرين ألف درهم ، واحمل إلى إبراهيم مائتى ألف درهم ؛ فانصرفت إلى منزلى بالمال ففتحت بدرة ، فنثرت منها على الجوارى ، وشربت ، وسررت أنا ومن عندى يومنا ؛ فلما أصبحت بكرت إلى إبراهيم ، أتعرف خبره ، وأعرفه خبرى ، فوجدته على الحال التى كان عليها أولا وأخيراً ، فدخلت أترنم وأصفق ؛ فقال لى : ادن ، فقلت : ما بقى ؟ فقال : اجلس وارفع سجف هذا الباب ، فإذا عشرون بدرة مع تلك العشر ؛ فقلت : ما تنتظر الآن ؟ ، فقال : ويحك ! ! ، ما هو والله إلا أن حصلت حتى جرت مجرى ما تقدم ؛ فقلت : والله ما أظن أحداً نال فى هذه الدولة ما نلته ؛ فلم تبخل على نفسك بشىء تمنيته دهراً ، وقد ملكك الله أضعافه ! ، ثم قال : اجلس ، فخذ هذا الصوت ؛ وألقى على صوتاً أنسانى والله صوتى الأولين :

أفى كلِّ يومٍ أنت صَبٌّ وليلةٍ ... إلى أم بكر لا تُفيق فتقصر
أحب على الهِجْران أكنافَ بيتها ... فيالَكَ من بيتٍ يُحَبُّ وَيُهْجَر
إلى جعفر سارت بنا كلُّ جَسْرَة ... طَواها سُراها نحـوه والتَّهجُّر
إلى واسع للمُجْتَدِين فِناؤُه ... تَرُوحُ عطاياه عليهم وتبكر(١)

قال مخارق : ثم قال لى إبراهيم : هل سمعت مثل هذا ؟ فقلت : ما سمعت قط مثله ؛ فلم يزل يردده على حتى أخذته ، ثم قال لى : امض إلى جعفر فافعل به كما فعلت بأخيه وأبيه ؛ قال : فمضيت ، ففعلت مثل ذلك ، وخبرته ما كان منهما ، وعرضت عليه الصوت ، فسر به ، ودعا خادماً ، فأمره بضرب الستارة وأحضر الجارية ، وقعد على كرسى ، ثم قال : هات يا مخارق ؛ فاندفعت فألقيت الصوت عليها حتى أخذته ؛ فقال : أحسنت والله يا مخارق ، وأحسن

---

(١) الشعر لمروان بن أبى حفصة يمدح به جعفر بن يحيى

أستاذك ، فهل لك فى المقام عندنا اليوم ؟ فقلت : يا سيدى ، هذا آخر أيامنا ، وإنما جئت لموقع الصوت منى حتى ألقيته على الجارية ، فقال : يا غلام احمل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصلى ثلثمائة ألف درهم ؛ فصرت إلى منزلى بالمال ، فأقمت ومن معى مسرورين ، نشرب بقية يومنا ونطرب ، ثم بكرت إلى إبراهيم ، فتلقانى قائماً وقال لى : أحسنت يا مخارق ؟ فقلت : ما الخبر ؟ فقال : اجلس ، فجلست ، فقال لمن خلف الستارة : خذوا فيما أنتم فيه ، ثم رفع السجف ، فإذا المال ؛ فقلت : ما خبر الضيعة ؟ فأدخل يده تحت مسورة هو متكئ عليها ، فقال : هذا صك الضيعة ، سئل عن صاحبها فوجد ببغداد ، فاشتراها منه يحيي بن خالد ، وكتب إلى : قد علمت أنك لا تسخو نفساً بشراء الضيعة من مال يحصل لك ولو حيزت لك الدنيا كلها ، وقد ابتعتها لك من مالى ، ووجهت لك بصكها ؛ ووجه إلى بصكها ، وهذا المال كما ترى ؛ ثم بكى وقال لى : يا مخارق ، إذا عاشرت فعاشر مثل هؤلاء ، وإذا خنكرت فخنكر لمثل هؤلاء ؛ هذه ستمائة ألف وضيعة بمائة ألف وستون ألف درهم لك ، حصلنا ذلك أجمع وأنا جالس فى مجلسى لم أبرح منه ، فمتى يدرك مثل هؤلاء[1]

قصة يحيي مع أحمد بن أبى خالد :

وحكى[2] يحيي بن خاقان قال : كنت يوماً عند يحيي بن خالد ، وبحضرته ابنه الفضل ، إذ دخل قوم مسلمون ، ودخل فيهم أحمد بن يزيد المعروف بابن

(١) إبراهيم الموصلى صاحب هذه القصة هو إبراهيم بن ماهان ، فارسى الأصل ، كوفى المولد ، بغدادى الوفاة (١٨٨ ﻫ) والسبب فى نسبته إلى الموصل أنه لما كبر واشتد صحب الفتيان ، واشتهى الغناء وطلبه ، فاشتد أخواله عليه ، وكانوا كفلوه بعد أبيه ، فهرب منهم إلى الموصل ، فأقام بها سنة فلما رجع إلى الكوفة ، قال له إخوانه من الفتيان : مرحباً بالفتى الموصلى ! ! فغلب عليه . وكان المهدى يمنع منه موسى والرشيد ثم كانت له بعد ذلك أخبار مع الرشيد ، وأخبار مع البرامكة .

(٢) الجهشيارى ص ١٣٩ والمستطرف ج ١ ص ٢٣٩ مع خلاف فى العبارة .

أبى خالد ، فسلم وخرج ، فقال يحيى لابنه الفضل : لى فى أمر هذا الرجل خبر ، فإذا فرغنا من شغلنا فأذكرنى لأعرفكه ، ثم فرغ من عمله ، وغسل يده ، ودعا بطعامه ، فلما أكل صدراً منه ، أذكره الفضل ما كان وعده أن يخبره به ، فقال له : نعم ، كانت العطلة قد بلغت من أبى رحمه الله ومنى ، وتوالت المحن علينا ، وأخفقنا حتى لم نهتد إلى ما ننفقه ، فلبست ثيابى لأركب ، وأتنسم الأخبار ، وأتفرج ، فقالت لى أهلى : أراك على نية الركوب ، قلت : نعم ، قالت : فاعلم أن هؤلاء الصبيان باتوا البارحة بأسوأ حال ، وإنى ما زلت أعللهم بما لا علالة فيه ، وما أصبحت ولهم شىء ، ولا لدابتك علف ، ولا لك ما تأكله ؛ إذا انصرفت فينبغى أن يكون ركوبك وطلبك بحسب هذه الحال ؛ ففزعت قلبى ، وقطعتنى عن الحركة .

ورميت بطرفى ، فلم أر شيئاً أمد إليه يداً ، ورميت بوهمى ، فلم يقع إلا على منديل طبرى ، كان بعض الداريين أهداه لى ، فقلت لأهلى : ما فعل المنديل الطبرى الذى كان أهدى إلينا ؟ قالت : ها هو ذا ، فأحضرته فأخذته ، وخرجت إلى الغلام وهو مع دابتى ، فأمرته بإدخال الدابة ، وقلت له : اخرج إلى الشارع فبع هذا المنديل ، وأقبل بثمنه ، فمضى وعاد من ساعته ، فقال : خرجت إلى البقال الذى يعاملنا ، وعنده رجل يصرف دراهم ، فأعطانى اثنى عشر درهما صحاحاً ، ورأى صاحبنا البقال أن أبيعه منه بشرط ، وقد حضرت الدراهم ، فإن أمضيت البيع ، وإلا أخرجت المنديل إلى سوق قنطرة البردان ، فاستقصيت فيه وبعته .

فأمرته بإمضاء البيع لحاجتى إلى الغلام ، والحال التى عليها الصبيان ، وما حدثتنى به المرأة ، وأمرته أن يشترى علفاً للدابة ، وما يحتاج إليه الصبيان فى ذلك اليوم ، وركبت لا أدرى أين أقصد ، فأنا فى الشارع إذا أنا بين يد أبى هذا ، وهو خارج من درب ، ومعه موكب ضخم ، وهو يكتب يومئذ

لأبى عبيد الله كاتب المهدى فملت إليه ، ورميت نفسى عليه ، وقلت : قد تناهت العطلة بأخيك وبى إلى ما لا نهاية وراءه ، وإلى ما أجلك عن ذكره مع ما توجبه لنا ، فأنا أقصر قولى ولا أطيله ، علىَّ وعلىَّ إن لم تكن قصتى فى يومى كيت وكيت ، وقصصت الخبر ، وخبر المنديل وهو مستمع لذلك ، ماض على سيره حتى بلغ مقصده ، وانصرفت عنه ، ولم يقل لى حرفاً ؛ فانصرفت منكسف البال منكسراً ، منكراً على نفسى إسرافى فى الشكوى ، وإطلاعى إياه على ما أطلعته عليه من أمرى ، فقلت : ما زدت على أن هجوت نفسى ، وقللتها فى عينه من غير نفع . ولو صبرت لأتى الله بما هو أهله ، قال : ووافيت إلى منزلى على حال أنكرتها أهلى من الفكر ، فقالت لى : ما حالك ؟ ؛ وما قصتك ؟ فقلت لها : جنيت اليوم جناية كنت عنها غنياً . فقالت لى : وما هى ؟ قلت : لقيت يزيد الأحول الكاتب فقلت له : كيت وكيت ؛ فمضى فلم يجبنى بحرف . فذممت نفسى على خنوعها وبثها حالها إلى من لا ينفعها . قال : فأقبلت علىّ توبخنى وتقول : ما حملك على ما فعلت ، وأن أظهرت للرجل من ذلك ما أظهرت ؛ ، فإن أقل ما فى ذلك ألا يأتمنك على شىء ، فإن من تناهت به الحال إلى مثل ما ذكرت كان غير مأمون على ما يؤتمن عليه ، ويجعل إليه ؟ . فنالنى من توبيخها وعذلها أضعاف ما نالنى أولا .

وأصبحنا فى اليوم الثانى ، فوجهت أحد ثوبى ، فبيع . وتبلغنا به ذلك اليوم ، وفى اليوم الثالث ، فلما كان فى اليوم الرابع — وقد ضاقت نفسى ، وغلبنى الفكر ، وعاتبتنى على ذلك أهلى ، وقالت لى : أنا خائفة عليك مما أرى من الوسواس فيكون ما نحتاج إليه لعلاجك أضعاف ما تحتاج إليه لمئونتنا ، فسهل عليك فإن الله الصانع .

فركبت فى ذلك اليوم لا أدرى أين أقصد إلا أننى أؤم الجسر ثم أنصرف ، لأبلى عذراً فى الطلب عند أهلى ، فلما صرت إلى قنطرة البردان ، لقينى لاق ،

فقال : قد رأيت فى يومنا هذا من يطلبك ، ثم لم ألبث أن لقينى من خبرنى بمثل ذلك ، فقصدت الدار ، لأعرف الخبر ، فلقينى بالقرب منها رسول ، فقال لى : أبو خالد يطلبك وإياك أردت ، فدخلت الدار والرسول معى ، فألفينا أبا خالد يدخلنا ، فقال لى حاجبه : أمرنا بإحضارك ، وأن ننتظره إلى أن يخرج ، فأقمت ، وخرج مع الزوال ، ومع غلامه كتب كثيرة ، فقال له : قد حضر يحيى ، فقال : هاته ؛ فقمت ودنوت منه ؛ فقال لى : يا ابن أخى ، شكوت إلى بالأمس شكوى لم ينفع فى جوابها إلا ذلك الفعل ، إذ كانت الحال قد تأدت إلى ما تأدت إليه ، ثم أمر بإحضار أبى جميل وزاهر ، تاجرين كانا يبيعان الطعام ، فأتى بهما ، فقال : قد علمتما أنى بايعتكما البارحة بثلاثين ألف كر ، على أن ابن أخى هذا شريككما فيها بالسعر . ثم التفت إلى فقال : لك من هذه الأكرار عشرة آلاف كر ، فإن دفعا إليك ثلاثين ألف دينار ربحك ، وآثرت أن تخرج إليهما من حصتك فعلت ، وإن آثرت أن تقيم على هذا الابتياع فعلت . فتنحينا ناحية فتناظرنا ، فقال لى التاجر : أنت رجل شريف وابن شريف ، وليست التجارة من شأنك ، ومتى أقمت على على هذا الابتياع احتجت إلى كفاة وأعوان ، ولكن خذ منا ثلاثين ألف دينار وخلنا والطعام ، فقلت : قد فعلت . فقمنا إلى أبى خالد ، فقلت : قالا لى كذا وكذا ، وأجبتهما إلى أخذ المال ، فقال صواب ، لو أقمت معهما احتجت إلى تعب ، ولزمتك مؤن ، وكان ذلك أربح لك ، ولكن هذا أروح ، فخذ المال ، وتبلغ به والزمنا ، فإنا لا نقصر فى كل ما يمكننا فى أمرك ، فخرجت فأخذت من الرجلين المال ، ثلاثين ألف دينار وما بين ذلك وبين بيع المنديل إلا أربعة أيام ، فصرت إلى أبى ، فأخبرته الخبر ، وقلت له : جعلنى الله فداك تأمر فى المال بأمرك ، فقال : نعم ، أنا أحكم عليك فى هذا المال بما حكم به أبو خالد على التاجرين ، أى أن لى الثلث ، فحملت إليه عشرة آلاف دينار ،

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

واشتريت بعشرة آلاف دينار عقدة(١) ، ولم أزل أنفق الباقى إلى أن أدانى إلى هذه الحال ، وإنما حدثتك يا بنى هذا ، لتعرف للرجل حقه .

فقلت ليحيي بن خاقان : فما كان من يحيي إلى أحمد بن أبي خالد ؟ فقال : ما زال وولده على غاية البرّ له والتحريك حتى نال ما نال من الوزارة بذلك الأساس الذى أسسوه ؛ وكانت وفاة أبي خالد يزيد الأحول فى سنة ثمان وستين ومائة .

قصة الفضل مع محمد بن إبراهيم الإمام :

وكان(٢) ركب محمد بن إبراهيم الإمام دين ، فذهب إلى الفضل بن يحيي ، ومعه حق فيه جوهر ، فقال له : قصرت بنا غلاتنا ، وأغفل أمرنا خليفتنا ، وتزايدت مئونتنا ، ولزمنا دين احتجنا لأدائه إلى ألف ألف درهم ، فكرهت بذل وجهى للتجار ، وإذالة عرضى بينهم ، ولك من يعطيك منهم ، ومعى رهن ثقة بذلك ، فإن رأيت أن تأمر بعضهم بقبضه ، وحمل المال إلينا . فدعا الفضل بالحق ، فرأى ما فيه ، وختمه بخاتم محمد بن إبراهيم . ثم قال له : نجح الحاجة أن تقيم فى منزلك عندنا اليوم . فقال له : إن فى المقام على مشقة . فقال : ما يشق عليك من ذلك ؛ إن رأيت أن تلبس شيئاً من ثيابنا دعوت به ، وإلا أمرت بإحضار ثياب من منزلك . فأقام ونهض الفضل ، فدعا بوكيله ، وأمره أن يحمل المال ، ويسلمه إلى خادم محمد بن إبراهيم ، وتسليم الحق الذى فيه الجواهر بخاتمه ، وأخذ خطه بذلك ؛ ففعل الوكيل ذلك ، وأقام محمد عنده إلى المغرب ، وليس عنده شيء من الخبر ، ثم انصرف إلى منزله فرأى المال ، وأحضر الخادم الحق ، فغدا على الفضل ليشكره ،

---

(١) العقدة : الضيعة والعقار ، وكل أرض مخصبة فهى عقدة .

(٢) جهشيارى ص ١٥١ .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

فوجده قد سبقه بالركوب إلى دار الرشيد ، فوقف منتظراً له . فقيل : قد خرج من الباب الآخر . فاتبعه فوجده قد دخل إلى أبيه ، فوقف ينتظره ، فقيل له : قد خرج من الباب الآخر قاصداً منزله ، فانصرف عنه فلما وصل إلى منزله ، وجه الفضل إليه ألف ألف درهم أخر ، فغدا عليه فشكره وأطال ؛ فأعلمه أنه بات ليلته ، وقد طالت عليه غما بما شكاه ، إلى أن لقى الرشيد فأعلمه حاله ، فأمره بالتقدير له ولم يزل يماكسه إلى أن تقرر الأمر معه على ألف ألف درهم ، وأنه ذكر أنه لم يصلك بمثلها قط ، ولا زادوك على عشرين ألف دينار ، فشكرته ، وسألته أن يصلك بها صكاً بخطه ، ويجعلنى الرسول ، فقال له محمد : صدق أمير المؤمنين ، إنه لم يصلنى قط ، بأكثر من عشرين ألف دينار ، وهذا فإنما تهيأ بك ولك وعلى يديك ، وما أقدر على شيء أقضى به حقك ، ولا على شكر أجازى به معروفك غير أنه علىّ وعلى ، وحلف أيماناً مؤكدة ، إن وقفت على باب أحد سواك ، ولا سألته حاجة أبداً ولو سففت التراب . فكان لا يركب لغير الفضل ، إلى أن حدث من أمرهم ما حدث ، فكان لا يركب إلى غير دار الخليفة ويعود إلى منزله ؛ فعوتب بعد تقضى أيامهم فى ترك إتيان الفضل بن الربيع ، فقال : والله لو عمرت ألف عام ، ثم مصصت الثماد ما وقفت بباب أحد بعد الفضل بن يحيى ، ولا سألته حاجة حتى ألقى الله جل وعز ، فلم يزل على ذلك حتى مات .

قصة الفضل مع رجل من السوقة :

ويحكون(١) أن الفضل دخل عليه حاجبه يوماً ، فقال له : إن بالباب رجلا زعم أن له سبباً يمت به إليك ، فقال : أدخله ؛ فأدخله ، فإذا هو

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٤١٠ .

شاب حسن الوجه ، رث الهيئة ، فسلم ، فأومأ إليه بالجلوس ، فجلس ، فقال له بعد ساعة : ما حاجتك ؟ قال : أعلمتك بها رثاثة ملبسى . قال : نعم ، فما الذى تمت به إلىّ . قال : ولادة تقرب من ولادتك ، وجوار يدنو من جوارك ،واسم مشتق من اسمك ؛ قال الفضل : أما الجوار فيمكن ، وقد يوافق الاسم الاسم ، ولكن من أعلمك بالولادة ؟ قال : أخبرتنى أمى ، أنها لما ولدتنى قيل لها : قد ولد هذه الليلة ليحيى بن خالد غلام وسمى الفضل ، فسمتنى فضيلا ، إكباراً لاسمك أن تلحقنى به ، وصغرته لقصور قدرى عن قدرك ؛ فتبسم الفضل ، وقال له : كم أتى عليك من السنين ؟ قال : خمس وثلاثون سنة . قال : صدقت ، هذا المقدار الذى أعد ، قال : فما فعلت أمك ؟ قال : ماتت . قال : فما منعك من اللحاق بنا متقدماً ؟ قال : لم أرض نفسى للقائك ، لأنها كانت فى عامية معها حداثة تقعدنى عن لقاء الملوك ، وعلق هذا بقلبى منذ أعوام ، فشغلت نفسى بما يصلح للقائك حتى رضيت نفسى ؛ قال : فما يصلح له ؟ قال : الكبير من الأمر والصغير . قال : يا غلام ، أعطه لكل عام مضى من سنه ألف درهم ، وأعطه عشرة آلاف درهم يجمل بها نفسه إلى وقت استعماله ، وأعطاه مركوباً سرياً .

قصة يحيى مع أصغر كتابه :

وقيل[١] : إن الرشيد لما نكب البرامكة النكبة التى سنتحدث عنها بعد — حرم على الشعراء أن يرثوهم ، وأمر بالمؤاخذة على ذلك ؛ فاجتاز بعض الحرس ببعض الخربات ، فرأى إنساناً واقفاً وفى يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة ، وهو ينشده ويبكى ، فأخذه الحرس ، فأتى به إلى الرشيد ، وقص عليه الصورة فاستحضره الرشيد ، وسأله عن ذلك ، فاعترف به ، فقال له

(١) الفخرى ص ١٨٠ .

الرشيد : أما سمعت تحريمى رثاءهم ، لأفعلن بك ، ولأصنعن ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن أذنت لى فى حكاية حالى حكيتها ، ثم بعد ذلك أنت ورأيك . قال : قل ، قال : إنى كنت من أصغر كتاب يحيي بن خالد ، وأرقهم حالا ؛ فقال لى يوماً : أريد أن تضيفنى فى دارك يوماً ، فقلت : يا مولانا ؛ أنا دون ذلك ، ودارى لا تصلح لهذا : قال : لا بد من ذلك . قلت فإن كان لا بد فأمهلنى مدة حتى أصلح شأنى ومنزلى ، ثم بعد ذاك أنت ورأيك . قال : كم أمهلك ؟ قلت : سنة . قال: كثير . قلت : فشهوراً . قال : نعم ؛ فمضيت وشرعت فى إصلاح المنزل ، وتهيأت أسباب الدعوة ، فلما تهيأت الأسباب أعلمت الوزير بذلك . فقال : نحن غداً عندك ، فمضيت ، وتهيأت فى الطعام والشراب ، وما يحتاج إليه ، فحضر الوزير فى غد ، ومعه ابناه جعفر والفضل ، وعدة يسيرة من خواص أتباعه ، فنزل عن دابته ، ونزل ولداه جعفر والفضل . وقال : يا فلان ، أنا جائع ، فعجل لى بشىء ؛ فقال لى الفضل ابنه : الوزير يحب الفراريج المشوية فعجل منها ما حضر ؛ فدخلت وأحضرت منها شيئاً ، فأكل الوزير ومن معه . ثم قام يتمشى فى الدار ، وقال : يا فلان فرجنا فى دارك ، فقلت : يا مولانا ، هذه هى دارى ليس لى غيرها . قال : بلى ، لك غيرها ؛ قلت : والله ما أملك سواها ؛ فقال : هاتوا بناء ؛ فلما حضر قال له : افتح فى هذا الحائط بابا ؛ فمضى ليفتح . فقلت : يا مولانا ، وكيف يجوز أن يفتح باباً إلى بيوت الجيران ، والله أوصى بحفظ الجار ؟ قال : لا بأس فى ذلك ؛ ثم فتح الباب ، فقام الوزير وأبناؤه ، فدخلوا فيه وأنا معهم ، فخرجوا منه إلى بستان حسن كثير الأشجار ، والماء يتدفق فيه ، وبه من المقاصير والمساكن ما يروق كل ناظر ، وفيه من الآلات والفرش والخدم والجوارى كل جميل بديع – فقال : هذا المنزل وجميع ما فيه لك ؛ فقبلت يده ، ودعوت له ، وتحققت القصة ؛ فإذا هو من يوم حادثنى فى معنى الدعوة قد أرسل واشترى

الأملاك المجاورة لى وعمرها داراً حسنة ، ونقل إليها من كل شيء وأنا لا أعلم ، وكنت أرى العمارة فأحسبها لبعض الجيران . فقال لابنه جعفر : يا بنى ، هذا منزل وعيال ، فالمادة من أين تكون له ؟ قال جعفر : قد أعطيته الضيعة الفلانية بما فيها ، وسأكتب له بذلك كتاباً . فالتفت إلى ابنه الفضل ، وقال له : يا بنى ، فمن الآن إلى أن يدخل دخل هذه الضيعة ما الذى ينفق ؟ فقال الفضل : على عشرة آلاف دينار أحملها إليه . فقال : فعجلا له ما قلتما ؛ فكتب لى جعفر بالضيعة ، وحمل الفضل إلى المال ، فأثريت ، وارتفعت حالى ، وكسبت بعد ذلك معه مالا طائلا أنا أتقلب فيه إلى اليوم ، فوالله يا أمير المؤمنين ، ما أجد فرصة أتمكن فيها من الثناء عليهم ، والدعاء لهم إلا انتهزتها مكافأة لهم على إحسانهم ، ولن أقدر على مكافأتهم ، فإن كنت قاتلى على ذلك ، فافعل ما بدالك ؛ فرق الرشيد لذلك وأطلقه ، وأذن لجميع الناس فى رثائهم .

قصة يحيى مع رجاء بن عبد العزيز :

وقيل : إن الرشيد أراد أن يخرج يوماً إلى بعض المنفرجات ، فقال يحيى بن خالد لرجاء بن عبد العزيز ، وكان على نفقاته : ما عند وكلائنا من الأموال ؟ قال : سبعمائة ألف درهم ، قال : فاقبضها إليك يا رجاء ؛ فلما كان من الغد ، دخل عليه رجاء ، فقبل يده ، وعنده منصور بن زياد ، فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور : قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبنا المال له ، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه فى وجهنا هذا ؟ فقال منصور : أنا أستخبر لك هذا ؟ فقال يحيى : إذن يقول لك : قل له يقبل يدى كما قبلت يده ، فلا تقل له شيئاً ، فقد تركتها له .

قصة يحيي مع الخياط :

وحدث(١) محمد بن عمر الواقدى قال : كنت خياطاً بالمدينة فى يدى مائة ألف درهم للناس أضارب بها ، فتلفت الدراهم ، فشخصت إلى العراق ، فقصدت يحيى بن خالد ، فجلست فى دهليزه ، وأنست بالخدم والحجاب ، وسألتهم أن يوصلونى إليه ؛ فقالوا : إذا قدم الطعام إليه لم يحجب عنه أحد ، ونحن ندخلك عليه ذلك الوقت ؛ فلما حضر طعامه أدخلونى ، فأجلسونى معه على المائدة ، فسألنى : من أنت ؟ وما قصتك ؟ فأخبرته ؛ فلما رفع الطعام ، وغسلنا أيدينا — دنوت منه لأقبل رأسه ، فاشمأز من ذلك فلما صرت إلى الموضع الذى يركب منه لحقنى خادم ومعه كيس فيه ألف دينار ؛ فقال : الوزير يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : استعن بهذا على أمرك ، وعد إلينا فى اليوم الثانى ؛ فأخذته ، وانصرفت ، وعدت فى اليوم الثانى ، فجلست معه على على المائدة ؛ فأنشأ يسألنى كما سألنى فى اليوم الأول ، فلما رفع الطعام ، دنوت منه لأقبل رأسه ، فاشمأز منى ، فلما صرت إلى الموضع الذى يركب منه لحقنى خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال لى : الوزير يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : استعن بهذا على أمرك ، وعد إلينا فى غد ، فأخذته وانصرفت ، فعدت فى اليوم الثالث كما أمر ، فأعطيت مثل ذلك الذى أعطيت فى الأول والثانى ؛ فلما كان فى اليوم الرابع ، أعطيت كما أعطيت قبل ذلك ، وتركنى بعد ذلك أقبل رأسه ، وقال : إنما منعتك ذلك لأنه لم يكن وصل إليك من معروفى ما يوجب هذا ، فالآن قد لحقك بعض النفع منى ، يا غلام ، أعطه الدار الفلانية ؛ يا غلام : افرش له الفرش الفلانى ، يا غلام : أعطه مائتى ألف درهم ، يقضى دينه بمائة ألف ، ويصلح شأنه بمائة ألف . ثم قال : الزمنى ،

(١) ابن خلكان جـ ٢ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

وكن فى دارى . فقلت : أعز الله الوزير ، لو أذنت لى بالشخوص إلى المدينة لأقضى الناس أموالهم ، ثم أعود لحضرتك ، كان ذلك أوفق بى ؛ قال : قد فعلت ؛ وأمر بتجهيزى . فشخصت إلى المدينة ، فقضيت دينى ، ثم رجعت إليه ، فلم أزل فى ناحيته .

قصة يحيي مع كاتبه :

وكان ليحيي كاتب يختص بخدمته ، ويقرب من حضرته ؛ فعزم على ختان ولده ، فاحتفل له الناس على طبقاتهم ، وهاداه أعيان الدولة ، ووجوه الكتاب والرؤساء على اختلاف منازلهم ؛ وكان له صديق قد اختلت أحواله ، وضاقت يده عما يريده لذلك مما دخل فيه غيره ؛ فعمد إلى كيسين كبيرين نظيفين ، فجعل فى أحدهما ملحاً ، وفى الآخر أشناناً مطيباً ، وكتب معهما رقعة ، نسختها : لو تمت الإرادة لأسعفت بالعادة ولو ساعدت المكنة على بلوغ الهمة ، لاتبعت السابقين إلى برك ، وتقدمت المجتهدين فى كرامتك ، لكن قعدت القدرة عن البغية ، وقصرت الجدة عن مباراة أهل النعمة ، وخفت أن تطوى صحائف البر ، وليس لى فيها ذكر ، فأنفذت المبتدأ بيمنه وبركته ، والمختتم بطيبه ونظافته ، صابراً على ألم التقصير ، ومتجرعاً غصص الاقتصار على اليسير ، فأما ما لم أجد إليه السبيل فى قضاء حقك ، فالقائم فيه بعذرى قول الله عز وجل "ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ". والسلام فلما حضر يحيي بن خالد الوليمة ، عرض عليه كاتبه الهدايا جميعها حتى الكيسين والرقعة ، فاستظرفهما ، وأمر أن يملأ الكيسان مالا . ويردا عليه ، فكان ذلك أربعة آلاف دينار .

بخل محمد بن يحيى :

ولا تنس فى هذا المقام أن محمد بن يحيى كان على غير طبع إخوته وأبيه وجده ، فقد كان بخيلا قبيح البخل ؛ وصف بعضهم مائدته فقال : هى فتر فى فتر ، وصحافه منقورة من حب الخشخاش وبين نديمه وبين الرغيف نقدة جوزة ، ولا يحضر مائدته إلا الكرام الكاتبون ، ولا يأكل معه إلا الذباب .

وكان المختص به من الناس يسير مخرق الثوب ، ولا يقدر على إبرة يخيط ثوبه بها إذا أراد أن يخيطه وقد قيل فيه : لو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً إبراً ، ثم جاءه جبريل وميكائيل ، ومعهما يعقوب النبى يضمنان له عنه إبرة ، ويسألانه إعارته إياها ، ليخيط بها قميص يوسف الذى قد من دبر — ما فعل .

فكان أحد الشعراء يصحب محمداً بعد أن كان يصحب محمد بن منصور ابن زياد ؛ وكان هذا الشاعر استفاد من محمد بن منصور هذا مائة ألف درهم ، فلما مات صحب محمد بن جعفر ، وأنفق معه هذا المبلغ من المال ، ولم يتعوض منه شيئاً ، فقال يهجوه :

أمحمدٌ ، لولا النبىُّ محمدٌ وشرائعُ الإسلامِ والإيمان
ما كان فيك لغاسلٍ من مَغْسَلٍ يا طَاهِرًا فى السرِّ والإعلان
شَتانَ بينَ محمدٍ ومحمد حىٌّ أمات ومَيِّتٌ أحيانى (١)
فَصَحِبتُ حياً فى عطايا مَيِّتٍ وبَقِيتُ مشتملا على الخسران

فشتان بين محمد وبين إخوته وأبيه وجده .

ولو شئنا أن نستقصى أخبار البرامكة فى الجود ، لطال بنا الكلام ، ولكنا

---

(١) أحد المحمدين محمد بن منصور بن زياد ، والآخر محمد بن يحيى .

نكتفى بما ذكرنا فى هذا الحديث ؛ لأنهم كان لا يمر عليهم يوم من غير أن تكون لهم مأثرة عظيمة يذكرون بها .

وقد تذاكر قوم السخاء ، وفيهم أبو العيناء ، فروى أنهم اتفقوا على أن أسخى الناس آل المهلب فى الدولة المروانية ، والبرامكة فى الدولة العباسية .

* * *

مما قاله الشعراء فى جودهم :

لقد ذكر الشعراء سخاء البرامكة وجودهم ، وأطنبوا فى ذلك ، حتى قال الشاعر فى الفضل(١) :

ما لَقِينا من جُودِ فَضْل بْنِ يحيي ترَكَ الناس كُلَّهم شعراءَ

فلما سمع الناس البيت استحسنوه ، وعابوا عليه أنه بيت واحد ، وثناه بعضهم بقوله :

عَلَّمَ الْمُفْحَمِين أن يَنْظموا الأشعار مِنَّا والباخِلين السَّخاء

ومن هذا قول الشاعر فى يحيي :

سألت الندى : هل أنت حُرٌّ ؟ فقال : لا ولكننى عَبْدٌ ليحيي بنِ خالد

فقلت : شِراءً ؟! قال : لا ، بل وراثةً توارثنى من والدٍ بعد والد

وقول الآخر فى الفضل :

إذا نزل الفضلُ بنُ يحيي ببلدةٍ رأيت بها غَيث السَّماحة يَنْبِت

---

(١) قائل هذا البيت : نصيب مولى المهدى ، وسيأتى التعريف به بعد ، وقد قاله حينما رأى كثرة الشعراء على باب الفضل بن يحيي .

فليس بسَعَّالٍ إذا سِيلَ حاجةً
ولا بِمُكِبٍّ فى ثرَى الأرضِ يَنكُتُ (١)

وفى محمد بن يحيى :

سألت : الندى والجودَ : مالى أراكما تبدَّلتُما عِزًّا بِذُلٍّ مُؤبَّدِ ؟
وما بالُ ركنِ المَجْدِ أَمْسى مُهَدَّما ؟ فقالا : أُصِبْنا بابن يحيى محمد
فقلت : فهَلّا مِتُّما بعد موْتِهِ وقد كنتما عَبْدَيْه فى كل مَشْهد ؟
فقالا : أقمنا كى نُعزَّى بِفَقْدِهِ مسافةَ يومٍ ثم نَتْلوه فى غَدِ (٢)

وكان يحيى بن خالد يقول : أعط من الدنيا وهى مقبلة ، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئاً ، وأعط منها وهى مدبرة ، فإن منعك لا يبقى عليك منها شيئاً ، فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ، ويقول : لله دره ! ، ما أطبعه على الكرم ، وأعلمه بالدنيا ! ، وكان هذا المعنى يعجب يحيى ، فأمر أحد الشعراء بنظمه ، فقال :

لَا تبخَلَنَّ بدنيا وهى مُقْبِلَة فليس يَنْقُصُها التَّبذيرُ والسَّرَفُ
فإن تولَّت فأحْرَى أن تجودَ بها فليس تَبْقَى ولكن شُكْرُها خَلَفُ

وكان يحيى يقول لولده جعفر ، حاضاً له على الجود : يا بنى ؛ ما دام قلمك يرعد ، فأمطره معروفاً .

(١) يعنى أنه لا يحاول أن يتخلص من سائله بالتشاغل عنه بالسعل أو الإطراق إلى الأرض ، يضربها بعصاه ، أو يقلبها بإصبعه ، دلالة على إغراقه فى التفكير .

(٢) مع أن محمد بن يحيى كان بخيلا قبيح البخل كما قدمنا ، فإن الشاعر حين مدحه بهذه الأبيات راثياً كان مجاملا لأبيه وإخوته .

وهذه امرأة تعترض جعفراً ، وقد مر بالعقيق(١) فى سنة مجدبة ، وتنشده :

إنى مَرَرْتُ على الْعَقيق وأهْـلُه يَشْكُون من مطرِ الربيع نزُورا
ما ضَرَّهم إذ جَعْفَرٌ جارٌ لهم ألَّا يكون ربيعُهم مَمْطورا ؟ !

فأعطاها جعفر وأجزل لها العطاء .

وهذا شاعر ، يتعرض ليحيي فى طريقه ، وهو يعلم أن صلات يحيي لمن يتعرض له فى الطريق مائتا درهم فأنشده :

يا سَمِيَّ الْحَصورِ يحيي أُتيحَتْ لك من فَضْلِ ربنا جَنَّتان(٢)
كلُّ من مَرَّ فى الطريق عليكم فَلَه من نَوالكم مِئتان
مائتا درهم لِمِثْلى قليـــلٌ هِيَ منكم لِلْقابس العَجْلان(٣)

فلما سمع يحيي الشعر قال له : صدقت ، وأمر بحمله إلى داره ، فلما رجع من دار الخلافة سأله عن حاله ، فذكر أنه تزوج ، وأنه أخذ بواحدة من ثلاث : إما أن يؤدى المهر ، وهو أربعة آلاف درهم ، وإما أن يطلق ، وإما أن يقيم جارياً للمرأة يكفيها إلى أن يتهيأ له نقلها إلى بيته ، فأمر له يحيي بأربعة آلاف للمهر ، وبأربعة آلاف لثمن منزل ، وبأربعة آلاف لما

(١) العقيق : بفتح أوله وكسر ثانيه ؛ يطلق على كل مسيل ماء شقه السيل فى الأرض ، فأنهره ووسعه ، وفى بلاد العرب عدة أعقة ، منها : عقيق باليمامة ، وعقيق بالمدينة ، وعقيق ببطن وادى ذى الحليفة ، وهو مهل أهل العراق من ذات عرق ؛ وعقيق بنى عقيل ، وعقيق البصرة وعقيق تهامة . وقد ذكر أكثر هذه الأعقة فى الشعر مميزة بأماكنها ، وكذلك أكثر الشعراء من ذكر العقيق مطلقاً كما ورد فى هذا الشعر ، ومثل هذا يصعب تمييزه .

(٢) سميك : من اسمه اسمك . الحصور : المبالغ فى حبس النفس عن الشهوات والملاهى . والمقصود يحيي بن زكريا عليهما السلام ، وكان يحيي بارعاً فى الشريعة الموسوية ، ومرجعاً مهماً لكل من يستفتى فى أحكامها ، وكان على أكمل أوصاف الصلاح والتقوى منذ صباه ، وهو الذى قال الله فيه : وآتيناه الحكم صبيا .

(٣) القابس : الطالب . العجلان : ضد البطىء .

يحتاج إليه المنزل ، وبأربعة آلاف للبنية ، وبأربعة آلاف يستظهر بها . فأخذ عشرين ألفاً ، وانصرف .

وهذا رجل آخر ، يدخل عليه وينشده :

رأيتُ يحيى — أتمَّ الله نعمته عليه — يُؤْتِى الذى لم يُؤْتِهِ أحدُ
ينسَى الذى كان من معروفهِ أبدا إلى الرجال ، ولا ينسى الذى يَعِدُ

فيقضى حوائجه ويصله ، بجملة من المال :

وهذا مروان بن أبى حفصة يلقى الفضل بن يحيى ، وقد شخص إلى عمله فى سنة ثمان وسبعين ومائة وينشد :

إذا أمُّ طِفلٍ ، راعها جوعُ طِفْلها غَذَته بذ كْرِ الْفَضْلِ فاسْتَعْصَم الطِّفْلُ(١)
لِيَحْيا بك الإسلامُ ، إنك عِزُّه وإنك من قومٍ صغيرهمُ كَهْلُ(٢)

فيصله بمائة ألف درهم ، ويكسوه ، ويهب له جارية كاسية حالية ، وأشياء أخرى ؛ وقدرت الجائزة ورقها وعروضها ، بسبعمائة ألف درهم(٣) .

* * *

تعليق على مسلك الشعراء معهم :

لذلك نستطيع أن نقول : إن جود البرامكة كان عن طبع فيهم ، ساعد

(١) استعصم : استمسك ولجأ .

(٢) يعنى أن صغارهم فى السن لهم عقول كبيرة وكأن لهم تجارب الكهول .

(٣) وقد ورث أبناؤهم حديث الكرم عنهم ، وفخروا بهم ، ومنهم : جحظة البرمكى النديم الأديب الإخبارى ، صاحب الغناء والألحان والنوادر ، وكان فقيراً ، يكسب بشعره وغنائه ، ويكرم لآبائه ومن شعره :

أنا ابن أناس مول الناس جودهم فأضحوا حديثاً للنوال المشهر
فلم يخل من إحسانهم لفظ مخبر ولم يخل من تقريظهم بطن دفتر

وهو من ذرية موسى بن يحيى بن خالد ، توفى سنة ٣٢٤ ﻫ ، وأخباره فى شذرات الذهب ج ٢ ، ووفيات الأعيان ج ١ ، وتاريخ بغداد المجلد الرابع . وله أخبار منتثرة فى أجزاء كثيرة من الأغانى .

عليه يسر ورخاء ، وسلطان مبسوط وجاه عظيم ، وجانب مرهوب ، وتدبير حكيم ، وسياسة رشيدة ، وتقليد موروث .

فهل كانوا يتأثرون بالأهدام الخلقان ، والأسمال البالية ، فيعطون ؟

وهل كانوا يرقون للشعراء ، ويتأثرون بشعرهم ، ويرثون لهم ، فيعطونهم ؟

قد يكون هذا سبباً من أسباب العطاء ، وقد تكون هناك أسباب أخرى ، تختفى وراء ما ظهر ، يرمون من ورائها إلى تحقيق سياسة عليا ، تدق عن فهم عامة الناس ، وإلا فما بالهم يعطون الأغنياء ليزيدوهم غنى ؟ وما بالهم يبالغون فى تقدير الشعراء وتقريبهم ، ومنحهم جوائز دونها جوائز الخليفة نفسه ، كأنما كانوا يجيزونهم على البيت بل الكلمة، بل كأنهم كانوا يمنحونهم على كل حرف من حروف القصيدة شيئاً ؟ وكانت طريقتهم هذه مغرية للشعراء ، حافزة لهم على المبالغة فى مدحهم ، والتنافس على الإجادة والمبالغة فى الوصف .

ولقد طغوا على الخليفة ، وصرفوا عنه كثيراً من الشعراء ؛ لأن الشاعر من خلقه أنه لا يهمه من يمدحه ، وإنما تهمه جائزته ، فحيث يجد جائزة أسنى ، وحيث يجد تقديرا أعلى وأربح – يوجه لسانه ، ويطلقه بالمديح ، فلا عجب أن رأينا الشعراء يتزاحمون على أبوابهم ، ويتنافسون فى أخذ جوائزهم .

تشجيعهم للأدباء :

وإن تقريب الشعراء إليهم ، وإغراءهم بالجوائز الكبيرة ، وانقطاع الشعراء لهم ؛ يعتبر تشجيعاً للأدب ، وخلقاً للمنافسة بين الشعراء ، وحملا لكل منهم على الإجادة ، وإيجاد الجو يتنافسون فيه .

ولم يكن تشجيعهم للأدب منتهياً عند صلتهم بالشعراء الذين يمدحونهم ، وينقطعون إليهم ؛ بل إنهم شجعوهم على سلوك طرق أخرى غير هذه ؛ فهذا أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، يقرأ كتاب كليلة ودمنة ، الذى وضعه

أو ترجمه ابن المقفع ، فيعجبه هذا الكتاب ، فينظمه شعراً ، ويخرجه بعد أن ينقطع له ثلاثة أشهر : فى أربعة عشر ألف بيت ، ويهديه إلى يحيى ابن خالد البرمكى ، فيعجب له يحيى ، ويعجب منه ، وينفحه عشرة آلاف دينار ، ولكن هذا الكتاب الذى نظمه أبان ، ضاع مع ما ضاع من الآثار الأدبية العربية ، التى قضى عليها التعصب على البرامكة بعد نكبتهم ، أو التى أطاحتها الحوادث السياسية التى عصفت بشىء غير قليل من المجد الأدبى العربى ، فلم نعثر إلا على أبيات قليلة جداً منتثرة هنا وهناك فى بطون كتب الأدب ، ولعل أكثره ما وجدناه فى كتاب الأوراق للصولى ، وهو لا يتجاوز ثمانين بيتاً(١) .

وممن نظم كتاب كليلة ودمنة أيضاً ، سهل بن نوبخت ، وقدمه هدية ليحيى بن خالد البرمكى ، فأجازه عليه ، إلا أن هذا النظم غير موجود ، ووقفنا على خبره من كتاب كشف الظنون .

وأكبر الظن عندى أن الكتب التى كتبها أبان ، إنما كان يقصد بها ساحة يحيى وأولاده ، لأنهم جميعاً فرس ، ولأن هذه الكتب كلها ، فيها إحياء للثقافة الفارسية والعقل الفارسى ؛ وكان يحيى وأولاده يشجعونه ويجيزونه ، وإلا ففيم ينظم سيرة : أنو شروان(٢) ، وكتاب مزدك(٣) ، وسيرة أردشير (٤) ،

(١) الأوراق فى أخبار آل عباس وأشعارهم لمحمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ ﻫ ، والأبيات فى نسخة خطية بمكتبة المؤلف .

(٢) أنوشروان : تولى ملك الفرس بعد أبيه قباذ ، وكانت الدولة ساءت حالها ، فعمل على إصلاحها ، وبدأ بقتل رءوس المزدكية ، ورد الأموال إلى أهلها ، وعمر الجسور والقناطر ، وأصلح الخراب ، وتفقد الأساورة وأعطاهم ، وبنى القصور والحصون ، وتخير الولاة والعمال والحكام ، وارتجع البلاد التى قصت من أطراف المملكة ، وحارب ملك الروم واستولى على كثير من بلاده ، ونظم الخراج ؛ وفى زمنه ولد محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣) تجد الحديث عن مزدك فى بحث « الزندقة » .

(٤) هو أردشير بن بابك ، أول ملوك بنى ساسان ، وأول من رتب الرعية على طبقات =

وغيرها من الكتب الفارسية(١) .

بل لعل البرامكة أغروه بهذا ، حتى يسهل على الناس قراءة هذه الكتب وحفظها وتناقلها ؛ لأن الشعر فى هذا أيسر من النثر .

وكان سيبويه زعيم نحاة البصرة يفد إليهم ، ويجلس فى مجالسهم ، ويناظر ويحاضر ، ويسأل فيجيب ويستوضح فيوضح .

وإذ كان يحضر إليهم سيبويه يجتمع فى مجالسهم أنداده من العلماء ، ونظراؤه من النحاة ، كالفراء وخلف الأحمر والكسائى ، وغيرهم من رجال طبقتهم .

وأكثر من هذا أن يحيى البرمكى نفسه كان يهيئ للمناظرات التى تقوم بين العلماء فى مجلسه ، وهو الذى استدعى الكسائى ليناظر سيبويه فتناظرا فى مجلس مشهور ، روت أخباره كتب الأدب(٢) .

=ووضع لهم الكتب فى الآداب الملوكية عن أحوال الدين والدنيا ، وعلم مراتب الخلق فى الديوان والدول ، ونصب الموبذان (والموبذان : كبير القضاة) ، واتخذ له وزيراً ؛ وكان قوياً صارماً ، محمود السيرة ، مظفر الأثر ، وله راية ؛ مدن المدن ، وكور الكور ، وعمر البلاد .

(١) الفهرس لابن النديم ص ١٧٢ ، ص ٢٣٢ .

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطى ج ٣ ص ١٥ .

البرامكة والأدب

إن البرامكة كان لهم فى دولة الشعر إمارة ورياسة ، وليسوا هم الذين كانوا ينظمون الشعر أو ينشدونه ، ولكنهم كانوا يبعثون الشعراء ، ويغرونهم بالقول فيهم ، وكان الشعراء لا يتورعون عن الوقوف بأبوابهم ، والإنشاد أمامهم ، مهما تكن منزلتهم فى الشعر أو فى الدولة أو فى مجالس الخلفاء أو عند العلماء ؛ أو غير ذلك ؛ لأن منزلة البرامكة السياسية ، ومركزهم الاجتماعى ، وحالتهم الاقتصادية وجميل صلتهم بالناس ، وعظيم عطائهم — كل ذلك جعل من شعرائهم ، أو من الشعراء الذين مدحوهم ، مروان بن أبى حفصة ، وأبا نواس ، وأبا العتاهية ، ومسلم بن الوليد ، ومنصورا النمرى ، وأبان ، والعتابى ، والرقاشى ، وابن مناذر ، وأشجع ، والتيمى ؛ وغيرهم .

فهؤلاء جميعاً ألسنة تنطق بفضل البرامكة على الإسلام والدولة ، وأنشئوا فيهم قصائد خلدت على الأيام ، وستظل خالدة ، وكثير منها يعتبر من عيون الشعر العربى فى الباب الذى وردت فيه .

ولا نستطيع أن نستقصى ما ورد فى مديحهم فى كتب الأدب ؛ فإن هذا يجعل الحديث يطول بنا ، ولكن حسبنا أن نذكر منه شيئاً — غير ما قدمنا — يصوّر لنا كيف كان الشعراء يمدحونهم ، وكيف كانوا يكدون قرائحهم ، ليأتوا بالجيد من الشعر ، ليسير فى الناس ؛ لأنه فى مدح البرامكة .

بعض الشعراء الذين مدحوا البرامكة

١ — أبو نواس(١) :

بنى الفضل بن يحيى قصراً أنفق عليه كثيراً ، فمدحه الشعراء، وهنئوه به ؛ ومن هؤلاء الشعراء أبو نواس ، إذ يقول :

أَرَبْعَ البِلَى إنَّ الخشوعَ لبادِ   عليْكَ وإنى لم أَخُنْك وِدادى (٢)
فَمَعْذِرَةً منِّى إليك بأَنْ تُرَى   رَهِينَةَ أَرْواحٍ وَصَوْبِ غَوادى (٣)
وإن كنتَ قد بُدِّلْتَ بُؤْسى بنعمةٍ   فقد بُدِّلَتْ عَيْنى قَذًى برُقاد (٤)
سأرحل من قُودِ المهارى شِمِلَّةً   مُسَخَّرَةً لا تُسْتَحَثُّ بحاد (٥)
مَعَ الرِّيحِ ما قامتْ وإنْ هى أَعْصَفَتْ   تَهُوسُ بِرَأْسٍ كالْعَلاةِ وَهادِ (٦)
فكَمْ حَطَّمَتْ مِن جَنْدَلٍ بِمَفازَةٍ   وخاضَتْ كُتَيَّارِ الفُراتِ بِواد

---

(١) أبو نواس : هو الحسن بن هانىء ، نشأ فى البصرة ماجناً مشهراً بالشراب واللذات . أخذ الشعر على والبة بن الحباب وبرع فيه حتى بذ أهل عصره . ومدح الخلفاء ، واتصل بالأمين العباسى خاصة ، ووفى له بعد نكبته . مات سنة ١٩٨هـ .

(٢) الربع : الدار بعينها ، حيث كانت ، والمحلة ، والمنزل ، وما حول الدار . وهذا مطلع قبيح ، أخذه النقاد على أبى نواس ؛ لأنه لم يراع مقتضى الحال ، فهو إذ يهنىء ببناء قصر جديد ، يتمنى لصاحبه دوام النعيم ، والتمتع بقصره — يقول له : أربع البلى .

(٣) الرهينة : كل ما احتبس به شىء فهو رهينة ، يقال : أنا رهين بكذا ورهينة ، مأخوذ به ، وكل نفس بما كسبت رهينة . الأرواح : جمع روح ؛ وهو نسيم الريح . غوادى : جمع غادية ؛ وهى السحابة ، تنشأ غدوة أو مطرة الغداة . الصوب : المطر .

(٤) القذى : ما يقع فى العين من تبنة أو غيرها .

(٥) الشملة : الناقة السريعة . القود : جمع قوداء ، وهى الناقة الذلول المنقادة .

(٦) العلاة : السندان وحجر يجعل عليه الأقط ، الهادى : العنق . تهوس : تسير فى الليل بجراءة . أعصفت الريح : اشتدت .

وما ذاكَ فى جَنْبِ الأَمِيرِ وزَوْرِهِ ... لِيَعْدِلَ مِنْ عَنْس مَدَبٌ قُرادُ (١)
رَأَيْتُ لِفَضْلٍ فى السَّماحَةِ هِمَّةً ... أطالت ، لَعَمْرِى غَيْظَ كُلِّ جَواد
فَتًى لا تَلُوكُ الخَمْرُ شَحْمَةَ مالِهِ ... وَلَـكِنْ أيادٍ عُوَّدٌ وَغَواد
تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجاً إلى باب دَارِه ... كأنهمُو رِجْلاً دَبًى وَجَراد (٢)
فَيَوْمًا لإلْحاقِ الفقيرِ بِذِى الغِنَى ... ويَوْمًا رِقابٌ بُوكِرَتْ بِحَصَاد
أَظَلَّتْ عَطاياه نِزارًا وأشْرَفَتْ ... على حِمْيَرٍ فى دَارِها وَمُرَاد (٣)
وكُنَّا إذا ما الحَائِنُ الجَدِّ غَرَّه ... سَنا بَرْقٍ غاوٍ أو ضَجيجُ رِعاد (٤)
تصدّى له الفَضْلُ بْنُ يحيى بن خالدٍ ... بماضِى الظُّبَى يَزْهَاهُ طُولُ نِجادِ
أمامَ خَمِيسٍ أُرْجُوانٍ كأنَّهُ ... قَمِيصٌ مُحُوكٌ مِنْ قَناً وَجِياد (٥)
فما هُوَ إلاَّ الدَّهْرُ يأتى بِصَرْفِه ... على كُلِّ مَنْ يَشْقَى به وَيُعادى
سلامٌ على الدُّنيا إذا ما فُقِدْتُمو ... بَنِى بَرْمَكٍ مِنْ رائحين وَغاد (٦)

---

(١) العنس : الناقة الصلبة الشديدة ، يريد الشاعر أن يقول للربع الذى يخاطبه فى هذه الأبيات : إنه قد استبدل بالنعيم بؤسا ، كما استبدلت عينه بالنوم والراحة قذى ، وأنه سينتقل على ناقة سريعة بطبعها فلا يستحثها على السير قائدها ، فهى تساير الريح هادئة أو شديدة ، لا يعوقها شىء ، فهى تقطع الصخور فى الصحارى ، وتسرع فى الوديان إسراع الماء فى منحدره . يفعل ذلك كله حبا للأمير ، ورغبة فى الوصول إليه .

(٢) الرجل : الطائفة من الشىء ، والدبا : أصغر الجراد والنمل .

(٣) يعنى أن له يومين : يوم جود يغنى فيه الفقراء ويوم بأس وحرب ، يدق فيه رقاب الأعداء . وعطاياه شملت العدنانيين والقحطانيين جميعاً .

(٤) الحائن : الأحمق الجاهل .

(٥) إذا حدثت أحداً نفسه بالخروج أو التمرد بسماع غواية غاو ، أو خداع مخادع — خرج إليه الفضل بن يحيى فى جيش عظيم ، كامل السلاح ، لا يلبث أن يأتى عليه .

(٦) بعض الباحثين يذكر أن هذا البيت هو ختام القصيدة ، وعابوه على أبى نواس أيضاً ، كما عابوا عليه مطلعها ، وحكموا على أبى نواس بقلة الذوق ، وحكموا على قصيدته بخلوها من براعة المطلع وبراعة المقطع .

بِفَضْلِ بْنِ يحيى أَشْرَقَتْ سُبُلُ الْهُدَى ... وأَمَّنَ رَبِّى خَوْفَ كُلِّ بلاد

فَدُونَكَها يا فَضْلُ مِنِّى كَرِيمَةً ... ثَنَتْ لكَ عِطْفًا بَعْدَ عِزِّ قياد(١)

خَلِيلِيَّةٌ فى وَزْنِها قُطْرُبِيَّةٌ ... نَظَائِرُهَا عِنْدَ الْمُلوكِ عَتَادى(٢)

وما ضَرَّهـا ألاَّ تُعَدَّ لِجَرْوَلٍ ... ولا الْمُزَنِى كَعْبٍ ولا لِزِيَاد(٣)

وكان أبو نواس لا يتحرج من أن يبالغ فى مدح الفضل ، ويظهر مكانته عند الخليفة ، ومنزلته فى سياسة الدولة ، ومن ذلك قوله(٤) :

قولا لهرونَ إمامِ الهدى ... عند احْتفالِ المجلس الحاشدِ

نصيحةُ الفضلِ وإشفاقهُ ... أَخْلَى له وجهَك من حاسد(٥)

بصادِق الطاعةِ ديَّانها ... وواحدِ الغائبِ والشاهدِ(٦)

أنتَ على ما بك من قدرة ... ما أنت مثلَ الفضلِ بالواجد

أَوْحَدَه اللهُ فمـا مِثْلُه ... لطالبٍ ذاكَ ولا ناشِدِ

ليس على الله بِمُسْتَنْكر ... أَنْ يجمعَ العالَمَ فى واحد

---

(١) يعنى أنه يقدم إليه قصيدة كريمة ، فقد انقادت له قريحته فى مدحه ، بعد أن كانت تتأبى عليه ، وهذه قلة ذوق أيضاً .

(٢) خليلية : منسوبة إلى الخليل بن أحمد ، مخترع علم العروض . قطربية : نسبة إلى قطرب أحد علماء اللغة والنحو .

(٣) جرول : الحطيئة . المزنى : كعب بن زهير . زياد : النابغة الذبيانى ، والثلاثة من الشعراء الفحول .

(٤) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ٦٣ .

(٥) يريد أن يستعطف الرشيد للفضل ، أى أن مبالغته فى إخلاصه ونصحه لا تجعل لحاسد مجالا عندك .

(٦) أى أنه من حيث الطاعة لك والخضوع فى حضوره وغيبته سواء .

٢ – مسلم(١) بن الوليد :

دخل مسلم يوماً على الفضل بن جعفر بن يحيى ، وقد كان أتاه خبر سره ، فجلس للشعراء فمدحوه ، وأثابهم ، ونظر فى حوائج الناس ، فقضاها ، وتفرق الناس عنه ، وجلس للشراب ، ومسلم غير حاضر لذلك ، وإنما بلغه حين انقضى المجلس ، فجاءه ، فأدخل إليه ، فاستأذن فى الإنشاد ، فأذن له فأنشده قوله فيه :

أَتَتْكَ الْمطايَا تَهْتَدِى بِمَطِيَّةٍ   عليها فَتًى كالنَّصْلِ يُؤْنِسُه النَّصْلُ

يقول فيها :

وَرَدْن رواقَ الْفَضْلِ فَضْلِ بْنِ جَعْفرٍ   فَحَطَّ الثَّنَاءَ الْجزْلَ نَائِلُهُ الْجَزْلُ(٢)
فَتًى تَرْتَعِى الآمالُ مُزْنَةَ جُودِه   إذا كانَ مَرْعَاها الْأَمَانِىُّ والبطل(٣)
تَسَاقَطُ يُمْنَاه نَدًى ، وشِمالُه   رَدًى ، وعُيونُ الْقَوْلِ مَنْطِقُه الْفَصْلُ

(١) مولى أنصارى ، لقبه صريع الغوانى ، وهو من شعراء الدولة العباسية المتقدمين ، ولد ونشأ بالكوفة ؛ وقيل إنه أول من عرف بالبديع فى شعره ، ولعلهم أرادوا أنه أول من قصد إليه قصداً ، وتعمده تعمداً ، وإلا فإننا نجد ألواناً من البديع فى شعر المتقدمين ، حتى الجاهليين ؛ كامرئ القيس . ومسلم كان شاعراً متفنناً حسن النمط جيد القول فى الشراب ، وله معان طريفة مبتدعة . وكان مسلم منقطعاً إلى يزيد بن مزيد ، ومحمد بن منصور بن زياد ، ثم الفضل ابن سهل ، ومع ذلك فإن له فى البرامكة مدائح كثيرة .

(٢) الفضل بن جعفر : هذه القصيدة فى مدح الفضل بن جعفر ، وهذا يدل على أن جعفراً كان له ابن يسمى الفضل ، وحاولت أن أعثر على ما يؤيد ذلك فيما بين يدى من المراجع واستعنت ببعض الأصدقاء فى الوصول إلى هذا فلم نهتد ، ولم أجد إلا أن جعفراً كان يكنى أبا الفضل ، ولعل هذا لأن له ابناً ، يسمى الفضل ؛ وقد أيد ذلك قصة ذكرها الجهشيارى فى كتابه الوزراء والكتاب ص ١٩١ .

(٣) البطل : الذهاب بلا فائدة . يقول : تحيا به آمال الناس وتتحقق بعد أن كانت مجرد آمال بعيدة الوقوع ، لا يرجو صاحبها تحقيقها .

أَلَحَّ على الأيام يَقْرِى خُطوبَها ... على مَنْهجٍ أَلْفَى أباه به قَبْلُ (١)

عَجُولٌ إلى ما يُودِعُ الحَمْدَ ماله ... يَعُدُّ النَّدى غُنْماً إذا اغْتَنَمَ البُخْلُ (٢)

كأنَّ « نَعَمْ » فى فيه يَجْرِى مَكانَها ... سُلالةُ ما مَجَّتْ لأفراخِها النَّحْلُ (٣)

جَرَى مُذْ حَواه المَهْدُ فى شأوِ جَعْفَرٍ ... إلى غايةٍ يَتْلو المِثالَ الذى يَتْلو

حَمولاً لِعِبْءِ الدَّهرِ يَنْهَضُ عَفْوُهُ ... به مُسْتَقِلاً حين لا يُحمَل الثِّقْلُ (٤)

إذا أَغْمَدَتْ هِمَّاتُه خَطْباً اغْتَدَت ... على مُنْتَضى رَأْىٍ يُمَرُّ به السَّحْلُ (٥)

كأنَّ مَجالَ العَيْنِ منه وقَلْبَه ... وغُرَّتَه نَصْلٌ حماه الصَّدا الصَّقْلُ (٦)

أَنافَ به العَلْياءَ يحيى وجعفرٌ ... فليس له مِثْلٌ ولا لهما مِثْلُ (٧)

فُروعٌ أصابَتْ مَغْرِساً فتمكَّنَتْ ... وأَصْلاً فصارَتْ حَيْثُ وجَّهها الأَصْلُ

لهُم هَضْبَةٌ تأوِى إلى ظِلِّ بَرْمَكٍ ... مَنُوطاً بها الآمالُ أطْنابُها السُّبْلُ (٨)

---

(١) يقرى الخطوب : يضيفها ويجمعها عنده ليحول بينها وبين الناس ، كما كان يفعل أبوه .

(٢) أودع ماله الحمد : دفعه إليه ليكون وديعة عنده ، وإذا كان البخلاء يعتبرون بخلهم غنماً ، لأنه يوفر لهم مالا ؛ فإن الممدوح يعتبر الكرم غنماً ، لأنه يوفر له مجداً وذكراً .

(٣) السلالة : ما انسل من الشيء . مجت : أخرجت المجاج ، وهو عسل النحل . والذى تمجه النحل لأفراخها هو العسل . فالممدوح لا يخرج من فيه إلا كل كلام حلو جميل كأنه العسل . وتقدير ما فى الشطر الثانى سلالة الشيء الذى مجته النحل لأفراخها .

(٤) يستطيع أن يحمل أعباء الدهر وحده فى الوقت الذى لا يستطيع أحد أن يحمل شيئاً منها .

(٥) السحل : الثوب لا يبرم غزله والحبل على قوة واحدة . ومررت به بالبناء للمجهول ، أمر : غلبت على المرة . والمرة : طاقة الحبل . وحبل ممر به : مفتول قوى . منتضى رأى : رأى قوى محكم .

(٦) منظره . وقلبه ، ووجهه — كلها صافية لامعة متلألئة كأنها نصل مصقول . لا يصدأ

(٧) أناف على الشيء : أشرف وزاد . ولم أجده متعدياً بنفسه .

(٨) يريد أن ممدوحه طيب الأصل والفرع ، فأصله ينتهى إلى برمك ، وبرمك من أشراف الفرس ، وكان الملوك يحجون إلى بيت النوبهار الذى يسدن له برمك ، وقد فصلنا ذلك فى غير موضع من ذلك الجزء .

أقرّتْ عليهم نِعْمَةُ اللهِ نِعْمَةً لهم فى رقاب النّاسِ ليس لها نَقْل
وَقَوْا حُرَمَ الأعراض بالبِيضِ والنَّدَى فأموالُهم نَهْبٌ وأعْراضُهم بَسْل (١)
حُبًا لا يطيرُ الجهْلُ فى عَذَباتِها إذا هى حُلّتْ لم يَفُتْ حَلّها ذَحْل (٢)
جرى آخذا يحيى مُقَلَّدَ جعفر وصلّى أمامَ السّابقين ابْنُه الفضل
بكف أبى العبّاسِ يُسْتَمْطَرُ الغِنى وتُسْتَنْزَلُ النُّعْمَى ويُسْتَرْعَفُ النَّصْل (٣)
ويُسْتَعْطَفُ الأمرُ الأبِىُّ بحزمه إذا الأمْرُ لم يَعْطِفه نَقْضٌ ولا فَتْل (٤)
له سَطَواتٌ غِبُّها العفْو ، بينها فوائدُ يُحْصَى قَبْلَ إحصائِها الرّمل
يَسُلُّ سَخِيماتِ الأمور إذا عَرَتْ بأرْوَعَ موقوفٍ على نزْعِهِ الخصْل (٥)
إذا خَلَت الأيّامُ من نَشْرِ نِعْمة تراءَتْ له فيها صنائعُ ما تَخْلو
مواهبُ لم تُغْصَب فتُعْقَلْ بمِثْلِها ولكِنْ بَقِيّاتُ الثّناء لها عقل
يُلَبِّى مُنادِى جَعْفرٍ وابْنِ جعفرٍ
إذا اعْتَرَتْ النَّكْباءُ واحْتَجَنَ الْوَبْل (٦)
بعَيْنَيْكَ آمالٌ تروحُ وتَغْتَدِى على جودِهِ يَقْتادُها القوْلُ والفِعْل

---

(١) البسل : الحرام ، والإبسال : التحريم ، فهم يحافظون على أعراضهم بأموالهم وسيوفهم .

(٢) الذحل : الثأر الحبوة : جلسة خاصة ، تشبك فيها اليدان حول الركبتين يريد أن يقول : إنهم حلماء ، لاينهضون من مجالسهم لجهل السفهاء ؛ ولكنهم لايفوتهم إدراك ثأرهم إذا نهضوا .

(٣) يسترعف النصل : يلوث بالدماء .

(٤) النقض : ضد الفتل .

(٥) السخيمات : الضغائن والأحقاد . الأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره ، أو بشجاعته . الخصل : إصابة الهدف .

(٦) احتجن الوبل : امتنع المطر عن النزول .

إذا ما أبو العبّاسِ حلّ ببلدةٍ ... كفاها الحيا واستُجْهِل الخوفُ والمحْل

أتتكَ الأمانيُّ اعتيِاداً ورَغبةً ... بِرِجلٍ من الآمالِ يَتْبعُها رِجل

تَبسّمَ عنك المَهْلُ في غايةِ النّدى ... كذلك يحيى كان قدّمه المَهْلُ

أسرّتْك آمالٌ فنالت بك الغِنى ... وجاءتك أُخْرى علّها أبداً نَهْل (١)

وما خوّلتكَ المكْرُماتُ سجيّةً ... حُبيتَ بها إلا وأنت لها أهل

أبوك استرَدّ الشّام إذ نفرَتْ به ... مُلقَّحةٌ شعْواءُ ليس لها بعْل

بجيشٍ كأنّ اللّيلَ بعضُ حديده ... تهادى الرّدى فيه الفوارسُ والرّجل

ولما تناءتْ بالقرابات منهمو ... حوادث تمرِيها الوقائعُ والأزْل (٢)

ومالتْ قناةُ الدّين فيهم وثُقِّفتْ ... قناةُ الرّدى واستعْذبَ المُهجَ القتل

نضا سيفَه فيهم بحقْن دمائهم ... وسفْك دماء عندها ضَحك التّبْل (٣)

أقام على أقطارِها شاهدَ الرّدى ... طليعةَ رأيٍ ، غِبُّه العفْوُ والبذل

إذا شاء أعطته الأنوفَ مقودةً ... صوارِمُ بيضٌ أو رُدينيّةٌ ذُبْل (٤)

هنالك أضحكن العِدى عن نفوسها ... وقد ضَحكت دَهْياءُ أنيابُها عُصْل (٥)

مرَى لهُمُو خِلفَيْنِ بالحتْفِ والنّدى ... لكلٍّ يدٍ من نزْعِ ساعدِها سَجْل (٦)

---

(١) العل : الشربة الثانية ، أو الشرب بعد الشرب تباعاً . النهل : أول الشرب .

(٢) الأزل : الضيق والشدة . تمريها : تساعد على وقوعها .

(٣) التبل : الإفناء .

(٤) إذا أراد جاءوا إليه أذلة خاضعين بما يسل عليهم من سيوفه ، و بما يصوب نحوهم من رماحه .

(٥) الدهياء : الشديدة ، ويقولون : داهية دهياء . عصل : معوجة فى صلابة . يريد أنهم تتكشف لهم مصيبة شديدة .

(٦) مرى الناقة يمريها : مسح ضرعها ، فدر لبنها . والخلف : حلمة ضرع الناقة أو طرفه أو المؤخر من الأطباء ، أو هو للناقة كالضرع للشاة . السجل : الضرع العظيم .

AUC - LIBRARY

بعيدُ الرضى لا يستميل به الهوى ... ولا يتعاطَى الجدَّ مَنْ رأيُهُ الهزْل (١)
إذا افترَّت الثغرَ الخطوبُ انبرَى لها ... بعابسةٍ مُفترُّها الأسْرُ والقتْل (٢)
وتَستَغرِقُ الشورَى بَديهةُ رأيِه ... وإن كان مَضرو بأعلى قَلْبه الشغْل (٣)
شهابُ أميرِ المؤمنين الذى به ... أضاء عمودُ القصْدِ واختزَبَ العدْلُ
إذا ضُيِّع الرأىُ استَشفَّ كأنه ... شواهِقُ رضوَى ليس فى خُلْقِه دَخْل (٤)
رقيبٌ على غَيْب الأمور ورَجْمها ... برأىٍ قويمٍ منه ؛ ما الغَصْبُ والخَتْل؟
يقوم بباغى الدِّين يحيى وجعفرٌ ... إذا لُحِىَ الإسلام واضطرَب الحَبْل
متى شئتَ رَفَّعْتَ الرِّواق على الغِنَى ... إذا أنت زُرْتَ الفَضْلَ أوْ أُذِنَ الفضْل

فطرب الفضل طرباً شديداً ، وأمر بأن تعدّ الأبيات ، فعدت ، فكانت ثمانين بيتاً ، فأمر له بثمانين ألف درهم ، وقال : لولا أنها أكثر ما وصل به الشعراء لزدتك ، ولكنه شأو لا يمكننى أن أتجاوزه ، يعنى أن الرشيد رسمه لمروان بن أبى حفصة ، وأمره بالجلوس معه ، والمقام عنده لمنادمته ، فأقام عنده وشرب معه ، وكانت على رأس الفضل وصيفة تسقيه كأنها لؤلؤة ، فلمح الفضل

(١) ليس رضاه قريباً ، فهو رجل جد ، والجاد قلما يهزل ، والهازل : لا يجد . وكان أولى به أن يقول : ولا يتعاطى الهزل من رأيه الجد .

(٢) افتر الشىء : استنشقه . وافترت الثغر الخطوب : أحاطت به واحتوته . يقول : إذا ظهرت المصائب ، تصدى لها الممدوح بوجه عابس ، وتغلب على الأعداء ، واحتواهم أسراً وتقتيلا .

(٣) إنه برأيه السريع الذى يقرله على البديهة ، يفتى بالصواب الذى لا يفتى به غيره ، مهما جهد المستشارون عقولهم للوصول إلى الصواب وإفتاؤه بالصواب على البديهة لا تؤثر فيه كثرة شواغله .

(٤) استشف : نظر إلى ما وراءه . الدخل : الداء والعيب والريبة يقول : إذا لم يظهر الرأى الصحيح ، كشفه ببديهته السليمة ، فوضح للناس وضوح المرئى العظيم ، الذى لا يشك أحد فى أنه يراه ، وهو كريم الخلق ، فلا عيب فيه .

مسلماً ينظر إليها ، فقال : قد وحياتي يا أبا الوليد أعجبتك ، فقل فيها أبياتاً حتى أهبها لك ، فقال :

إن كنتِ تَسْقِين غيرَ الرّاح فاسقِينى | كأساً ألذّ بهـا من فيك تَشْفينى
عيناكِ راحى ، ورَيحانى حديثُك لى | ولونُ خدّيك لَوْنَ الورد يكفينى
إذا نَهانِىَ عن شُرْب الطِّلا حَرَجٌ | فخمرُ عَيْنَيْك يُغْنينى ويَجْزِينى (١)
لولا علامات شيبَ لو أتت وعظت | لقد صحوتُ ولكن سوف تأتينى
أَرْضِى الشبابَ فإِن أهلِكْ فعَنْ قدَر | وإن بقِيتُ فإن الشَّيْب يُسْلِينى

فقال : خذها . بورك لك فيها ، وأمر بتوجيهها مع بعض خدمه إليه .

وقال أحمد بن المعلى الراوية : كتبت عنان(٢) جارية الناطفى لجعفر ، تطلب منه أن يقول لأبيه يحيى أن يشير على الرشيد بشرائها ، وكتبت إليه هذه الأبيات من شعرها فى جعفر .

يا لائمى جَهْلًا ، ألا تُقْصِرُ ؟! | مَنْ ذا على حَرّ الهوى يَصْبِرُ ؟
لا تَلْحَنِى إذا شَرِبْتُ الهوى | صِرْفاً ، فمَمْزُوجُ الهوى سُكَّرُ (٣)
أحاط بى الحُبُّ : فَخَلْفى له | بَحْرٌ ، وقُدَّامِى له أبْحُرُ
تَخْفِقُ رَاياتُ الهوَى بالرَّدَى | فَوْقِى ، وحَوْلى لِلهوَى عَسْكَرُ
سِيَّانِ عِنْدى فى الهوَى لَائمٌ | أَقَلَّ فيــه والذى يُكْثِرُ

---

(١) الطلا : الخمر .

(٢) عنان : جارية مولدة من مولدات اليمامة ، وبها نشأت وتأدبت ، وكانت صفراء جميلة الوجه ، شكلة ، مليحة الأدب والشعر ، سريعة البديهة ، وكان فحول الشعراء يساجلونها ، ويعارضونها ، فتنتصف منهم ، ولها مع أبى نواس وغيره معاناة ومراجعات كثيرة .

(٣) لا تلحنى : لا تشتمنى . الصرف : الخالص من الشراب . يقال : شراب صرف ؛ أى غير ممزوج .

AUC - LIBRARY

أنت المُصَفَّى من بَنِى بَرْمَكٍ يا جَعْفَرَ الْخَيْراتِ ، يا جَعْفَرُ
لا يَبْلُغُ الواصِفُ فى وَصْفِهِ ما فيكَ مِنْ فَضْلٍ ولا يعشر(١)
مَنْ وَفَّرَ الْمالَ لِأَغْراضِهِ فَجَعْفَرٌ أَغْراضُــــهُ أَوْفَر
دِيباجَــةُ الْمُلْكِ عَلَى وَجْهِهِ وَفى يَدَيْهِ العـارِضُ الْمُمْطِر(٢)
سَحَّتْ عَلَيْنـا مِنْهُما دِيمَةٌ يَنْهَلُّ منهـا الذَّهَبُ الأَحْمَرُ(٣)
لو لمست كَفَّـــاه جُلْمُودَةً نُضِّرَ فيهـا الوَرَقُ الأَخْضَر(٤)
لايَسْتَتِمُّ الْمَجْـــدَ إلّا فَتًى يَصْبِرُ لِلبَــذْلِ كما يصبر
يَهْتَزُّ تاجُ الْمُلْكِ من فَوْقِهِ فَخْرًا ويُزْهَى تَحْتَهُ المِنبَرُ(٥)
أُشَبِّهُهُ البَـدْرُ إذا ما بَدا أو غُرَّةٌ فى وَجْهِـه تَزْهر
واللهِ ما أَدْرِى أَبَدْرُ الدُّجَى فى وَجْهِـه أَمْ وَجْهُه أَنْوَرُ(٦)
يَسْتَمْطِرُ الزُّوّارُ منك النَّـدَى وأَنتَ بالزُّوّار تَسْـتَبْشِر

وكتبت تحت أبياتها حاجتها ، فركب من فوره إلى أبيه ، فأدخله على

---

(١) لا يعشر : لا يبلغ عشر ما فيك من فضل مهما بالغ فى وصفه .

(٢) الديباج : الثوب الذى سداه ولحمته حرير ، والجمع : دبابج ودبابيج ، والواحدة ديباجة . العارض : السحاب .

(٣) سحت : صبت الماء صبا غزيراً متتابعاً . ديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق . تقول : على وجهه علامة الملك ، وفى يديه وسائل الجود وكلاهما ننتفع به انتفاعاً عظيما ، فلنا جاهه وماله .

(٤) لو لمست يده صخرة صماء ، لنبت عليها الزرع الأخضر .

(٥) تصفه بالقوة والفصاحة .

(٦) تشبيهه بالبدر ، أو تشبيه البدر به : وصف له بالجمال ، والرجل لا يمتدح بأنه جميل وإنما يشبه بالبدر فى الشرف والرفعة وعلو المنزلة ، ولذلك عابوا على الشاعر قوله فى مدح الخليفة

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

الخليفة ، فأشار عليه بشرائها ، فقال : والله لا أشتريها ، وقد قال فيها الشعراء فأكثروا ، واشتهر أمرها .

وقال مسلم أيضاً ، يمدح جعفر بن يحيى :

داوَى فِلَسْطِينَ من أدْوائِها بطَلٌ ... فى صُورة الموت إلا أنه رَجُلُ(١)
فى عَسْكرٍ تَشْرَقُ الأرْضُ الفَضَاءُ به ... كالليلِ أنجُمُهُ القُضْبان والأَسَلُ(٢)
لا يُمْكِنِ الطَّرْفَ منه أن يُحيطَ به ... ما يأخذ السَّهلُ من عَرْضيه والجَبَلُ
سَلَّ المنونَ عليهم مِنْ مَنَاصِلهِ ... مِثْلَ العَقِيق ترامَى دُونَه الشُّعُلُ(٣)
مِنْ بَعْدِ ما عَظُمَتْ فى الدِّين شَوْكَتُهَا ... واستذأبَتْ شاتُها واستأسَدَ الوَعِلُ(٤)
ناضَلْتَ فيها الرَّدَى عن نَفْسِ ذائِدِها ... والمَوْتُ فى مُهَجِ الفُرسانِ يَنْتَضِلُ
أطعْتَ رَبَّكَ فيما الحقُّ لازمه ... حتى أطاعَكَ فى أعدائك الأجل
لم يُخْرِجِ النَّكْثُ قوماً عَن دِيارِهمو ... إلا رَمَتْهم بك الأَيَّامُ والدُّوَلُ(٥)
تَفْتَرُّ عَنْكَ العُلا إنْ عُدَّ واحِدُها ... حتى يكونَ إليك الخوفُ والأَمَلُ

---

(١) الأدواء : جمع داء ؛ يصفه بأنه رجل مخيف مفزع ، يرتعد منه الأعداء ، فكأنه الموت الذى يأتى عليهم ، مع أنه فى صورة إنسان .

(٢) تشرق : تغص وتمتلىء . الأسل الرماح ، واحده أسلة . القضبان : السيوف القاطعة . يصف جيشه بأنه ضخم عظيم ، يتجاوز مرأى العين . كثيف كقطع الليل . وسلاحه بأنه كثير لامع مضىء فى ليل كثافته .

(٣) العقيق : خرز أحمر ، أو ما يبقى فى السحاب من شعاعه ، وبه تشبه السيوف ، والمناصل : السيوف ، واحدها : منصل . ترامى : تترامى وتتهادى . الشعل : لهب النار ، واحدها : شعلة .

(٤) استذأبت : صارت كالذئب . استأسد : صار كالأسد . وهما مثلان يضربان للضعيف ، يتصنع القوة ، وللذليل يتصنع العزة . الوعل : تيس الجبل .

(٥) النكث : نقض العهد .

فَسَيْفُ جَعْفَرَ أعطاهُمْ أمانَهمو ... وَرأىُ يَحْيى أراهُمْ غِبَّ ما جَهِلوا

ومن مدحه لجعفر أيضاً :

تداعَتْ خطوبُ الدَّهرِ عن جارِ جَعْفرٍ ... وأمْسَكَ أنفاسَ الرغائبِ سائلُه
هو البحرُ يَغْشَى سُرَّةَ الأرض سَيْبُه ... وتُدْرِكُ أطرافَ البلادِ سَوَاحِلُه (١)
فلو لم يكن فى كفِّه غيرُ رُوحِه ... لجادَ بها ، فَلْيَتَّقِ اللهَ سائلُه
تصدَّعتِ الآمالُ عنك بألْسُنٍ ... مُحَمَّلَةٍ شُكْرَ الذى أنت فاعِلُه
لَهاجسُ نفسٍ تَرْتَجِيك ظنونُها ... أود لها من عُرْفٍ أُخَرُ باذِلُه
وما ضَرَعَتْ للدَّهرِ منك سَجِيَّةٌ ... وإن طرقت بالْمُقْزِعات بَلابِلُه (٢)
ولِلهِ سَيْفٌ ما على الأرضِ مِثْلُه ... مَضَارِبُه يحيى وأنْتَ مَقَاتِلُه

٣ — سلم (٣) الخاسر :

وكان سلم الخاسر من شعراء البيت البرمكى ؛ دخل يوم نيروز (٤) على الفضل ابن يحيى ، والهدايا بين يديه ، فأنشد :

أمِن رَبْعٍ تسائله ... وقد أقوت منازله ؟!

(١) سيبه : عطاؤه . سرة الأرض : أفضل مواضعها . أى أن عطاءه شامل شمول نفع البحر الذى يعطى القريب ، ويعطى البعيد سحائب .

(٢) أقزع له فى المنطق : تعدى فى القول ، فهو مقزع . البلابل : الوساوس وشدة الهم . ضرعت : خضعت وتذللت وضعفت أى من طبعك ألا تخضع للدهر مهما حاول الدهر إعناتك وإرغامك وإذلالك .

(٣) سلم بن عمرو الخاسر : راوية بشار وتلميذه ؛ شاعر مطبوع ، متصرف فى فنون الشعر ، على نمط بشار ومذهبه ، ولقب الخاسر ؛ لأنه ورث من أبيه مصحفاً ، فباعه واشترى بثمنه طنبوراً ، وكان صديقاً لإبراهيم الموصلى وأبى العتاهية ، وكان سلم منقطعاً إلى البرامكة وإلى الفضل بن يحيى خصوصاً .

(٤) النيروز عيد من أعياد الفرس ؛ ومعناه اليوم الجديد .

بقلبى مِن هَوَى الأطلا ل حُبٌّ ما يزايلُه
رُوَيْدكمُو عن المشعو ف إن الحبَّ قاتله (١)
بلابل صدره تَسْرى وقد نامت عواذله (٢)
أحقُّ الناسِ بالتفضيـ ل من ترجى فواضله (٣)
رأيت مكارمَ الأخلا ق ما ضَمَّت حمائله (٤)
فلست أرى فتى فى النا س إلا الفضلُ فاضله
يقول لسانه خيرا فتفعـــلُه أنامله
ومهما يُرْجَ من خير فإن الفضلَ فاعِله

وكان إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق حاضرين ، فقال لإبراهيم : كيف ترى وتسمع ؟ ، قال : أحسن مرئى ومسموع ، وفضل الأمير أكثر منه ، فقال : خذوا جميع ما أهدى إلى اليوم ، فاقتسموه بينكم أثلاثاً إلا ذلك التمثال ، فإنى أريد أن أهديه اليوم إلى دنانير ، ثم قال : لا والله ، ما هكذا تفعل الأحرار يُقوم ويدفع إليهم ثمنه ، ثم نهديه ، فقوم بألفى دينار ، فحملها إلى القوم من بيت ماله ، واقتسموا جميع الهدايا بينهم .

وكان من شعراء البيت البرمكى أبو النضير (٥) ، ومن قوله يهنىء الفضل ابن يحيى :

---

(١) الشعفة : رأس القلب عند معلق النياط ، ومنه شعفنى حبه كنع ؛ أى غشى الحب القلب من فوقه .
(٢) أى وساوس صدره تهيج حينما ينام العواذل .
(٣) الفواضل : الأيادى الجميلة .
(٤) الحمائل : جمع حمالة وحميلة وهى علاقة السيف ، وفى هذا البيت ما يسميه البيانيون كناية عن نسبة .
(٥) هو عمر بن عبد الملك ، شاعر عباسى بصرى ، ليس من المعدودين المتقدمين ، ولا من

ويفرحُ بالمولود من آل برمكٍ ... بُغاةُ النَّدَى والسيفُ والرمحُ ذو النَّصْل
وتَنْبَسِطُ الآمالُ فيه لِفَضْلِهِ ... ولا سِيَّما إنْ كان من وَلَد الفضل

ومن قول الفضل بن يحيي لأبي النضير أنت القائل فينا :

إذا كنت فى بغداد من رأس فَرْسَخٍ ... وجدْتَ نَسِيم الجودِ من آل برمك

لقد ضيقت علينا جداً ، قال : أفلأجل ذلك أيها الأمير ضاقت علىّ صلتك ، وضاقت عنى مكافأتك ؟ ، وأنا الذى أقول :

تشاغَلَ الناسُ بِبُنْيَانِهِ ... والفَضْل فى تَدْبيره جاهد
كل ذوى الفضل وأهل الندى ... للفضل فى تدبيره حامد

وعلى ذلك فما قلت البيت الأول كما بلغ الأمير ، وإنما قلت :

إذا كنتَ من بغدادَ مُنْقَطِعَ الثرى ... وجدْتَ نسيمَ الُجودِ من آل برمك

فقال الفضل : إنما أخرت عنك لأمازحك ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

٤ — سعيد بن وهب :

ومن شعرائهم أيضاً سعيد بن وهب(١) ، الذى دخل فى يوم على الفضل ابن يحيي ، وقد جلس للشعراء فجعلوا ينشدون ، ويأمر لهم بالجوائز ، حتى لم يبق منهم أحد ، فالتفت إلى سعيد كالمستنطق ، فقال : أيها الوزير ؛ إنى

الساقطين ، وكان فى البصرة خليعاً ، فاسقا متماجناً ، يصاحب الحلفاء الفاسقين المجان ، ثم انقطع إلى البرامكة ، فأغنوه إلى أن مات .

(١) بصرى المولد والمنشأ ، ثم صار إلى بغداد ، فأقام بها ، وكانت الكتابة صناعته ، فتصرف مع البرامكة فاصطنعوه ، وتقدم عندهم ، وكان شاعراً مطبوعاً ، وأكثر شعره فى الغزل والتشبيب ، وكان مشغوفاً بالشراب ثم تنسك وتاب ، وحج راجلا على قدميه ، ومات على توبة وإقلاع ، ومذهب جميل وكان إذا وجد شيئاً من شعره مزقه وأحرقه .

ما كنت استعددت لهذه الحال ، ولا تقدمت لها عندى مقدمة ، فأعرفها ، ولكن قد حضرنى بيتان ، أرجو أن ينوبا عن قصيدة ، فقال هاتهما ، فرب قليل أبلغ من الكثير ، فقال :

مدح الفضل نفسه بالفعال   فعلا عن مديحنا بالمقال
أمرونى بمدحه ، قلت : كلا   كبر الفضل عن مديح الرجال

فطرب الفضل ، وقال أحسنت والله وأجدت ، ولئن قل القول ، ونزر ، لقد اتسع المعنى وكثر ، ثم أمر له بمثل ما أعطاه كل من أنشده مديحاً يومئذ ، وقال لا خير فيما يجيء بعد بيتيك وقام من المجلس ، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لايتناشدون سواهما .

٥ ــ نصيب(١) العباسى :

ومن الشعراء الذين مدحوهم نصيب ، فقد دخل فى يوم على الفضل بن يحيى مسلماً ، فوجد عنده جماعة من الشعراء قد امتدحوه ، فهم ينشدونه ، فيأمر لهم بالجوائز ، ولم يكن امتدح ، ولا أعد له شيئاً ، فلما فرغوا ، وكان يروى قولا فى نفسه ، استأذن فى الإنشاد ، ثم أنشد قصيدته التى أولها :

طرقَتْك مَيَّةُ والمزارُ شَطِيبُ(٢)   ونأتْك بالهِجْران وهْى قَرِيبُ
لله مَيَّــــةُ خُــلَّةً(٣) لو أنها   تَجْزى الوِدادَ بودها وَتُثِيبُ

(١) مولى المهدى ، نشأ باليمامة ، واشترى للمهدى فى حياة المنصور ، فلما سمع شعره ، قال : والله ما هو بدون نصيب مولى بنى مروان ، فأعتقه ، وأقطعه ضيعة بالسواد ، وله فى مدح الخلفاء والبرامكة شعركثير ، وكان ملعوناً هجاء .

(٢) شطيب : بعيد .

(٣) خلة : صديقة مخلصة .

وكأن ميّة حين أتْلعَ جيدُها   رشأٌ أغنُّ من الظباء ربيب (١)
نصفان ما تحت المؤزّر عاتك   دَعِص أغرُّ وفوق ذاك قضيب (٢)
ما للمنازل لا تكاد تجيب   أنّى يجيبك جَنْدل وجَبوب (٣)
جادتك من سَبَل الثُّريا ديمَةٌ   ريًّا ومن نوْء السِّماك ذَنُوب (٤)
فلقد عَهِدْتُ بك الخِلالَ نَقِيَّةً   والدهرُ غَضٌّ والجَنابُ خصيب
إذ للشباب عليْكَ من وَرَق الصِّبا   ظلٌّ وإذ غُصْنُ الشبابِ رَطيب (٥)
طرِب الفؤاد ولاتَ حِينَ تَطَرُّبٍ   إنَّ الموكَّل بالصِّبا لَطَروب (٦)
وتقول ميّةُ ما لِمِثْلِك والصِّبا   واللَّوْنُ أسودُ حالكٌ غِرْبِيب
شاب الغرابُ وما أراكَ تَشِيبُ   وطِلابُك البيضَ الحسانَ عجيب

---

(١) أتلع جيدها : طال عنقها . الرشأ : ولد الظبية . أغن : ذو غنة .

(٢) العاتك : الخالص من كل شيء ولون . يريد أن نصفها الأسفل ملء ، ونصفها الأعلى كالقضيب فى استوائه .

(٣) الجبوب : المدرة الغليظة تقطع من وجه الأرض . ونلاحظ هنا أن الشاعر عاد إلى التصريع فى هذا البيت ، وقد بدأ حديثه عن الأطلال . فكأنه مطلع للقصيدة .

(٤) الديمة : مطر يدوم فى سكون بلا برق ولا رعد . النوء : النجم مال للغروب . السماك : كوكب نير ، وهما سماكان ، يقال لأحدهما : السماك الرامح ، وللآخر السماك الأعزل ، الذنوب : الدلو التى لها ذنب أو هى الدلو العظيمة ما كانت مملوءة ماء ، وهى تذكر وتؤنث . السبل : المطر قبل أن يصل إلى الأرض . يريد أن يقول : نزلت عليك مياه الأمطار من الثريا ، فإذا مرت بالسماك امتلأت ، وكثر ماؤها ، ونزل بأرضك هادئاً ساكناً من غير صخب ولا ضوضاء .

(٥) الجناب : الناحية . يقول : إنه عرفه كريم الأخلاق ، واسع الرزق ، متمتعاً فى ظل شباب وارف كريم .

(٦) لات : من الحروف المشبهة بليس وتعمل عملها ، ولكن لا ينكر بعدها إلا أحد المعمولين ، والغالب أن يكون المرفوع هو المحذوف ، نحو : ولات حين تطرب أى ولات الحين حين تطرب ، والمعنى : ليس هذا وقت طرب الفؤاد .

أعلاقة أسبابهن وإنما أفنانُ رأسِك فُلْفُلٌ وزبيب ؟(١)
لا تَهْزَئِى منى فَرُبَّتَ عائبٍ ما لا يَعيبُ الناسُ وهو مَعيب(٢)
ولقد يصاحبنى الكرام وطالما يسمو إلىَّ السيِّدُ المحجوب
وأُجُرُّ من حُلَل الملوك طرائفاً منها علىَّ عصائبٌ وسَبِيب(٣)
وأُسَالِبُ الحسناءَ فَضْلَ إزارِها فأَصُورُها وإزارُها مَسْلوب(٤)
وأقول مُقْتَرِحَ البَدِىِّ كأنه بُرْدٌ تنافسَه التِّجارُ قشيب

يقول فيها فى مدح الفضل :

والبرمكىُّ وإن تقاربَ سِنُّه أو باعدَتْه السِّنُ فهُو نَجيب
خِرْقُ العطاء إذا استهَلَّ عطاؤُه لا مُتْبِعٌ مَنًّا ولا محسوب(٥)
يا آلَ بَرْمَكَ ما رأينا مِثْلَكم ما مِنْكمُ إلا أغرُّ وَهُوب
وإذا بدا الفضلُ بْنُ يحيى هِبْتَه لِجلالهِ إنَّ الجلالَ مَهيب
قادَ الجيادَ إلى العِدا وكأنها رِجْلُ الجرادِ تسوقهن جَنوب(٦)

---

(١) أفنان الرأس : أنحاؤها ؛ وكان نصيب عبداً أسود مفلفل الشعر ، ليس سبطه ، وتنكر عليه مية أن يكون ذا صبوة مع سواد لونه الذى يشبه سواد الغراب ، وتبالغ مية فى تبكيته بأن الغراب الذى لا يشيب ، ولا يبيض سواده – استطاع أن يخرج من هذا السواد إلى بياض وهو– ولو أنه بياض الشيب – أجمل من السواد ، فكيف يطلب وصل البيض ، وهو أسود سواداً لن يتخلص منه حتى إذا تخلص الغراب ؛ ويزيد فى البعد عنه أن شعره فلفل وزبيب .

(٢) ينكر على مية أن تهزأ به وتسخر منه بأسلوب لا يعجب الغزلين ، فإنه ليس لبقاً حين يقول لها : قد يكون فى الذى يعيب من غيره شيئاً لا يراه الناس عيباً – عيوب .

(٣) السبيب : الخصلة من الشعر ، وكذلك السبيبة .

(٤) أسالب : أجاذب . أصورها : أتركها .

(٥) الخرق : الكريم السخى . استهل عطاؤه : كثر وزاد .

(٦) الرجل : القطعة العظيمة من الجراد خاصة . الجنوب : الريح التى تهب من الجنوب يريد أنها كثيرة وسريعة .

قُبًّا تَبارَى فى الأسنَّة شُزَّبا تَدَعُ الحزونَ كأنهن سُهوب (١)
من كلِّ مضطربِ العِنان كأنه ذئبٌ يبادِرهُ الفريسةَ ذِيب
تَهْوِى بكل مغاور ، عاداتُه صِدْقُ اللقاء فما له تكذيب (٢)
حتى صَبَحْنَ الطالبىَّ بعارضٍ فيه المنايا تَغْتَدى وتؤوب (٣)
خاف ابنُ عبد الله ما خوَّفته فجفاك ثم أتاك وهو منيب
ولقد رآك الموت إلا أنه بالظنِّ يُخْطِئُ مرةً ويصيب
فرمَى إليك بنفسه فنجا بها أجَلٌ إليه يَنْتهى مكتوب
فكسوتَه ثوبَ الأمانِ وإنه لا حَبْلُه واهٍ ولا مقضوب
شِمْنا لَديْكَ مَخيلَةً لا خُلَّباً فى الشّيم إذ بعضُ البروق خَلُوب (٤)
إنّا على ثقةٍ وظنٍّ صادقٍ مما نؤمِّلُه فليس نَخيب

فاستحسنها الفضل ، وأمر له بثلاثين ألف درهم ، فقبضها ووثب قائماً وهو يقول :

إنى سأمتدحُ الفضلَ الذى حُنِيَتْ مِنًّا عليه قلوبُ البر والضِلَعُ
جاد الربيعُ الذى كنا نؤمِّله فكلُّنا بربيع الفضل مُرْتَبِع
كانت تطول بنا فى الأرض نُجْعتُنا فاليوم عند أبى العباس منتجع (٥)

(١) قبا : جمع واحده الأقب ، وهو من الخيل الضامر البطن ، الدقيق الخصر . شزبا : ضامرة يابسة. السهوب: جمع سهب، وهو الواسع المستوى من الأرض فيها صفات الخيل الكريمة.
(٢) مغاور : مغير على العدو . صدق اللقاء : يظهر فى الحرب بسالة .
(٣) هو يحيى بن عبد الله العلوى ، ولنا عنه فيما بعد حديث طويل .
(٤) شام البرق : نظر إليه أين يسير وأين يمطر ، المخيلة : السحابة المتهيئة للمطر . الخلب : السحاب لا مطر فيه فكأنه يخدع ، والبرق الخلب : الذى يكون فى سحاب خلب .
(٥) نجع القوم الكلأ : ذهبوا لطلبه فى مواضعه ، ومثله انتجع .

إن ضـاق مذْهَبُنا أو حَلَّ ساحَتَنا ضَنْكٌ وأَزْمٌ فعند الفضلِ مُتَّسَع (١)

ما سَلَّمَ اللهُ نَفسَ الفضلِ من تَلَفٍ فما أبالى : أقام الناسُ أمْ رَجَعوا (٢)

إن يمنعوا ما حَوَتْ منا أكُفُّهمو فلن يَضُرَّ أبا الحجْناء ما مَنَعوا

أوْ حَلَّئُونا وذادوا عن حياضِهِمو يومَ الشروعِ ففى غُدْرانِك الشِّرَع (٣)

يا مُمْسِكا بعُرا الدُّنيا إذا خُشِيت منها الزلازلُ والأمرُ الذى يقع

قد ضَرَّسَتْك الليالى وهى خالية وأحكمتها النُّهى والأزْلَمُ الْجَذَع (٤)

فغادروا منك حزناً عن معاشَرَةٍ سَهْلَ الجنابِ يسيراً حين يتبع

لم يَفْتَلِتْك نَقيراً عن مخادعة دَهْىُ الرجال وللسُّؤَّال تَنْخدع (٥)

فأنت مضطلع بالملك تحمله كما أبوك بثقل الملك مضطلع

٦ — أبان (٦) اللاحقى :

ومن شعرائهم أيضاً ، أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، خرج من البصرة

---

(١) الأزم : الشدة والضيق .

(٢) مدة تسليم الله تعالى نفس الفضل ، وحفظها من الهلاك لا نبالى أحداً من الناس ، لأنه يكفينا كل شىء .

(٣) حلئونا : منعونا . الشروع : الورود .

(٤) الأزلم الجذع : هو الدهر الشديد ، الكثير البلايا ، أى الذى لا يهرم .

(٥) افتلت الأمر : فعله على غير روية وتلبث . النقير : الحفرة الصغيرة فى ظهر النواة . وأصل الرجل يقال : فلان كريم النقير ، أى طيب الأصل . الدهى : التصرف بدهاء وحذق وجودة رأى .

(٦) هو أبان بن عبد الحميد بن لاحق ، مولى بنى رقاش (بنو رقاش ثلاثة نفر ، ينسبون إلى أمهم ، اسمها رقاش ، وهم : مالك ، وزيد مناة ، وعامر — بنو شيبان بن ذهل) اتصل بالرشيد ، فالبرامكة ؛ وجعل إليه يحيى بن خالد ، امتحان الشعراء وترتيبهم فى الجوائز ، وكان بينه وبين المعذل بن عبد الله تعابث بالهجاء ، وكان بعضهم يرى أنه معتل العقيدة .

طالباً الاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائباً ، فقصده ، فأقام ببابه أياماً لا يصل إليه ، فتوسل إلى من وصل له شعراً إليه ، وقال له :

يا عزيزَ النَّدى ويا جَوْهَرَ الجو   هرِ من آل هاشم بالبطاح[1]
إن ظنى ، ولَيْس يُخْلَفُ ظنى   بك فى حاجتى ، سبيلُ النجاح
إن مِنْ دُونها لَمُصْمَتَ باب   أنت من دون قَفْلِه مِفتاحى
تاقت النفسُ يا خليلَ السماحِ   نحو بَحْر النَّدَى مُجارِى الرياح
ثم فكَّرْتُ : كيف لى؟ واستخرْتُ الـلهَ عند الإمْسَاء والإصْباح
وامتدحْتُ الأميرَ ، أصلحه الـلهُ بِشعْرٍ مُشَهَّرِ الأَوْضاح

فقال : هات مديحك ؟ فأعطاه شعراً فى هذا الوزن وقافيته :

أنا من بُغْيَةِ الأميرِ وكنْزٌ   من كنوز الأمير ذو أَرْباح
كاتبٌ حاسِبٌ خطيبٌ أديبٌ   ناصِحٌ زائدٌ على النُّصَّاح
شاعِرٌ مفلِقٌ أَخَفُّ من الرِّيـ   ـشة مما يكون عند الجَناح

وهى طويلة يقول فيها :

إن دعانى الأمير عاين منى   شَمَّرِيًّا كالبلبل الصياح[2]

فدعابه ، ووصله ، ثم خص بالفضل ، وقدم معه ، فقرب من قلب يحيى بن خالد ، وصار صاحب الجماعة ، وزمام أمرهم .

عاتب البرامكة على تركهم إيصاله للرشيد ، وإيصال مديحه إليه فقالوا له ما تريد من ذلك ؟ ؛ فقال : أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروان ابن

---

(١) البطاح : زاحده بطحاء ، مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى .
(٢) الشمرى : الماضى فى الأمور ، المجرب .

أبى حفصة ، فقالوا : إن لذلك مذهباً فى هجاء آل أبى طالب وذمهم ، به يحظى ، وعليه يُعطى ، فاسلكه حتى نفعل ، قال : لا أستحل ذلك . قالوا : فما تصنع ؟ ، لا يجىء طلب الدنيا إلا بما لا يحل ، فقال أبان :

نَشَدْتُ بحق الله من كان مسلماً أَعُمُّ بما قد قلته العُجْمَ والعرب
أعَمٌّ رسول الله أقرب زلفة لديه أم ابْنُ العمِّ فى رتبة النسب(١)؟
وأيُّهما أولى به و بعهــده ؟ ومن ذا له حَقُّ الوِراثةِ قد وَجب؟
فإن كان عباسٌ أحقَّ بتلكم وكان علىٌّ بعد ذاك على سبب
فأبناء عباسٍ هُمُ يرثونه كما العمُّ لابن العَمِّ فى الإرْثِ قد حَجَب

وهى طويلة ، فقال الفضل : ما يرد على أمير المؤمنين اليوم شىء أعجب من أبياتك ، فركب ، فأنشدها الرشيد ، فأمر لأبان بعشرين ألف درهم ، ثم اتصل مدحه الرشيد ، بعد ذلك وخص به .

ويقولون : إنه أخذ بقصيدة واحدة قالها ، مثلما أخذه مرْوان بن أبى حفصة من الرشيد فى دهره كله .

وكان أبان نقل للبرامكة كتاب كليلة ودمنة ، فجعله شعراً ، ليسهل حفظه عليه ، فأعطاه يحيى عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل خمسة آلاف ، ولم يعطه جعفر شيئاً ، وقال : ألا يكفيك أن أحفظه ، فأكون راويتك ؟

ومن قوله يمدح الفضل بن يحيى :

لقد بَرَّزَ الفضلُ بن يحيى ولم يَزَل يسامِى من الغايات ما كان أرْفعا(٢)

---

(١) الزلفى : القربة والدرجة والمنزلة .
(٢) يسامى : يبارى ويسابق .

يراه أميرُ المؤمنين لمُلكه ... كفيلا لما أعْطَى من العَهْد مَقْنَعا[1]
قضى بالتي شدَّتْ لهرونَ مُلكه ... وأحيَتْ ليحيي مُلكه فتمتَّعا
لئن كان مَنْ أسْدَى القريضَ أجاده ... لقد صاغ إبراهيمُ فيه فأوْقعا[2]

٧ – العتابى[3] :

ومن شعرائهم العتابى ، وكان منقطعاً إليهم ، ووصلوه بالرشيد ، فبلغ عنده كل مبلغ ، واحتالوا على ألا يوقع به الرشيد ، حينما وشى به عنده منصور النمرى ، فاغتاظ عليه الرشيد ، فطلبه ، فستره جعفر بن يحيى عنه مدة ، وجعل يستعطفه عليه حتى استل ما فى نفسه ، وأمنه ، فقال يمدح جعفراً :

ما زلتُ فى غَمَرات الموتِ مُطَّرَحا ... قد ضاق عنى فسيحُ الأرضِ من حِيل
ولم تزل دائباً تسعى بلطفك لى ... حتى اختَلَسْت حياتى من يدى أجلى[4]

---

(١) كفيلا : ضامناً . مقنع : يقال : شاهد مقنع : يقنع به وبشهادته، والجمع مقانع .

(٢) يعنى إبراهيم بن إسحق الموصلى المغنى .

(٣) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابى التغلبى ، عربى ، شاعر ، مترسل ، بليغ ، مطبوع ، متصرف فى فنون الشعر ، مقدم من شعراء الدولة العباسية . وكان يحيى بن خالد يقول لولده : إن قدرتم أن تكتموا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابى، فضلا عن رسائله وشعره فلن تروا أبداً مثله .

(٤) غمرة الشىء : شدته ومزدحمه ، والجمع غمرات . مطرحاً : ملقى ومبعداً . اختلاس الشىء : سلبه بمخاتلة وحيلة وعاجلا ، يعنى أنه ما زالت أسباب الموت تحيط به من كل جانب بسبب غضب الخليفة عليه ، وما زال هو يتلطف للخليفة ويداوره حتى جعله يعفو عنه ، فكأنه استل حياته من بين مخالب الموت ، والتعبير بقوله : حتى اختلست حياتى من يدى أجلى – تعبير جميل .

٨ – الرقاشى[١] :

وانقطع الرقاشى إلى البرامكة مستغنياً بهم عن سواهم ، وكانوا يصولون به على الشعراء ، ويروون أولادهم شعره ، ويدونونه تعصباً له ، وحفظاً لخدمته ، وتنويهاً باسمه ، وتحريكاً لنشاطه ، فحفظ ذلك لهم ولذلك بكاهم بعد نكبتهم أحرّ بكاء ، ورثاهم بأوجع رثاء ، ومن ذلك قوله فى جعفر :

كم هاتفٍ بك من باكٍ وباكية   يا جَعْفَ للضيف إذ تدعى وللجار[٢]
إن يَعْدَم القَطْرُ كنتَ المزنَ ، بَارِقُهُ   لَمْعُ الدنانير لا ماخيّل السارى[٣]

وقوله :

لعَمْرك ما بالموت عارٌ على الفتى   إذا لم تُصبْه فى الحياة المعاير[٤]
وما أحدٌ حىٌّ وإن كان سالما   بأسلمَ مِمَّن غَيَّبَتْه المقابر[٥]
ومَنْ كان مما يُحْدِث الدهرُ جازعاً   فلا بُدَّ يوما أن يُرَى وهو صابر[٦]

---

(١) الرقاشى : هو الفضل بن عبد الصمد ، مولى رقاش ، وهو من ربيعة ، شاعر مطبوع سهل الشعر ، نقى الكلام ، ناقض أبا نواس .

(٢) يا جعف : منادى جعفر على الترخيم .

(٣) المزن : السحاب ، أو ذو الماء منه البارق : اللامع المتلألىء ، وبرقت السماء : بدا منها البرق . خيل السحاب : رعد وبرق وتهيأ للمطر . السارى : السارى ليلا . يقول : إذا انقطع المطر كنت سحابنا الذى يمطر علينا رزقاً ، وكان برق هذا السحاب لمع الدنانير التى تعطينا لالمع البرق الذى يتخيله الماشى ليلا .

(٤) المعاير : المعايب .

(٥) حى : بدل من أحد أو صفة لها . أى ليس أحد من الأحياء مهما كان سالماً – أسلم من الميت .

(٦) يجب على من تنزل به المصيبة أن يصبر ، لأنه إن لم يصبر راضياً فسيصبر مكرهاً ، وذلك حين يرى أن الجزع لا يجدى ، وأنه لن يذهب عنه حزنه وأن الاستسلام له ليس وراءه إلا الضرر فى دنياه وآخرته – حينما يرى هذا كله يلجأ إلى الصبر ويعتصم به .

وليس لذى عَيْشٍ عن الموت مَقْصَرٌ ... وليس على الأيامِ والدهرِ غابر(١)
وكلُّ شبابٍ أو جديدٍ إلى البِلَى ... وكلُّ امرئٍ يومًا إلى الله صائر
فلا يُبْعِدَنْكَ الله عَنِّى جعفراً ... بروحى ولو دارت علىَّ الدوائر
فآليت لا أنفكُّ أبكيك ما دعت ... على فَنَنٍ ورقاء أو طار طائر(٢)

لما دارت الدوائر على آل برمك ، وأمر بقتل جعفر بن يحيى ، وصلب جثته ؛ اجتاز به الرقاشى ، وهو على الجذع ، فوقف يبكى أحرّ بكاء ، ثم أنشأ يقول :

أما والله لولا خوفُ واشٍ ... وعَيْنٍ للخليفة لا تَنام
لَطُفْنا حَوْلَ جِذْعك واستلمنا ... كما للناس بالحجَر استلام(٣)
فما أبصَرْتُ قبلك يا بنَ يحيى ... حُساما حَتْفُه السيفُ الحسام
على اللذات والدنيا جميعاً ... ودولة آل برمك السلام

فكتب أهل الأخبار بذلك إلى الرشيد ؛ فقال : ما حملك على ما قلت ؟ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ كان إلىّ محسناً ، فلما رأيته على الحال التى هو عليها ، حركنى إحسانه ، فما ملكت نفسى حتى قلت الذى قلته ! ؛ قال : وكم كان يجرى عليك ، قال : ألف دينار فى كل سنة ، قال : إنا قد أضعفناها لك .

---

(١) المقصر : العشى ، والعشى آخر النهار وأول الظلام . غابر : باق — فكل من يعيش لا بد لنهاره من آخر ولا بد لعمره من نهاية ، فليس أحد باقياً .
(٢) آليت : أقسمت ، ورقاء : حمامة ، والمعنى أنه أقسم أن يظل يبكيه .
(٣) الحجر : الأسود ، وهو حجر فى الكعبة ، يستلمه الحاج فى أثناء الطواف .

٩ – ابن مناذر[١] :

وكان ابن مناذر ، شاعر البرامكة ومادحهم ، وهو الذى حدث فقال : حج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة وحج معه الفضل بن الربيع ، فهيأت فيه قولا ، أجدت تنميقه ، وتنوقت فيه ، فدخلت إليه فى يوم التروية ، وإذا هو يسأل عنى ، ويطلبنى ، فبدرنى الفضل بن الربيع ، قبل أن أتكلم ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هذا شاعر البرامكة ومادحهم ، وقد كان البشر ظهر لى فى وجهه لما دخلت ، فتنكر وعبس فى وجهى ، فقال الفضل : مره يا أمير المؤمنين أن ينشدك قوله فيهم (أتانا بنو الأملاك من آل برمك) فقال لى : أنشد ، فأبيت ، فتوعدنى وأكرهنى ، فأنشدته :

أتانا بنو الأَمْلاكِ من آل برمك   فيا طيبَ أخبارٍ و يا حُسْنَ مَنْظَر
إذا وردوا بَطْحاء مكةَ أشرقَت   بيحيي و بالفضل بن يحيي وجعفر[٢]
فتظِلمُ بغدادٌ و يجلو لنا الدجى   بمكةَ ما حجوا ثلاثةُ أقمُر
فما صَلَحت إلا لجودٍ أكُفُّهمْ   وأرجلُهم إلا لأعواد مِنْبر
إذا راض يحيي الأمر ذَلّت صِعابه   وحَسْبُك من راعٍ له ومدبرِ

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن مناذر ، مولى بنى صبير بن يربوع ، شاعر عالم باللغة ، أخذ عنه أكابر أهلها ، وكان فى أول أمره يتأله ، ثم عدل عن ذلك ، فهجا الناس ، وتهتك ، وقذف أعراض أهل البصرة ، حين نفى عنها إلى الحجاز فمات هناك ، أدرك المهدى ومدحه ، ومات فى أيام المأمون ، وحاول المعتزلة أن يعظوه فلم يتعظ ، فأوعدوه بالمكروه ، فلم يزدجر ، ومنعوه دخول المسجد ، فنابذهم ، وطعن عليهم وهجاهم ، وكان ينحو نحو عدى بن زيد فى شعره ، ويقدمه ، وله رواية فى الحديث .

(٢) البطحاء : مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى .

ترى الناس إجلالا له وكأنهم غرانيقُ ماء تحت بازٍ مُصَرْصِرِ (١)

ثم أتبعت ذلك بأن قلت : كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين ، أيام مدحتهم : وفى طاعتك لم يلحقهم سخطك ، ولم تحلل بهم نقمتك ، ولم أكن فى ذلك مبتدعاً ، ولا خلا أحد من نظرائى من مدحهم ، وكانوا قوماً قد أظلنى فضلهم ، وأغنانى رفدهم ، فأثنيت بما أولوا ، فقال : يا غلام ، الطم وجهه ، فلطمت والله حتى سدرت ، وأظلم ما كان بينى وبين أهل المجلس ، ثم قال : اسحبوه على وجهه ، ثم قال : والله لأحرمنك ، ولا تركت أحداً يعطيك شيئاً فى هذا العام ، فسحبت حتى أخرجت ، وانصرفت ، وأنا أسوأ الناس حالا فى نفسى وحالى ، وما جرى على ، لا والله ما عندى ما يقيم قوت عيالى لعيدهم .

١٠ – أشجع (٢) :

أما أشجع السلمى ، فإنه انقطع إلى جعفر خاصة ، وأصفاه مدائحه ، فأعجب به ، وقد حدث أن جعفرا اشترى المرغاب من أهل الرشيد ، ورده على أصحابه ، فقال فيه أشجع :

ردَّ السباخ ندى يَدَيْه وأهلُها منها بمنزلة السِّماك الأعْزَل (٣)

---

(١) غرانيق : واحده غرنيق ، وهو طائر مائى يشبه الكركى ، ويطلق على الشاب الأبيض الجميل . الباز : ضرب من الصقور . مصرصر : مصوت تصويتاً شديداً .

(٢) هو أشجع بن عمرو ، من ولد الشريد بن مطرود السلمى ، ولد ونشأ باليمامة موطن أمه ، ثم انتقلت به أمه إلى البصرة موطن أبيه تطالب بميراثه ، وبقى بالبصرة حيث ماتت أمه ، وفيها قال الشعر ، وعد فى الفحول ، وافتخرت به قيس ، ثم خرج إلى الرقة ، والرشيد بها ، فاتصل بالبرامكة والرشيد فأثرى وحسنت حاله .

(٣) السماك الأعزل ، أحد السماكين ، وهما نجمان نيران فى السماء ، وثانيهما السماك الرامح . والمعنى أن أصحاب هذه الأرض كانوا لا يحلمون بأنها ستعود إليهم ، وكان أملهم فيها كأملهم فى الصعود إلى السماك حيث السماك الأعزل ، وكلا الأمانين لا يمكن الوصول إليه ، فلما جاء جعفر حقق لهم أملهم بعد أن كان مستحيلا تحقيقه .

قدْ أيقنوا بذَهابها وهَلاكِهم　　والدهرُ يوعدهم بيـوم أعْضَل (١)
فافْتَـكَّها لَهُمُ وهمْ من دهرِهم　　بين الِجران و بين حَدِّ الـكَلْـكَل (٢)
ما كان يُرْجَى غيرُه لِفكاكِها　　يُرْجَى الـكريمُ لكل خَطْب مُعْضِل

جلس جعفر بن يحيى بالصالحية يشرب على مستشرف له ، فجاءه أعرابى من بنى هلال ، فاشتكى ، واستماح بكلام فصيح ، ولفظ مثله ، يعطف المسئول ؛ فقال له جعفر : أتقول الشعر يا هلالى ؟ فقال : قد كنت أقوله وأنا حدث ، وأتملح به ، ثم تركته لما صرت شيخاً ، قال : فأنشدنا لشاعركم حميد بن ثور . فأنشده قوله :

لمن الديارُ بجانب الخمْسِ　　ومحطّ ذى الحاجات بالنفس

حتى أتى على آخرها ، فاندفع أشجع ، فأنشده مديحاً له فيه ، قاله لوقته على وزنها وقافيتها :

ذهبت مكارمُ جعفـرٍ وفعـالُه　　فى الناس مثلَ مذاهب الشمس (٣)
ملك تسوسُ له المعـالِىَ نفسُه　　والعقل خيرُ سياسة النفس
وإذا تَراءتْه الملوك تراجعـوا　　جَهْرَ الكلامِ بمنطق همس (٤)

---

(١) أعضل : شديد مستغلق . يوعدهم : يهددهم و ينذرهم .

(٢) الجران : مقدم عنق البعير . الكلكل : الصدر أو ما بين الترقوتين . ومعنى أن الدهر وضعهم بين الجران وبين حد الكلكل أنه قسا عليهم قسوة شديدة تشبه قسوة الجمل على من يريد المبالغة فى إيذائه ، فإنه إذ ذاك يبرك عليه ، ويجعله بينْ جرانه وكلكله ، فلا يستطيع الإفلات منه .

(٣) الفعال : الفعل الحسن .

(٤) يعنى أن الملوك إذا رأوه خافوه ، وخفضوا أصواتهم عند الكلام هيبة له ، وما كان يصح أن يمدح جعفر بمثل هذه المعانى ، لأنها كانت من الأشياء التى أحفظت الرشيد عليه ، وتداركه لهذا فى البيت التالى لا يغيب ، ولا سيما أنه جعله ملكاً أيضاً فى البيت الذى قبله .

سادَ البرامكَ جعفرٌ وهمُ الألى ... بعد الخلائف سادةُ الإنس
ما ضرَّ مَنْ قَصَد ابنَ يحيى راجياً ... بالسَّعد حلَّ به أم النحس

فقال له جعفر : صف موضعنا ، فقال :

قصور الصالحية كالعذارَى ... لَبِسْن ثيابَهُنَّ ليوم عُرْس (١)
مُطِلاَّتٌ على بطنٍ كستْه ... أيادِي الماء وَشْياً نَسْجَ غَرْس
إذا ما الطَّلُّ أثر فى ثراه ... تَنَفَّس نَوْرُه من غير نَفْس
فَتَغْبُقُه السماء بِصِبغ وَرْسٍ ... وتَصْبَحُه بأكوُسِ عَيْنِ شمس (٢)

فقال جعفر للأعرابى : كيف ترى صاحبنا يا هلالى ؟ ، فقال : أرى خاطره طوع لسانه ، وبيان الناس تحت بيانه ، وقد جعلت له ما تصلنى به ، قال : بل نصلك يا أعرابى ، ونرضيه ، وأمر للأعرابى بمائة دينار ، ولأشجع بمائتين .

ولما خرج جعفر ليصلح أمر الشام ، نزل فى مضربه ، وأمر بإطعام الناس ، فقام أشجع ، فأنشد قوله :

فئتان : باغيةٌ وطاغيـة ... جَلَّت أمورُهما عن الخطب

---

(١) الصالحية : اسم لثلاثة أماكن . الأول قرية كبيرة ذات أسواق وجامع فى لحف جبل قسيون من غرطة دمشق ، والثانى محلة ببغداد تنسب إلى صالح بن منصرر المعروف بالمسكين . والثالث قرية قرب الرها أو الرقة ، اختطها عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وموضعها من أنزه المواضع ، وذكر الخالديان فى تاريخ الموصل : أن أول من أحدث قصور الصالحية هذه المهدى العباسى ، وذكر أبياتا لمنصور النمرى قريبة جداً من الأبيات التى ذكرنا لأشجع ؛ ولعل المقصود بالصالحية هذا محلة بغداد .

(٢) غبقه : سقاه الغبوق ، والغبوق : ما يشرب بالعشى ، وصبحه : ناوله الصبوح ، والصبوح كل ما أكل أو شرب صباحاً . الورس : نبات كالسمسم يصبغ به ، والمعنى : أن السماء تمسيه بهذا النبات ذى اللون الخاص ، وتصبحه بأكؤس من أشعة الشمس .

قد جاءكم بالخيل سـاريةٌ ينقلن نحوكمُ رحى الحرب (١)
لم يبق إلا أن تدور بكم قد قام هاديها على القطب (٢)

فأمر له بصلة ليست بسنية ، وقال : دائم القليل خير من منقطع الكثير ، فقال له : ونزرك خير من جزيل غيرك ، فأمر له بمثلها ، وكان يجرى عليه فى كل جمعة مائة دينار مدة مقامه ببابه .

وقال فى شكوى شكاها جعفر بن يحيى :

لما اشتكى جعفرُ بنُ يحيى فارقنى النـومُ والقَرار
ومَرَّ عيشى علىَّ حتى كأنما طعمُهُ المرار (٣)
خَوْفاً على جعفرٍ بن يحيى لا حُقِّق الخوفُ والحذار
إن يُعفِهِ الله لا نحاذرْ ما أحدثَ الليلُ والنهار

وأنشد جعفر بن يحيى لما ولاه الرشيد خراسان :

أتصـبر للبَيْن أم تجزع ؟ فإنَّ الديار غداً بَلْقَع (٤)
غداً يتفرق أهل الهوى ويكثر باكٍ ومسترجِـعُ

حتى انتهى إلى قوله :

ودَوِّيَّةٍ بين أقطارها مقاطيعُ أرْضِين لا تُقْطَعُ (٥)

---

(١) يريد سارية بن حصن صاحب القصة المشهورة زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فهو يشبه جعفر بسارية .

(٢) هاديها : متقدمها وقائدها . القطب : حديدة فى الطبق الأسفل من الرحى يدور عليه الطبق الأعلى ، وهو أيضاً سيد القوم الذى يدور عليه أمرهم ، يقصد بذلك أن الحرب اشتدت ودارت رحاها تطحن أرواح الأعداء .

(٣) مر : من المرارة أى صار مرا ، والمرار : نبات مر الطعم .

(٤) البلقع : الأرض القفر . (٥) الدوية : الصحراء .

تجاوزتُها فوق ريحانة ... من الريح فى سيرِها أسرع
إلى جعفرٍ نزعتْ رغبةٌ ... وأىُّ فتًى نحوه تنزع
فما دونه لامرئٍ مطمعٌ ... ولا لامرئٍ غيره مقنع
ولا يرفع الناسُ مَنْ حطه ... ولا يضعون الذى يرفع
يريد الملوكُ مدَى جعفرٍ ... ولا يصنعون كما يصنع[1]
تلوذُ الملوكُ بأبوابه ... إذا نالها الحدَثُ الأفظع
بديهته مثل تدبيره ... متى رُمْتَه فهو مستجمع[2]
وكم قائلٍ إذ رأى ثروتى ... وما فى فضولِ الغنى أصنع
غدا فى ظلال ندى جعفر ... يجُرّ ثيابَ الغِنى أشجع
فقل لخراسانَ تحيا فقد ... أتاها ابن يحيى الفتى الأروع[3]

فأمر له بألف دينار ، ثم بدا للرشيد ، فعزل جعفراً عن خراسان ، بعد أن أعطاه العهد والكتب ، وعقد له العهد ، وأمر ، ونهى ؛ فوجم لذلك جعفر ، فدخل عليه أشجع ، فأنشده :

أمست خراسان تعزّى بما ... أخطأها من جعفرَ المرتجى
كان الرشيدُ المعتلِي أمرُه ... ولّى عليها المُشرِق الأبلَجا
ثم أراه رأيُه أنه ... أمسَى إليه منهمُ أحوَجا

(١) وهذا من نحو قوله السابق :
ملك تسوس له المعالى نفسه ... والعقل خير سياسة النفس
فإذا تراءته الملوك تراجعوا ... جهر الكلام بمنطق همس (انظر التعليق عليه)
(٢) استجمع له الأمر : تم حسب مرامه
(٣) الأروع : من يعجبك بحسنه أو أو شجاعته غير ذلك .

فكم به الرحمنُ من كُرْبة في مُدَّة تقْصر قد فرَّجا[1]

فضحك جعفر ، وقال : لقد هونت علىّ العزل ، وقمت لأمير المؤمنين بالعذر ، فسلنى ما شئت ، فقال : كفانى جودك ذل السؤال ؛ فأمر له بألف دينار أخرى .

ومع أن أشجع كان مختصاً بجعفر ، فإنه لم ينقطع عن الفضل ، ولم ينقطع عن يحيى ، فمن قوله فى الفضل :

وما قَدَّم الفضلَ بن يحيى مكانُه على غيره بل قَدَّمَتْه المكارمُ
لقد أرْهَبَ الأعداءَ حتى كأنه على كلِّ ثَغْرٍ بالمنيَّة قائم[2]

ومن قوله فيه أيضاً :

بَديهتُـه وفكرتُه سواء إذا ما نابه الخَطبُ الكبير[3]
وأحزمُ ما يكون الدهرَ رأياً إذا عَىَّ المشاوِرُ والمُشير
وصَدْرٌ فيه للهمِّ اتساعٌ إذا ضاقت بما تحوى الصدور

ومن قوله يمدح يحيى ، وقد عوفى من مرض ، ودخل الناس يهنئونه بالسلامة :

لقد قَرَعَتْ شَكاةُ أبى علىٍّ قلوبَ معاشِرٍ كانوا صِحاحا
فإن يَدْفع لنا الرحمنُ عنه صُرُوفَ الدهرِ والأجَل المتاحا[4]

---

(١) فى هذا البيت تعقيد لفظى وترتيبه : كم فرج الرحمن به من كربة فى مدة تقصر .

(٢) القائم : مقبض السيف ؛ أراد بها الشاعر السيف كله ، يريد أن كل واحد من أعدائه يخافه خوفاً شديداً ، كأن على فم كل منهم سيفاً يموت به .

(٣) كان أشجع يكرر هذا المعنى كثيراً ، ومدح به جعفراً من قبل ، فقال :

بديهته مثل تدبيره متى رمته فهو مستجمع

(٤) صروف الدهر : نوائبه وحدثانه . الأجل المتاح : الأجل المقدر .

فقد أمسى صـــلاحُ أبى علىٍّ لأهل الدين والدنيـا صلاحا
إذا ما الموتُ أخطأه فلسـنا نبالى الموت حيث غدا وراحا

ومن وقائعه مع يحيى : أن يحيى وعده وعداً ، فأخره عنه ، فقال له :

رأيتك لا تَسْتَلِذُّ المِطَال وتُوفِى إذا غَدَر الخائنُ
فماذا تؤخرُ من حاجتى وأنت لتعجيلها ضامن !
ألم تر أنَّ احتباس النَّوال لمعروف صاحبه شائن(١)

فلم يتعجل ما أراد ، فكتب إليه :

رُوَيْدَكَ إنّ عزَّ الفقْرِ أدْنَى إلىَّ من الثَّراء مع الْهوَان(٢)
وماذا تَبْلُغُ الأيامُ منى برَيْب صروفها ومعى لسانى

فبلغ قوله جعفراً ، فقال : ويلك يا أشجع ؛ هذا تهدد ، فلا تعد لمثله ؛ ثم كلم أباه ، فقضى حاجته ؛ فقال :

كفانى صروفَ الدهر يحيى بنُ خالدٍ فأصبحْتُ لا أرتاع للحَدَثان
كفانى ، كفاه الله كل ملمة ، طِـــلابِ فلانٍ مرةً وفلان
وأصبحتُ فى رَغْد من العيش واسعٍ أقلِّبُ فيـه ناظرى ولسـانى

ولى جعفر بن يحيى أشجع عملا ، فرفع أهله رفائع(٣) كثيرة ، وتظلموا منه

---

(١) النوال : العطاء . شائن : عائب . يعنى أن تأخير العطاء يعيب صاحبه .
(٢) رويد : مصدر أرود مصغر تصغير ترخيم ، ورويدك معناها تمهل .
(٣) رفائع : جمع رفيعة ، وهى القضية المرفوعة إلى الحاكم ، ويشير إليها فى قوله الآتى بعد :

لقد هزت لسان القول منى رجال رفيعة لم يعرفونى

وشكوه ، فصرفه جعفر عنهم ، فلما رجع إليه أنشأ يقول :

أمفسدةٌ سعادُ عليَّ دِينى ولائمتى على طول الحنين ؟
وما تدرى سعاد إذا تَخَلَّت من الأشجان كيف أخو الشجون ؟
تنامُ ولا أنامُ لطُولِ حُزْنى وأين أخو السرور من الحزين
لقد راعتك عند قَطِين سُعْدى رواحلُ غادياتٌ بالقطين (١)
كأَن دموعَ عَيْنِى يومَ بانوا عِيانًا سَحُّ مُطَّرِدٍ مَعِين (٢)
لقد هَزَّت سِنانَ القولِ منى رجالُ رفيعةٍ لم يعرفونى
همُ جازوا حجابك يا بن يحيى فقالوا بالذى يَهْوَوْن دونى
أطافوا بي لديك وغبتُ عنهم ولو أدنيتَنى لتجنبونى
وقد شهِدَت عيونُهُمُ فمالت علىَّ وغُيِّبَت عنهم عيونى
ولما أن كَتبتَ بما أرادوا تروَّع كُلُّ ذى غَمْز دفين (٣)
كَفَفْتُ عن المقاتل باديات وقد هَيَّأتُ صَخْرَةَ منجنون (٤)
ولو أرسلتُها دمَغَتْ رجالا وصالت فى الأَخِيَّةِ والشئون (٥)

---

(١) القطين : الخدم والأتباع .

(٢) سح مطرد معين : تنصب الدموع انصباباً غزيراً متتابعاً .

(٣) الغمز : الطعن . يقال : غمز بالرجل وعليه : طعن عليه ، وسعى به شرا . تروع تفزع . دفين : المدفون ، وداء دفين : ظهر بعض الخفاء ، فنشأ عنه شر . يريد أن يقول : إنك بعد أن سمعت وشايتهم فى ، وكتبت إلى تصرفنى عنهم ؛ خاف الواشون ، لأنهم توقعوا أنى سأحضر إليك ، وأطلعك على الحقيقة ، وإذ ذاك يظهر كذبهم فتؤاخذهم .

(٤) المقاتل : الأعضاء التى إذا أصيب واحد منها لا يكاد يسلم صاحبه ، أو مواضع القتل . المنجنون : الدولاب يستقى عليه أو المحالة يثنى عليها ، ولكل منهما حجر صلب كبير تعتمد عليه كأنه الصخرة .

(٥) الأخية : عود يدفن طرفاه فى الأرض ، ويبرز كالحلقة تشد فيها الدابة . ويقصد

وكنت إذا هززت حسام قول ... قطعت بحجتى عِرْقَ الوتين(١)
لعل الدهرَ يطلق من لسانى ... لهم يوماً ويَبْسط من يمينى
فأقضى دَيْنَهم بوفاءِ قَوْلٍ ... وأُثقلهم بِفَيْضٍ من ديونى
وقد علموا جميعاً أن قولى ... قريبٌ حين أدعوه يجيبنِي
وكنت إذا هجوت رئيسَ قوم ... وَسَمْتُ على الذؤابة والجبين
بخطٍّ مثلِ حَرْقِ النارِ باقٍ ... يلوحُ على الحواجب والعيون(٢)
أمائلةٌ بِوُدِّك يا ابنَ يحيى ... رجالاتٌ ذَوُو ضِغْنٍ مكين ؟
يَشِيمُونَ السيوف إذا رأونى ... فإن ولَّيْت سُلت من جفون(٣)
ولو كُشِفَت سَرائرنا جميعاً ... علمتَ مَن البرىء من الظنين(٤)
عَلَام ، وأنت تعلمُ نُصْحَ جيبى ... وأخذى منك بالسَّبَب المتين(٥)
وعَسْفِى كلَّ مهمهةٍ خلاء ... إليك بكلِّ يَعْمَلَةٍ أمون(٦)
وإحيائى الدجى لك بالقوافى ... أقيم صدورَهن على المتون

بها الشاعر الأمر الصغير . الشئون : جمع شأن ، وهو ما عظم من الأمور والأحوال . دمغت : أصابت إصابة قاتلة . يريد الشاعر أن يقول ؛ إنه لو رماهم بصخرة من منجنون التى هيأها لهم ، لما تركت صغيراً ولا كبيراً .

(١) العرق : مجرى الدم، الوتين : عرق فى القلب يجرى منه الدم إلى العروق كلها ، وهو الذى يسمونه الأورطى .

(٢) يريد أنه إذا هجا أحداً مهما علا مقامه ، فإن هجاءه يترك للمهجو أثراً لا يمحى .

(٣) شام السيف : أغمده .

(٤) الظنين : المتهم أو المعادى لسوء ظنه ، وسوء ظن الناس به .

(٥) الجيب : القلب والصدر ، يقال : ناصح الجيب ، أى صادق أمين . السبب : المودة

(٦) المهمهة : المفازة البعيدة ، والبلد المقفر . وعسف المفازة : قطعها ، ولم يتوخ طريقاً مسلوكاً . اليعملة : الجمل والناقة المطبوعان على العمل .

تُقرّبُ منك أعدائى وأنأى ... ويجلسُ مجلسى من لا يَلينى (١)
ولو عاتبتَ نفسَك فى مكانى ... إذاً لنزلتُ عندك باليمين (٢)
ولكن الشكوكَ نأيْنَ عنى ... بودك ، والمصيرُ إلى اليقين
فإن أنصفتَنى حرّقت منهم ... بنُضْج الكىّ أثْباج البطون (٣)

ويقولون : إنه زاد اختصاصه بالبرامكة عامة ، وبجعفر خاصة ؛ فلما رأى ذلك الفضل بن الربيع ، وكان ينفس عليهم ما هم فيه من عز وجاه وسلطان ، واقتطاع للشعراء ، وهم ألسنة المجد ، ودعاة الجاه ؛ ذهب إلى الرشيد ، وأعلمه مكانة أشجع من الشعراء ، وأخبره : أنه أشعر شعراء هذا الزمان ، ولذلك اقتطعه عنه البرامكة . فأمره الرشيد بإحضاره ، وإيصاله مع الشعراء .

* * *

نقد وتعليق

إذا تأملنا كل هذا الشعر الذى ذكرناه ، وما لم نذكره ، مما امتلأت به بطون كتب الأدب فى مدح البرامكة — نجد أن الشعراء جميعاً مدحوهم ، مسترفدين ، وطالبى مال أو جاه ، وكأنهم كانوا يقدرون أن هذا الشعر لن يقدر له سيرورة إلا إذا كان فى مدح البرامكة ، وكأنما خيل إليهم أيضاً أن الشعر الذى يقولونه فى مدح الرشيد ، فإنه لن تكون له سيرورة إلا إذا قرنوه بمدح البرامكة ، وإن كان البرامكة أنفسهم يغرون الشعراء بمدح الرشيد أحياناً ،

(١) يعجب الشاعر فى هذه الأبيات ، من أنه يقرب أعداءه ، فى حين يعلم محبته له ، واعتسافه الصحارى للتمتع بلقائه ، وقرض الشعر البليغ فى مدحه .

(٢) باليمين : بالمنزلة الحسنى .

(٣) الثبج من كل شىء : وسطه ومعظمه وأعلاه ، والجمع أثباج وثبوج .

ستراً لموقفهم ، ويتوسطون عنده ، ويستعطفونه عليهم ، يفعلون ذلك ذراً للرماد ، وإنهاء للواشين ، وتعمية لهم .

وإذا نظرنا إلى هؤلاء الشعراء الذين مدحوا البرامكة نجد أنهم شعراء عصرهم المشهورون الذين عرفهم التاريخ وعرفهم الأدباء ، وعرفهم الأدب ، ومن عداهم من الشعراء ؛ كان مغموراً ليس له شأن كبير عند الرواة والمتحدثين والقصاص وغيرهم .

فكأن من أراد لشعره الخلود والبقاء على الزمن ، فليس أمامه إلا سبيل واحد ، ذلك السبيل هو مدح البرامكة ، وإن أضاف إليه مدح الرشيد فلا بأس ، ولذلك لا تعجب إذا كان مشهورو شعراء هذا العصر هم الذين قدمنا لك شيئاً من شعرهم فى مدح البرامكة ؛ مثل مسلم بن الوليد ، ومنصور النمرى ، وأبان ابن عبد الحميد اللاحق ، وكلثوم بن عمرو العتابى ، والرقاشى ، وابن مناذر ، وابن أبى النضر التميمى ، وأشجع السلمى ، وأبى محمد التميمى .

هؤلاء هم مشهورو شعراء ذلك العصر ، وهؤلاء هم الذين مدحوا البرامكة . أفما كان فى هذا العصر شعراء غير هؤلاء ؟ .

لقد كان هناك شعراء كثيرون ، لهم شعر جيد كثير أو قليل ، إلا أن شعرهم لم يشتهر ، ولم يشتهروا هم ، ولم يقصدهم الرواة ، ولم يحفظوا عنهم ، ولم ينقلوا شعرهم فى المدن ، ولم ينتقلوا به بين بغداد والكوفة والبصرة ، فضاع من هذا الشعر قليل أو كثير ، ووصل منه إلينا قليل جيد فى مدح غير البرامكة .

فأين شعر العمانى الراجز الذى عاصر البرامكة ، وذكر الرشيد فى شعره ، ومدحه ، ولم يمدح البرامكة ؟ لقد ضاع أكثر شعره ؛ لأن الرواة لم تروه ، لأنه لم يمدح البرامكة ، ولم يشفع له عند الرواة مدحه للرشيد . وأين شعر مالك الخزاعى ، ويحيى بن طالب الحنفى ، والعباس بن الأحنف ، وأبى الأسد ، وابن قَنبر ، وعُكاشة بن عبد الصمد ، ومُشاور الوراق ، ويوسف بن الحجاج الصَّيقل ، وبكر بن النطاح .

لقد أثقلت بذكر أسماء كثير من الشعراء غير المعروفين ، ولكنى أردت بذلك أن أدلك على أن هناك شعراء كثيرين من شعراء هذا العصر ، لم نسمع عنهم ، ولم نقرأ لهم ، ولم يذكرهم مؤرخو الأدب أو لم يذكروا كثيراً منهم إلا بذكر البيت أو البيتين للاستشهاد بما قالوا ، ولم يتعرضوا لهم بشىء أكثر من أنهم من شعراء هذا العصر الذى عاش فيه البرامكة والرشيد .

ومؤرخو الأدب معذورون ؛ لأنهم لم يقرءوا لهم كثيراً ، لأن الرواة أغفلوهم ، ولم يحفلوا بهم ، ولم يرووا لهم كل ما قالوه أو أكثره ؛ إن القليل المروى لهم يدل على أنهم كانت لهم فى الشعر قدم راسخة ، وأنهم كان لهم شعر كثير ، ضاع بين إهمال الرواة وتعصبهم .

وظاهرة عجيبة فى هذين الفريقين من الشعراء : الفريق الذى مدح البرامكة ، ومدح معهم الرشيد أحياناً ، والفريق الذى لم يمدح البرامكة ، وإن مدح الرشيد أحياناً ، فاشتهر الأول ، وخمل الثانى .

أما الفريق الذى مدح البرامكة واشتهر ، فشعراؤه من الموالى ، أو المطعون فى عربيتهم ، وقلما نجد بينهم عربياً : فمسلم بن الوليد مولى أنصارى ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقى مولى رقاشى ، والرقاشى مولى رقاش ، وابن مناذر مولى يربوعى ، وأبو محمد عبد الله بن أيوب مولى تيمى ، وسلم بن عمرو الخاسر مولى تيمى ، ومروان بن أبى حفصة جده من موالى مروان بن الحكم ، ونصيب من موالى المهدى ، وهو غير نصيب مولى بنى مروان ، وأبو حفص الشطرنجى ، نشأ فى بيت المهدى مع مواليه .

هؤلاء جميعاً موال ، مدحوا البرامكة ، فخلد شعرهم ، وخلدوا على الدهر .

أما الذين لم يمدحوا البرامكة ، ولم يقفوا بأبوابهم ، فإنك إذا استعرضتهم وجدت أكثرهم عرباً ، فعبد الصمد المعذل ، وأبو وائل بكر بن النطاح ، ومالك

الخزاعى ، ويحيى بن طالب الحنفى ، والعباس بن الأحنف — كلهم من بكر ، ثم من ربيعة .

وابن قنبر ، والعمانى ، وعكاشة بن عبد الصمد — كلهم من تميم .

ومحمد بن حازم ، وناهض بن تومة ، ونويب اليمانى — كلهم من قيس .

وهناك من تردد الرواة فى نسبهم ؛ فهم عند بعضهم عرب ، وعند بعضهم موال ، ولم يمدحوا البرامكة ؛ مثل : مساور الوراق ، ويوسف بن الحجاج الصيقل .

وهنا نسأل : لم كان أكثر مادحى البرامكة من الأعاجم ؟

والإجابة عن هذا : أن البرامكة أعاجم ، جمعوا حولهم بنى جنسهم ، واستخدموهم فى مهام الدولة السياسية والحربية والاقتصادية والعلمية ، والشعر فى هذا العصر من وسائل دعم السلطات ، فقربوا إليهم شعراءهم ، وأجزلوا لهم ، فجودوا ما شاءوا ، وافتنوا فى مدحهم ما سمحت قريحتهم ، والرواة أعاجم ، فحملوا شعرهم ، وسيروه فسار ؛ وكان العرب على شىء من العصبية القديمة ، وعلى بقية من الترفع والكبرياء ، فأبى شعراؤهم أن يقفوا على أبواب البرامكة ، استصغاراً لهم ، وتكبراً عليهم ، فانصرف الرواة عنهم ، وعن رواية شعرهم ، ولو كان ذلك فى مدح الرشيد نفسه ؛ فخمل هؤلاء الشعراء ، ومات شعرهم إلا القليل .

وقد يرد على هذا بأن البرامكة كانوا شيعة ، يتعصبون للعلويين ، ويعملون على نصرهم ، فكان على شعراء الشيعة أن يمدحوهم .

والحق أنهم تشيعوا سراً ، كما كان يتشيع غيرهم من الوزراء السابقين ، وأخفوا تشيعهم بأن جعلوا بلاد المغرب مسرح النشاط العلوى ، حتى لا تقع عليهم أعين الخلفاء ، وأمدوا الشيعة بالمال ، وكفوا عنهم بطش السلطان ما استطاعوا ، ولكنهم ما فعلوا ذلك لله ولا لصالح الدولة والدين ، ولكنهم أرادوا

أن يتقوى الحزب العلوى ، ليستطيع أن يقف ويصمد أمام الحزب الهاشمى ، ثم يتناطح الحزبان ، وينتهى ذلك التناطح والتطاحن ، بإضعاف كل منهم الآخر ، وإذ ذاك يظهر أمام ضعف الحزبين حزب ثالث قوى . هو حزب الفرس الذى يستطيع أن يقضى على الفريقين ، ويعيد مجده ودينه ، ويحيى لغته .

هجاء البرامكة :

والبرامكة ، وإن أجمع الشعراء على مدحهم ، لم يسلموا من ألسنة بعضهم ، فهجوهم هجاء خفيفاً ، قصدوا به إلى المداعبة ، أو إلى الهجاء الحق لأسباب وقتية لم تلبث أن زالت فعادوا إلى مدحهم ، ولعل الشعراء الذين هجوهم كانوا من أطول الشعراء ألسنة فى مدحهم ، ومنهم أبو نواس الذى ذكرنا له شيئاً من كثير مدحهم به ، فإنه قال يهجو جعفر بن يحيى ؛ وهو يعلم منزلته من الرشيد إذ ذاك :

عَجِبْتُ لهارونَ الإمام ، فما الذى ... يَوَدُّ ويرجو فيك يا خِلْقَةَ السِّلْقِ (١)
قفاً خَلْفَ وجهٍ قد أُطِيل كأنه ... قفا مالكٍ يَقْضى الهمومَ على ثَبْقِ (٢)
أرى جَعْفراً يزدادُ بُخْلا ودقة ... إذا زاده الرحمنُ فى سَعَة الرِّزْق
ولو جاء غَيْرُ البخلِ من عند جَعْفرٍ ... لما وضعوه الناسُ إلا على حُمْقِ (٣)

---

(١) السلق بكسر السين المشددة : الذئب .

(٢) ثبقت العين تثبق : أسرع دمعها وقد ورد هذا البيت فى الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٢٦٣ ، والكلمة الأخيرة « بثق » بتقديم الباء الموحدة .

(٣) وضعوه الناس على حمق : جاء على لغة أكلونى البراغيث أى لغة من يلحق الفعل علامة الفاعل قبل ذكره ؛ وهى لغة أزد شنوءة ، وللنحاة فيها أقاويل .

وقال يهجوه :

قالوا امْتَدَحْتَ، فماذا اعتضْتَ؟ قلت لهم: خَرْقَ النعالِ وإبلاءَ السَّراويل
قالوا : فسَمِّ لنا هذا . فقلت لهم : وصْفى له يَعْدِل التَّصريحَ فى القيل
ذاكَ الأميرُ الذى طالت عِلاوَتُه كأنه ناظرٌ فى السيفِ بالطُّولِ (١)

وقال يهجو البرامكة قاطبة :

إنِّىَ لولا شَقاءُ جَدِّى ما مات مُوسى كذا سَريعا (٢)
ولا طَوَتْه المنونُ حتى أرى بَنى بَرْمَكٍ جميعا
قد رسم الله من خصاهم بشاطئى دجلة الجذوعا
هذا زمانُ القرودِ فاخْضَعْ وكن لهم سامِعا مُطيعا
كأنهم قد أتى عليهم ما غالَ يَعْقوبَ والرَّبيعا (٣)

ولعل أخبار هذا الهجاء كانت تنتهى إليهم ، فيسرون لأبى نواس شيئاً أو أشياء فى نفوسهم ، ولكنهم لا يظهرون ذلك لمكانة أبى نواس من الرشيد ، ولأنهم قد يحتاجون إليه يوماً ما عند الرشيد ، ولأنهم يريدون مداراته خشية معرة لسانه ، ولا سيما أنه رجل سلب الحياء ، وجانب الصلاح والوقار — كما يزعمون — وإن مما يدل على أنهم كانوا يدارونه أنه استأذن يوماً على الفضل ، فأذن له على تكره منه ، فلما دخل عليه سلم ، فرد رداً فاتراً ، فاستأذن فى الإنشاد وأنشد :

---

(١) العلاوة بكسر العين : أعلى الرأس أوالعنق ، وكان جعفر طويل العنق؛ وكان له جربان خاص ، بدارى به عنقه ، وسيأتى حديث الجربان فى نكبة البرامكة .

(٢) يعنى بموسى ، الهادى لما كان ينويه من الغدر ليحيى .

(٣) يعنى بيعقوب : يعقوب بن داود وزير المهدى . ويعنى بالربيع : الربيع بن يونس انظر الجزء الأول من : « الوزراء العباسيون » للمؤلف .

طَرَحْتُمْ من التّرحال أمرا فَغَمَّنا ولو قد فعلتم صَبَّح الموتُ بعضنا

وظل ينشد والفضل يسمع وهو فى غاية التكره له ، حتى إذا بلغ قوله :

سأشكو إلى الفضل بن يحيي بن خالد هواك ، لعل الفضل يجمع بيننا

ضاق صدر الفضل ، وحمى أنفه ، وقطب وجهه ، وقال : أمسك عليك ؛ لعنك الله ؛ اغرب ، قبحك الله ؛ وأمر بإخراجه ، فأخرج[١] .

ومثل هذا الموقف يباعد بين الفضل وأبى نواس ، ويباعد بين البرامكة جميعاً وبين أبى نواس ؛ والفضل يعلم هذا ، ويعلم منزلة أبى نواس عند الخليفة ، ويعلم مرارة لسانه إذا أطلقه هاجياً ؛ ولكنه لم يستطع أن يملك نفسه حين أراد أبو نواس أن يضعه فى ذلك الوضع المهين الذى يجمع فيه بينه وبين محبوبته ؛ ولو أن الفضل غالب عاطفته ، وغلب عقله . لابتسم لهذا القول ، ولسخر من أبى نواس ، وأخرجه من مجلسه مجزيا بسوء قوله من غير أن يكون غاضباً .

وقد يكون لبعض الشعراء معهم موقف رقيق رفيق : عتاب خفيف ، ومداعبة لطيفة ، ومطالبة بالعطاء ؛ كما قال عبد الله بن محمد بن أبى عيينة ، وهو أخو أبى عيينة الشاعر الأزدى المشهور — قال يعاتب محمد بن يحيي بن خالد البرمكى بأبيات ، منها[٢] :

اسْلَمْ وإن كان فيك عنى قَبْضٌ لكفَّيْك وازْورار[٣]
تلحظنى عابساً قَطُوباً كأنما بى إليك ثارُ
لو كان أمْراً عَتَبْتُ فيه يَجُوزُ لى منه الاعتذار

---

(١) معاهد التنصيص .
(٢) مهذب الأغانى ج ٧ .
(٣) ازورار : عدول وانحراف .

أو كنتُ سأَّلة حريصا لحان منى لك الفرار (١)
أو كنت نذْلاً ، عديم عقْل لا منْصِبٌ لى ولا نِجارُ (٢)
أو لم أكن حامِلًا بنفْسِى ما تَحْمِلُ الأنفسُ الكِبارُ
وأنَّنى من خيارِ قَومى وكلُّ أهلى فتى خِيارُ
عَذَرْتُ أن نالنى جَفاءٌ منك ، وأنْ نالنى ضِرارُ (٣)
لكنَّ ذنبى إليك أنى قَحْطانُ لى الجدُّ لا نِزار (٤)
عليك منى السلامُ هذا أوانُ يَنْأى بىَ المزار
ما كنت إلّا كلحْمِ مَيْتٍ دعا إلى أكلِه اضطرار
راحَتْ على الناسِ لابن يحيى محمدٍ ديمةٌ غِزار
ولم يكن ما أنالُ منه بِقَدْرِ ما يَنْجلى الغُبَار (٥)

ومما هجى به جعفر أيضاً ما قاله أبو الهول الحميرى : (٦)

أصبحتُ محتاجاً إلى الضَّرْبِ فى طَلَبِ العُرْفِ إلى الكلْبِ
قد وَقَّحَ السَّبُّ له وجهَهَ فصار لا يَنْحاشُ للسبِّ (٧)

---

(١) سألة : كثير السؤال .
(٢) النجار : الأصل والحسب .
(٣) ضرار : ضرر .
(٤) يريد أن يرمى محمد بن يحيى أو البرامكة كلهم بأنهم يتعصبون للعدنانية على القحطانية .
(٥) يعنى أن جوده يعم الناس جميعاً ولا يصيبه منه شىء .
(٦) شاعر مقل ، له شعر يبلغ خمسين ورقة ، الفهرست ص ٢٣٢ ، وقد ورد هذا الشعر فى العمدة ج ١ ص ٤٠ ، البيان والتبيين ج ٣ ص ١٩٨ والحيوان للجاحظ ج ١ ص ٢٦٠
(٧) وقحه : جعله قليل الحياء مجترئاً على القبائح . ينحاش : يبتعد عنه وينفر منه ، واللام بمعنى عن .

إذا شكا صَبٌّ إليه الهوَى   قال له : مالى وللصَّبِّ !
أعنى فَتًى يُطْعَنُ فى دِينه   يَشِبُّ معه خَشَبَ الصُّلْب

وكان الأعراب يسمونهم العلوج[١]، قال أعرابى فى الفضل :

وعِلْجٍ يَعافُ الضَّبَّ لُؤْماً وبطْنَةً   وبعضُ إدامِ العِلْجِ هامُ ذُبابِ[٢]

---

(١) العلج : الرجل من كفار العجم ، ويطلقه العرب أيضاً على من أسلم من ذريتهم طعناً عليهم ، وزراية لهم .

(٢) وسبب ذلك أن هلاليا حضر مأدبة الفضل بن يحيى ، فجرى ذكر الضب ومن يأكله ، فأفرط الفضل فى ذمه ، وتابعه القوم ، ونظر الهلالى فلم يجد على المائدة أعرابياً غيره ، فغاظه كلامهم ، ثم لم يلبث أن رأى صحفة مقدمة وفيها فراخ الزنابير التى يعدها العرب أجناساً من الذبان ، فشمت به وبأصحابه وخرج وهو ينشد شعراً منه هذا البيت — الحيوان ج ٦ ص ٩١

المعانى التى مدحهم بها الشعراء

أما المعانى التى مدحهم بها الشعراء ، فهى ليست إلا نوعاً من المعانى التى شاعت فى المديح فى الشعر العربى منذ عهد الجاهلية إلى عصر الرشيد ، وإلى ما بعد عصر الرشيد .

الجود والكرم :

فالشعراء يصفون ممدوحيهم بالجود ، وكثرة العطاء ، واحتقار المال ، وابتذاله ، وعدم الاحتفاظ به . فكذلك وصف البرامكة من جميع مادحيهم بأنهم أجواد كرماء ، يسارعون إلى الإعطاء ، ويبالغون فيه ، حتى اتخذ القصاص من أحاديث عطائهم مادة خصبة ، سرح فيها خيالهم ما شاء ، ونسب إليهم المعقول وغير المعقول ، من أقاصيص الجود ، التى ملئوا بها مجالسهم فى المساجد ، أو فى بلاط الخلفاء من بعدهم أو فى مجالس العامة ؛ ولذلك قالوا : إن الأخبار المذكورة فى السخاء ، وكثرة العطاء ، من تصنيف الوراقين (١) ، والوراقون معذورون فيها ؛ لأن سياسة يحيى التى علمها أولاده هى : أن يكون لهم منن فى أعناق الرجال ؛ حدثوا أنه كان ليحيى ابن اسمه إبراهيم ، وكان جميلا ، وكان يقال له بجماله : دينار آل برمك فتوفى ، وسنه تسع عشرة سنة ، ووجد عليه يحيى واهتم به فقال أبو المنذر العروضى (٢) :

ما أرى حامليه حين أقلُّوا نَعْشَه للثَّواء أو للقِّاء

---

(١) الأجوبة الحاضرة من كتاب المجالس للشريف المرتضى ص٨ مخطوط ، وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل فى فصل ثان من هذا الكتاب .

فليقل فيك باكياتك ما شئـ ... ن صباحاً وعند كلِّ مساء
لا يُعَنَّفْنَ فى المقال ولـكن ... مُسْعِدَات بذاك غير خفـاء
كلُّ حىٍّ رَهْنُ المنونِ ولكن ... ليس من مات منهم بِسَواء

وكان يحيي أحضر مؤدب ابنه هذا ، ومن كان ضم إليه من كتابه وأصحابه ، فقال لهم : ما حال إبراهيم ؟ ، قالوا : قد بلغ من الأدب كذا ، ونظر فى كذا ، وقد اتخذنا له من الضياع كذا ، وبلغت غلته كذا ؛ قال : ما عن هذا سألت ! إنما سألت : هل اتخذتم له فى أعناق الرجال مننا ، وحببتموه إلى الناس ؟ ، قالوا : لا ، قال : فبئس العشراء أنتم ! ! ، وهو إلى هذا أحوج مما فعلتم ، وتقدم بحمل خمسمائة ألف درهم ، وأمر بتفريقها فى الناس ، وهذا أمر طبيعى فى المجتمع الإنسانى ، فإن كل إنسان يشتهر بأمر من الأمور فى زمنه ، حتى يشغل الناس حيناً من الدهر بما فعل أو يفعل — تجد العامة وغير العامة أحياناً ينسبون إليه كل حديث ينتمى إلى هذا الأمر الذى اشتهر به ذلك الرجل ، وقد تصير شهرته مع الزمان ، فتستمر فى كل عصر يأتى بعده ، ألا ترى مثلا ، أن كل حديث خليع منسوب إلى أبى نواس إذا جهل صاحبه، وأن كل حيلة بارعة أو نكتة لطيفة ، أو فكاهة مضحكة — منسوبة إلى جحا وأن كل قصة فى الشجاعة جهل صاحبها ، أو اخترعها مخترعها — منسوبة إلى عنترة أو إلى أبى زيد الهلالى ، أو سيف بن ذى يزن ؛ وكذلك كل قصة فى الجود ، جهل صاحبها ، أو اخترعها القاص ،أو المحدث — نسبت إلى حاتم الطائى ، أو إلى برمكى ، أو إلى غيرهما ممن اشتهر بالجود اشتهاراً، ضَؤُل معه كل جود سواه .

* * *

الشجاعة والحزم :

ووصف الشعراء البرامكة بالشجاعة والحزم ، وأصالة الرأى ، وحسن التدبير ؛ ونسبوا إليهم ذلك فى أحداث سجلها لهم الشعر ، وخلد لهم مواقفهم فيها ؛ فهذا جعفر والفضل وموسى ؛ يخرج كل منهم فى مهم من مهام الدولة إلى العراق ، أو إلى خراسان ، أو إلى الشام ؛ وتحت إمرته جيش فى عدته وعتاده ؛ ليحارب عاصياً أو خارجاً أو متمرداً ، أو ليطفىء نار ثورة اندلعت بين حزبين من أحزاب المسلمين كاليمنية والمضرية مثلا ؛ فيلجأ الواحد منهم إلى إعمال الحيلة والتفكير فى حل المسألة حلا سلمياً ، يقى به جيوشه الحرب ، ويقنع العدو بأن سلامته فى مسالمته وتسليمه ، ثم لا يلبث العدو أن ينتهى إلى رأى البرمكى ، فيعود ظافراً إلى الرشيد ، يحمل معه خصمه الذى يجىء مسلما ، ويحفظ عليه جيشه .

وقد يكون فى الأمر سر خفى يضمره البرمكى وراء الظاهر ، ويريد أن يصل بهذه السياسة إلى شىء ، تواضع عليه شيوخ بنى برمك ، لا يعرفه العرب ، ولا يعرفه خليفة العرب ، بل لا يعرفه الفرس أنفسهم إلا فى دائرة ضيقة جداً ، لا تعدو أن تكون رءوس البرامكة وخواصهم .

والأمثلة التى نسوقها لك ، لندلل بها على أنهم كانوا يحلون أكثر مشاكل الدولة التى تقتضى حرباً بالوسائل السلمية التى تدل على براعة فى السياسة — مضى كثير منها ، مما يتصل بالفضل وجعفر .

أما موسى فإنه أرسله الرشيد سنة ١٧٦ هـ إلى الشام ليخمد نار ثورة بين اليمنية والمضرية ، ومعه جماعة من القواد ورءوس الكتاب ؛ فأصلح موسى بينهم ، وهدأت الفتنة ، واستقام أمر الشام ، وحملوا جماعات من رؤساء الفتنة إلى دار السلام ، وفى ذلك يقول الشاعر (١) :

(١) خطط الشام لكرد على ج ١ ص ١٨١ .

هاجتِ الشامُ هَيْجا يُشيب رأسَ وليده
وصَبَّ موسى عليها بخَيْـله وجنوده
فدَانَتِ الشام لَمَّا أتى نسيج وَحِيدِه

الفصاحة والبلاغة :

وصفوهم بالفصاحة ، وسمو البيان ، إلا أن فصاحتهم وبلاغتهم لم نعرفها إلا من كلمات قليلة ، أو أقوال مأثورة ، أو توقيعات ، أو رسائل قصيرة مبعثرة فى بطون كتب الأدب والتاريخ ، وهذه الكلمات المبعثرة على قلتها تدل على أنهم كانت لهم قدم راسخة فى الكتابة ، ولكن يظهر أنهم شغلوا عن مزاولتها بتدبير الملك ، وتصريف شئون الدولة ، فوكلوا الأمر إلى جماعة من كبار كتاب زمانهم ؛ مثل إسماعيل بن صبيح ، وسهل بن هرون ، وأنس بن أبى الشيخ ؛ وغيرهم ؛ فكتبوا لهم العهود والمنشورات وغيرهما من الكتابات . التى تتطلبها أعمال الدولة ، ويكتفى البرامكة بالاطلاع عليها وإبداء الرأى فيها ، والإشارة بتعديل ما يرون تعديله ؛ ثم يمضونها بعد ذلك حاملة خاتمهم أو توقيعهم ؛ شأنهم فى ذلك شأن كبار الموظفين ، ورؤساء المصالح والأعمال فى زماننا ، فإنهم ليس لهم فيما يصدر عنهم من المكاتبات إلا التوقيع بعد الاطلاع ، وإبداء الرأى أحياناً ؛ وسنورد فى موضع آخر من الكتاب نماذج من كتاباتهم .

كرم الأصل :

مدحوهم بكرم الأصل ، وعراقة المحتد ، وأصالة النسب ؛ وكان للشعراء فى ذلك مجال واسع ؛ لأن البرامكة كانوا أهل شرف على وجه الدهر ، يبلغ مجد ملوك الطوائف ، اتخذوا لهم بيتاً يسمى النوبهار ، ليباهوا به العرب ،

أصحاب الكعبة ، ونصبوا حوله الأصنام ، وزينوه بالحرير والديباج ، وعلقوا عليه الجواهر النفيسة ، فعظمته الفرس ، وحجت إليه ، وأهدت له ، ونصبت على أعلى قبته الأعلام ، وأسكنوا خدمه وحشمه وسدنته في قباب نصبت من حوله ، وكان برمك لقبا يطلق على كبير السدنة ، كما كان العرب يطلقون على كبير سدنة الكعبة ابن مكة ، وكانت ملوك الهند والصين وغيرهما تحج إلى هذا البيت ، وتسجد للصنم الأكبر ، وتقبل يد برمك ، وكان البرمك يملك ما حول البيت فى حدود دائرة قطرها أربعة عشر فرسخاً ، وجميع سكان هذا الإقطاع من الأرض عبيد لبرمك ، يحكم فيهم بما يريد ، وكان لبرمك غير هذا وقوف كثيرة ، وضياع عظيمة ، سوى ما يحمل إليه من الهدايا التى تتجاوز الحد .

ولم يزل يتولى شئون النوبهار ، برمك بعد برمك ، حتى كان برمك أبو خالد فى زمن عثمان بن عفان ، حين فتحت خراسان ، فسار برمك هذا إلى عثمان مع رهائن ، وكانوا ضمنوا مالا عن بلدهم ، ثم بدا له أن يدخل فى الإسلام فأسلم ، وسمى عبد الله ، ورجع إلى أهله وولده وبلده ، فأنكروا إسلامه وعزلوه ، وولوا أحد أولاده برمكا مكانه ، وما زال به أهله وجيرانه من أعداء الإسلام ، يعيبون عليه ويبكتونه ، ويحاولون أن يحملوه على الارتداد عن الإسلام ، والرجوع إلى دين آبائه وأجداده ، فلم يقبل ، ورد عليهم : (بأنى إنما دخلت فى هذا اختياراً ، وعلماً بفضله من غير رهبة ، ولم أكن لأرجع إلى دين بادى العوار ، مهتك الأستار[1] .

يفهم من هذا أن بنى برمك قوم ذوو حسب ونسب ، وكان لهم سلطان فى قومهم وكان يقصد الملوك إليهم طائعين ، يحملون لهم الهدايا ، ويقبلون أيديهم ،

---

(١) معجم البلدان جـ ٨ ص ٣٢٢ .

ويحبسون المال والعقار على بيتهم ، لذلك وجد الشعراء مجالاً للقول فيهم من هذه الناحية :

فروعٌ أصابت مَغْرِساً فتمكَّنتْ وأصْلا فسارت حَيْثُ وَجَّهَها الأصل

لهم هَضْبَةٌ تَأوِى إلى ظلِّ برمكٍ مَنوطا بها الآمالُ أطْنابها السَّبْل (١)

أقَرَّت عليهم نعمةُ اللهِ نعمةً لهم فى رقابِ الناسِ ليس لها نَقْل

---

(١) السبل : العطاء .

أدب البرامكة

قدمنا أن البرامكة كانت لهم قدم راسخة فى الأدب ، وكانت لهم كتابات مشهورة أثر بعضها، ولم يؤثر بعضها الآخر ؛ وبعض هذه الكتابات أهملها الرواة والمؤلفون تعصباً عليها ، ومبالغة فى استنكار ما كان لهم من سلطان غصبوه العرب ، وبعضها حفظه لهم أدباء الفرس المتعصبون لهم، ودونوه فى كتبهم الفارسية عربياً أو مترجماً ، بعد أن عادت لهم قوميتهم ولغتهم ؛ وبعضها حفظه لهم المؤلفون فى بطون كتبهم ، إلا أن هذه الكتب دَثَرَتْ فيما دثر من المؤلفات العربية التى أطاحتها الأحـــداث السياسية فى بغداد وفى غير بغداد . لهذا كله لم تصل إلينا إلا نتف قصيرة من توقيعاتهم ، أو رسائلهم المختصرة التى كانوا يكتبونها لأصدقائهم أو لعمال الولايات فى الأقاليم .

ولعلهم لم يكتبوا لأنفسهم عهوداً أو منشورات مطولة ، كالتى كتبها من قبل عبد الله بن المقفع ، وعبد الحميد الكاتب ؛ وغيرهما من كبار الكتّاب الذين كانوا يتولون الكتابة للخلفاء ، وذلك يرجع إلى أن الكتّاب من أمثال ابن المقفع وعبد الحميد ؛ كانت صناعتهم فى بلاط الخلفاء الكتابة — يأمر الخليفة الكاتب منهم أن يحرر عهداً أو منشوراً مثلا فى موضوع بذاته ، يحدده له ، ويرسم له الإطار الذى يدور فيه ولا يتعداه ، فيدور الكاتب فى هذا الإطار ما شاء أن يدور ، حتى إذا انتهى عرض ما كتب على الخليفة ، فيقره كما هو ، أو يعدل فيه كما يشاء .

إذن لم يكن هؤلاء إلا كتبة ، ولكنهم لا شأن لهم بمسائل السياسة والحرب والتدبير ؛ أما البرامكة فكانوا وزراء ، خلع عليهم الخليفة فى لمحة من لمحات

رضاه لقب الإمارة ، فعظمت منزلتهم فوق عظمتها ، وصار بينهم وبين الكتّاب مرتبتان : مرتبة الوزير ، ثم مرتبة الأمير ؛ وشغلوا أنفسهم بتدبير شئون دولة عظيمة تعددت ولاياتها ، واختلفت أجناس رعاياها ؛ فهم بين مصرى ، وشامى ، ومغربى ، وعراقى ، وفارسى ، وحجازى ، ويمنى ، وغير ذلك . وهذه كلها شعوب مختلفة الطباع والمشارب والثقافات ؛ ويختلف قربها وبعدها من مركز الدولة ، ويختلف إيمان أفرادها بالحكم القائم ، وانبثت فيها أحزاب عربية مختلفة : فالشيعة فى جانب ، والأمويون فى جانب ، والزبيريون هنا ، والخوارج هناك ، وهكذا ، فتفتقت الأقطار على الدولة ، وحاول يحيى وأولاده أن يرتقوا ما انفتق منها ولو ظاهراً ، ومن وراء هذا جميعه ، يستأسد الرومان ، ويعبئون جيوشهم ، ويغزون بلاد المسلمين من أطرافها .

فأين الوقت الذى يفرغ فيه يحيى وأولاده للكتابة ؟ ، ولا سيما إذا أضفنا إلى جميع الاعتبارات السابقة ، الجو المكفهر الذى يحيط بيحيى وأولاده فى بلاط الرشيد : دسائس من كل جانب تحيط بهم — يحاول بها العرب أن يقضوا على سلطانهم ، ويحاول بها الفرس أن ينتزعوا السلطان من أيديهم ، ويحاول غير هؤلاء وأولئك أن يقضوا مضجع البرامكة ، وأن يؤرقوهم حسداً لهم .

لهذا لم يكن بد من أن يستعين البرامكة ببعض كتّاب زمانهم ؛ ليكتبوا لهم ، فاستعانوا بسهل[1] بن هرون وأنس بن أبى شيخ ، ويوسف

---

(١) هو سهل بن هرون بن راهبون ، وكنيته أبو عمر ، فارسى الجنس ، أهوازى المولد ، عراقى المنشأ ، تعلم فى البصرة ، ثم رحل إلى بغداد وكان من معتزلة شيعة العراق ، وصفه الحرانى فقال : « هو كالخير ، وازن العلم ، واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم يغضب كالغيث أين وقع نفع ، وكالشمس حيث أولت أحيت ، وكالأرض ما حملتها حملت ، وكالماء طهور لملتمسه ، وناقع لغلة من أحر إليه ، وكالهواء الذى تقتطف منه الحياة بالتنسم ، وكالنار التى يعيش بها المقرور ، وكالسماء التى حسنت بأصناف النور » . واتهموه بالبخل وعده الجاحظ من متعاقلى البخلاء ، وأشحاء العلماء . اتصل سهل بالبرامكة ، وكتب لهم ، ولكنه كان معتدلا ،

ابن صبيح(١).

وليس معنى هذا أنهم لم يكونوا كتّاباً ، أو لم يحسنوا الكتابة ، بل كانوا على رأس كتّاب زمانهم ، والكتابة كانت الأداة الأولى التى رفعتهم إلى المنزلة التى ارتفعوا(٢) إليها ، وقد عدهم ابن النديم فى الكتاب المترسلين الذين رويت رسائلهم ، ولكنه جعل ذلك قليلا بالنسبة للفضل ، وعدهم أيضاً فى الشعراء الكتّاب إلا أنه جعلهم شعراء(٣) مقلين .

وهذه شهادة سهل بن هرون فى بلاغة يحيى وجعفر ، قال :

إن سجاعى الخطب ، ومحبرى القريض — عيال على يحيى بن خالد بن برمك ، وجعفر بن يحيى ؛ ولو كان كلام يتصور دُرًّا ، ويحيله المنطق السرى جوهراً ؛ لكان كلامهما والمنتقى من لفظهما . . . ، ولقد عمرت معهم وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم ، ولم تكن مقصورة إلا عليهم ولا انقادت إلا لهم ، وأنهم محض الأنام ، ولباب الكرام ، وملح الأيام : حسن منظر ، وجودة مخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة نفس ، واكتمال خصال — حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم ،

فلا هو برمكى متطرف ولا هو رشيدى متطرف ؛ ولذلك عاش بعدهم ، وخدم الرشيد ، ثم المأمون . ورسالته فى البخل مشهورة . وله تراجم فى معجم الأدباء والوافى بالوفيات ، وفوات الوفيات . والمضاف والمنسوب ، وغيرها من الكتب .

وأنس ابن أبي شيخ سنتحدث عنه حديثاً خاصاً فى فصل تال ، لخصوصيته بالبرامكة .

(١) كاتب يحيى والرشيد ، أمره يحيى بإنشاء الكتب بخلافة الرشيد ، فكتب فى ذلك بأحسن كتب ، وهو الذى كلم الناس حينما جمعهم يحيى لأخذ البيعة للرشيد ، وكان يخلف يحيى على التوقيع فى داره ودار الرشيد ، وعلى ديوان الأزمة . وحمل الخاتم ، وكان يحيى يكرمه ويقدم له جوائز كثيرة .

(٢) كان كتابهم يجودون فى صناعتهم ، وكانوا يتعهدونهم ، ويقرونهم أو يراجعونهم ؛ أمر يحيى اثنين من كتابه أن يكتبا كتاباً فى معنى واحد ، فأطنب أحدهما ، وأوجز الثانى ، فلما نظر فى الكتابين ، قال للموجز : ما أرى موضع مزيد ، وقال للمطنب : ما أرى موضع نقصان .

(٣) الفهرس ص ٢٣٦ .

والمأثور من خصالهم ؛ كثير أيام من سواهم ، من لدن آدم أبيهم إلى النفخ فى الصو ر ، وانبعاث أهل القبور ، حاشا أنبياء الله المقربين ، وأهل وحية المرسلين ، لما باهت إلا بهم ، ولا عولت فى الفخر إلا عليهم (١) .

وهذا الكلام على الرغم مما فيه من المبالغة غير المقبولة ، يدل على أنهم كان لهم قدم راسخة فى البلاغة وفصاحة الكلام ، ولهم من ذلك كثير منتشر هنا وهناك فى بطون كتب الأدب والتاريخ .

ونحن نورد هنا نماذج من المقطعات الصغيرة التى كتبوها بأنفسهم ، تدل على ما كان لهم من منزلة كبيرة فى الكتابة .

من كلام يحيى (٢) :

لا أحمد نفسى على رأى ابتدأته بخطإ فآل إلى الصواب ، لأنه بالخطإ ابتدأته ، ولا علم لى بمآله ؛ وكذلك لا أذمها على رأى ابتدأته بصواب فآل إلى خطإ ، فأنا كذلك ابتدأت أمرى بصواب ولا أعلم المغيب .

* * *

لما تباعد ما بين يحيى بن خالد ، وعلى بن عيسى بن ماهان — وجه على أبا نوح ، ليتعرف ما فى نفس يحيى فكتب يحيى على يد أبى نوح :

بسم الله الرحمن الرحيم : عافانا الله وإياك ، كن على يقين أنى بك ضنين ، وعلى التمسك بما بينى وبينك حريص ، وأن ينوب عنى ما كان ذلك بى وبك

---

(١) أمراء البيان الجزء الأول .

(٢) قال ياقوت فى يحيى : كان من أكمل أهل زمانه أدباً وفصاحة وبلاغة ، وإنما دخل فى شرط كتابنا من جهة بلاغته وتقدمه على أكثر أهل عصره فى الإنشاء والكتابة وما صدر عنه من الحكم والأقوال التى تداولها الرواة ، وملئت بها الدفاتر (معجم الأدباء) . وروى القاضى يحيى ابن أكثم عن المأمون : لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحد فى البلاغة والكفاية ، وكانت البلاغة عنده أن يكلم كل قوم بما يفهمون .

جميلا ، فإن جاءت المقادير بخلاف ما أحب من ذلك ، لم أعد ما يحمد ، ولم أتجاف إلى شيء مما يكره .

هاجني على الكتاب إليك مسألة أبي نوح إياى ، أن أبوح لك بما عندى ، والله يعلم أنى ما تبدلت ، ولا حلت عن عهد ، جمعنا الله وإياك على طاعته ومحبة خليفته بجوده وقدرته .

* * *

مسألة الملوك عن حالها من سجية النوكى ، فإذا قصدت أن تقول : كيف أصبح الأمير ؟ ، فقل : صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة ، وإذا كان عليلا ، فأردت أن تسأله عن حاله ، فقل : أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة ؛ فإن الملوك لا تسأل ، ولا تشمت ، ولا تكيف(١) . وأنشد :

إن الملوكَ لا يُخاطَبونا ولا إذا مَلُّوا يعاتبونا
وفى المقال لا يُنازعونا وفى العِطاس لا يُشَمَّتونا
وفى الخطاب لا يُكَيَّفونا يُثْنَى عليهم ويُبَجَّلونا
وافهم وصاتى لا تكن مجنونا

* * *

أحسن حيلة الولاة إصابة السياسة ، ورأس إصابة السياسة العمل لطاعة الله ، وفتح بابين للرعية : أحدهما رأفة ورحمة وبذل وتحنن ، والآخر غلظة ومباعدة وإمساك ومنع .

* * *

ما رأيت رجلا إلا هبته حتى يتكلم ، فإن كان فصيحاً عظم فى عينى وصدرى ، وإن قصر سقط من عينى .

---

(١) لا يقال للملك : كيف حالك ؟

وقال ينصح أولاده : لا بد لكم من عمال وكتاب وأعوان ، فاستعينوا بالأشراف ، وإياكم وسفلة الناس ، فإن النعمة على الأشراف أبقى ، وهى بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر ، والشكر منهم أكثر .

* * *

من كلام جعفر (١) :

رفعت إليه رقعة ذكر فيها صاحبها قصده إياه بأمل طويل ، ورجاء فسيح ، فوقع على ظهرها : هذا يمنى بحرمة الأمل ، وهى أقرب الوسائل ، وأثبت الوصائل ، فليعجل له من ذلك عشرون ألف درهم ، وليمتحن ببعض الكفاية ، فإن وجدت عنده فقد ضم إلى حقه حقاً ، وإلى حرمته حرمة ، وإن قصر عن ذلك فعلينا معوله ، وإلينا موئله ، وفى ما لنا سعة له .

* * *

وقع على كتاب لعلى بن عيسى ماهان : حبب إلينا الوفاء الذى أبغضته ، وبغض الغدر الذى أحببته فما جزاء الأيام أن يحسن ظنك بها ، وقد رأيت غدراتها ، ووقعاتها عياناً وإخباراً والسلام .

ووقع على رقعة لمحبوس : العدوان أوبقه ، والتوبة تطلقه .

* * *

---

(١) قال الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين :

كان جعفر كاتباً بليغاً ، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته ، وتدورست بلاغاته ، ووصفه ثمامة بأنه كان أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة ، لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة — وقال : ما رأيت أحداً ، كان لا يتحبس ولا يتوقف ، ولا يتلجلج ، ولا يتنحنح ، ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه — أشد اقتداراً ولا تكلفاً من جعفر .

وكان يضرب به المثل فى الفصاحة والحجة . أشعار أولاد الخلفاء ص ٣٤

ومن خطبة له : إنى أوصيكم بالألفة ، وأحذركم الفرقة، وآمركم بالاجتماع ، وأنهاكم عن الاختلاف ،قال الله عز وجل : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا » . فأمر بالجماعة فى أول الآية ، ثم لم ينقص حتى نهى فيها عن الفرقة ، توكيداً للحجة ، وقطعاً للمعذرة ؛ إن الفرقة تنشئ بينكم إحنا ، يطلب بها بعضكم بعضاً وإن الجماعة تعقد بينكم ذمماً ، يحمى بها بعضكم بعضاً ، حتى يكون المكاثر لواحدكم كالمكاثر لجماعتكم ، فمتى يطمع عدو فيكم إذا كانت النائبة تعمكم ؛ إن غفل بعضكم حرسه بقيتكم ، وإن غربت طائفة منهم منعها تآلفكم ؛ إنه لم يجتمع ضعفاء قط إلا قووا حتى يمتنعوا ، ولم يفترق أقوياء قط إلا ضعفوا حتى يخضعوا ، واجتماع الضعيفين قوة ، وافتراق القويين مهانة تمكن منهما ، غافل الجماعة لا تضره غفلته لكثرة من يحفظه ، ومتيقظ الفرقة لا ينفعه تيقظه لكثرة من يطلبه ، وصاحب الجماعة يدرك أرشه[1] فى الخدش والشجة ، وصاحب الفرقة يذهب حقه فى النفس والحرمة .

* * *

سئل يوماً : ما البيان ؟ ، فقال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة ، والذى لا بد أن يكون سليماً من التكلف ، بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد، غنياً عن التأويل .

* * *

متى كان الإيجاز أبلغ ، كان الإكثار عياً ؛ ومتى كانت الكناية فى موضع الإكثار ، كان الإيجاز تقصيراً .

* * *

الخراج عمود الملك ، وما استغزر بمثل العدل ، ولا استنزر بمثل الظلم .

---

(١) الآرش : الدية والثأر .

* * *

كتب إليه رجل يستبطئه ، فوقع على ظهر كتابه :

أحتج عليك بغالب القضاء ، وأعتذر إليك بصادق النية .

* * *

اعتذر إليه رجل ، فقال له :

قد أغناك الله بالعذر منا عن الاعتذار ، وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك .

* * *

وكتب(١) إليه أن صاحب الطريق(٢) قد اشتط فيما يطلب من الأموال فوقع :

هذا الرجل منقطع عن السلطان ، وبين ذؤبان(٣) العرب بحيث العدد والعدة ، والقلوب القاسية ، والأنوف الحمية ؛ فليمدد من المال بما يستصلح به من معه ، ليدفع به عدوه ؛ فإن نفقات الحروب يستظهر لها ، ولا يستظهر عليها .

---

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢١١ .

(٢) لعله أراد بصاحب الطريق قائد الجند الذى يمر بالطريق لمقاتلة الأعداء .

(٣) ذؤبان العرب : من يجترئون عند الخلوة فقط ، ولذلك يقولون : الذئب خالياً أسد .

البرامكة والغناء

يحيى البرمكى ودنانير :

وكان البرامـكة فى أكثر أيام وزارتهم فى حال من سكون النفس ، وهدوء البال ، وراحة الضمير ، وفراغ القلب – تجعلهم لا ينسون أن يخلقوا لأنفسهم أوقاتاً يدخلون فيها السرور عليها ، ويختلسون من الزمن بعضاً منه ، يخرجون فيه من متاعب الحكم ، وأعباء الوزارة ، وتقاليد الإمارة – إلى انبساط وسرور ، وترويح القلب ، وتفريج من السأم والملالة ، فكانت لهم جارية تسمى دنانير . نسبت إليهم ، واشتهرت بهم ، فعرفها الناس فى زمنهم وفى غير زمنهم باسم (دنانير البرمكية) .

ودنانير هذه كانت لرجل من أهل المدينة ، وكانت صفراء مولدة ، مليحة صادقة الملاحة ، مشرقة الوجه ، ظريفة كاملة ، حسنة الأدب ، تروى الغناء ، وتروى الشعر ؛ رآها يحيى بن خالد ، فوقعت بقلبه ، فاشتراها من سيدها وكانت تخرجت فى الغناء على بذل[1] ، وعلى أساتذة الغناء الذين أخذت عنهم بذل ؛ فقلدت كبارهم ، وأحسنت الرواية عنهم ، حتى كانت تساويهم أو تفوقهم ؛ ولقد كان إبراهيم الموصلى يقول ليحيى : متى فقدتنى ودنانير باقية فما فقدتنى ؛ وهرون الرشيد شغف بها شغفاً عظيماً ، وأحب غناءها ، وكثيراً

(١) مولدة من مولدات المدينة، ربيت بالبصرة ، كانت كثيرة الرواية ، ولها كتاب فى الأغانى ، عملته لعلى بن هشام ، وكانت حلوة الوجه ، ظريفة ؛ ابتاعها جعفر بن موسى الهادى ، فأخذها منه الأمين ، ووصفوها بأنها كانت أحسن الناس غناء فى دهرها وكانت أستاذة كل محسن ومحسنة .

ما كان يصير إلى بيت يحيى ، ليسمع منها ويطرب بها ؛ واشتهر بذلك أمره ، فلما علمت زبيدة أم جعفر زوجته ؛ دخلت على نفسها الغيرة ، وألحت عليها ، حتى نفد صبرها ، ورأت أنه لا بد من التحدث فى شأنها ، ولا سيما أن الرشيد كان يقيم عندها ، ويبرها ، ويفرط فى برها ، فلم تر زبيدة مناصاً من أن تشكوه إلى أهلها وأهله ، وعمومتها وعمومته ، فعاتبوه على ذلك ، فقال لهم : مالى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها ، وإنما أربى فى غنائها ، فاسمعوها ، فإن استحقت أن يؤلف غناؤها ، وإلا فقولوا ما شئتم ، فأقاموا عنده ، ونقلهم إلى بيت يحيى ، وغنت دنانير لهم ، فعذروه ، وعادوا إلى زبيدة ، وأشاروا عليها ألا تلح فى أمرها .

وقد حذقت الغناء أيما حذق ، وفاقت أساتذتها فيه ، وكان يحيى يحرص على أن تكون مبرزة فى فنون الغناء المختلفة ، ويود لو أن كبار المغنين يشهدون لها بالتقدم والسبق ، وكان يغريهم بها أن يجدوا لها عيباً فى صوت ، أو خطأ فى نغم ، يقصد بذلك إلى استصلاحها ، وبلوغها مرتبة الكمال أو قريباً منها ، فهو الذى يسمعها تغنى صوتاً عملته واختارته لنفسها ، وتعجب به أشد العجب ، ويعجب به هو أيضاً ، ولكنه ينصح لها ألا تفرط فى إعجابها ، ويهيئ لها لقاء لشيخ الصناعة فى زمنه ، وأستاذ المغنين والمغنيات : إبراهيم الموصلى (١) ، ويأمرها أن تعرض الصوت عليه ، فإن رضيه رضيته لنفسها ، وإن كرهه كرهته لنفسها ؛ ولكن إبراهيم كان رجلا لبقاً فيه فطنة وذكاء ، فقال ليحيى : أيها الوزير ؛ فكيف إعجابك أنت بهذا الصوت ؟ ، فإنك والله ، ثاقب الفطنة ،

---

(١) هو إبراهيم بن ماهان فارسى الأصل ، كوفى المولد ، ولاؤه لبنى تميم ، أحب الغناء فى صغره وطلبه ، فاشتد أخواله عايه ، فهرب إلى الموصل ، وأقام بها سنة ، فلما عاد إلى الكوفة قال له إخوانه : مرحباً بالموصلى ، فغلبت هذه النسبة عليه : وتعلم الغناء الفارسى والعربى . غنى للمهدى ، وحظى عنده ، واتصل بالهادى ، وأخذ جوائزه . وله مع الرشيد والبرامكة أخبار طوال حسان .

صحيح التمييز ؛ فقال له يحيى : أكره أن أقول لك : أعجبنى ، فيكون عندك غير معجب ، إذ كنت عندى رئيس صناعتك ، تعرف منها ما لا أعرف ، وتقف من لطائفها على ما لا أقف ، وأكره أن أقول لك : لا يعجبنى ، وقد بلغ من قولى مبلغاً محموداً ، وإنما يتم السرور به إذا صادف ذلك منك استجادة وتصويباً .

مضى إبراهيم إلى منزل يحيى ، وكان الخبر سبق إلى الخدم بأنه سيرسله إلى داره ، وأرسل إلى دنانير :

إذا جاءك إبراهيم ، فاعرضى عليه الصوت الذى صنعته ، واستحسنته . فإن قال لك : أصبت ، سررتنى بذلك وإن كرهه فلا تعلمينى ؛ لئلا يزول سرورى بما صنعت ؛ فلما حضر إبراهيم الباب ، أدخل ، فإذا الستارة قد نصبت ، فسلم على دنانير من وراء الستارة ، فردت السلام ، ثم قالت : يا أبت ؛ أعرض عليك صوتاً قد تقدم — لا شك — إليك خبره ، وقد سمعت الوزير ، يقول : إن الناس يفتنون بغنائهم ، فيعجبهم منه ما لا يعجب غيرهم ، وكذلك يفتنون بأولادهم ، فيحسن فى أعينهم منهم ما ليس بحسن ؛ وقد خشيت على الصوت أن يكون كذلك . فقال لها إبراهيم : هات ، غنى الصوت . فأخذت عودها ، وتغنت تقول :

نَفْسى ، أ كنتُ عَليك مُدَّعيا ؟ أم حين أَزْمَعَ بينهم خُنْت ؟
إن كنتِ مولعةً بذكرِهمو فعلى فراقِهمو أَلَا صحت ؟

فأعجب إبراهيم بالصوت غاية العجب ، واستخفه الطرب ، وقال لها : أعيديه ، فأعادته ، وأنصت لها محاولا أن يطلب لها فيه موضعاً يصلحه ، أو يغيره عليها ، لتأخذه عنه ، فما قدر على ذلك . فطلب إليها أن تغنيه الصوت ثالثة ، فغنته ، فإذا هو كالذهب المصفى ، فقال لها : أحسنت والله يا بنية ، ما شئت وأصبت ، وقد قطعت عليك بحسن إحسانك ، وجودة إصابتك ،

فائدة للمعلمين ؛ إذ قد صرت تَحسنين الاختيار ، وتجيدين الصنعة . ثم خرج إبراهيم فلقى يحيى بن خالد ؛ فقال يحيى ؛ كيف رأيت صنعة ابنتك دنانير ؟ ، فأجابه : أعز الله الوزير ، والله ما يحذق كثير من حذاق المغنين مثل هذه الصنعة ، ولقد قلت لها : أعيديه ، وأعادته على مرات ، كل ذلك أريد إعناتها ، لأجتلب لنفسى مدخلا يؤخذ عنى ، وينسب إلى ، فلا والله ما وجدته فقال له يحيى : وصفك لها يقوم مقام تعليمك إياها ، وقد — والله — سررتنى ، وسأسرك ، ثم وجه إليه بمال عظيم[1] .

وما كانت دنانير تصل إلى هذه المنزلة من الإجادة إلا بعد أن تلقت على أساتذة المغنين الذين جلبهم لها مولاها المدنى أولا ، ثم يحيى ثانياً ، وإلا بعد أن أقبلت على التعليم بشغف شديد ، وإقبال يدفعها إليه وازع من نفسها ، وميل من قلبها . وكان يحيى يوصى الأساتذة أن يهتموا بها ، ويكدوها حتى أجادوا تخريجها ، وحتى غلبتهم فى صنعتها ؛ ومما يدل على عنايتهم بها أن حكماً الوادى[2] دخل يوماً على يحيى بن خالد ، فقال له يحيى : ما رأيك فى خمسمائة دينار قد حضرت ؟ ، فقال : ومن لى بها ؟ . قال : تلقى لحنك فى :

ذكرتُكَ أنْ فاضَ الفراتُ بأرضنا   وفاضت بأعلى الرَّقَّتيْنِ بِحارُها
وحَوْلِىَ مما خوَّلَ اللهُ هَجْمَة   عطاؤكَ منها شَوْلُها وعِشارُها[3]

---

(١) الأغانى ج ٥ و ج ١٦ .

(٢) هو أبو يحيى الحكم بن يمون ، كان يكرى الجمال ينقل عليها الزيت بين الشام والمدينة . حذق الغناء ، وكان يغنى بالدف مرتجلا ، وعمر طويلا . غنى الوليد بن عبد الملك ، وغنى الرشيد ، ولم يبلغ مبلغه أحد فى الهزج .

(٣) الهجمة : هى من الإبل ما بين الأربعين أو السبعين إلى المائة — الشول : جمع ، مفرده شائلة ؛ وهى التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر . العشار : جمع ؛ مفرده : عشراء ؛ وهى الناقة التى مضى لحملها عشرة أشهر ، أو هى من النوق كالنفساء من النساء — خول : أعطى .

فجئناك نُثْنى بالذى أنت أهْلُه عليك كما أُثْنى على الرَّوْض جارُها
إذا متَّ لم يوصَلْ صديقٌ ولم تَقُم طريقٌ من المعروف أنت منارُها

على دنانير ، فها هى ذى ، وهذا سلام واقف معك ، ومخرجها إليك ، وأنا راكب إلى أمير المؤمنين ولست أنصرف من مجلس المظالم إلى وقت الظهر ، فكدها فيه ، فإذا أحكمته فلك خمسمائة دينار ؛ فقالت دنانير : يا سيدى ؛ أبو يحيى يأخذ خمسمائة دينار ، وينصرف ، وأنا أبقى معك ، أقاسمك عمرى كله ؛ فقال لها : إن حفظته ، فلك ألف دينار . ثم تركها وانصرف إلى أمير المؤمنين . فقال لها حكم الوادى : يا سيدتى ؛ اشغلى نفسك بذا ، فإنك أنت تهبين لى الخمسمائة الدينار بحفظك إياه، وتفوزين بالألف الدينار ، وإلا بطل هذا ؛ وما زال حكم معها، يكدها ويكد نفسه ، وهى تغنيه ، حتى عاد يحيى ، فطلب إلى حكم أن يغنيه الصوت ، فخاف إن هو غناه قبل دنانير، ثم غنت بعده دنانير ، أن تسقط فى نظر يحيى فيضيع عليه الأجر ، ولكنه لم يجد بداً من الغناء، فغنى ، ثم أمر دنانير بالغناء، فغنت، فأعجب يحيى ، وكان خبيراً بالغناء وقال : والله ما أرى إلا خيراً ، فقال حكم : جعلت فداءك . أنا أمضغ هذا منذ أكثر من خمسين سنة كما أمضغ الخبز(١)، وهذه أخذته الساعة ، وهو يذل لها بعدى ، وتجترئ عليه ، ويزداد حسناً فى صوتها . فقال يحيى : صدقت ؛ ومنحهما المال الذى وعدهما به ، فاستأذنت دنانير يحيى فى أن تهب لأستاذها نصف الألف التى أخذتها ، فجعل ذلك لها ، ففعلت (٢) .

وما زالت دنانير عند البرامكة متمتعة برضاهم عنها ، وتقديرهم لها — حتى نكبهم الرشيد ، فحزنت عليهم حزناً شديداً ، برح بها وشفها ، وامتنعت بعدهم

(١) يعنى بهذا أنه يزاول هذه الصنعة منذ وقت طويل .
(٢) الأغانى جـ ٥ ص ٨٩ .

عن الغناء ، فلما أرسل الرشيد فى طلبها ، وأمرها أن تغنى اعتذرت وقالت : يا أمير المؤمنين ؛ إنى آليت ألا أغنى بعد سيدى أبداً ، فغضب وأمر بصفعها ، فصفعت وأقيمت على رجليها ، وأعطيت العود ، فأخذته وهى تبكى أمر بكاء ، واندفعت فغنت :

يا دارَ سَلْمى بنازح السَّنَدِ   بَيْنَ الثنايا ومَسْقَطِ اللِّبَدِ
لما رأيتُ الدِّيارَ قد دَرَسَت   أيْقَنْتُ أنَّ النعيمَ لم يَعُدِ

فرق لها الرشيد ، وأمر بإطلاقها ، وانصرفت ، فقال الرشيد لإبراهيم بن المهدى ، وكان حاضراً : كيف رأيتها ؟ قال : رأيتها تختله برفق ، وتقهره بحذق :

ولم يكن وفاؤها لمولاها يحيى بن خالد فى أنها امتنعت عن الغناء فحسب ، ولكنها كانت ترفض أن تتمتع بنعيم الدنيا على الوجه الذى كانت تتمتع به زمن يحيى ، وأبت أن تتزوج من بعده برغم الإلحاح عليها ، والإفراط فى إغرائها ، وقد أحبها عقيل ، مولى صالح بن الرشيد ، وشغف بذكرها ، فخطبها ، فردته ، فوسط لديها مولاه صالحاً ، واستشفع عليها بأستاذتها بذل ؛ وغيرهما — فأقامت على رده ، ولم تجبه وفاء لمولاها ؟ ورعاية لأيامه ؛ فكتب إليها عقيل :

يا دنانيرُ قد تنكَّرَ عقلى   وَتحيَّرْتُ بين وَعْدٍ ومَطْلِ
شغَفى شافِعِى إليْكِ وإلاَّ   فاقتُلينى إن كنت تَهْوَيْنَ قَتْلى
أنا باللهِ والأميروما آ   مُل من مَوْعِدِ الحسين وبَذْل
ما أُحِبُّ الحياةَ يا حِبُّ إن لم   يَجْمَعِ اللهُ عاجلا بكِ شَمْلى

فلم يعطفها ذلك على ما يحب ، ولم تزل على حالها إلى أن ماتت . وفى دنانير هذه يقول أبو حفص الشطرنجى[1] :

---

(١) هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز ، مولى بنى العباس ، وكان أبوه من موالى أبى جعفر المنصور ، وكان له اسم غير هذا ، فلما نشأ ابنه ، وتأدب — غيره وسماه عبد العزيز وأبو حفص هذا ، شغف بالشطرنج ، ومهر فى لعبه ، فلقب به لغلبته عليه .

هَذِى دنانيرُ تنسانى فأَذْكُرُها وكيفَ تَنْسى مُحبًّا ليس يَنساها
واللهِ واللهِ لو كانت إذا بَرَزَتْ نَفْسُ المُتَيم فى كفَّيْه أَلقاها

ويقول :

أَشْبَهَكِ المِسْكُ وأَشْبَهْتِهِ قائمةً فى لوْنِه قاعِدَه
لا شَكَّ إذ لَوْنُكما واحِدٌ أَنَّكما مِنْ طِينةٍ واحِدَه

* * *

ولم تكن مجالس الغناء عند يحيى مخصوصة بدنانير ، فإنه كان يعقد للغناء مجالس ، يحضرها كبار المغنين فى زمنه ؛ مثل : فليح(١) ، وابن جامع(٢) ، وحكم الوادى ، وإبراهيم الموصلى ، وابنه إسحق ؛ وغيرهم . وكان المغنون يتسابقون فى الإجادة ، ويتنافسون ، ويحاول كل منهم أن يكون السابق فى إرضاء الوزير ، فيسبق بالجائزة الأولى ، وكان يكيد بعضهم لبعض ، ويحاول أن يسقط بعضهم بعضاً ؛ فمن ذلك أن فليحاً ، وحكماً الوادى ، وابن جامع — اجتمعوا مرة فى مجلس يحيى ، فقال فليح لحكم الوادى : إن ابن جامع معنا ، فعاونى عليه لنكسره ، فلما صاروا إلى الغناء ، غنى حكم ، فصاح فليح ، هكذا والله يكون الغناء ، ثم غنى فليح ، فصاح حكم : هكذا والله يكون الغناء ، ثم غنى ابن جامع ، فما كانا معه فى شىء ، فلما كان العشى ، أرسل يحيى إلى جاريته

(١) فليح : مولى مخزومى ، له محل كبير ، من صناعته . وهو أحد الثلاثة الذين اختاروا المائة صوت للرشيد ، التى بنى عليها صاحب الأغانى كتابه ؛ وكان المهدى لا يغنيه مغن إلا من وراء ستارة ، إلا فليح ؛ فإن الستارة كانت ترفع بينه وبين المهدى .

(٢) ابن جامع : هو إسماعيل بن جامع ، ينتهى نسبه إلى كعب بن لؤى بن غالب ، ويكنى أبا القاسم ، وأمه من بنى سهم ؛ وكان من أحفظ خلق الله لكتاب الله ، وأعلمهم بما يحتاج إليه ؛ ومع ذلك كان يحب الكلاب ، ويشتغل بالقمار ، وكان يقول : لولا أن القمار وحب الكلاب ، شغلانى ، لتركت المغنين ، لا يأكلون الخبز . وقال فيه برصوما الزامر : إن ابن جامع زق عسل ، إن فتحت فمه ، خرج عسل حلو ، وإن خرقت جنبه خرج عسل حلو ، وإن فتحت يده خرج عسل حلو ، كله جيد . وكان برصوما يزمر عليه إذا غنى .

دنانير : إن أصحابك عندنا ، فهل لك أن تخرجى إلينا ، فخرجت ، وخرج معها وصائف لها ، وقضوا ليلة ممتعة ، إلا أن كياد فليح وحكم لم يؤثر فى يحيي ، وفطن له ، وسوى بينهم جميعاً فى الجائزة ، وساعده على العدل بينهم خبرته بهذه الصناعة ، فقد كان على علم بها ، وكان المغنون والجوارى يهابونه ، وكان يفضل حكماً على غيره ، ويقول : ما رأينا فيمن يأتينا من المغنين أحداً أجود أداء من حكم ، وليس أحد يسمع غناء ، ثم يغنيه بعد ذلك إلا وهو يغيره ويزيد فيه وينقص — إلا حكما .

جعفر والغناء(١) :

وكان جعفر لا يقل عن أبيه يحيي شغفاً بالغناء ، وبصراً بصناعته ، وإحاطة بروايته ، وكان له مع الرشيد مجالس خاصة ، يستمع فيها معه إلى إلى المغنين والمغنيات ، فلا يكتمل سرور أحدهما إلا إذا سمع مع الآخر ، ولا يبلغ الطرب منه مبلغه إلا حيث يضمهما مجلس واحد . وقد كان الرشيد اختص نفسه يوماً بإسحاق ، ومنعه أن يغنى غيره أيا كان ، فاستوهبه جعفر من الرشيد ، وسأله : أن يأذن له فى أن يغنيه ، فلم يضن الرشيد عليه به ، وأذن له أن يفعل ، فكان إسحق يذهب إلى بيت جعفر أحياناً ، ويغنى ، وقد حاول الفضل بن يحيي مرة أن يجعل إسحاق يغنيه فى بيته ، فأبى ، فأغراه بالمال ، فأبى ، فأمعن فى إغرائه ، فأمعن إسحاق فى إبائه ، ثم قال له : إن الرشيد قد نهانى أن أغنى إلا له أو لأخيك ، وليس يخفى عليه خبرى ، وأنا متهم عنده بالميل إليكم ولست أتعرض له ولا أعرضك ؛ وانصرف عنه ، وقبل الفضل ألا يغنى إلا أخاه جعفرا .

(١) صلة جعفر بعريب فى ترجمة عريب فى الأغانى ، وفى أشعار أولاد الخلفاء ص ٩١ .

وكان يحاول أن يدخل السرور على الرشيد بجعل المغنين يغنون له الشعر الذى يحبه ، ويميل إليه ؛ فقد طلب إلى إبراهيم الموصلى ، أن يصير إليه يوماً ليهب له شيئاً حسناً ، فصار إليه إبراهيم ، فقال له : أيما أحب إليك : أهب إليك الشيء الحسن الذى وعدتك به ، أم أرشدك إلى شيء تكسب به ألف ألف درهم ؟ فقال إبراهيم : بل يرشدنى الوزير – أعزه الله – إلى هذا الوجه ، فإنه يقوم مقام إعطائه إياى هذا الحسن . فقال : إن أمير المؤمنين ، يحفظ شعر ذى الرمة[1] حفظ الصبا ، ويعجبه ويؤثره ، فإذا سمع فيه غناء أطربه أكثر مما يطربه غيره مما لايحفظ شعره ؛ فإذا غنيته فأطربته ، وأمر لك بجائزة ، فقم على رجليك قائماً وقبل الأرض بين يديه ، وقل له : لى حاجة غير هذه الجائزة ، أريد أن أسألها أمير المؤمنين ، وهى حاجة تقوم عندى مقام كل فائدة ، ولا تضره ولا ترزؤه ؛ فإنه سيقول لك : أى شيء حاجتك ؟ ، فقل : قطيعة تقطعنيها ، سهلة عليك ، لا قيمة لها ، ولا منفعة فيها لأحد ؛ فإذا أجابك إلى ذلك ، فقل له : تقطعنى شعر ذى الرمة ، أغنى فيه ما أختاره ، وتحظر على المغنين جميعاً أن يداخلونى فيه ، فإنى أحب شعره وأستحسنه ، فلا أحب أن ينغصه على أحد منهم ، وتوثق منه فى ذلك ، فقبل إبراهيم هذا القول من جعفر ، وأخذ جائزته ، وانصرف ، ثم إن إبراهيم توخى وقت الكلام فى هذا مع الرشيد حتى وجده ، فقام وطلب طلبه ، فسر الرشيد بذلك ، وقال له : ما سألت شططاً ، قد أقطعتك سؤلك ؛ وجعلوا يتضاحكون من كلام إبراهيم ومن استقطاعه هذه القطيعة ؛ كأنها ضيعة تغل عليه وعلى عياله عنباً ونخلا وحدائق غلباً وفاكهة وأباً ، وتدر عليه أقطاً وسمناً ؛ وقالوا له : لقد استضخمت القطيعة ، فسكت ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ أتأذن لى فى

---

(١) هو غيلان بن عقبة ، ويكنى أبا الحرث ، وهو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك ، وكان كثير المدح لبلال بن أبى برده بن أبى موسى الأشعرى . مات بالبادية سنة ١١٧ هـ .

التوثق ؟ ، قال : توثق كيف شئت ، فقال : بالله ، وبحق رسوله ، وتبرئة أمير المؤمنين المهدى — إلا جعلتنى على ثقة من ذلك بأنك تحلف لى أنك لا تعطى أحداً من المغنين جائزة على شىء يغنيه فى شعر ذى الرمة ، فإن ذلك وثيقتى ؛ فحلف الرشيد مجتهداً أمام جعفر وغيره ممن شهدوا المجلس : لئن غناه أحد منهم فى شعر ذى الرمة ، لا أثابه بشىء ، ولا بره ، ولا سمع غناءه . فشكر إبراهيم فعله ، وقبل الأرض بين يديه ، وانصرف .

* * *

نقرأ هذه القصة ، فنعجب ، ماذا يريد جعفر من هذا ؟ ، الرشيد رجل يحب شعر ذى الرمة ، ويحفظه ويطربه أن يغنيه المغنون أمامه ؛ فلم يحتال جعفر على أنه لا يغنيه غير إبراهيم ، أيقصد بذلك أن ينفع إبراهيم ؟ ، أم يريد أن يحنق غير إبراهيم من المغنين على الرشيد ، ويجعلهم ينصرفون عنه ، لاختصاصه إبراهيم من دونهم ؟ أم يريد أنه بالغناء فى هذا الشعر يجعل إبراهيم ، شيخ المغنين فى زمنه ، يصنع فيه الأصوات دون غيره ، حتى لقد غنى مائة صوت وزيادة فى شعر ذى الرمة خاصة ؟ . أم كان يريد شيئاً وراء هذا كله ، قد تفطن إليه فى اطراد البحث عنه ، ومساوقة الموازنات .

وكانت مجالس الغناء عند الرشيد تتعدد ، ولا يتخلف جعفر عن واحد منها ، لفرط محبة الرشيد له ، ومزيد اختصاصه به ؛ فكان إذا سمع ما يطربه أمر مغنيه أن يسمعه جعفراً ، ومن ذلك أنه سمع يوماً إبراهيم بن المهدى فأعجبه ، فأمره أن يشرف جعفرا بسماعه فغنى ؛ قول مسكين الدارمى :

كأن صورتَها فى الوَصْفِ إذ وُصِفت ... دينار عَيْنٍ من المِصْرِيةِ العُتُقِ

(فغناه وأطربه)(١) .

وقد قال له الرشيد يوماً : قد طال سماعنا هذه العصابة على اختلاط الأمر

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء ص ٣١ .

فيها فهلم أقاسمك إياها وأخايرك ، فاقتسما المغنين ، على أن جعلا بإزاء كل رجل نظيره ، وكان ابن جامع فى حيز الرشيد ، وإبراهيم فى حيز جعفر بن يحيى ، وحضر الندماء لمحنة المغنين ، وأمر الرشيد ابن جامع ، فغنى صوتاً أحسن فيه كل الإحسان ، وطرب الرشيد غاية الطرب ، فلما قطعه ، قال الرشيد لإبراهيم: هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنه، فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما أعرفه ، وظهر الانكسار فيه ؛ فقال الرشيد لجعفر : هذا واحد .

ثم قال لإسماعيل بن جامع : غن يا إسماعيل ، فغنى صوتاً ثانياً أحسن من الأول ، وأرضى فى كل حال ، فلما استوفاه ، قال الرشيد لإبراهيم : هاته يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا ، فقال : هذان اثنان ؛ غن يا إسماعيل ، فغنى ثالثاً يتقدم الصوتين الأولين ، ويفضلهما ؛ فلما أتى على آخره ، قال : هاته يا إبراهيم قال: ولا أعرف هذا أيضاً ، فقال له جعفر : أخزيتنا ، أخزاك الله .

قال : وأتم ابن جامع يومه ، والرشيد مسرور به ، وأجازه بجوائز كثيرة ، وخلع عليه خلعاً فاخرة ولم يزل إبراهيم منخذلا منكسراً ، حتى انصرف .

قال : فمضى إلى منزله ، فلم يستقر فيه ، حتى بعث إلى محمد المعروف بالزف[1] ، وكان محمد من المغنين المحسنين وكان أسرع من عرف فى أيامه فى أخذ صوت يريد أخذه، وكان الرشيد قد وجد عليه فى بعض ما يجده الملوك على أمثاله، وألزمه بيته، وتناساه؛ فقال إبراهيم للزف: إنى اخترتك على من هو

(١) محمد الزف : مولى بنى تميم ، كوفى الأصل والمولد والمنشأ ، واسم أبيه عمرو ، والزف : لقب غلب عليه ، وكان مغنياً ضارباً طيب المسموع ، صالح الصنعة ، مليح النادرة ، أسرع خلق الله أخذاً للغناء ، وأصحهم أداء له وأذكاهم ، إذا سمع الصوت مرتين أو ثلاثا ، أداه لا يكون بينه وبين من أخذه عنه فرق ، وكان يتعصب على ابن جامع ، ويميل إلى إبراهيم الموصلى وابنه إسحق ، فكانا يرفعان منه ويقدمانه ، ويجتلبان له الرفد والصلات من الخلفاء ، وكانت فيه عربدة إذا سكر ، وكان يبطل على ابن جامع أصواته ، ويدعيها لنفسه ؛ ولذلك قالوا : لكل شيء آفة ، وآفة ابن جامع ، الزف . والزف بالزاى المعجمة ، لا بالراء المهملة الأغانى ج ١ دار الكتب ، ج ٥ دار الكتب ، ج ١٣ الساسى مصر .

أحب إلى منك ، لأمر لا يصلح له غيرك ، فانظر كيف تكون ؟ ، قال : أبلغ فى ذلك محبتك إن شاء الله تعالى ، فأدى إليه الخبر وقال :

أريد أن تمضى الساعة إلى ابن جامع ، فتعلمه أنك صرت إليه مهنئاً بما تهيأ له على ، وتنقصنى وتثلبنى ، وتشتمنى ، وتحتال فى أن تسمع منه الأصوات ، وتأخذها منه ، ولك ما تحبه من جهتى من عرض من الأعراض مع رضا الخليفة إن شاء الله .

قال : فمضى من عنده ، واستأذن على ابن جامع ، فأذن له ، فدخل وسلم عليه وقال : جئتك مهنئاً بما بلغنى من خبرك ، والحمد لله الذى أخزى ابن الجرمقانية على يدك ، وكشف الفضل فى محلك من صناعتك ؛ قال : وهل بلغك خبرنا ؟ ، قال : هو أشهر من أن يخفى على مثلى ، قال : ويحك ! ، إنه يقصر عن العيان .

قال : أيها الأستاذ ، سرنى بأن أسمعه من فيك ، حتى أرويه عنك ، وأسقط بينى وبينك الأسانيد ، قال : أقم عندى حتى أفعل ، قال : السمع والطاعة .

فدعا له ابن جامع بالطعام ، فأكلا ، ودعا بالشراب ، ثم ابتدأ فحدثه بالخبر ، حتى انتهى إلى خبر الصوت الأول ، فقال له الزف : وما هو أيها الأستاذ ؟ ، فغناه ابن جامع إياه ، فجعل محمد يصفق وينعر ويشرب ، وابن جامع مجتهد فى شأنه ، حتى أخذه عنه .

ثم سأله عن الصوت الثانى ، فغناه إياه ، وفعل مثل ما فعله فى الصوت الأول ، ثم كذلك فى الصوت الثالث .

فلما أخذ الأصوات الثلاثة كلها وأحكمها ، قال له : يا أستاذ ، قد بلغت ما أحب ، فتأذن لى فى الانصراف ؟ ، قال : إذا شئت . فانصرف محمد من وجهه إلى إبراهيم ، فلما طلع من باب داره قال له : ما وراءك ؟ ، قال : كل

ما تحب ، ادع لى بعود، فدعا له به ، فضرب وغناه الأصوات . قال إبراهيم : وأبيك هى بصورها وأعيانها ، رددها على الآن ، فلم يزل يرددها حتى صحت لإبراهيم ، وانصرف الزف إلى منزله .

وغدا إبراهيم إلى الرشيد، فلما دعا بالمغنين ، دخل فيهم ، فلما بصر به قال له : أو قد حضرت ؟ ! ، أما كان ينبغى لك أن تجلس فى منزلك شهراً ، لسبب ما لقيت من ابن جامع ؟ ! ، قال : ولم ذلك يا أمير المؤمنين ؟ ، جعلنى الله فداءك ؛ ، والله لئن أذنت لى أن أقول لأقولن؛ قال : وما عساك أن تقول ؟ قل ؛ فقال : إنه ليس ينبغى لى ولا لغيرى أن يراك نشيطاً لشىء فيعارضك ، ولا أن تكون متعصباً لحيز أو جنبة فيغالبك ، وإلا فما فى الأرض صوت لا أعرفه. قال : دع ذا عنك ، قد أقررت أمس بالجهالة بما سمعت من صاحبنا ، فإن كنت أمسكت عنه بالأمس على معرفة كما تقول ، فهاته اليوم ، فليس ها هنا عصبية ولا تمييز .

فاندفع ، فأمر الأصوات كلها، وابن جامع مصغ لما يسمع منه،حتى أتى على آخرها ؛ فاندفع ابن جامع فحلف بالأيمان المحرجة : أنه ما عرفها قط ، ولا سمعها، ولا هى إلا من صنعته،ولم تخرج إلى أحد غيره؛ فقال له: ويحك! ، فما أحدثت بعدى ؟، قال : ما أحدثت حدثاً ، فقال : يا إبراهيم ، بحياتى اصدقنى ؛ فقال : وحياتك لأصدقنك ؛ رميته بحجره ، فبعثت له بمحمد الزف ، وضمنت له ضمانات ، أولها رضاك عنه ، فمضى ، فاحتال لى عليه ، حتى أخذها عنه ، ونقلها إلى ، وقد سقط الآن اللوم عنى بإقراره ؛ لأنه ليس على أن أعرف ما صنعه هو ، ولم يخرجه إلى الناس ، وهذا باب من الغيب ، وإنما يلزمنى أن يعرف هو شيئاً من غناء الأوائل ، وأجهله أنا ، وإلا فلو لزمنى أن أروى صنعته ، للزمه أن يروى صنعتى ولزم كل واحد منا لسائر طبقته ونظرائه مثل ذلك ، فمن قصر عنه كان مذموماً ساقطاً .

فقال له الرشيد : صدقت يا إبراهيم، ونضحت عن نفسك، وقمت بحجتك؛ ثم أقبل على ابن جامع فقال له: يا إسماعيل؛ أتيت، أتيت، دهيت دهيت، أبطل عليك الموصلى ما فعلته به أمس، وانتصف اليوم منك، ثم دعا بالزف فرضى عنه.

فكان الرجلان : الرشيد وجعفر، يتقاسمان المغنين، ويتراهنان عليهم، شأن الصديقين، ارتفعت بينهما الكلفة، وتوثقت المحبة، وتمكنت الألفة، حتى صارا يتمازحان بما يتمازح به الصبيان أحياناً ويكيدان بمزاحهما غيرهما من هؤلاء المغنين، ويجعلانهم يتسابقون فى الكياد بعضهم لبعض، وهما يتفرجان وينبسطان، لا يخشيان عتب عاتب، ولا لوم لائم.

وكان لجعفر مجالس مخصوصة به، يستمع فيها إلى المغنين الذين يقصدون داره، ويتسابقون فى الإجادة عنده، ويظفرون بجوائزه السنية، وينفرد بهذه المجالس من دون الرشيد، وكان يعتب على المغنين إن تقللوا عليه، ولم يغشوا مجالسه، وممن عتب عليهم، إسحق بن إبراهيم الموصلى، فإنه انقطع عن مجلسه مدة، لا يراه ولا يغشاه، فاستبطأه وشكاه إلى أبيه؛ فلما حدثه أبوه فى ذلك قال: إنى لآتيه كثيراً، فأحجب عنه، ويصرفنى نافذ حاجبه ويقول: هو على شغل؛ فبلغه إبراهيم ذلك ثم كتب إليه إسحق:

جُعِلت فِداءك من كُلِّ سُوءٍ ... إلى حُسْنِ رأيِك أشكو أناسا
يَحولون بَيْنى وبَيْنَ السَّلامِ ... فلستُ أُسَلِّمُ إلّا اختلاسا
وأنفذْتُ أمْرَك فى نافذٍ ... فما زاده ذاك إلا شِماسا

والبيت الأخير إشارة إلى عقوبة أمر جعفر إسحق أن يوقعها على نافذ، إذا هو حجبه فلما سمع نافذ هذا الشعر، غضب حتى كاد يبكى، وجعفر يضحك منه ويصفق، وعاد إسحق يدخل على جعفر كعادته، ولم يحجبه

نافذ[١] ؛ فدخل عليه يوماً ، وشفتاه تتحركان بشيء كان يعمله ، فقال له جعفر : أتدعو أم تصنع ماذا ؟ ، قال : بل أمدح ، وقال :

وكنتُ إذا إذْنٌ عليك جرى لنا تَجَلّى لنا وَجْهٌ أغَرُّ وَسيم
عَلَانِيَـةٌ مَحْمُودَةٌ وسريرةٌ وفِعْلٌ يَسُرُّ المُعْتَفِين كَرِيم

ومما يدل على علمه بالشعر ، وحضور بديهته ، أن إبراهيم الموصلى ، غنى فى حضرة الرشيد لحناً فى شعر طريح[٢] وهو :

قد طَلَبَ الناسُ ما بَلغْتَ فما نالوا ولا قاربوا وقد جَهِدوا

فقال الرشيد : أحسنت ! ، فابتدره جعفر قائلا ، قد أحسن والله يا سيدى ، ولكن اللحن مأخوذ من لحن الدلال[٣] . والشعر من قول زهير :

سعى بعدهم قوم لـكى يدركوهمُ فلم يفعلوا ولم يلاموا ولم يألوا

فسره ذلك ، وأمر أن يصنع فيه لحناً ويغنيه ، ليزيد الشعر حسناً ، ففعل ، فأمر له بمال جليل وكسوة ؛ وكان الفضل بن يحيى مثل أبيه وأخيه فى الشغف بالغناء والبصر به ، والعلم بقواعده وأصوله . سأل ليلة إبراهيم الموصلى عن أحسن الناس غناء ، فقال له : من النساء ، أم من الرجال ؟ قال الفضل : من الرجال . قال : ابن محرز[٤]. فقال الفضل : فمن النساء ؟ ، قال : ابن

---

(١) أغانى ج ٥ .

(٢) طريح : هو طريح بن اسماعيل الثقفى ، شاعر الوليد بن يزيد الأموى ، انقطع إليه قبل أن يلى الخلافة ، واستمر اتصاله به ، وأكثر شعره فى مدحه ، عاش إلى أيام المهدى العباسى .

(٣) الدلال : مولى لعائشة بنت سعيد بن العاص ، وكان مخنثاً ، حسن الوجه ، نظيف الثوب ، ظريفاً ، كثير الملح ، نزر الحديث ، ضاحك السن ؛ وكان أهل المدينة يفاخرون به .

(٤) ابن محرز : فارسى الأصل ، حجازى المنشأ ، أخذ على عزة الميلاء بالمدينة ، ثم شخص إلى فارس فأخذ ألحان الفرس وغناءهم ، ثم رحل إلى الشام فتعلم ألحان الشام ، وأخذ غناءهم ،

سريج[١] ؛ لأنه كان يتشبه بالنساء . وكان إبراهيم يلازمه فى كثير من وقته ، فلما أراد الخروج إلى خراسان ودعه ، ثم أنشده بعد التوديع :

فِراقُكَ مثلُ فراقِ الحياة وفَقْدُكَ مِثْلُ افتقاد الدِّيَمْ
عليكَ السَّلامُ فكم مِنْ وفا أفارِقُ فيك وكم مِنْ كَرَمْ

فسره أن يسمع ذلك من إبراهيم، وضمه إليه وأجازه ، وتمنى عليه لو حلى البيتين بصنعة وأودعهما أحد الخارجين معه ، ليكون قد أهدى إليه أنساً ، وأذكره بنفسه ؛ ففعل ذلك إبراهيم، وطرحه على بعض المغنين الذين خرجوا مع الفضل ، فكان يسمع منهم بين حين وحين ، فيذكر إبراهيم، ويرسل إليه كتبه بالصلات والجوائز .

ثم أسقط من ذلك كله ما لا يستحسن غناء ونغما ، واستبقى ما يستحسن ، ومزج بعضه ببعض ، وألف منه الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب ، فأتى بما لم يسمع بمثله ، وكان يقال له : صناج العرب ، مع أنه كان قليل الملابسة للناس .

(١) هو عبد الله بن سريج أحد الموالى ؛ كان مخنثاً ، لا يغنى إلا متنقباً ، مسبل القناع على وجهه ، وكان أمرد ، أى لا لحية له ، وكان أحسن الناس غناء ، عمر طويلا غنى فى زمن عثمان بن عفان ، ومات فى خلافة هشام ، وقيل : إنه أول من غنى بعود فارس على غناء عربى بمكة .

نكبة البرامكة

سبعة عشر عاماً تولى فيها يحيى البرمكى وأولاده[1] شئون الدولة العباسية ، كانت غرة فى جبين هذه الدولة ، والمؤرخون يعتبرون عصر الرشيد أزهى عصر إسلامى فى الدول المختلفة ، ويقولون فى ذلك : إن الرشيد كان عصره خير العصور ، فقد وزر له البرامكة ، وحجب له الفضل بن الربيع ، وقضى له أبو يوسف .

والحق أن البرامكة كانوا زهرة هذا العصر ، ونهضوا بهذه الدولة نهوضاً عجيباً من نواحى السياسة والاجتماع والثقافة على قصر مدتهم ؛ وكان هذا سبباً فى أن الناس نفسوا عليهم ، وأن الرشيد خافهم على ملكه وسلطانه ، فنكبهم نكبة قضت عليهم ؛ وتحدث المؤرخون عن هذه النكبة ، وعن الأسباب التى أدت إليها ، واختلفوا فى ذلك اختلافاً قليلا أو كثيراً ، فبعضهم يذكر سبباً أو أسباباً قد يرى غيره أن هذا السبب أو تلك الأسباب ليست سبب النكبة ، ويرى أن سببها شىء أو أشياء أخرى غير التى ذكرها الآخرون ، ونحن نستقصى هذه الأسباب ونناقشها ، ونبين مقدار أثرها ، ولعلنا نخلص من ذلك كله إلى الأسباب الصحيحة

---

(١) أولاد يحيى : الفضل وجعفر ومحمد وموسى . وقال القاضى يحيى بن أكثم : سمعت المأمون يقول : لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحد فى الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة . ولقد صدق القائل حيث يقول :

أولاد يحيى أربع ... كأربع الطبائع
فهم إذا اختبرتهم ... طبائع الصنائع

قال القاضى : فقلت له : يا أمير المؤمنين ، أما الكفاية والبلاغة والسماحة ، فنعرفها فيهم ؛ ففى من الشجاعة ؟ ، فقال : فى موسى بن يحيى (وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٤٣) .

التى جعلت الرشيد ينكب البرامكة ، ويقضى عليهم ؛ غير ذاكر ما كان لهم من أياد عليه فى تبوئه عرش الخلافة كما ذكر فيما قدمنا من الحديث .

١ — العباسة

ولعلك تجد من الأسباب التى يذكرها أكثر المؤرخين مسألة العباسة أخت الرشيد ؛ فإنهم رددوها فى كتبهم ،وذكروا قصتها من غير تعليق ولا بحث[1] ؛ إلا ما كان من ابن خلدون فى مقدمته ، وسنتحدث عنه فيما بعد ، ونحن نذكر هذه القصة معتمدين فى روايتها على المسعودى . قال[2] :

ذكر ذو معرفة بأخبار البرامكة : أنه لما بلغ جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ، ويحيى بن خالد ، والفضل ، وغيرهم من آل برمك ؛ ما بلغوا فى الملك ، وتناهوا فى الرياسة ، واستقامت لهم الأمور ، حتى قيل : إن أيامهم عرس وسرور دائم لا يزول .

قال الرشيد لجعفر بن يحيى : ويحك يا جعفر ! ! ، ليس فى الأرض طلعة أنا بها آنس ، ولا إليها أميل ، وأنا بها أشد استمتاعاً وأنساً منى برؤيتك ، وإن للعباسة أختى منى موقعاً ليس بدون ذلك ، وقد نظرت فى أمرى معكما ، فوجدتنى لا أصبر عنك ولا عنها ، ورأيتنى ناقص الحظ والسرور منك يوم أكون معها ، وكذلك حكمى فى يوم كونى معك دونها ، وقد رأيت شيئاً يجتمع لى به السرور ، وتتكاثف لى به اللذة والأنس . فقال :

وفقك الله يا أمير المؤمنين ، وعزم لك على الرشد فى أمورك كلها .

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٨٣ . البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٧٩ . النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١١٥ . الفخرى ص ١٩٠ . الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٦ ابن خلدون فى مقدمته .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٩٠ .

قال له الرشيد : قد زوجتكها تزويجاً تملك به مجالستها ، والنظر إليها ، والاجتماع بها فى مجلس أنا معكما فيه .

فزوجه الرشيد بعد امتناع كان من جعفر إليه فى ذلك ، وأتى فأشهد من حضره من خدمه وخاصة مواليه ، وأخذ الرشيد عليه عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه : أنه لا يخلو بها ، ولا يجلس معها ، ولا يظله وإياها سقف بيت إلا وأمير المؤمنين ثالثهما ؛ فحلف له جعفر على ذلك ، ورضى به ، وألزمه نفسه ، وكانوا يجتمعون على هذه الحالة التى وصفنا ، وجعفر فى ذلك صارف بصره عنها ، مزور بوجهه ؛ هيبة لأمير المؤمنين ، ووفاء بعهده وأيمانه ومواثيقه على ما وافقه الرشيد عليه .

وعلقته العباسة ، وأضمرت الاحتيال عليه ، وكتبت إليه رقعة[١] ، فأزال رسومها وتهددها ، وعادت ، فعاد بمثل ذلك ، فلما استحكم اليأس عليها قصدت لأمه ، ولم تكن بالحازمة ، فاستمالتها بالهدايا من نفيس الجواهر والألطاف ، وما أشبه ذلك من كثرة المال ، وألطاف الملوك ؛ حتى إذا ظنت أنها لها فى الطاعة كالأم ، وفى النصيحة والإشفاق كالوالدة ؛ ألقت إليها طرفاً من الأمر الذى تريده ، وأعلمتها ما لها فى ذلك من جزيل العاقبة ، وما لها من الفخر والشرف بمصاهرة أمير المؤمنين ، وأوهمتها أن هذا الأمر إذا وقع كان به أمان لها ولولدها من زوال النعمة ، وسقوط مرتبته ، فاستجابت لها أم جعفر ، ووعدتها إعمال الحيلة فى ذلك ، وأنها تلطف لها حتى تجمع بينهما ؛ فأقبلت على جعفر يوماً ،

---

(١) لعل هذه الرقعة التى ذكرها ابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب ، ناسباً روايتها إلى الشيخ شهاب الدين بن حجلة من ديوان الصبابة ، وهى :

عزمت على قلبى بأن يكتم الهوى فصاح ونادى : إننى غير فاعل
فإن لم تصلنى بحت بالسر عنوة وإن عنفتنى فى هواك عواذلى
وإن كان موت لا أموت بغصتى وأقررت قبل الموت أنك قاتلى

فقالت له : يا بنى ؛ قد وصفت لى وصيفة فى بعض القصور من تربية الملوك ، قد بلغت فى الأدب والمعرفة والظرف والحلاوة مع الجمال الرائع والقد البارع والخصال المحمودة ، ما لم ير مثله ، وقد عزمت على اشترائها لك ، وقد قرب الأمر بينى وبين مالكها ، فاستقبل كلامها بالقبول ، وعلقت قلبه ، وتطلعت إليها نفسه ، وجعلت تمطله حتى اشتد شوقه ، وقويت شهوته ؛ وهو فى ذلك يلح عليها ؛ فلما علمت أنه قد عجز عن الصبر ، واشتد به القلق ، قالت له : أنا مهديتها إليك ليلة كذا وكذا ، وبعثت إلى العباسة ، فأعلمتها بذلك ، فتأهبت ، وصارت إليها فى تلك الليلة ، وانصرف جعفر من عند الرشيد ، وقد بقى فى نفسه من الشراب فضلة لما عزم عليه ، فدخل منزله ، وسأل عن الجارية ، فخبر بمكانها ، فأدخلت على فتى سكران ، لم يكن بصورتها عالماً ، ولا على خلقها واقفاً ، فقام إليها ، فواقعها ، فلما قضى إليها حاجته قالت له : كيف رأيت حيل بنات الملوك ؟ قال : وأى بنات الملوك تعنين ؟ ، وهو يرى أنها من بعض بنات الملوك . فقالت : أنا مولاتك العباسة بنت المهدى ؛ فوثب فزعاً قد زال عنه سكره ، وفارقه عقله ، فأقبل عليها وقال : لقد بعتنى بالثمن الرخيص ، وحملتنى على المركب الوعر ، وانظرى ما يئول إليه حالى ! وانصرفت مشتملة منه على حمل ؛ ثم ولدت غلاماً ، فوكلت به خادماً من خدمها يقال له رياش ، وحاضنة تسمى برّة ، فلما خافت ظهور الخبر ، وانتشاره ، وجهت الصبى والخادم والحاضنة إلى مكة ، وأمرتهما بتربيته ؛ وطالت مدة جعفر وغلب هو وأبوه وإخوته ، على أمر المملكة ، وكانت زبيدة من الرشيد بالمنزلة التى لا يتقدمها أحد من نظرائها ، وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقد أمر حرم الرشيد ، ويمنعهن من خدمة الخدم ، فشكت زبيدة إلى الرشيد ، فقال ليحيى بن خالد : يا أبت ؛ ما بال أم جعفر تشكوك ؟ ! ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أمتهم أنا فى حرمك وتدبير منزلك عندك ؟ فقال : لا والله ، فقال : لا تقبل قولها ، قال الرشيد :

فلست أعاودك ، فازداد يحيي لها منعاً ، وعليها فى ذلك غلظة ، وكان يأمر بإقفال أبواب الحرم بالليل ، ويمضى بالمفاتيح إلى منزله ، فبلغ ذلك من أم جعفر كل مبلغ ، فدخلت ذات يوم على الرشيد ، فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ ما يحمل يحيي على ما لا نراك تفعل من منعه إياى من خدمى ، ووضعه إياى فى غير موضعى ؟ ! فقال لها الرشيد : يحيي عندى غير متهم فى حرمى ، فقالت : إن كان كذلك لتحفظ ابنه مما ارتكبه ، فقال : وما ذاك ؟ فخبرته ، وقصت عليه قصة العباسة مع جعفر ؛ فسقط فى يده ، وقال لها : هل لك على ذلك من دليل وشـــاهد ، قالت : وأى دليل أدل من الولد وقد كان ها هنا ؟ ! فلما خافت ظهور أمره ، وجهته إلى مكة ، فقال لها : أفيعلم هـــذا أحد غيرك ؟ قالت : ما فى قصرك جارية إلا وقد علمت به ؛ فأمسك على ذلك ، وطوى عليه كشحاً وأظهر أنه يريد الحج ، فخرج هو وجعفر بن يحيي ؛ وكتبت العباسة إلى الخادم والحاضنة أن يخرجا بالصبى إلى اليمن ، فلما صار الرشيد إلى مكة وكل من يثق به بالفحص والبحث عن أمره ، فوجد الأمر صحيحاً ، فلما قضى حجه ، ورجع أضمر فى البرامكة على إزالة نعمهم .

وقد ناقش ابن خلدون هذه القصة فى مقدمته ، وحاول أن ينفى حدوثها ، وأن يجعلها من قبيل الخرافات التى يذكرها المؤرخون فى كتبهم وهم غافلون ؛ قال : ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة فى سبب نكبة الرشيد للبرامكة ، من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيي بن خالد مولاه ، وأنه لكلفه بمكانهما من معاقرته إياهما الخمر ، أذن لهما فى عقد النكاح دون الخلوة ، حرصاً على اجتماعهما فى مجلسه ، وأن العباسة تحيلت عليه فى التماس الخلوة به ، لما شغفها من حبه ، حتى واقعها ؛ زعموا فى حالة سكر ، فحملت ، ووشى بذلك ، إلى الرشيد ، فاستغضب ؛ وهيهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبويها ، وجلالها ، وأنها بنت عبد الله بن عباس ، ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال ،

هم أشراف الدين ، وعظماء الملة من بعده . والعباسة بنت محمد المهدى بن عبد الله، أبى جعفر المنصور بن محمد السجاد، ابن على أبى الخلفاء، ابن عبد الله ترجمان القرآن ، ابن العباس ، عم النبى صلى الله عليه وسلم؛ ابنة خليفة، أخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز ، والخلافة النبوية ، وصحبة الرسول وعمومته ، وإمامة الملة ونور الوحى ، ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ؛ قريبة عهد ببداوة العروبة ، وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ، ومراتع الفواحش ؛ فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ ! ! ، أو أين توجد الطهارة والذكاء ؟ ؛ إذا فقد من بيتها ؟ ، أو كيف تلصق نسبها بجعفر بن يحيى ، وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم ، بملكة جده من الفرس ، أو بالولاء ؛ وجدها من عمومة رسول الله ، ومن أشراف قريش ؛ وغايته أن أخذت دولتهم بضبعه وضبع أبيه ، واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف ؟ ! وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم على بعد همته ، وعظم آبائه ؟ ! . ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف ، وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه ؛ لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها ، وفى سلطان قومها ، واستنكره ، ولج فى تكذيبه ، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟ .

وبعد فهذه رواية مروج الذهب وغيره من كتب التاريخ مع اختلاف العبارة ، واتفاق فى المعنى ، وهذا تعليق ابن خلدون على القصة فى مقدمته ، وأكثر ما فند به ابن خلدون الرواية يرجع إلى عاطفة دينية مشبوبة طغت على تفكيره فجعلته يضع الخليفة وأخته موضعاً يقرب من القداسة لانتهائهما إلى نسب عال شريف ، وجعلته يحط من قدر جعفر ، لأن جعفراً غير عربى وكان يستطيع ابن خلدون أن يقول : إن الرشيد ، وهو خليفة ، لم يبلغ به السفه وسوء التصرف حداً يجعله يعمل عملا يشبه أن يكون كأعمال الصبيان ليشبع غريزة له ، فكيف يعقد على أخته لجعفر عقداً مشروطاً بشروط عجيبة ، ليتمكنا من اللقاء

فى مجلس شرب الخليفة من غير حرج ؟! .

وكيف يفعل الخليفة ذلك وهو يعلم أن هذا لن يخفى على الناس ، فإذا علمه الناس عامة ، وذوو قرابته خاصة ـ سلقوه بألسنة حداد ؟ !

ثم كيف يفعل ذلك ، وهو يعلم أن الهاشميين والأمويين له بالمرصاد ، لا يتورعون عن أن يشيعوا عنه قالة السوء بين الناس ، وأن يتخذوا من ذلك وسيلة للطعن عليه ، وإثارة الشعب ضده ، فإذا شغبوا عليه كان من أسباب شغبهم هذا السلاح الذى يجئون به فى عرض الخليفة ؟ !

وقد يضعف هذه القصة كثيراً أن الرشيد فى سنة ١٧٢ هجرية زوج أخته العباسة هذه بمحمد بن سليمان العباسى الهاشمى أمير البصرة[١] ولكن محمداً هذا مات فى العام التالى ، فلم تكن زوجة له إلا سنة واحدة[٢] ؛ ومع ذلك فقد يرجح صحة الرواية أن الإنسان تمرّ به فترات يرى عاطفته محتاجة إلى الإشباع ، وقد تكون عاطفة منهومة إذا ثارت ، ضؤل أمامها العقل ، وتبدد الفكر ، وتوارى المنطق ، واستحلت كل سبيل يصل بها إلى ما تريد ؛ فإذا أشبع الإنسان نهمه العاطفى ، وغريزته الحيوانية ؛ ثاب إليه رشده ، وزالت غشاوة العاطفة عن عقله وفكره ، وهدأت أعصابه ، فيندم على ما فعل إذا كان فيما فعله خروج عن الحدود التى كان يجب عليه ألا يتعداها .

والرشيد فيما نعلم كان رجلا حاد المزاج ، مرهف الأعصاب ، مشبوب العاطفة ، متوقد الحس ؛ فهو متطرف فى حال متعته وتقواه ؛ يعظه الواعظ فيتأثر ويبكى حتى تخضل لحيته بدمع عينيه ، ويجهش بالبكاء حتى يشفق عليه مجالسوه ، ويزفر زفير النادم حتى ليكاد تنشق من شدة زفرته حيازيمه ،

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٧٠ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٧٤ .

ويتصدع بناؤه[١] ؛ فإذا انفض مجلس الوعظ ، وجلس إلى ندمائه وسماره ، وقيانه وسقاته ــ أفرط ما استطاع أن يفرط ؛ واستفتى العلماء فى استحلال ما يريد[٢] ؛ وقد قال عنه السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء : وله أخبار فى اللهو واللذات المحظورة والغناء .

هذا الإفراط الشديد جعله يتصل بجعفر اتصالا شديداً ، ولم يتحرج جعفر عن الاتصال به كما تحرج أخوه الفضل[٣] ، وقد ساء ذلك الاختلاط الشديد يحيى ، وحاول أن يصرف ابنه عن الرشيد ، أو يحمله على الإقلال من هذا الاتصال ؛ فنهاه مرات عن منادمة الخليفة ، وأمره بترك الأنس به ولكن جعفراً كان يصمّ أذنه عن كلام أبيه ، ولا يسمع له ؛ فلما يئس منه كتب إليه : إنى إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك ، وإن كنت أخشى أن تكون التى لا شوى لها[٤] .

---

(١) من هذا التطرف أنه كان يصلى فى اليوم مائة ركعة ، لا يتركها إلا لعلة ، ويتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم ، ويتشدد على الزنادقة ، ويجالس العلماء ، ويعظم حرمات الإسلام ، ويبغض المراء فى الدين ، والكلام فى معارضة النص ، وعظه يوماً ابن السماك فأبكاه ، وحدثه أبو معاوية الضرير بحديث النبى صلى الله عليه وسلم : وددت أنى أقاتل فى سبيل الله فأقتل ، ثم أحيا ؛ فبكى حتى انتحب ؛ وكان يصب على يدى أبى معاوية هذا إذا أكل معه ؛ وقال منصور بن عمار : ما رأيت أغزر دمعاً عند الذكر من ثلاثة ؛ وذكر منهم الرشيد . وكان إذا مات أحد العلماء ، يجلس ويعزيه الناس فيه .

(٢) من ذلك استفتاء العلماء فى نقض أمان يحيى بن عبد الله العلوى على ما سيأتى واستفتاؤهم فى استحلال جارية كانت لأبيه ، واستحلال أخرى اشتراها قبل استبرائها – تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١١٤ .

(٣) يروون أن الرشيد عتب على الفضل بن يحيى وثقل مكانه عليه لتركه الشرب معه : فكان الفضل يقول : لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى ما شربته .

(٤) لا شوى لها : لا تبقى على شىء ، يقال : القتل الخطة التى لا شوى لها ، أى لا بقيا لها ، أى لا تشوى ولا تبقى قال الشاعر :

فإن من القول التى لا شوى لها … إذا زل عن ظهر اللسان انفلاتها

ولم ينته يحيي عند زجر ابنه عن مداخلة الرشيد مداخلة جعلت المستشرقين يشكون كل الشك فى هذه الصلة . ويؤولونها تأويلا غير شريف يتهمون به أمراء الشرق قديماً (١) ؛ فإنه اجترأ على الرشيد وقال له : يا أمير المؤمنين ؛ أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ، ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك على منك ، فلو أعفيته ، واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتى ، وآمن لك علىّ .

لم يتأثر الرشيد بهذا الكلام ، ولم يأبه له ، واتهم يحيي بأنه إنما يريد أن يقدم الفضل وينحى جعفراً مع أننا قدمنا أن الفضل هو الذى نفر من هذه المجالس ، ونحى نفسه عنها .

* * *

من هنا يتبين أن الحوادث التى روتها كتب التاريخ لا تمنع من أن الرشيد قد يتصرف هذا التصرف فى حدود ضيقة معقولة مع جعفر والعباسة ؛ لأن زوجها مات عنها سنة ١٧٣ هـ برغم ما فى ذلك من جرأة على التقاليد الإسلامية إذ ذاك ، وبرغم ما فيه من شنعة قد يلحق عارُها الرشيد والخلافة ، وبرغم أنه بذلك يعطى خصومه الكثيرين من العرب والعجم سلاحاً قوياً ضده .

وجائز عقلا أن تتم الرواية فصولا على نحو ما قدمنا .

ولكن من غير الجائز أن تكون هذه المسألة وحدها تغضب الرشيد ، وتجعله يحقد على جعفر ، وآل جعفر ، وينكبهم نكبة شديدة ، فيها قتل وسجن ، وتعذيب وإنما نرجح أن تكون هذه الحادثة سبباً من أسباب كثيرة انضم بعضها إلى بعض ، فهاجت الرشيد فى ساعة من ساعات غضبه التى غلب عليه فيها طبعه المتطرف ، ومزاجه العصبى ، ففعل ما فعل .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية — المجلد الأول .

* * *

ويبدو لنا أن ألسنة الناس فى عهد الرشيد كانت تلوك هذه الحادثة ، ولما كثرت القالة ، وشاعت الشائعات ، تأول فيها الناس على عادتهم ، فزادوا ونقصوا ، وحرفوا ، وأولوا ، حتى كان بعضهم يرويها قصة بوعد بينها وبين أصلها ؛ وليس هذا بعيداً عن العقل والواقع لأن مثله مشاهد فى زماننا هذا ؛ فإن الحادثة تحدث ، ويرويها الرواة رواية صحيحة كما وقعت ، أو قريباً جداً مما وقعت ، فإذا انتشرت وتناولها الخاص والعام أصابها كثير من التغيير والتبديل والزيادة والنقص والتحريف ، ويزيد ذلك فيها كثيراً أو قليلا بحسب أهمية الحادثة ومنزلة أشخاصها الاجتماعية أو السياسية ولا نلبث أن نرى الناس فى مجتمعاتهم يتناولون القصة بالرواية ، فهذا يرويها بوجه ، وذلك يرويها بوجه آخر ، ثم يتناقض المجتمعون ، وعقليتهم تكون أميل إلى الرأى الذى فيه مبالغة وتهويل .

والجماهير فى مثل هذه الحالات لا تعرف المنطق ، ولا تفكر فيما إذا كانت الحوادث الشائعة معقولة ، أو غير معقولة ، وإنما هو تيار قوى يسير فى الناس ، ولا يستطاع صده .

لذلك نرى أنه يتولد من الحادثة الأصلية حوادث ، ويسلخ من القصة قصص ، بينها وبين القصة الأولى شبه ، قد يكون قريباً ، وقد يكون بعيداً .

ومن ذلك حادثة العباسة ، فمن القصص التى تفرعت عنها ، ما نسب إلى سهل بن هرون من أنه قال لبعض من يثق بوفائه ، ويعتقد صدق إخائه من خصيان القصر المتقدمين عند أمير المؤمنين ، والمتمكنين من كل ما يكون لديه : ما الذى يعنى جعفر بن يحيى وذويه عند أمير المؤمنين ؟ ، وما كان من ذنبه الذى لم يسعه عفوه ، ولم يأت عليه رضاه ؟

فقال : لم يكن له جرم ، ولا لديه ذنب ، كان والله جعفر على ما عرفته

عليه ، وفهمته عنه ، من اكتمال خصال الخير ، ونزاهة النفس من كل مكروه ومحذور ؛ إلا أن القضاء السابق ، والقدر النافذ – لا بد منه .

كان من أكرم الخلق على أمير المؤمنين وأقربهم منه ، وكان أعظمهم قدراً ، وأوجبهم حقاً .

فلما علم ذلك من حسن رأى أمير المؤمنين فيه ، وشديد محبته له – استأذنته أخته – وهى شقيقته – فى إتحاف جعفر ، ومهاداته ؛ فأذن لها .

ثم يتمم بعض المؤرخين القصة ، دائراً حول محور ، يشبه من قريب قصة العباسة[١] .

ولما رأى جعفر حرج مركزه أعلم أباه يحيى ، فاقترح عليه أبوه أن يعجل بإخبار أمير المؤمنين وإلا فإنه مخبره خشية يوم سوء ، إن تأخروا عن إبلاغه ، وبلغه من غيره ، ورأى يحيى أن التعجيل بإخبار الرشيد يسقط عنهم الذنب ، ويوقع اللوم عليها هى ، لا على جعفر .

وكان رأى جعفر أنه لا يخبر أمير المؤمنين ، ويرى الموت أيسر عليه من هذا .

وكان ما رآه يحيى أصوب مما رآه جعفر ، على فرض صحة الرواية ؛ لأن مثل هذا الأمر لا يخفى على الناس ولا يخفى على الخليفة ، مهما حاولوا إخفاءه .

والذين يروون هذه القصة ، يجعلونها سبب قتل جعفر ، ونكبة أبيه وإخوته. إلا أنها – كما قدمنا – قصة خلقتها الإشاعات ، وتناقل العامة لها فى عصرها ، أو بعد عصرها .

---

(١) تفصيل القصة فى كتاب الإمامة والسياسة ص ٣٣٠ .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

٢ – يحيى بن عبد الله العلوى(١)

هو يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وكنيته أبو الحسن ولقبه المثنى ، وكان حسن المذهب مقدماً فى أهل بيته ، بعيداً مما يعاب على مثله ؛ روى أحاديث كثيرة ، وجلس فى مجالس الإمام مالك(٢) بن أنس ، وأعجب مذهبه كثيرا من الناس ، فاتبعوه ، وبث دعاته فى الأرض ، وبايعه كثير من أهل الحرمين واليمن ومصر والعراقين ، وبايعه من العلماء محمد بن إدريس الشافعى(٣) ، وبشر بن المعتمر(٤) ، وغيرهم ، ولما تولى الرشيد الخلافة ، فتش

---

(١) أكثر كتب التاريخ تحدثت عن قصة يحيى العلوى مع الرشيد ، وقد اعتمدنا فى ذكرها على المصادر الآتية : الطبرى ج ١٠ ص ٨٠ ، البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٨٩ ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٥ ، ابن خلدون ج ٣ ص ٢٢٣ ، الفخرى ص ١٩١ ، الجهشيارى ص ١٩٤ ، الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٧٠ ، شذرات الذهب ج ١ ص ٣١٢ ، مروج الذهب ج ٣ ص ٢٨٤ ، مرآة الجنان ج ١ ص ٤١٠ ، ابن الوردى ج ١ ص ٢٠٧ ، ابن خلكان ج ١ ص ١٠١ ، أبو الفداء ج ٢ ص ١٦ ، تاريخ بغداد مجلد ١٤ ص ١٠ ، مقاتل الطالبيين ص ١٠٨ ، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١١٢ .

(٢) هو أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحى ، إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب المالكية ، مدنى المولد والمنشأ ، كان صلباً فى دينه ، بعيداً عن الأمراء والملوك ، ضربه المنصور لوشاية ، وقصده الرشيد وسمع منه ، وألف الموطأ فى الحديث بإشارة المنصور ، توفى سنة ١٧٩ هـ سنة ٧٩٥ م «الديباج المذهب» .

(٣) الشافعى : قرشى هاشمى مطلبى ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه نسبت الشافعية ، ولد فى غزة سنة ١٥٠ هـ ، وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين ، وزار بغداد مرتين ، وقصد الديار المصرية سنة ١٩٩ هـ وتوفى بها سنة ٢٠٤ هـ ، سنة ٨٢٠ م ووصفه المبرد بأنه كان أشعر الناس وآدبهم وأعلمهم بالفقه والقراءات ، وكان بارعاً فى اللغة وأيام العرب ، ثم تخصص فى الفقه والحديث ، فأفتى وهو ابن عشرين سنة ، ومن كتبه : الأم فى الفقه ، والمسند فى الحديث .

(٤) بشر بن المعتمر : هو أبو سهل بشر بن المعتمر ، فقيه بغدادى معتزلى مناظر

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

عنه ، ورصد له الأرصاد ، وطلبه فى كل مكان ، وأمعن فى ذلك ؛ فلجأ يحيى إلى خاقان ملك الترك ، وأقام عنده مدة ، ثم رحل إلى طبرستان(١) ، ثم إلى الديلم(٢) ؛ فكثر أتباعه ، وقوى أمره ، واشتدت شوكته ، ونزع إليه الناس من الكور والأمصار ، وسار خبره فى البلاد ، فآلم الرشيد عصيانه ، وشغله خروجه ، وخشيه على دولته ، فندب إليه الفضل بن يحيى فى جمع كثيف من الناس ، قيل إنه كان خمسين ألفاً ، وقيل ثمانين ، معهم صناديد القواد، وزوّد الرشيد الفضل بما شاء ، وبما استطاع ، ولم يزل يرسل إليه كتبه تشجيعاً له ، ولطفاً به ، ويغمره بالخلع والألطاف والهدايا والجوائز .

ورأى الفضل أن يلجأ إلى طريق السلم لعله يدرك بها ما لا يستطيع أن يدركه من طريق الحرب ، ولا سيما بعدما عرف ما وصل إليه يحيى من القوة وبسط السلطان ؛ فكتب إليه يرفق به ويستميله تارة ، ويحذره ، ويخوفه تارة أخرى ، وأشار عليه بما فيه خيره وصلاحه ، وصلاح من قبله من القواد والأجناد ، وبسط له الأمل الواسع إن هو سالم ودخل فى الطاعة .

وما زال الفضل يكتب إلى يحيى يعده ويمنيه ، ووسط له الوسطاء يحببون إليه الخطة التى رآها له الفضل ويحملونه بحسن الحيلة عليها ؛ فأجاب يحيى إلى الصلح شارطاً أن يكتب إليه الرشيد بخطه أماناً يبعث به إليه .

أديب ، له رسالة مشهورة يتحدث فيها عن الكتابة توفى سنة ٢٤٠ هـ سنة ٨٢٥ م « ديوان الإسلام مخطوط » .

(١) طبرستان : بفتح أوله وثانيه وكسر الراء ، وهى كلمتان فارسيتان : الطبر ومعناها الذى يشق الأحطاب ، واستان ومعناها الناحية أو الموضع ، والنسب إليها طبرى ، وهى بلدان واسعة كثيرة تغلب عليها الجبال وقصبتها آمد ، مياهها كثيرة ، وأشجارها متهدلة وفواكهها دانية ، وقد بدأ المسلمون فى فتح هذا الإقليم زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولكنهم لم يستولوا عليه استيلاء تاماً ، وظل مصدر قلق للخلافة زمن بنى أمية وبنى العباس .

(٢) الديلم : أرض مسمى بها أهلها من العجم ، ويطلق الديلم أيضاً على ماء لبنى عيسى.

فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فوقع من نفسه موقعاً عظيماً ؛ لأنه جنبه ويلات حرب شديدة ، وأسرع إلى كتابة الأمان ، وأشهد على نفسه فيه القضاة والفقهاء ، وجلة بنى هاشم ، ومشايخهم ، ووجه به مع جوائز سنية ، وكرامات وهدايا فاخرة ، وجه بها جميعاً الفضل إلى يحي ؛ ثم خرج يحي إلى الفضل ولقيه على هذا الأمان ، وصحبه إلى بغداد بلد الرشيد ومقر خلافته ؛ فلقيه الرشيد خير لقاء ، وأكرمه أحسن إكرام ، وقدم له مالا كثيراً ، وأجرى عليه أرزاقاً سنية ، وأنزله منزلا سرياً ، وأمر الناس بزيارته والتسليم عليه ، مبالغة فى تكريمه ؛ وقد أشاد الشعراء بما فعله الفضل ، وبما وفقه الله إليه من التوفيق بين الرشيد ويحيي ، ومما قيل فى ذلك ما أنشده أبو ثمامة الخطيب :

سَدَّ الثغورَ ورَدَّ أُلْفَةَ هاشمٍ بعد الشَّتاتِ فشَعْبها مُتَدان
عَصمتْ حكومتُهُ جماعةَ هاشمٍ مِن أن يُجرِّدَ بينها سيفان [1]
تلك الحكومةُ لا التى عن لَبْسِها عَظُم النَّبأ وتَفرّقَ الحَكَمَان [2]

أقام يحيي ببغداد ، وخرج إلى الحجاز حاجاً ، بإذن الرشيد ، أو بإذن الفضل بن يحيي ، على خلاف بين المؤرخين ، ولم يزل آمناً حتى وشى به عبد الله بن مصعب الزبيرى على صورة عجيبة يذكرها عبد الله بن العباس ابن الحسن بن عبد الله بن العباس بن على ، الذى يعرف بالخطيب ، قال :

كنت يوماً على باب الرشيد أنا وأبى ، وحضر ذلك اليوم من الجند والقواد ما لم أر مثلهم على باب خليفة قبله ولا بعده ، قال : فخرج الفضل بن الربيع إلى أبى ، فقال له : ادخل ؛ ومكث ساعة ثم خرج إلى ، فقال : ادخل ،

---

(١) يقصد سيف العلوى وسيف الرشيد .
(٢) يشير إلى الحكومة التى كانت بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، ويقصد بالحكمين أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص .

فدخلت ، فإذا أنا بالرشيد معه امرأة يكلمها ، فأومأ إلىّ أبى : إنه لا يريد أن يدخل اليوم أحد ، فاستأذنت لك لكثرة من رأيت حضر الباب ، فإذا دخلت هذا المدخل زادك ذلك نبلا عند الناس ؛ فما مكثنا إلا قليلا حتى جاء الفضل بن الربيع فقال : إن عبد الله بن مصعب الزبيرى يستأذن فى الدخول ، فقال : إنى لا أريد أن أدخل اليوم أحداً ، فقال : قال إن عندى شيئاً أذكره ، فقال : قل له يقله لك ، قال : قد قلت له ذلك ، فزعم أنه لا يقوله إلا لك ، قال : أدخله ؛ وخرج ليدخله ، وعادت المرأة وشغل بكلامها .

وأقبل علىّ أبى ، فقال : إنه ليس عنده شىء يذكره ، وإنما أراد الفضل بهذا ، ليوهم من على الباب أن أمير المؤمنين لم يدخلنا لخاصة خصصنا بها ، وإنما أدخلنا لأمر نسأل عنه كما دخل هذا الزبيرى .

وطلع الزبيرى ، فقال : يا أمير المؤمنين ههنا شىء أذكره ، فقال له : قل ، فقال له : إنه سر ، فقال : ما من العباس سر ، فنهضت ، فقال : ولا منك يا حبيبى ، فجلست ، فقال : قل .

فقال : إنى والله قد خفت على أمير المؤمنين من امرأته وبنته وجاريته التى تنام معه ، وخادمه الذى يناوله ثيابه ، وأخصّ خلق الله به من قواده وأبعدهم منه . قال :

فرأيته قد تغيّر لونه ، فقال: فماذا ؟!

قال : جاءتنى دعوة يحيى بن عبد الله بن حسن ، فعلمت أنها لم تبلغنى مع العداوة بيننا وبينهم حتى لم يُبق على بابك أحداً إلا وقد أدخله فى الخلاف عليك .

قال : فتقول له هذا فى وجهه ؟

قال : نعم .

قال الرشيد : أدخله ، فدخل .

فأعاد القول الذى قال له ، فقال يحيى بن عبد الله : والله يا أمير المؤمنين

لقد جاء بشيء لو قيل لمن هو أقل منك فيمن هو أكثر منى ، وهو مقتدر عليه — لما أفلت منه أبدا ، ولى رحم وقرابة ، فلم لا تؤخر هذا الأمر ولا تعجل ؛ فلعلك أن تُكفَى مؤونتى بغير يدك ولسانك ؟ وعسى بك أن تقطع رحمك من حيث لا تعلمه ؛ أباهله بين يديك وتصبر قليلا !

فقال : يا عبد الله ؛ قم فصل إن رأيت ذلك ، وقام يحيى فاستقبل القبلة ، فصلى ركعتين خفيفتين ، وصلى عبد الله ركعتين ، ثم برك يحيى ، ثم قال : ابرك ، ثم شبك يمينه فى يمينه وقال : اللهم إن كنت تعلم أنى دعوت عبد الله ابن مصعب إلى الخلاف على هذا ، ووضع يده عليه ، وأشار إليه — فاسحقنى بعذاب من عندك ، وكلنى إلى حولى وقوتى ، وإلا فكله إلى حوله وقوته ، واسحقه بعذاب من قبلك ، آمين رب العالمين .

فقال عبد الله : آمين رب العالمين .

فقال يحيى بن عبد الله لعبد الله بن مصعب : قل كما قلت ، فقال عبد الله : اللهم إن كنت تعلم أن يحيى بن عبد الله لم يدعنى إلى الخلاف على هذا ، فكلنى إلى حولى وقوتى ، واسحقنى بعذاب من عندك ، وإلا فكله إلى حوله وقوته ، واسحقه بعذاب من عندك ، آمين رب العالمين . وتفرقا .

فأمر بيحيى ، فحبس فى ناحية من الدار ، فلما خرج وخرج عبد الله بن مصعب ، أقبل الرشيد على أبى ، فقال : فعلت به كذا وكذا ، وفعلت به كذا وكذا ، فعدد أياديه عليه ، فكلمه أبى بكلمتين لا يُدفع بهما عن عصفور خوفاً على نفسه ، وأمرنا بالانصراف ، فانصرفنا .

فدخلت مع أبى ، أنزع عنه لباسه من السواد — وكان ذلك من عادتى . فبينما أنا أحل عنه منطقته ، إذ دخل عليه الغلام فقال : رسول عبد الله بن مصعب ، فقال : أدخله ؛ فلما دخل ، قال له : ما وراءك ؟ قال : يقول لك مولاى : أنشدك الله إلا بلغت إلىّ ، فقال أبى للغلام : قل له : لم أزل عند

أمير المؤمنين إلى هذا الوقت ، وقد وجهت إليك بعبد الله ، فما أردت أن تلقيه إلىّ ، فألقه إليه ، وقال للغلام : اخرج ، فإنه يخرج فى إثرك ، وقال لى : إنما دعانى ليستعين بى على ما جاء به من الإفك ، فإن أعنته قطعت رحمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن خالفته سعى بى ، وإنما يتدرقُ الناس بأولادهم ويتقون بهم المكاره ، فاذهب إليه ، فكل ما قال لك فليكن جوابك له ، أخبر أبى فقد وجهتك وما آمن عليك .

وقد كان قال لى أبى حين انصرفنا ، وذاك أنّا احتبسنا عند الرشيد : أما رأيت الغلام المعترض فى الدار ؟ ، لا والله ، ما صرفنا حتى فرغ منه ، يعنى يحيى ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون ؛ وعند الله نحتسب أنفسنا .

فخرجت مع الرسول ، فلما صرت فى بعض الطريق وأنا مغموم لما أقدم عليه ، قلت للرسول : ويحك ! ؛ ما أمره ؟ ، وما أزعجه بالإرسال إلى أبى فى هذا الوقت ؟ ، فقال : إنه لما جاء من الدار ، فساعة نزل عن الدابة ، صاح : بطنى بطنى .

قال عبد الله بن العباس : فما حفلت بهذا الكلام من قول الغلام ، ولا التفت إليه ، فلما صرنا على باب الدرب ، وكان فى درب لا منفذ له — فتح البابين ، فإذا النساء قد خرجن منشورات الشعور ، محتزمات بالحبال ، يلطمن وجوههن ، وينادين بالويل ، وقد مات الرجل.

فقلت : والله ما رأيت أمراً أعجب من هذا ، وعطفت دابتى راجعاً أركض ركضاً لم أركض مثله قبله ولا بعده إلى هذه الغاية ، والغلمان والحشم ينتظرونى لتعلق قلب الشيخ بى ، فلما رأونى ، دخلوا يتعادون ، فاستقبلنى مرعوباً فى قميص ومنديل ، ينادى : ما وراءك يا بنى ؟ ، قلت : إنه قد مات، قال : الحمد لله الذى قتله وأراحك وإيانا منه .

فما قطع كلامه حتى ورد خادم للرشيد ، يأمر أبى بالركوب وإياى معه ،

فقال أبي ونحن فى الطريق نسير : لو جاز أن يدعى ليحيي نبوة لادعاها أهله ، رحمة الله عليه ، وعند الله نحتسبه ، ولا والله ما نشك فى أنه قد قتل .

فمضينا حتى دخلنا على الرشيد ، فلما نظر إلينا قال : يا عباس بن الحسن ، أما علمت بالخبر ؟ .

فقال أبي : بلى يا أمير المؤمنين ، فالحمد لله الذى صرعه بلسانه ، ووقاك الله يا أمير المؤمنين قطع أرحامك .

فقال الرشيد : الرجل والله سليم على ما يحب ، ورفع الستر ، فدخل يحيي ، وأنا والله أتبين الارتياع فى الشيخ ، فلما نظر إليه الرشيد صاح به : يا أبا محمد ، أما علمت أن الله قد قتل عدوك الجبار ؟ قال :

الحمد لله الذى أبان لأمير المؤمنين كذب عدوه عليه ، وأعفاه من قطع رحمه ، والله يا أمير المؤمنين لو كان هذا الأمر مما أطلبه وأصلح له وأريده ، ولم يكن الظفر به إلا بالاستعانة به ، ثم لم يبق فى الدنيا غيرى وغيرك وغيره — ما تقويت به عليك أبداً . فكيف ولست بطالب له ولا مريده (١) ؟

وقد نسبت هذه الوشاية نفسها إلى بكار بن عبد الله بن مصعب الزبيرى .

وأيا كان الأمر فإن آل الزبير كانوا يحنقون على آل على و يبغضونهم لما بينهما من ثارات قديمة ، وإذا شئت أكثر من هذا فقد كان بنو طالب وبنو أمية وبنو العباس وآل الزبير ، يكره بعضهم بعضاً ، ولا يترك فريق منهم فرصة يستطيع أن يوقع فيها بفريق آخر من غير أن يغتنمها . ومع ذلك فإن الرشيد كان دائم التفكير فى يحيي وفى الخلاص منه .

فطلب الفقهاء واستفتاهم فى نقض أمان يحيي ، فأحجم بعضهم ، وتكلم

---

(١) جواب لو الشرطية محذوف ، أى لما طلبته ولا سعيت إليه ؛ وحذف جواب لو كثير فى كلام العرب أوهو : ما تقويت به عليك أبدا .

بعضهم بموجب العلم أنه لا سبيل إلى نقضه ، وقال بعضهم : هذا رجل شق عصا المسلمين وسفك الدماء ، فلا أمان له ؛ وممن حضروا مجلس الفتيا : أبو البخترى القاضى ، ومحمد بن الحسن[1] الفقيه صاحب أبي يوسف ، فقال الرشيد لمحمد ابن الحسن : ما تقول فى هذا الأمان ؟ ، أصحيح هو ؟ ، قال : هو صحيح ، فحاجه فى ذلك الرشيد ، فقال له محمد بن الحسن : ما تصنع بالأمان ؟ ، لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً ؛ فاحتملها الرشيد على محمد .

ثم سأل أبا البخترى أن ينظر فى الأمان ، فقال : هذا منتقض من وجه كذا وكذا ؛ فسر الرشيد ، إذ وجد له مخرجاً ، وقال له : أنت قاضى القضاة ، وأنت أعلم بذلك ، ومزق الأمان ، وتفل فيه أبو البخترى ، وكان بكار الزبيرى حاضراً مجلس الفتيا ، فشمت فى يحيى ، والتفت إليه ، وقال له : شققت العصا ، وفارقت الجماعة ، وخالفت كلمتنا ، وآذيت خليفتنا ، وفعلت بنا وفعلت .

* * *

هذه قصة يحيى بن عبد الله مجملة مع الرشيد ، فما موقف البرامكة الحقيقى منها ؟ ، ثم ما موقف جعفر نفسه ؟ .

الحق أن البرامكة كان هواهم فى شيعة على بن أبى طالب كما قدمنا فى بعض الحديث ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الفرس ، فهم لا يقسون على آل على ، ولا يعرضونهم لغضب الخلفاء ، ولا يبيحون لهم ظهورهم ولا دماءهم ولا يمكنونهم منهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ؛ وإلا ففيم بعث يحيى بن خالد إلى يحيى بن عبد الله وهو بالديلم مائتى ألف دينار وهو يعلم أنه خارج على

(١) هو محمد بن الحسن بن واقد ، مولى شيبانى ، ولد بواسط ، ونشأ بالكوفة ، وقدم بغداد فولاه الرشيد قضاء الرقة ثم عزله ، ولما خرج الرشيد إلى خراسان صحبه فمات فى الرى سنة ١٨٩ هـ سنة ٨٠٤ م . له كتب كثيرة فى الفقه والأصول .

الرشيد ، وأنه يطلب البيعة لنفسه ، وأن كثيراً من الناس بايعوه ، وأنه يهدم بهذا دولة الرشيد ، وهو القائم عليها مع ولديه ؟

أليس ذلك أمراً كان على الرشيد أن يغضب له ويثور حينما بلغه ؛ لأنهم :

إما أن يريدوا بذلك تقوية شوكة يحيى بن عبد الله ، حتى إذا قامت دولته أو كادت ، تركوا الرشيد وانحازوا له .

وإما أنهم يريدون تقوية شوكته ثم يخضدونها بأيديهم ؛ ليعظموا فى عين الرشيد .

وإما أنهم يريدون أن يجعلوه أمام الرشيد مثار فزع ورعب ، وهو لا يقدر عليه أحد غيرهم ، فيبقى عليهم ، ويحاول استرضاءهم فى كل حين ، ويغمض عينيه عما عسى أن يكون منهم من تصرف لا يرضيه باعتباره خليفة أحياناً .

هذا كله محتمل ، وقد يحتمل غيره أيضاً من كل ما يصح تقديره .

وأيا كان الأمر ، فإن الرشيد حبس يحيى بن عبد الله ، ووكل به جعفراً ، أو وكل جعفر نفسه به ؛ ليكون رفيقاً به شفيقاً عليه ، خادماً له ؛ لأن خدمتهم لآل على بر وتقرب إلى الله .

وكان جعفر يدعو يحيى كثيراً ، ويتحدث إليه فى كثير من الشئون ؛ وذات ليلة قال يحيى لجعفر : اتق الله فى أمرى ، ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمدا صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما أحدثت حدثاً ، ولا آويت محدثاً ، ولعل يحيى كان أحس تنكراً من الرشيد له ، وأنه لن يفلته ، ولا سيما أن الزبيريين كانوا لا يفتئون يوغرون صدر الرشيد على يحيى ، وأنه كان يتذكر أو يذكر بين حين وحين خروج النفس الزكية[1] ثم خروج

---

(١) النفس الزكية : هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أحد الأمراء الأشراف من بنى هاشم ، خرج فى المدينة على المنصور العباسى فى ٢٥٠ رجلا ، وقبض على أمير المدينة ، وبايعه أهلها بالخلافة ، ثم استولى على مكة واليمن .

أخيه إبراهيم[١] على جده المنصور ، وخروج غيرهما على أبيه المهدى وأخيه الهادى ، وأنهم كانوا سبباً فى تفتق البلاد عليهم ، فلم يبق هو على هذا العلوى الذى يفر من سجنه ، ويخرج إلى الناس ، ويدعوهم لنفسه مرة أخرى ، ويمالئه البرامكة فتنتقل إليه الدولة ؟

فكر يحيى فى هذا كله ، فأراد أن يخرج من حبسه ، فكلم جعفرا هذا الكلام ، فرق له قلبه ، وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله ، قال : وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل ، فأرد إليك أو إلى غيرك ؟ فوجه معه من أداه إلى مأمنه .

كان هذا عملا جريئاً من جعفر ، لا يصح أن يقع منه ؛ ولو أن الله منحه لباقة سياسية ، وقدرة على أن تستمر مكانته عند الرشيد لا تزعزعها الوشاة ، ولا تزلزلها الأحداث — لكان مستطيعاً أن يبقى على يحيى بن عبد الله ، وأن يصفى ما بينه وبين الرشيد ، وأن يجعله يعيش فى بلاطه هادئاً ناعماً راضياً مطمئناً على نفسه .

ولكن يظهر أن جو السياسة البرمكية كان قد بدأت تهب عليه العواصف ، ويثور فيه الغبار ، فلاح فى أفقه ما يوجب الحذر ، إلا أنه ليس من وسائل الحيطة أن يطلق جعفر يحيى بن عبد الله ، وهو يعلم أن الجو الذى حوله كله

وانتدب المنصور لقتاله ، ولى عهده عيسى بن موسى العباسى فى أربعة آلاف فارس ، وقاتله محمد بثلاثمائة على أبواب المدينة ، وثبت له ثباتاً عجيباً ، فقتل منهم بيده فى إحدى المواقع سبعين فارساً ؛ ثم تفرق عنه أكثر أنصاره ، فقتله عيسى وبعث برأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ ، سنة ٧٦٢ م .

(١) هو إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أحد الأمراء الشجعان الأشراف ، خرج بالبصرة على المنصور ، فبايعه أربعة آلاف مقاتل ، فخافه المنصور ، وتحول إلى الكوفة ، وكثر أتباع إبراهم فاستولى على البصرة ، وسير الجموع إلى الأهواز وفارس وواسط وهاجم الكوفة ، فكانت بينهم وبين جيوش المنصور وقائع هائلة . قتله حميد بن قحطبة سنة ١٤٥ هـ ، سنة ٧٦٣ م .

عيون عليه ترصده فى كل روحة وجيئة ، وقومة وقعدة ، بل تكاد تحصى عليه أنفاسه .

وقد وقع ما كان يجب أن يتوقعه ؛ فإن الفضل بن الربيع عرف الخبر من عين له كانت على جعفر من خاص خدمه ، فلما تحقق من صحة وقوعه ، دخل على الرشيد وأخبره ؛ فأراه الرشيد أنه لا يعبأ لخبره ، وقال له : وما أنت وهذا ، لا أم لك، فلعل ذلك عن أمرى ؟ ! فانكسر الفضل .

ولما دخل جعفر على الرشيد ، استقبله بالبشر والترحاب ، وتبسط معه فى الحديث ، ودعا بالغداء فأكلا معاً ، وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيي بن عبد الله ؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال ؛ قال : بحياتى ؟ !

فأحجم جعفر ، وأدرك أن فى الأمر شيئاً ، وهجس فى نفسه أن الخليفة قد علم بشىء من أمره ، أو بأمره كله ، فتروى فى الإجابة ، ثم رأى أنه لا بد أن يقول الحق ، فقال : لا وحياتك يا سيدى ، ولكن أطلقته ، وعلمت أنه لا حياة به ، ولا مكروه عنده ؛ قال : نعمَ ما فعلت، وما عدوت ما كان فى نفسى .

فلما خرج أتبعه بصره ، حتى كاد يتوارى عن وجهه ، ثم قال : قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك .

* * *

أما يحيي فإنه خرج من بغداد ، ومعه جماعة من أنصاره ، يحملون معهم من جعفر ما يحميهم ممن يصح أن يتعرض لهم من الولاة أو غيرهم ، وكان يسير هو وأصحابه متنقلين بحيث لا يعرفه ولا يعرفهم أحد ، وبحيث لا يفطن أحد لما بينه وبينهم من علاقة أو صلة ، وإنما هم ينزلون إذا نزل ، ويرحلون إذا رحل ، ويكونون منه بِصَدد، يوهمون من رآهم أنهم لا يعرفونه مع أنهم أنصاره وأعوانه ؛

وقد استطاع الرشيد أن يقبض عليه ، وأن يعيده إلى الحبس مرة أخرى ، وأن يحتال على قتله ، فقتله على صورة يختلف فيها المؤرخون اختلافاً كبيراً ، ولا حاجة بنا إلى الخوض فيها .

وكان الرشيد يكره الطالبيين ، ويخافهم على ملكه ؛ شأنه فى ذلك شأن غيره من خلفاء بنى العباس ؛ إلا أن معاملة الخلفاء لهم تختلف ، فبعضهم قسا عليهم ، وقتل منهم ، من غير أن يبالى شعور المسلمين عامة ، والأعاجم منهم خاصة ؛ فقتل المنصور والمهدى والهادى جماعة من جلّتهم ومشايخهم .

فلما كان الرشيد استقدم إليه الشعراء ، وقرب إليه من ينفون الإمامة عن ولد على بن أبى طالب ، ويطعنون عليهم ؛ لهذا كان من أقربهم إليه ، وأخصهم به ، مروان بن أبى حفصة ؛ ولما قدم عليه منصور النمرى سلك مذهب مروان فى ذلك ، ونحا نحوه ، ولكنه لم يصرح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ، بل حام ولم يقع ، وأومأ ولم يحقق ؛ لأنه كان يتشيع ، أما مروان فكان شديد العداوة لآل أبى طالب ، فكان إذا هجاهم ، هجاهم عن سوء قصد وعن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا ، ولذلك نجد فرقاً بين شعر مروان وشعر منصور فى هجاء بنى طالب ؛ فهذا منصور يقول من قصيدة طويلة يمدح بها الرشيد معرضاً بآل على :

يُذَلِّلُ من رِقاب بنى علىٍّ ... ومَنْ ليس بالمنِّ الصغير .
مَنَنْتَ على ابن عبد الله يحيى ... وكان من الحُتوفِ على شَفير (١)

---

(١) يذلل : يصيرهم أذلاء ، أو يجعلهم خاضعين له ، ومطيعين طاعة البعير الذلول . من : إنعام . الحتوف : جمع حتف وهو الموت . شفير : حرف . والمعنى : أنه أخضع آل أبى طالب ، وأنعم عليهم ، وتفضل على يحيى بن عبد الله بإنجائه من القتل وكان قريباً منه .

ويقول فيها متخلصاً إلى شىء ، ليس عليه فيه شىء :

فإن شكروا فقد أنْعَمْتَ فيهم وإلا فالنَّـدامةُ للكَفُورِ (١)
وإن قالوا بنو بِنْتٍ فحقٌ وَرَدُّوا ما يناسِبُ لِلذكورِ (٢)
وما لِبَنى بناتٍ من تُراثٍ مع الأعمامِ فى وَرَقِ الزَّبُورِ (٣)

ومنها :

بنى حَسَنٍ ورَهْطَ بنى حسين عليكم بالسَّداد من الأُمورِ (٤)

---

(١) الكفور : جاحد النعمة ومنكرها .

(٢) بنو بنت : أبناء السيدة فاطمة رضى الله عنها .

(٣) الزبور : الكتاب ، وغلب على مزامير داود عليه السلام ، والمقصود هنا القرآن .
التراث : ما يخلفه الميت لورثته ، ومثل هذا البيت قول مروان بن أبى حفصة :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

وبيتا منصور ومروان مأخوذان من قول مولى تمام بن عباس بن عبد المطلب يعزر عبد الله ابن أبى رافع ويعيره حينما قال للحسن بن على بن أبى طالب : أنا مولاك :

جحدت بنى العباس حق أبيهمو فما كنت فى الدعوى كريم العواقب
متى كان أولاد البنات كوارث يحوز ويدعى والدا فى المناسب

وكان العلويون يعجبون من بيت مروان ، فرد عليه شاعرهم :

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام
ما للطليق وللتراث وإنما صلى الطليق مخافة الصمصام

يريد بذلك أن البنت ترث مال الأب ، وفيه تأخذ منه نصفه ، ولا يرث العم الحى من مال أخيه الميت ، ثم يئول ما ورثته البنت إلى أولادها فتكون النتيجة أن أولاد البنت ورثوا ، وأن الأخ وأولاد الأخ حرموا . أى أن البنت إذا كانت مع العم من ورثة ميت ما فإن لها النصف حتما بطريق الفرض ، أما العم فإنه عاصب يأخذ الباقى بعد ذوى الفروض ، فإذا لم يبق شىء لم يأخذ شيئاً ، فتصبح البنت وارثة دونه . مثال ذلك : مات ميت وترك : بنتاً وأخاً لأب وعماً شقيقاً . فإن البنت تأخذ النصف فرضاً ، ويأخذ الأخ لأب الباقى تعصيباً فلا يبقى للعم شىء .

ملاحظة : فى هذا الرد مغالطة لأن الموازنة فى قول مروان بين الأعمام وأبناء البنات « وهى أبناء الأعمام وأبناء البنات كذلك فى الحكم » أما فى قول جعفر الطائى ، فهى بين الأعمام والبنات ، لا أبناء البنات ؛ على أن قياس وراثة الخلافة على وراثة المال فيه نظر ، ثم ما شأن النساء والخلافة .

(٤) الرهط : قوم الرجل وقبيلته . السداد : الرشاد والصواب والاستقامة .

فقد ذُقْتم قِراعَ بنى أبيكم ... غداةَ الرَّوْعِ بالبيض الذُّكور (١)
أحين شَفَوْكُمُ من كلِّ وِتْرٍ ... وضَمُّوكم إلى كَنَفٍ وَثير (٢)
وجادُوكُمْ على ظَمَإٍ شديدٍ ... سُقِيتُم من نوالِهم الغَزير
فما كان العقوقُ لهم جزاءً ... بِفِعْلِهِمُ وأَدَّى للثُّؤور
وإنك حين تُبْلِغُهُمُ أذاه ... وإن ظَلِمُوا لمحزون الضمير

فالرشيد كان يبغض آل أبى طالب أشد البغض ، وكان يود بجدع الأنف أن يتخلص من يحيى بن عبد الله ، ولكن على صورة غير الصورة التى تخلص بها من سبقه من الخلفاء من الطالبيين ، فهو يحاور ويداور خوفاً من أنصار يحيى ، وخوفاً من البرامكة الذين يعطفون على يحيى ، ويقومون على خدمته ، ويوفرون له أسباب الراحة ، ثم يهيئون له سبيل الهرب ، وخوفاً من يحيى نفسه الذى اتخذ له على المنصور أماناً له ولسبعين رجلا من أصحابه لم يسمهم له ، وكان إذا ارتكب أحدهم خطأ يعاقب عليه ؛ تعرض له يحيى وطلب الإعفاء له ؛ لأنه أحد السبعين الذين أخذ لهم الأمان ، فيضطر الرشيد إلى إخلاء سبيله ، وكان يلح إلحاحاً شديداً فى تسمية هؤلاء السبعين له ، فيأبى تسميتهم ، ويقول له : يا أمير المؤمنين ؛ أنا رجل من السبعين ، فما الذى نفعنى من الأمان ؟ ! أفتريد أن أدفع إليك قوماً تقتلهم معى ؟ ! لا يحل لى هذا ، فيزيد ذلك صدر الرشيد حنقاً عليه ، وبغضاً له .

وقد أخطأ البرامكة فى تصرفهم مع يحيى أيما خطأ .

---

(١) قراع : مضاربة ومنازلة . البيض : السيوف واحدها أبيض . والمعنى أنه ينصح لبنى الحسن والحسين أن يستقيموا فى أمورهم ، وأن يرجعوا إلى الصواب ، ولاسيما أنهم ذاقوا بأس بنى عمهم من بنى العباس فى وقت الحرب .

(٢) الوتر : الظلم . الوثير : الوطىء اللين . الكنف : الجانب والظل .

فإنه ليس من حسن السياسة أن يفرطوا فى مجاملته هذا الإفراط ؛ وهم يعلمون أن الرشيد يبغضه ، ويبغض الطالبيين جميعاً .

وكان لا يخفى عليهم أن الفضل بن الربيع يرصدهم فى كل مكان ، ويبث حولهم العيون حتى من خدمهم .

وأن زبيدة(١) زوج الرشيد وابنة عمه ، تبغضهم ؛ لأنهم يضيقون عليها أحياناً ، ويحولون بينها وبين ما تريد .

وأن علية(٢) بنت المهدى أخت الرشيد ، بدأت تشك فى إخلاصهم لأخيها ولدولته .

وأن العرب جميعاً يبغضونهم لاستئثارهم بالسلطة من دونهم ، واستبدادهم بالدولة ، وطغيانهم على الخليفة .

كان يجب على البرامكة أن يقدروا هذا كله ، وأن يحاولوا إخفاء عاطفتهم نحو يحيى بن عبد الله ، ولا سيما أنهم كانوا مستطيعين إصلاح ما بينه وبين الرشيد بشىء من اللباقة السياسية ؛ إلا أن اعتزازهم بأن الأمر كله فى أيديهم ، وبأن الرشيد يطيعهم ، ولا ينقم منهم أى تصرف يتصرفونه — جعلهم يعمون عما يدور حولهم : كله أو بعضه ، فسدروا فى غلوائهم حتى ضج الرشيد من سوء تصرفهم ، وفتحوا الأبواب لمنافسيهم على باب الخلافة والناقمين عليهم ، فأوغروا صدر الرشيد ، وأفعموه حقداً على كل برمكى ، أو موال للبرامكة ؛

---

(١) هى زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، من فضليات النساء وشهيراتهن ، وإليها تنسب عين زبيدة فى مكة ، جلبت إليها الماء من أقصى وادى نعمان شرق مكة ، وأقامت له الأقنية حتى أبلغته إياها ، تزوج بها الرشيد سنة ١٦٥ هـ وهى أم الأمين : وسيأتى عنها الحديث فى أكثر من موضع . توفيت فى بغداد سنة ٢١٦ هـ ، ٨٣١ م .

(٢) هى علية بنت المهدى ، أخت الرشيد ، أديبة شاعرة ، لها ديوان شعر ، تزوجها موسى بن عيسى العباسى ، وكانت تحسن صناعة الغناء وهى من أعف النساء وأتقاهن ، وفى شعرها إبداع وصنعة ، توفيت ببغداد سنة ٢١٠ هـ ، سنة ٨٢٥ م .

ولكنه يترقب حتى تحين الفرصة التى تمكنه منهم من غير أن يمس سلطانه ودولته سوء ؛ وإنه من غير المستطاع أن يستل أحد من صدر الخليفة سخيمة متمكنة منه ؛ مكنها وشاية الواشين ، وسوء تصرف البرامكة ، وما وقر فى نفسه ونفوس الذين سبقوه جميعاً من الخلفاء عباسيين وأمويين .

وكان للطالبيين من الأحداث العظام ما جعل الدولة تتفتق فى كثير من أقطارها على المنصور والمهدى والهادى ، وكان لهؤلاء مع الطالبيين مواقف صارمة ، فيها قتل وحبس ومصادرة أموال وغير ذلك .

فأما السفاح ، فما قتل أحداً منهم ، ولا أجرى إلى جليس له مكروهاً ، إلا أن محمداً وإبراهيم(1) ، خافاه فتواريا عنه ، وكانت بينه وبين أبيهما مخاطبات فى أمرهما .

وأما فى أيام المنصور ؛ فقد قُتل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالب وأخواه الحسن وإبراهيم ، ثم على وعبد الله والعباس أبناء الحسن ، ثم إسماعيل ومحمد ابنا إبراهيم ، ثم محمد وإبراهيم ابنا عبد الله ، وغيرهم .

وفى أيام المهدى أوذى أو قتل على بن العباس ، وعيسى بن زيد .

وفى أيام الهادى قتل الحسين بن على صاحب فخ(2) ، وسليمان بن عبد الله ، والحسن بن محمد بن عبد الله وغيرهم .

---

(١) هما محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وقد سبق التعريف بهما فى هذا البحث ، وكان السفاح خص عبد الله أباهما ، وآخاه وآثره ، حتى كان يتفضل بين يديه فى ثوب ، وقال له : ما رأى أمير المؤمنين غيرك على هذا الحال ، ولكن أمير المؤمنين إنما يعدك عماً ووالداً . وكان السفاح يكثر من سؤال عبد الله عن ولديه ، فينى عنهما أن يكون تخلفهما عن وفودهما إلى أمير المؤمنين لأمر يكرهه ، وهذا دليل على أنه يشك فيهما ، وعلى أن عبد الله يحس ذلك الشك فى نفس السفاح . وعبد الله هذا هو الذى قتله المنصور .

(٢) وقعة فخ : فخ واد بمكة ، ووقعة فخ كانت فى هذا الوادى بين الحسين بن على ابن الحسن بن على بن أبى طالب حين خرج يدعو إلى نفسه فى ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ . فبايعه جماعة من العلويين بالمدينة ، وخرج إلى مكة ، فلما كان بفخ لقيته جيوش بنى العباس يوم

ولا نريد بذلك أن نحصى عدد من قتلوا أو حبسوا أو أوذوا أو شردوا على يد خلفاء بنى العباس من الطالبيين قبل زمن الرشيد ، أو أن نأتى على أخبارهم جملة أو تفصيلا ؛ وإنما نريد أن نثبت صورة عن النتائج التى كان يصل إليها الخلاف القائم والمستمر بين العباسيين والطالبيين من أجل الخلافة ؛ فقد كان الطالبيون مصدر قلق وشر عظيمين لهؤلاء الخلفاء ، وكان الخلفاء يخافونهم ويحذرونهم ، ولا يغمض لهم جفن إذا ثار أحدهم فى أى بلد من البلاد ، أو فى أى طرف من الأطراف ، ولا سيما البلاد التى كانت تروج فيها دعوتهم ، ويسرع الناس فى الاستجابة إليهم ؛ لذلك نلتمس للرشيد بعض العذر من حيث كونه سلطاناً يخاف على سلطانه ، فهو يخشى عليه هؤلاء وأعوانهم ، فلا بد أن يكون حذراً ويقظاً ، ولا بد أن يجعل يحيى تحت عينه .

والخائف يصدق كل ما يصل إليه من الأخبار عن مخيفه ، ولا بد أن يؤمن نفسه من ناحيتها حتى ولو كانت باطلة ؛ لهذا كان لا بد أن يتخلص من يحيى ، ولو استطاع أن يفعل من غير أن يغضب أنصاره ومريديه فى السر أو فى العلن – لكان ذلك أجمل ؛ لهذا نراه بعد أن قبض عليه وحبسه كان يستدعيه كثيراً من السجن ، ويجرى مناظرات بينه وبينه ، تشبه إلى حد كبير ما كان يجرى بين الذئب والحمل ، على ما ترويه الأساطير ، فيحار يحيى فى أمره ،

التروية ، وقتل الحسين وكثير من عسكره ، وبقى قتلاهم ثلاثة أيام حتى أكلتهم السباع ، لذلك يقول العلويون : لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ ، وفى رثاء قتلى فخ يقول الشاعر :

فلأبكين على الحسـ ... ـين بقولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذى ... واروه ليس بذى كفن
تركوا بفخ غدوة ... فى غير منزلة الوطن
كانوا كراماً هيجوا ... لا طائشين ولا جبن
غسلوا المذلة عنهمو ... غسل الثياب من الدرن
هدى العباد بجدهم ... فلهم على الناس منن

ويجيب تارة ، ويمسك طوراً ؛ وهو يعلم علم اليقين أن فى نفس الرشيد الحيلة عليه ، والتتبع له ، وطلب العلل عليه وعلى أصحابه ؛ ولقد كانت تسخف مناظرته وتنحط أحياناً إلى حد يجعلك لا ترجح حدوثها .

فمن ذلك مثلا أنه قال له يوماً : أينا أحسن وجهاً ، أنا أو أنت ؟ فيقول له : بل أنت يا أمير المؤمنين ؛ فقال له : أينا أغنى ، أنا أو أنت ؟ فيقول له : بل أنت يا أمير المؤمنين : تجبى إليك خزائن الأرض وكنوزها ، وأنا أتمحل معاشى من سنة إلى سنة ؛ فقال له : فأينا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا أو أنت ؟ فاستعفاه يحيى ؛ لأنه لا يستطيع أن يجيب بغير الحق ، والإجابة الصادقة عن هذا السؤال تغضب الرشيد ، وتسىء إليه أيما إساءة ؛ فأصر الرشيد على أن يجيب ، فأقسم عليه ، فأصر على الامتناع ، وبقى الرشيد على إصراره وإلحاحه فى أن يسمع الجواب ، فلم يسع يحيى إلا أن يقول له : يا أمير المؤمنين ؛ لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخطب إليك ابنتك ، أكنت تزوجه ؟ قال : أى والله : قال : فلو عاش فخطب إلى ابنتى ، أفكان يحل لى أن أزوجه ؟ قال : لا ؛ قال : فهذا جواب ما سألت ؛ يريد يحيى أن أولاده محارم على الرسول ، وأن أولاد الرشيد حلال له ، فيكون هو أقرب منه قرابة ؛ فغضب الرشيد ، وقام من مجلسه .

ثم هو يدبر المناظرات مع الزبيريين فى مجلسه ، ويتركهم يتهجمون عليه ، ويناقشونه ، ويعنفون فى هاشم على النحو الذى قدمنا ، ولولا صلابة يحيى فى الحق ، وجرأته على الباطل ، لكسره الزبيرى .

وكان طبيعياً بعد ما وقر فى نفس الرشيد من يحيى ، ومن ممالأة البرامكة له ، ومن شكه فى إخلاصهم — أن يتخلص من يحيى ، فيعمل على موته حتى يخلو منه الجو ، وحتى يريح الخلافة من شبح يفزعها فى كل حين ؛ إلا أن الروايات اختلفت فى كيفية قتله ؛ أهو مات جوعاً فى الحبس ؟ أو بنيت عليه

أسطوانة فمات فيها ؟ أو خنق ليلا حتى تلف ؟ أو سقى سما ؟ أو ألقى إلى سباع مجاعة فأكلته ؟

نلاحظ بعد هذا كله ، أن الفضل بن يحيي البرمكى هو الذى خرج لمحاربة يحيي العلوى ، وأنه هو الذى استرضاه وجعله يسلم للرشيد من غير حرب ، وهو الذى استكتب الرشيد الأمان ، وهو الذى قوبل يوم مجيئه بيحيي بالطبول والزمور ، وخرج الرشيد للقائه ، وقدم له الهدايا والألطاف اعترافاً بفضله ، وتقديراً لمعروفه ، واعتزازاً لمكانته من الخلافة ؛ والفضل هذا هو الذى كان أذن ليحيي – على بعض الروايات – أن يخرج إلى الحجاز حاجاً ، وإن بعضها الآخر يذكر أن الرشيد هو الذى أذن له .

أما موقف جعفر من القصة فهو أنه وكل بيحيي وهو فى الحبس ، وأنه هو الذى يسر له سبيل الهرب من الحبس هو وأصحابه ، وأن الرشيد علم بذلك فغضب فى نفسه ، ولم يظهر غضبه حتى يحين وقت إظهاره .

إلا أن الروايات المختلفة لم تذكر لنا : متى حبس يحيي ؟ ؛ أكان فى الحبس حين أذن له الفضل بالخروج إلى الحجاز؟ أم كان مطلقاً إذ ذاك ، وليس فى خروجه إلى الحجاز للحج حرج؛ ومتى عاد من الحجاز ؛ وهل كان سبب عودته : أن أهل الحجاز وشوا به إلى الرشيد لأنه بدأ يجعل لنفسه نشاطاً سياسياً أو دينياً فيه خطر على الخلافة ؛ فاستدعاه الرشيد ، وقبض عليه وحبسه ؟ أو هل عاد هو إلى الحجاز حراً طليقاً ؛ فما كاد يصل إلى بغداد حتى قبض عليه ، وأودع السجن ؟ ثم إذا كان فر من السجن على يد جعفر ، فمتى قبض عليه وأعيد إلى بغداد ؟ ومن الذى قبض عليه ؟ وكيف كان القبض عليه ؟

إن الكتب لا تسعفنا بالإجابة عن هذه الأسئلة بعينها فيما علمت ؛ ثم سبق أن ذكرنا اضطراب الروايات فى سبب موته ، وتعددها تعدداً يوجب الشك ؛ ثم هذه المناظرات السخيفة السمجة التى كان يهيئها الرشيد أو تهيأ له فى مجلسه

بين الزبيرين ويحيى ، أو بين بعض الفقهاء او بعض ، أو بين يحيى والرشيد نفسه ـ نحن نجل الخليفة ونجل مكانة الخلافة وهيبتها أن ينزل بها صاحبها إلى هذا النوع من الهذر الممقوت الذى يشبه فى بعض صوره أن يكون مزاحاً من مزاح الصبية .

كل هذه مسائل تجعلنا نتردد فى قبول هذه القصة على علاتها ، وعلى النحو الذى فصلتها به الكتب .

أما الذى لا نستطيع أن نشك فيه ، فهو أنه كان هناك رجل علوى اسمه يحيى بن عبد الله ، خرج على الرشيد ، وأخضعه له الفضل بن يحيى بأى وسيلة من وسائل الإخضاع ، ثم بدا للرشيد أن يتخلص منه على أى صورة أراد ، فتخلص منه ، وأن البرامكة دس عليهم أعداؤهم عند الرشيد باعتبارهم فيهم هوى للشيعة ، فلقيت السعاية عند الرشيد أذناً صاغية ، فتأثر بعض التأثر .

ولم تكن هذه القصة هى الأولى والأخيرة التى سببت للبرامكة نكبتهم ، والتى دفعت الرشيد إلى أن يفعل ما فعل مع البرامكة رغم أن اليزيدى(١) قال : من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله فلا تصدقه . وتحليل الحوادث لا يصل بنا إلى نتيجة تتفق مع ما ذكره أبو جعفر اليزيدى .

وقصة يحيى بن عبد الله العلوى مع البرامكة والرشيد تشبه من بعض الوجوه قصة العلوى الذى سلمه المهدى ليعقوب بن داود(٢) ، وطلب إليه أن يكفيه مئونته ، ويريحه منه ، وأن يعجل ذلك ؛ فوعده يعقوب أن يفعل .

---

(١) اليزيدى : المراد هنا هو يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوى اليزيدى ، من علماء العربية والأدب ، صحب يزيد بن منصور خال المهدى وأدب ولده فنسب إليه ، واتصل بالرشيد فعهد إليه بتأديب المأمون ، فعاش إلى أيام خلافته ، وتوفى بخراسان سنة ٢٠٢ هـ ، سنة ٨١٨ م ومن كتبه : النوادر فى اللغة ، والمقصور والممدود .

(٢) انظر هذه القصة فى الجزء الأول من كتابنا « الوزراء العباسيون » عند الحديث عن يعقوب بن داود .

فلما خلا بالعلوىّ وجده ألَبَّ الناس ،وأحسنهم إبانة ، وكان من قوله : ويحك يا يعقوب ! تلقى الله بدمى ، وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد ؟ ! فقال يعقوب : لا والله ، فهل فيك خير ؟ قال : إن فعلت خيراً شكرت ، ولك عندى دعاء واستغفار .

فأطلقه يعقوب على نحو ما أطلق البرمكى يحيى بن عبد الله ، ووشى به إلى المهدى على الصورة التى قدمناها فى بعض الحديث عن يعقوب .

فالصورة واحدة ، والسياسة واحدة ، وتفكير العلويين والوزيرين والخليفتين واحد ، وموقف الوزيرين من العرب ، ومن حاشية الخلافة واحد ؛ فلماذا كل هذا التشابه ؟ ! .

ولعل أوضح ما فى القصتين ، وما فيما يشبههما — هو أن الخلفاء العباسيين كانوا يبغضون العلويين أشد البغض ، ويخافونهم على الخلافة أشد الخوف ، وأنهم كانوا يعتمدون كل الاعتماد فى مناهضة العلويين على الفرس ؛ وتلك سياسة جرى عليها أولهم ، وساروا عليها وقتاً غير قصير .

ولعل مما يوضح هذه السياسة إحدى خطب المنصور التى خطبها لما أخذ عبد الله بن حسن وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، قال(١) :

يا أهل خراسان ؛ أنتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا .

وإن أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم — والله الذى لا إله إلا هو — والخلافة ، فلم يفرض لهم فيها بقليل ولا كثير ؛ فقام فيها على بن أبى طالب ، فتلطخ ، وحكم عليه الحكمان ، فافترقت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته — فقتلوه .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣١٢ .

ثم قام من بعده الحسن بن على ؛ فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ، فدس إليه معاوية إنى أجعلك ولى عهدى من بعدى ، فخدعه ، فانسلخ له مما كان فيه ، وسلمه إليه، فأقبل على النساء ، يتزوج فى كل يوم واحدة ، فيطلقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه .

ثم قام من بعده الحسين بن على ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة ؛ أهل الشقاق والنفاق ، والإغراق فى الفتن أهل هذه المدرة السوداء ، « وأشار إلى الكوفة » . فوالله ما هى بحرب فأحاربها ، ولا سلم فأسالمها ، فرق الله بينى وبينها ؛ فخذلوه ، وأسلموه حتى قتل .

ثم قام من بعده زيد بن على ، فخدعه أهل الكوفة وَغرُّوه، فلما أخرجوه وأظهروه : أسلموه ، وقد كان أتى محمد بن على فناشده فى الخروج ، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له : إنّا نجد فى بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمى داود ابن على ، وحذره غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل ، وأتم على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة(١) .

ثم وثب علينا بنو أمية ، فأماتوا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ؛ والله ما كانت لهم عندنا ترة(٢) يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم عليهم ،

---

(١) الكناسة : محلة بالكوفة ، عندها أوقع يوسف بن عمر الثقفى بزيد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وفيها يقول الشاعر :

يأيها الراكب الغادى لطيته ... يؤم بالقوم أهل البلدة الحرم
أبلغ قبائل عمرو إن أتيتهمو ... أو كنت من دارهم يوماً على أمم
أنا وجدنا فقروا فى بلادكمو ... أهل الكناسة أهل اللؤم والعدم
أرض تغير أحساب الرجال بها ... كما رسمت بياض الريط بالحمم

(٢) ترة : ثأر .

فنفونا من البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ، ومرة بالشراة(١) حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم ، أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا ، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه ، فقر الحق مقره ، وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها ، وحكمه العادل لنا – وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا ، وبغياً لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته ، وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

جَهْلًا علىّ وجُبْنا عن عدوهمُ لبئست الخَلَّتان : الجهلُ والجبُنُ

فإنى والله يا أهل خراسان ؛ ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة بلغنى عنهم بعض السقم والتَّعرُّم(٢)، وقد دسست لهم رجالا ، فقلت : قم يا فلان ، قم يا فلان ؛ فخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه ؛ فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة ، فدسوا إليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقى شيخ ولا شاب ، ولا صغير ولا كبير ، إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم ، وحلّت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى ، وطلبهم الفتنة ، والتماسهم الخروج على ؛ فلا يرون أنى أتيت ذلك على غير يقين .

* * *

فهو فى هذه الخطبة يبين أن علياً وأبناءه من بعده لم يكونوا جديرين بالخلافة ، ولا تولى أمور المسلمين ، ولم تكن لهم قدرة على مقاومة بنى أمية ،

(١) الشراة : جبل شامخ مرتفع تأوى إليه القرود ، وينبت فيه التبغ والقرظ والشوحط . فكأنه يريد : أنهم تقلبوا فى بلاد مختلفة قريبة وبعيدة ، عامرة وغامرة ، مؤنسة وموحشة ، فما كان يقر لهم قرار .

(٢) التعرم : يقال : تعرم فلاناً أصابه بعرام ، والعرام كغراب : حدة الجيش وشدّتهم .

فأخذوها منهم غلاباً واقتداراً ، ثم حالوا بينها وبينهم .

فلما جاء بنو العباس لم يأخذوها من ولد على بل أنقذوها من بنى أمية الذين أماتوا شرفهم ، وأذهبوا عزهم ؛ وساعدهم على ذلك الفرس الذين بعثهم الله لإحياء شرف بنى هاشم وإعزازهم .

وهو إذ حط من مقام على بن أبى طالب وولده ، رفع من شأن الفرس ، واعترف لهم بجميلهم ، وحق له أن يعترف بالجميل وإن لم يحق له أن ينتقص علياً وولده ؛ ولكنه أسرف فى الثناء عليهم إسرافاً لا يقره دهاة السياسة ، ومخادعة الساسة ؛ ومع ذلك فلعله كان يرى أنه لا بد أن يفعل ، ولكنه غالى ما غالى ؛ فوصفهم بأنهم ابتعثهم الله لهم شيعة وأنصاراً ، وبأن الله أحيا بهم شرف بنى هاشم ، وأعزهم بهم ، ودمغ بحقهم أهل الباطل ، وبأنهم على أيديهم ظهر الحق لأصحابه ، فصار إليهم ما ورثوه عن النبى من حق الخلافة .

وأياً كان الأمر فإن العلويين كانوا يؤرقون الخلافة ، ويقضون مضجعها فكان الخلفاء يشكون فيهم ، ويأخذونهم وشيعتهم بالظنة ؛ صيانة لملكهم ، واستبقاء لدولتهم ، واستدامة لسلطانهم (١) ؛ وإلا ففيم يعد علياً بأنه حينما ولى الخلافة تلطخ ، وأنه افترقت عليه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ؛ وأن شيعته وأنصاره وأصحابه وثقاته وثبوا عليه وقتلوه ؟ !

---

(١) ويؤيد هذا ما رواه الصولى عن إسحق الهاشمى قال : كنا عند الرشيد فقال : بلغنى أن العامة يظنون فىَّ بغض على بن أبى طالب ، ووالله ما أحب أحداً حبى له ، ولكن هؤلاء أشد الناس بغضاً لنا ، وطعناً علينا ، وسعياً فى فساد ملكنا ، بعد أخذنا بثأرهم ، ومساهمتنا إياهم ما حويناه ، حتى إنهم لأميل إلى بنى أمية منهم إلينا ؛ فأما ولده لصلبه فهم سادة الأهل ، والسابقون إلى الفضل ، ولقد حدثنى أبى المهدى عن أبيه المنصور عن محمد بن على عن أبيه عن ابن عباس أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى الحسن والحسين : من أحبهما فقد أحبنى ، ومن أبغضهما فقد أبغضنى . وسمعه يقول : فاطمة سيدة نساء العالمين غير مريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم — الأوراق للصولى .

وفيم يشهر بالحسن ، ويصفه بأنه ليس برجل ، وبأنه خدع بالمال والوعود ، فانسلخ من الخلافة ، أو سلخها عن نفسه ، ثم صار إلى حالة لا يحمده أحد عليها ؟!

وفيم يتحدث عن الحسين وزيد ابنى على حديث اللائم عليهما موقفهما من أهل العراق ؟!

وفيم يصف مطالبتهم بالخلافة بأنها بغى وظلم وحسد ، واستنقاص لما أتمه الله عليهم ، وأكرمهم به ؟ !

وفيم ينعى عليهم أنهم بايعوه بعد أن اشترى منهم البيعة بالمال الذى دسه عليهم مع رجاله ؟ !

وأياً كانت صورة هذه البيعة فهى بيعة يستحل بها دماءهم وأموالهم .

ولولا أنهم كانوا يخافونهم أشد الخوف ، ويحذرونهم أشد الحذر — لما سارعوا إلى التنكيل بهم وقتلهم ، أو حبسهم وتعذيبهم ، أو غير ذلك على نحو ما قدمنا فى ثنايا هذا البحث ..

* * *

والنظر إلى العلويين بهذا المنظار الأسود ، جعل الرشيد وغيره من الخلفاء يشكون كل الشك فى كل من يتصل بهم ، يظنون أن هواه فيهم من قريب أو بعيد، والفرس عامة — رغم أنهم هم الذين قامت على يدهم دولة بنى العباس — هواهم فى أبناء على بن أبى طالب ، فهم شيعة من يوم عرفوا الإسلام إلى هذا العصر ، إلا أن هذا الهوى يظهر حينا ويختفى أحياناً ، متأثراً بعوامل السياسة ؛ فهو كامن فى نفوسهم رغم اضطرام ناره فى صدورهم ، لا يعلنونه إلا إذا أمنوا على أنفسهم وأموالهم ، أو أمام دعاتهم ونقبائهم ، أو فى جمعياتهم السرية المنبثة فى كثير من الأنحاء ، ولا سيما خراسان .

وليس البرامكة إلا فرساً من الفرس ، وشيعة من الشيعة ، يحبون آل على ، ويتعلقون بهم .

وأنا أتهمهم بأكثر من هذا ، فهم فرس هوى وعقيدة ، ولغة ووطناً وجنساً ؛ ينظرون إلى ماضيهم القريب ، وإلى مجدهم الداثر ، وإلى قوميتهم الزائلة ، وإلى ملكهم العريض ، وإلى عزهم المنهار ، وإلى لغتهم البائدة — ينظرون إلى هذا كله وإلى غيره ، فتضيق صدورهم ، وتضطرب أنفاسهم ، وتغلى دماؤهم ، وتتلظى نار الحقد فى رءوسهم ، ويودون لو عاد إليهم ما فقدوه ! ! ويفكرون فى ذلك ، ويسلكون له مختلف الطرق ، وشتى الوسائل .

وإن من هذه الوسائل أن يلوا ما عظم من مناصب الدولة ؛ فهم الوزراء والأمراء والقواد والعمال ؛ ليكون لهم الأمر والنهى فى مسائل السياسة والإدارة والحرب ؛ وهم العلماء الأعلام ، الذين سبقوا فى كل علم وفن ، ليكون منهم الكتّاب والشعراء والقضاة ، وأصحاب الفتيا .

وبفضل ما صار لهم من مكان ممتاز فى الدولة ، استطاعوا أن يتشيعوا لهذه الطائفة حيناً ، ولتلك الطائفة حيناً آخر ، وبفضل هذا التلون فى التشيع ، يستطيعون أن يوقعوا بين طوائف المسلمين من العرب : فالعلوى والعباسى والأموى ، والزبيرى — يبغض بعضهم بعضاً أشد البغض وأرذله ؛ والعدنانى . والقحطانى يبغض كل منهما أخاه أشد البغض وأرذله ؛ والخوارج والشيعة والمعتزلة ، ينكر كل منهم الآخر أشد الإنكار وأرذله ، ونرى بعد ذلك كلا من هؤلاء طوائف تبغض كل طائفة منها الطائفة الأخرى وتنكرها .

نجح الفرس فى هذه السياسة ، ونجح البرامكة ، ولكن العرب رغم تفرقهم استطاعوا إغضاب الرشيد عليهم ، وساعدهم على ذلك ما قدمنا من تطرف الرشيد فى حالى رضاه وغضبه ؛ فنكبهم وكانت صلتهم بيحيي بن عبد الله العلوى سبباً من الأسباب التى أغضبت الرشيد عليهم .

٣ ــ الزندقة

دخل الفرس فى الإسلام طائعين أو كارهين ؛ أما الطائعون فإنهم اقتنعوا بأن الإسلام دين حنيف سمح ، فاعتنقوه عن عقيدة صحيحة لا أثر فيها لمجاملة أو مراغمة أو مداورة أو شيء من هذا ، وهؤلاء حسن إسلامهم ، وكانوا خيراً وبركة على هذه الأمة .

أما الذين دخلوا هذا الدين خوفاً أو مخادعة أو غير ذلك ؛ فإنهم كانوا يعلمون أنهم من سلالة أمة عظيمة عريقة ذات حضارة وعلم وأدب ، كانت سيدة دول الشرق جميعاً ، وكان لها على العرب سلطان أى سلطان ، فإنهم ذانوا لها زمناً طويلا ، فلما جاء الإسلام أزال هذه الدولة ، وأمات لغتها ، وغيّر دين أهلها ، وعفى على ماضيها ؛ هؤلاء الناس عز عليهم ذلك ، ولم ينكروا ماضيهم وسلطانهم ولغتهم وأدبهم وحكمتهم ، وكانوا يذكرون هذا كله ، وتدفعهم العصبية إلى التفكير فيه حيناً بعد حين ، فكانوا يترقبون الفرص لإحياء ماضيهم السياسى والدينى واللغوى ولكن السلطان الإسلامى كان مبسوطاً عليهم ، وهو سلطان ناشئ فى فتوة وقوة ، يرهبه الناس جميعاً ؛ فلو أنهم تنكروا له ، أو فكروا فى الخروج عليه ، ساء حظهم ؛ لهذا سكتوا على مضض ، وكان بعضهم يظهر حيناً بعد حين ، ويظهر زندقته فيلقّى جزاءه من قتل أو حبس أو تعذيب أو غير ذلك مما كان الخلفاء يوقعونه عليهم ، وقد كثر خروج الزنادقة فى عهد الدولة العباسية ، ولعل ذلك كان اعتماداً على أن أصحاب السلطان الحقيقى فيها من الفرس ؛ فهم يطمعون فى حمايتهم ، والذود عنهم ؛ إلا أن الخلفاء

كانوا لا يقصرون فى الضرب على أيديهم ، وللمهدى جولات مع هؤلاء الزنادقة مذكورة مشهورة، لهذا لجأ أعداء البرامكة حينما أرادوا أن يدسوا لهم عند الرشيد : أن يجعلوا من وسائل إغضابه عليهم ، وتغييره منهم ؛ أنهم يرمونهم بالزندقة ؛ وقد فعلوا ذلك ، وأشاعوه بين الناس ؛ ولذلك كان الرشيد نفسه يتحدث عنهم : أنهم زنادقة ؛ أو أنه قيل له : إنهم زنادقة ؛ فنكبهم وأوقع بهم . فقد قيل : إن الفضل بن يحيي قال لبعض أصحابه يوماً ، وهو فى نكبته : أحب أن تلقى هذا الرجل[1] ، وتسأله عما دعاه إلى ما كان منه وهل لحقه من بعض أسبابنا — على غير علم منا — ظلم فنتلافى ما خلا ؛ فصار رسوله إليه ، وسأله عما دعاه إلى ما كان منه ، وهل لحقه ما يوجبه ؛ فقال : لا والله ، ما لحقنى ما أوجب ذلك ، ولكن قيل لى : إنهم كلهم زنادقة .

ولعل مما زاد فى شك الرشيد ما حدث من أنه أمر يحيي بن خالد يوماً أن يتقدم بهدم إيوان كسرى ، فقال له يحيي : لا تهدم بناء دل على فخامة شأن بانيه الذى غلبته ، وأخذت ملكه ؛ فلم يعجب هذا الكلام الرشيد ، وتغيظ على يحيي ، وقال له : هذا من ميلك إلى المجوس ، لا بد من هدمه ؛ فلم يسع يحيي إلا أن يجيب الرشيد إلى ما أراد واستعد لهدمه ، وقدر له المال الذى ينفقه على الهدم ؛ فاستكثره الرشيد ، وأمر بوقف الهدم ، وبقاء البناء قائماً ، فقال له يحيي : لم يكن ينبغى أن تأمر بهدمه ، وإذ قد أمرت فليس يحسن بك أن تظهر عجزاً عن هدم بناء بناه عدوك .

وإذا صحت الرواية فنحن فى جانب يحيي ، ولسنا فى جانب الرشيد ، ولا ندرى لماذا يشك الرشيد فى قيمة هذه النصيحة ؛ لعل الذى جعله يشك أنه عارض فى هدم بناء هو مفخرة من مفاخر العجم ، وأن هذا البناء إذا

---

(١) يعنى الرشيد .

ظل قائماً كان مذكرا الناس بماضى بلادهم ، وقديم مجدهم ؛ فيثير نفوسهم ، ويحرك عزائمهم نحو العمل على إحياء ذلك الماضى القديم المجيد .

وقد بولغ فى إخبار الرشيد بأنهم زنادقة ، حتى صوروا له أن هؤلاء الناس إنما يريدون أن يتزندقوا ليلتف الفرس حولهم ، وبعد هذا يعلنون خروجهم على سلطان الخليفة ، ويخلعونه ، ويتولون الأمر من دونه، ولعل ذلك كان سبباً فى أن الرشيد حينما قبض عليهم حبسهم فى حبس الزنادقة دون غيره ، والذى نستطيع أن نؤكده إزاء هذه التهمة هو أنه لا شك فى أن البرامكة فرس ، وأنهم من سادة الفرس وأشرافهم ، وأنهم كانت لهم مكانتهم بين قومهم ، فهم مسئولون أمام التاريخ أن يعيدوا لبيتهم مجده ، ولشعبهم سلطانه ، ولدينهم ماضيه ، ولا سيما أن جدهم الأقرب كان زعيماً دينياً ؛ والعمل على تحقيق هذه الأمنية يقتضيهم أن يشعروا من حولهم من الفرس أنهم ما زالوا يحنون إلى دينهم ولغتهم وقوميتهم ، حتى لا تموت تلك الروح فى نفوس العامة منهم ، وحتى تظل روح التعصب لماضيهم حية فى نفوسهم ، لا يعفى عليها طول العهد ؛ فكأن الفرس كانت بينهم رابطة معنوية قوية ، قوامها حنين الجنس إلى نوعه ، ونزوع الفرع إلى أصله ؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يجهروا بها حتى لا يفطن الخلفاء والعرب إلى ذلك فيقفوا منهم موقفاً سلبياً، قد يكون فيه ضرر عظيم عليهم وعلى حركتهم السرية فتفشل وتبوء بالخسران .

ولعلنا نستطيع بعد هذا أن ندرك السبب فى أن الفرس الذين دخلوا الإسلام كانوا — كلهم أو جلهم — شيعة ، فهم بتشيعهم يعطفون عليهم قلوب عدد كبير جداً من المسلمين ، ثم هم بهذا التشيع يستطيعون أن يخلقوا فى صفوف المسلمين فرقة لا يلتئم صدعها ، وفرجة لا تنسد ثلمتها ؛ وهذه الفرقة تكون سبباً فى توهين المسلمين وإضعاف أمرهم ، ويستطيعون هم أن يظهروا بين هؤلاء المختلفين ، ويجعلوا لهم شأناً ؛ ولولا حزم الخلفاء وغلظتهم على كل

من يخرج عليهم أياً كان مذهبه أو جنسه أو قدره ، فلا يتورعون عن القتل أو التعذيب أو التشريد أو السجن ؛ لولا هذا لماتت هذه الدولة فى مهدها ، ولما عرفنا من خلفائها بعد المنصور أحداً .

من هذا يتبين : أن الذين سعوا على البرامكة عند الرشيد وجدوا لهم مغمزاً يغمزونهم منه ، فرموهم بالزندقة وأكدوا للرشيد أنهم لا يخلصون للخلافة ولا للإسلام ، ولا يعنيهم من شئون المسلمين السياسية والاجتماعية والثقافية — إلا القدر الذى ينسجون منه غشاء رقيقاً يخفون تحته ما يعملون له من إعادة مجد الفرس السياسى والدينى والقومى ؛ فأثر هذا فى نفس الرشيد بعض التأثير ، وانضم إلى غيره من الأشياء الأخرى التى تحدثنا ونتحدث عنها ، فامتلأ الإناء وفاض ، فكانت النكبة التى حلّت بهم .

ولقد استعان أعداء البرامكة بالشعراء فى اتهامهم بالزندقة ، ليشيع ذلك فى العرب والعجم ، وليجرى على ألسنة الخاصة والعامة ، فيتأثر الناس بذلك أيما تأثر ، حتى إذا هاج هيج الخليفة ، وثارت ثائرته — كان له عند الناس عذره ؛ ومن ذلك قول الشاعر (١) :

إذا ذُكِر الشِّركُ فى مجلسٍ   أضاءت وجوهُ بنى بَرْمكِ
ولو تُلِيَتْ بينهم آيةٌ   أتوْا بالأحاديثِ عن مَزْدَكِ (٢)

---

(١) الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٦٩ .

(٢) مزدك : هو صاحب الديانة المزدكية فى بلاد الفرس ، ظهر أيام قباد والد أنوشروان ودعا قباد إلى مذهبه فأجابه ، ولكن أنو شروان لم يتبعه بل طلبه وقتله . والمزدكية كالمانوية فى أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين ، أحدهما نور والآخر ظلمة ، ويرى مزدك أن النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تعمل على الخيط والاتفاق . وكان ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال .

وقول الآخر يمدح الفضل بن الربيع منافس البرامكة فى بلاط الرشيد ، ويهجو الفضل بن يحيى البرمكى[1] :

فَضْلان ضَمَّهما اسم وشَتَّت الأخبارُ
آثارُ فضلِ الربيعِ مساجدٌ ومنــــارُ
وفضلُ يحيى ببَلْخٍ آثارُه النُّوبَهارُ[2]
وما سواءٌ إذا ما أُثيرت الآثار
بَيْتٌ يُوَحَّدُ فيـه ويُعبَدُ الجبّار
وبيتُ شِرْكٍ وكفرٍ به تُعَظَّمُ نار

وقول ثالث[3] :

إن الفراغ دعانى إلى ابْتِناء المساجد
وإنَّ رأيَ فيها كَرَأْيِ يحيى بْنِ خالد

---

(١) معجم البلدان ج ٨ ص ٣٢٢ .
(٢) مدينة مشهورة بخراسان ، وهى من أجل مدنها وأذكرها ، وأكثرها خيراً ، وأوسعها غلة – افتتحها المسلمون زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه والنوبهار معبد البرامكة فى بلخ وقد تقدم الحديث عنه .
(٣) عيون الأخبار ج ١ .

٤ – موقف عبد الملك بن صالح

أما عبد الملك ، فهو ابن صالح بن على بن عبد الله بن عباس من بيت الرشيد ، بايع له بالخلافة مع المبايعين ، ودفعته العصبية الهاشمية إلى أن يكون للخليفة على بنى أمية ، ودفعته العصبية العباسية إلى أن يكون للخليفة على بنى طالب ، ودفعته العصبية العربية إلى أن يكون للخليفة على العجم أول الخلافة ؛ فهو إذن للخليفة الرشيد بقلبه ولسانه ، فكان كل منهما يطمئن إلى صاحبه ، ويرضى عنه ، ويود له الخير : الرشيد فى مقام الخلافة ، وعبد الملك فى مقام الإمارة ؛ فهذا الرشيد يموت له ولد ، ويولد له ولد فيقول له عبد الملك : يا أمير المؤمنين – سرّك الله فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرّك ، وجعل هذه بهذه جزاء للشاكرين ، وثواباً للصابرين .

وهذا عبد الملك يهدى إلى الرشيد فاكهة فى أطباق الخيزران ، ويكتب إليه : أسعد الله أمير المؤمنين ، وأسعد به ؛ إنى دخلت إلى بستان لى ، أفادنيه كرمك ، وعمرته لى نعمك ، قد أينعت أشجاره ، وآتت ثماره ، فوجهت إلى أمير المؤمنين منه شيئاً على الثقة والإمكان ، فى أطباق القضبان ، ليصل إلىّ من بركة دعائه ، مثل ما وصل إلىّ من كثرة عطائه . فقال رجل : يا أمير المؤمنين ؛ لم أسمع بأطباق القضبان ؛ فقال الرشيد : يا أبله ؛ إنه كنى عن الخيزران ، إذ كان اسما لأمنا .

هذه القصة تدل على ما كان بينهما من مودة ، وعلى ما كان فى نفس عبد الملك من إخلاص للرشيد ، وتوقير له ، أليس الرشيد هو الذى ولاه المدينة

والصوائف ، ولا يمكن أن يولى الرشيد أحداً عملاً من أعماله ، أو ولاية من ولاياته ، إلا إذا كان واثقاً من إخلاصه له ؟

وهذا الرشيد أيضاً يجعل ولده القاسم فى حجر عبد الملك بن صالح ، فيحض عبد الملك الرشيد على أن يوليه العهد بعد أخويه الأمين والمأمون ، وينشده :

يأيها المَلِكُ الذى لو كان نجماً كان سَعْدا
للقاسم اعقد بَيْعةً أَوْقِدْ له فى الملك زَنْدا
اللهُ فَرْدٌ واحدٌ فاجْعَلْ وُلاةَ العهدِ فَرْدا

فلم يتأخر الرشيد ، ولم يلبث أن أجاب عبد الملك بما أراد .

وعبد الملك بن صالح أفصح أهل زمانه ، وأخطبهم ، ولم يكن أحد مثله فى صيانته وجلاله ، فهو إذ ركن إلى الخلافة قواها ، وأعزها ، وشد من أزرها ، وكان شجى فى حلق أعدائها ، ، يخشون بأسه ، ويهابونه ، وهو إذا تنحى عن الخليفة ، كان شوكة فى جنب الخلافة ، يقض المضجع ، ويقلق البال ، ويشمت الأعداء ، ويغرى الطامعين .

ولعل البرامكة رأوا أن انضمامه إليهم ، وانحيازه نحوهم — يقويهم ، ويخيف الخليفة منهم ، وهم يستطيعون أن يجعلوه شبحاً مخيفاً ، يلوحون به إذا استوجب دهاء السياسة أن يلوحوا به ، أو أرادوا أن يجعلوا بينه وبين الخليفة جفوة ، فيكسبوا من هذا توهين الخليفة ، وصرف الناس عنهم ، وانشغالهم بما بينه وبين عبد الملك ويجعلون لهم منة فى عنق كل منهما بإشعاره أنهم من أنصاره ، أو أنهم يسعون لإزالة ما بينهما من جفوة .

ورأى يحيى أن يعلم الخليفة أن له فى الدولة نداً لا تميزه عنه الخلافة ، وعمل على أن يصل ذلك إلى الخليفة من غير طريقه ؛ فقد روى أن يحيى سئل :

كيف يولى الرشيد عبد الملك المدينة من بين عماله ؟ فأجاب يحيى : أحب أن يباهى به قريشاً ، ويعلمهم أن فى بنى العباس مثله .

وهذا كلام سينقله الرواة لكل من الرشيد وعبد الملك . أما الرشيد ؛ فيغيظه أن يعلم أن فى الدولة رجلا يجعله بعض رعاياه مثله فى المكانة ، وأما عبد الملك ، فيركبه الغرور ، ويتفتح بصره على أشياء لم تكن تخطر له على بال ، لو يسمع هذا الرأى فيه من أكبر وزير فى الدولة .

والحق أن كلا من الرجلين كان له موقف إزاء صاحبه . أما عبد الملك ، فلم يتغير كما كنا ننتظر منه ، ولكنه بقى على ولائه لابن عمه ، وظل مخلصاً له ولملكه ؛ فإنه لما وشى به عنده ، وتتابعت الأخبار عنه بفساد نيته — ولعل هذه الوشايات كانت لصفاء ما بينه وبين البرامكة ، أو كانت لحقد على شخصه ؛ لما يتمتع به من الرضا ، ورفيع المكانة عند السلطان — تغير الرشيد عليه ، وبدأ يشيح بوجهه عنه ، ولا يقبل عليه ، فإنه يدخل إلى مجلس الخليفة ، ويسلم ، فلا يرد الخليفة السلام ، فيعتذر عن نفسه ، ويحاول أن يبرئها مما ألصق الناس بها ، ويحتج لها بالبراءة حتى يدير إليه وجهه ، ويسمع منه ، ويرد عليه ، ويظهر له الرضا ويقول له : إنك محسود ؛ وأمير المؤمنين يعلم أنك على سريرة صالحة ، غير مدخولة ولا خسيسة .

ولكن الوشاة لا يدعون أذن الرشيد يوماً ولا ليلة من غير أن يسمعوها وشاية جديدة ، فلم يتأثر فاحتالوا بحيلة خبيثة جريئة ؛ ليؤثروا فى الرشيد ، ولئلا يدعوا فى نفسه مجالا للرضا ؛ اتصلوا بكاتب عبد الملك ، وأحد أبنائه ، وأغروهما وخدعوهما فخدعا ، ثم جىء بهما إلى الرشيد ، فأنهيا إليه ، أن عبد الملك يريد الخلافة لنفسه ، فامتلأ قلب الرشيد غيظاً ، فلما دخل عليه عبد الملك ، قال له : أكفراً بالنعمة ، وغدراً بالإمام ؟ ؛ ، فقال عبد الملك : قد بؤت إذن بأعباء الندم ، واستحلال النقم وما ذاك يا أمير المؤمنين إلا بغى حاسد نافس فيك

وفى تقديم الولاية ، ومودة القرابة — يا أمير المؤمنين : إنك خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته ، وأمينه على عترته ، لك عليها فرض الطاعة ، وأداء النصيحة ، ولها عليك العدل فى حكمها ، والتثبت فى حادثها ، فقال الرشيد : هذا كاتبك ، يخبر بفساد نيتك وسيرتك ؛ ثم أمر بإحضاره ، وقال له الرشيد : تكلم غير خائف ولا هائب ، فقال : أقول : إنه عازم على الغدر بك يا أمير المؤمنين ، والخلاف عليك ، فقال عبد الملك ؛ : وكيف لا يكذب عليك من خلفى من يبهتنى فى وجهى ؟ ؛ فقال الرشيد : هذا ولدك عبد الرحمن[1] ، يقول بقول كاتبك ، ويخبر عن سوء ضميرك ، وفساد نيتك ، وأنت لو أردت أن تحتج بحجة ، لم تجد أعدل من هذين ، فقال : يا أمير المؤمنين : عبد الرحمن بين مأمور أو عاق ، فإن كان مأموراً فمعذور ، وإن كان عاقاً فهو عدو ، أخبر الله بعداوته ، وحذر منها ، فقال جل ثناؤه فى محكم كتابه : « إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » ، فنهض الرشيد فقال : أما أمرك فقد وضح ، ولكن لا أعجل حتى أعلم ما الذى يرضى الله فيك ، فإنه الحكم بينى وبينك ؛ فقال عبد الملك : رضيت بالله حكماً ، وبأمير المؤمنين حاكماً ؛ فإنى أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه .

وقيل إنه[2] حينما أغلظ الرشيد فى الكلام ، قال له : لست منا ، يقصد بذلك أن أم عبد الملك بن صالح كانت لمروان بن محمد ، فلما قتل مروان بمصر ، أخذ صالح بن على جاريته أم عبد الملك ، فولدته منه ، فبعض الناس يقول : إنها كانت حاملا من مروان ، فأراد الرشيد بقوله (لست منا) ، هذا ؛ فقال عبد الملك : ما أبالى ، لأى الفحلين كنت ، ألصالح بن على ؟ ، أم لمروان بن محمد ؟

---

(١) كان عبد الرحمن فيه فأفأة ، وكان يكنى به .

(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٣ .

من هذا يتبين أن عبد الملك كان موقفه من الرشيد سلمياً ، إلا أن صداقته للبرامكة جعلت الوشاة يخيلون إلى الرشيد أنه يطمع فى الملك ، وأن البرامكة أعوانه على ذلك الطمع ، وصاحب السلطان إذا شك فى أى خبر يلقى إليه ، فإنه لا يشك فى الخبر الذى يتعلق بسلامة الملك ؛ لأن سوء الظن هنا أحوط ، والأخذ به يؤدى إلى السلامة ؛ لذلك شك الرشيد فى إخلاص عبد الملك ، فسجنه ، وزاد حقداً على البرامكة ، حتى كانت هذه الصلة سبباً من الأسباب التى أدت إلى زوال أيامهم .

ويظهر أن عبد الملك كان مخلصاً للرشيد ولأولاده ، وكان له يد قوية فى تثبيت دعائم الخلافة ، ولم يستطع أن يخفى ذلك فى بعض مناظراته للرشيد ، لأن الرشيد كان يقسو عليه كثيراً ، ويوجعه بقارص الكلم ، ولا يبالى إن كان ذلك فى خلوة أو فى جماعة ، فكان على عبد الملك أن يدرأ عن نفسه الشبهات ما أسعفته الحجة ، وأعجله البيان .

جلس الرشيد يوماً مجلساً ، فدخل عليه عبد الملك وسلم ، فلم يرد الرشيد السلام ، فقال عبد الملك : ليس هذا يوماً أحتج فيه ، ولا أجاذب منازعاً وخصماً . قال الرشيد : ولم ؟

فقال عبد الملك : لأن أوله جرى على غير السنة ، فأنا أخاف آخره .

قال الرشيد : وما ذاك ؟

قال عبد الملك : لم ترد علىّ السلام ، أنْصِف نَصَفَة العوام .

قال الرشيد : السلام عليكم اقتداء بالسنة ، وإيثارا للعدل ، واستعمالا للتحية . ثم التفت نحو أحد جلسائه وقال مخاطباً عبد الملك :

أريد حياتَه ويريد قتلى عذيرك من خليلك من مراد

أما والله لكأنى أنظر إلى شؤبوبها قد همع(١) ، وعارضها قد لمع(٢) ، وكأنى بالوعيد قد أورى ناراً تسطع ، فأقلع عن براجم(٣) بلا معاصم ، ورءوس بلا غلاصم(٤) ؛ مهلا مهلا ، فبى والله سهل لكم الوعر ، وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتها ، فنذارلكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد، لبوط(٥) بالرجل .

فقال عبد الملك :

اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك ، وفى رعيته التى استرعاك ، ولا تجعل الكفر مكان الشكر ، ولا العقاب موضع الثواب ، فقد نخلت لك النصيحة ، ومحضت لك الطاعة ، وشددت أواخى ملكك بأثقل من ركنى يلملم(٦) ، وتركت عدوك مشتغلا ، فالله الله فى ذى رحمك ، أن تقطعه بعد أن بلته بظن أفصح الكتّاب لى يعضهه(٧) أو يبغى باغ ينهش(٨) اللحم ، ويلغ فى الدم ؛ فقد والله سهلت لك الوعور ، وذللت لك الأمور ، وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور ؛ فكم من ليل تمام فيك كابدته ، ومقام ضيق فرجته لك ، كنت فيه كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب :

---

(١) الشؤبوب : الدفعة من المطر . همعت العين : أسالت الدمع .

(٢) العارض : السحاب .

(٣) البراجم : مفاصل الأصابع أو العظام الصغار فى اليد والرجل ، واحدها برجمة المعاصم : مواضع الأساور من الأيدى .

(٤) الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق ، والجمع غلاصم .

(٥) الخبوط : الخيل التى تخبط الأرض بيديها خبطاً شديداً ، وكذلك اللبوط ، والغرض : المصيبة العظيمة التى تنجم من وقوع الفتن والقلاقل فى البلاد .

(٦) يلملم : موضع على ليلتين من مكة ، وهو ميقات أهل اليمن ، أو هو جبل من الطائف على ليلتين أو ثلاث .

(٧) يعضهه : يكذبه .

(٨) ينهش اللحم : يأخذه بمقدم أسنانه وينتفه .

ومقامٍ ضيِّقٍ فرَّجْتُه ببَنانى ولسانى وجَدَلْ
لو يقوم الفيل أو فَيَّالُه زَلَّ عن مثل مقامى وزَحَلْ (١)

فقال الرشيد :

أما والله لولا الإبقاء على بنى هاشم لضربت عنقك .

* * *

فهذا الرشيد يضيق بعبد الملك أشد الضيق ، ولا يطيق أن يراه يغشى مجلسه ، فلا يرد عليه التحية ، فينكر عليه ذلك عبد الملك ، فيحرجه أشد الإحراج أمام جلسائه ، فيثور الرشيد ، فيمُنُّ ، ثم يعد ويتوعَّد ويتهدد ، وينذر ، فلا يهابه عبد الملك ولا يخاف وعيده وتهديده ، ولكنه يثور لنفسه وكرامته ، ويغالظ أمير المؤمنين ويخاشنه ، ويرد عليه مَنًّا بِمَنّ ، ويبين له فضله فيما فعل من شد أواخى الملك ، وكبت العدو ، ويؤكد له أن فى الاعتداء عليه قطْعاً للرحم ، ويقدم ذلك فى صورة قوية جعلت الخليفة إن بغى عليه ناهِشَ لحمٍ ، ووالغَ دم .

ولعل هذا الأسلوب من الكلام زاد فى حنق الرشيد عليه ، وكأنى به قد هم بقتله ، وأخذ يقدم ويؤخر ، ولكنه خشى العاقبة ؛ لأن عبد الملك من بنى هاشم ، وهو رجل مقدم فى قومه ، له مركز ممتاز ، ومكان ملحوظ ، يغضب له قومه ، وهم قوم الرشيد ، وليس من الحكمة أن يفضهم عنه ، فخير له ولدولته ألا يمد يده إلى عبد الملك بسوء ، ولكنه يصانعه ويداوره ، حتى لا يثير فتنة فى وقت هو أحوج فيه إلى السكينة .

وكان الوشاة لا يفتئون يذكرون عبد الملك بالسوء عند الرشيد ، حتى فى مواجهة عبد الملك نفسه ، ولعل هذا من تدبير الفضل بن الربيع وأعوانه من

---

(١) الفيال : صاحب الفيل والجمع فيالة .

الذين يكرهون البرامكة ، ويكرهون من يحبون البرامكة ، ومن يخشون بأسهم إذا انتقل السلطان إليهم ، وإلا ففيم يشى بعبد الملك ابنه وخادمه ، ويتحدثان عند الرشيد فيه ، ولا يستحيان أن يكتما ذلك أمامه ؛ إنها لكبيرة ، ولا يدفع إليها إلا أكبر منها ، فعلى أى شىء اتفق الفضل معهما ؟

ولم ينته هذا النوع من التدبير عند حمل الابن على العقوق ، وحمل الخادم على الكفران والجحود ، بل إن غيرهما من الناس كان لا يتورع عن مثل هذا ؛ فإنه بينما الرشيد يسير يوماً وفى موكبه عبد الملك بن صالح ، إذ هتف به هاتف وهو يساير عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، طأطئ من أشرافه(١) ، وقصر من عنانه ، واشدد من شكائمه(٢) وإلا أفسد عليك ناحيته .

التفت الرشيد إلى عبد الملك : وقال له : ما يقول هذا يا عبد الملك ؟

فقال عبد الملك : مقال باغ ، ودسيس حاسد .

قال هرون : صدقت ؛ نقص القوم ففضلتهم ، وتخلفوا وتقدمتهم ، حتى برز شأوك فقصر عنه غيرك، ففى صدورهم جمرات التخلف ، وحزازات النقص .

فقال عبد الملك: لا أطفأها الله ، وأضرمها عليهم حتى تورثهم كمداً دائماً أبداً ! ! .

* * *

ونحن لا نستطيع أن نفهم معنى لعدم ثبات الرشيد فى موقفه من عبد الملك حينما يسمع هذه الوشايات ، فهو موقف مضطرب أشد الاضطراب ، فبينما تراه يجهر بحقده عليه ، وتغيظه منه ، ويبدى رغبته فى قتله لولا أنه من بنى هاشم ، ويمن عليه بما قدمت له يداه من خير ، إذا بك تراه يحلم عليه ويتلطف

---

(١) أشرافه : أعاليه .

(٢) الشكائم : جمع شكيمة وهى حديدة اللجام توضع فى فم الفرس .

له ، ويعتذر عنه ويضفى عليه ثياباً من المدح والثناء ، ويعجب من حسد الناس له ، ومحاولتهم الإيقاع به .

لعل هذا يرجع إلى أن الرشيد رجل كان متطرفاً ، حاد المزاج ، ثائر الطبع ، قلق النفس ، سريع التأثر ؛ فهو إذ يرضى لا يسمع ، وإذ يغضب يسمع ؛ ولذلك تراه يحمل عليه فى الحديث الأول وفى غيره من الأحاديث السابقة ، ويعتذر عنه فى الحديث الأخير .

وكان عبد الملك يلطف معه إذا رآه لطيفاً ، ويعنف معه إذا كان عنيفاً ، ولا يبالى أى الشرين يقع . قال له يوماً وقد مر بمنبج(١) ، وفيها مستقر عبد الملك : يا عبد الملك ؛ هنا منزلك ؟

فقال عبد الملك : يا أمير المؤمنين ؛ هو لك ، ولى بك .

قال الرشيد : كيف هو ؟

فقال عبد الملك : دون بناء أهلى ، وفوق منازل منبج .

وليس كلام أرق من هذا فى مخاطبة الملوك ، ولكنه نطق به للين صاحبه .

* * *

ولما كثر الوشاة بعبد الملك وضاق الرشيد به ذرعاً ، وعجز عن استصلاحه فيما يرى ، وأوقع بالبرامكة — خشى أن يكون عوناً عليه لنصراء البرامكة وهم كثيرون ، ولكنه يخاف أن يقتله حتى لا يتألب عليه بنو هاشم كما قدمنا ،

---

(١) منبج : بالفتح ثم السكون وباء موحدة مكسورة وجيم ، جعلها الرشيد مدينة العواصم ، وأسكنها عبد الملك بن صالح سنة ١٧٣ هـ . وهى مدينة كبيرة ذات خيرات واسعة وأرزاق كثيرة ، فى فضاء من الأرض ، كان عليها سور مبنى بالحجارة محكم ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ ، وشرب أهلها من قنى تسير على وجه الأرض وفى دورهم آبار أكثر شربهم منها ، لأنها عذبة صحيحة ؛ ومنها البحترى الشاعر المشهور ، وينسب إليها منبجى ومنبجانى بفتح الباء على غير قياس ، ومثل هذا كثير فى اللغة . فقد قالوا : مروزى نسبة إلى مرو ، وداوردى نسبة إلى دار أبجرد ، ورازى نسبة إلى الرى ، ونحو ذلك .

فاكتفى بالقبض عليه وسجنه ، وأقام عليه الفضل بن الربيع فلم يزل فى محبسه حتى توفى الرشيد ، فأطلقه الأمين من سجنه ، وعقد له على الشام .

* * *

هذا الموقف المضطرب من الرشيد ، والذى انتهى بحبس عبد الملك كما حبس يحيى البرمكى وأولاده — كان الرشيد فيه متجنياً على عبد الملك بعض التجنى ، وإن كنا لا نشك فى أن عبد الملك كان يحب البرامكة ، وكان يتصل بهم ، ويجالسهم ولكنا لا نشك أيضاً فى أنه كان لا يبغض الرشيد ، ولا يبغض خلافته ، ولا يساعد على الخروج عليه إن كانت هناك نية خروج عند غيره ، ولكن اتصاله بالبرامكة جعل الفضل بن الربيع يسلكه معهم فى نظام واحد ، ولا سيما أنه وجد أن ذكر عبد الملك يقوى التأثير فى نفس الرشيد ، ويثيره ضد البرامكة .

وإن بعض الناس كانوا يعرفون أن عبد الملك برىء ، وأنه لا يستأهل شيئاً مما صنع به ؛ ومنهم عبد الله بن مالك ، وكان على شرط الرشيد ، فإنه دخل عليه يوماً ، وقال له : أفى إذن أنا ، فأتكلم ؟ قال الرشيد : تكلم . فقال : لا والله العظيم يا أمير المؤمنين ، ما علمت عبد الملك إلا ناصحاً ، فعلام حبسه ؟

قال الرشيد : ويحك ! ، بلغنى عنه ما أوحشنى ، فلم آمنه أن يضرب بين ابنى هذين — يعنى الأمين والمأمون . فإن كنت ترى أن نطلقه من الحبس أطلقناه .

فقال عبد الله : أما إذ حبسته يا أمير المؤمنين ، فلست أرى فى قرب المدة أن نطلقه ، ولكن أرى أن تحبسه محبساً كريماً ، يشبه محبس مثلك مثله .

وقد كان رأى عبد الله هذا صحيحاً ، فإنه بالرغم من كيد الرشيد لعبد الملك ، وإيذائه له بالحبس والانقياد للفضل بن الربيع فى شأنه ، وأخذه بسبب البرامكة — كان مخلصاً للرشيد ، ولبقاء الخلافة فى عقب الرشيد ، إلا أن موقفه من ولديه

الأمين والمأمون كان مختلفاً ، وهو مخلص للأمين ، يتولى له الشام ، ويجعل له عهد الله وميثاقه ، لئن قتل وهو حى لا يعطى المأمون طاعة أبداً ؛ وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن الأمين عطف عليه وأطلقه من محبسه ؛ أو لأن أم الأمين زبيدة بنت عم له ، فهو يرعى حرمة القرابة ، وحرمة الخئولة ، فالمأمون يمت له بسبب واحد من أبيه ، والامين يمت له بسببين من أبيه وأمه .

* * *

وأيًّا كان الأمر فإن عبد الملك نكب بسبب البرامكة ، وإن من أسباب نكبة البرامكة اتصالهم بعبد الملك ، ودفاعهم عنه عند الرشيد حتى بعد نكبتهم .

ذكروا أن الرشيد بعث فى بعض أيامه إلى يحيى بن خالد : أن عبدالملك ابن صالح أراد الخروج ومنازعتى فى الملك ، وقد علمت ذلك ، فأعلمنى ما عندك فيه ، فإنك إن صدقتنى أعدتك إلى حالك ؛ فقال يحيى : والله يا أمير المؤمنين ، ما اطلعت من عبد الملك على شىء من هذا ، ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك ، لأن ملكك كان ملكى ، وسلطانك كان سلطانى ، والخير والشر كانا فيه علىّ ولى ؛ فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع فى ذلك منى ؟ ، وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل بى أكثر من فعلك ؟ ، أعيذك بالله أن تظن بى هذا الظن ؛ ولكنه كان رجلا محتملا ، يسرنى أن يكون فى أهلك مثله ، فوليتُه لما حمدتُ من مذهبه ، وملت إليه لأدبه واحتماله . ،

فلما عاد الرسول إلى الرشيد ، وذكر له كلام يحيى ، رده إليه يقول له : إن أنت لم تقر عليه قتلت الفضل ابنك .

فقال له يحيى : أنت مسلط علينا ، فافعل ما أردت ، على أنه إن كان من هذا الأمر شىء فالذنب فيه لى ، فبم يدخل الفضل فى ذلك ؟ ، فقال الرسول للفضل : قم ؛ فإنه لا بد لى من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك .

فلم يشك أنه قاتله ، فودع أباه ، وقال له : ألست راضياً عنى ؟ ، قال : بلى ، فرضى الله عنك .

ففرق بينهما ثلاثة أيام ، فلما لم يجد عنده من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا[١] .

---

(١) المحاسن والمساوى ص ٥٤٦ «ليبزج» تاريخ الطبرى ج ١٠ ص ٨٩ . العقد الفريد ج ١ ص ١٤٣ . الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٧٢ . زهر الآداب ج ٢ ص ٢٨٣ .

٥ – إصبع الفضل بن الربيع

أما الفضل بن الربيع ، فحديثنا عنه باعتباره وزيراً موضعه الجزء الثالث من هذا الكتاب ؛ ونشير هنا إلى ما كان له من أثر فى نكبة البرامكة ؛ لأنهما كانا يتنافسان على التقرب من الخليفة ، ويتدافعان على باب الخلافة ، منذ عهد المنصور ، حيث كان الربيع أبو الفضل من وزراء أبى جعفر ، وكان خالد أبو يحيى ، وجد أولاده – من وزراء أبى جعفر أيضاً – وكان الربيع يطمع أن يكون لولده فى بلاط الخلفاء أعلى مقام ، كما كان خالد يطمع أن يكون لولده فى بلاط الخلفاء أعلى مقام أيضاً ، وإذ قد وثب يحيى وأولاده إلى الوزارة وتخلف عنهم الفضل ، فإن ذلك يعز عليه ويحز فى نفسه ، ويؤرث فى صدره نار الإحن والأحقاد ، فلا يهدأ له بال ، ولا تقر له عين ، حتى يهيئ نعشاً يحملون فيه جميعاً ، وقد نسى الفضل فى هذا الموضع ما يجمعه هو والبرامكة من الأصل الفارسى ، ولعله رأى أن يعود إلى الفرس مجدهم وسلطانهم ودولتهم ولغتهم على يده دون غيره ، فحاول أن يقضى على منافسيه أولا ، ثم يستولى على الخليفة ويسير بعد ذلك فى السياسة التى يرسمها ليصل إلى ما يريد .

ورأى أنه لا يستطيع أن يتغلب على البرامكة إلا بتغيير الرشيد عليهم ، وزلزلة مكانتهم عنده ، ولكن الرشيد يحبهم ويقدمهم ، وينادى يحيى : بيا أبت ؛ ويعتبر جعفراً أخاه ، يجالسه ويسامره ، ويؤاكله ويشاربه ، ولا يهدأ له بال إلا إذا كان جالساً معه حتى قالوا : إنهما كانا يجتمعان فى قميص واحد ، وحتى تأول ذلك المستشرقون تأويلات فيها مغالاة ، وحتى خشى عليه أبوه سوء العاقبة إذا استمر مع الخليفة على هذا الاتصال .

لهذا كانت المسالك ضيقة ، والطريق طويلا أمام الفضل بن الربيع ، ومع ضيق المسالك ، وطول الطريق ، فإن الأشواك تحف به من كل جانب ، ولكن مغالاة البرامكة ، ومنافستهم للخليفة ، وبغض كثير من العرب لهم ، وبعدهم من زبيدة ؛ كل ذلك سهل لابن الربيع الأمر ، وساعده على ذلك رضا الرشيد عنه ، وتقريبه إليه وحسن تأتيه للأمور ؛ وساعده كذلك أن البرامكة كانوا يضيقون به كثيراً، ولا يستطيعون أن يخفوا هذا الضيق حتى فيما يأمر به الرشيد نفسه ؛ فقد ذكر المؤرخون أن الفضل بن الربيع نادم الرشيد ، وخص به فقال لجعفر : قلد الفضل بريد ناحية ، يأخذ رزقها ، ويستعين به على خدمتى ، فقال له جعفر بسلاسة خلقه : اختر ، فقال : الموصل ، وديار ربيعة ، فأمر أن تكتب كتبه عليها ، وراح بها إلى أبيه ، فلما عرضها عليه ، وعرفه حال الفضل وخصوصيته ؛ غضب يحيى ، وقال : هذه ناحية إلى أخيك ، وقد صرفناه عن أرمينية ، وتصرفه عن هذه ، وكان ولى خراج أرمينية ، وحربها ، وصرف عنها ، فقال : ما كنت لأفعل ، فقال : فالموصل ، فقال : لا والله ، فكره جعفر إغضاب أبيه ، ودافع الفضل ، وقرب عليه المواعيد .

* * *

وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه له من المال للحوادث سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله ، فعزم على الفصْد[1] ، فقال لجعفر : يا أخى ؛ أنا على الفصْد ، وأريد التشاغل بالنساء ، فكم تبعث إلى لما أهبه لهن ؟ قال : ما شاء أمير المؤمنين ، قال : عشرة آلاف درهم ، قال : وأين المال ؟ ، ولكن خمسة آلاف درهم ، قال : فهاتها ؛ فبعث بها إليه ، ثم قال لجلسائه ، وقد افتصد : أى شيء تهدون إلىّ ؟ ، فقال كل واحد منهم : قد أعددت كذا

(١) الفصد : شق العرق بالمبضع لإخراج الدم .

وكذا ، واحتال الفضل بن الربيع فى التخلص إلى منزله ، فرهن حقه من قطيعة الربيع وهو العشر على مائة ألف درهم عند عون الجوهرى ، فقال : إنى أريد أن أهديها إلى الخليفة ، فصيرها جدداً فى عشرين بدرة ديباج مختمة بفضة ، وكان عون يحفظ للربيع يدا ، فقال للفضل : أطابت نفسك عن جميع نعمتك فى هدية اليوم ؟ ، فأعلمه أن له عند الرشيد مواعيد ، فقال له عون : فإن عندى خادمين(١) مسلولين روميين ، أحدهما ناقد ، والآخر وزان ، جميلى الصورة، مراهقين ، وقد وهبتهما لك، وأحضر تابوت(٢) آبنوس ، محلى بالفضة، فصير البدور فيه مع الطيارات(٣) والموازين والصنجات ، وأقفله بقفل فضة ، وغشاه بديباج ، وكسا الغلامين الديباج ، وألبسهما المناطق والمناديل المصرية، ووجه بهما وبالتابوت مع من يحمله إلى دار الندماء ، فلما ثنى الرشيد الدم، قال : اعرضوا علىّ هداياكم ، فقدمت هدية يحيى وجعفر والفضل ابنى يحيى – من فاكهة ومشام ، وما أشبه ذلك ، وعرض عيسى بن جعفر وغيره هداياهم فقال للفضل بن الربيع : أين هديتك يا عباسى ؟ ، وبذلك كان يدعوه ، قال : أحضرها يا أمير المؤمنين ، فقال : تجده قد ابتاع هدية بخمسين درهماً ، فقال للفراشين : احملوها ، فحملوا شيئاً ، راع الرشيد لما رآه ، وكشفوا عن التابوت ، فاستحسنه .

ثم حضر الغلامان ، ففتح أحدهما القفل ، فأخرج الموازين والأوزان ، وأخرج الآخر البدور ، ففتح بدرة بدرة ، واستوفى وزنها وختمها ، ولم يدر الرشيد ما يستحسن من جلالة الهدية ، واستطير فرحاً ، وأمر بحمل المال ، وإدخال الغلامين إلى دار النساء ، ليفرقا المال على ما يأمرهما به وقال للفضل:

---

(١) مسلولين : أى خصيين ، سلت مذاكيرهما ، بدليل أنه أدخلهما إلى دار النساء .

(٢) تابوت : صندوق .

(٣) الطيارات : موازين الدراهم .

ويلك يا عباسى ؛ من أين لك هذا ؟ ، قال : سيعرفه أمير المؤمنين ، قال : لتقولن ، قال : بعت حقى من قطيعة الربيع لأسرك ، لما رأيتك قد فصدت ، وأنت مغموم ، قال : والله لأسرنّك ، وقام فدخل ، وانصرف جعفر ، يجرر رجليه إلى أبيه فحدثه الحديث ، فكتب الفضل على بريد الموصل ، وديار ربيعة ، وديار مضر ، وختمها ، وبعث بها إليه ، فردها ، وقال : لاحاجة بى إليها ؛ ولم يزل يحمل الرشيد عليهم ، حتى أوقع بهم .

* * *

فهذا هو الرشيد ، يحب الفضل بن الربيع ، ويأذن أن يقطع أرضاً ، تغل عليه ، فيجعل له جعفر الخيار فيختار ، فيرده يحيى ؛ لأن ما اختاره جعله لواحد من أبنائه ، فيختار غيره ، فيرده يحيى أيضاً ، ولا يذكر السبب ، وهذا يدل على أن يحيى يكرهه ، ولا يحب أن ييسر له ما أمر به أمير المؤمنين ، فلا بد أن يبادله ابن الربيع كرهاً بكره ، وأن يبدأ يدس له عند الخليفة ، فيتقرب إليه أولا ، حتى إذا ملك عليه قلبه ، استطاع أن يجعله يكره من يحب ، ويحب من يكره ، فبدأ بالإهداء إليه فى الوقت الذى يضيق عليه فيه البرامكة ، ويمنعون عنه ماله ، ومال دولته ، فى وقت هو فى شدة الحاجة إلى المال ؛ فيخرج من كل ماله ، ويشترى به هدية ، يقدمها إلى الرشيد ، فتسره أى سرور ، ويعلم الرشيد أنه باع ما ورثه عن أبيه ليقدم به هدية تسر أمير المؤمنين ، وتخرجه من كربة كان فيها ، فيقسم أمير المؤمنين ليسرنّه ، فيخرج جعفر ، وقد أدرك أن فى نفس الفضل أشياء ، وأنه قرب من نفس الخليفة بمقدار ما بعد هو وأبوه وأخوه ، فحينما يعلم أبوه ذلك ، يدرك خطأه ، ويقطع ابن الربيع ما شاء ، وأضعاف ما شاء : يقطعه الموصل ، وديار ربيعة ، وديار مضر وقد كان قبل ذلك طالباً الموصل وديار ربيعة ، فرفض يحيى ، ثم تقلصت رغبته ، فصارت الموصل فقط فرفض يحيى ثم يضطره خطؤه هذا

بعد أن رأى ابن الربيع بدأ يغير وجهه ، وبدأ يكون له عند الخليفة مقام إلى أن يزيده على طلبه الأول ديار مضر ، وكان طبيعياً أنه يرفض ؛ لأنه وإن كان جرد نفسه من كل مال ورثه فى هديته إلى الرشيد ؛ فإن هذا معروف لن يضيع عند الخليفة ولا سيما أن الخليفة أقسم ليسرنّه ، فلا بد أن يسره بما هو فوق بريد الموصل ، وديار ربيعة ، وديار مضر ؛ ولئن سره بما هو دون ذلك ، لكان خيراً منه ؛ لأنه من الخليفة نفسه لا من البرامكة ، أنداده ونظرائه .

ولعل هذا كان بعد أن قصد يحيي مرة ، فسأله حاجة ، فتقاعد عليه فيها ، فقام وهو يقول :

عسى وعسى يَثْنى الزمانُ عِنانه بتصريف حالٍ والزمانُ عَثورُ
فَتُقْضَى لُبانات وتُشْفَى حسائك ويَحْدث من بعد الأمورِ أمور (١)

فقال يحيي : نعم يحدث الله من بعد الأمور أموراً ، أقسمت عليك يا أبا العباس : لترجعن ، وهذه الحاجة على فى مالى إلى أن أكلم الخليفة .

وكان على يحيي أن يفهم من بيتى ابن الربيع أن فى نفسه شيئاً أو أشياء ، فيتألفه ، حتى لا يكون شوكة فى ظهره وظهر أولاده ؛ تقض مضجعهم وتؤرقهم ، ولكنه فاته ذلك ، فجالس ابن الربيع الرشيد وقرب من قلبه ، وزاحم جعفراً فى مجلسه ، وناقشه فى غير احتشام ولا وقار ، كما يناقش الند نده ، وينازعه حتى يحرجه ويخرجه عن صوابه ، ويجعله يثور ويغضب ، ويشتم بأقبح الشتائم ، والخليفة يسمع ويرى ، ولكن الفضل يضيق به ، وينكر عليه ، ويشهد أمير المؤمنين ، فتبدو لباقة جعفر حيث يتجه للرشيد ، ويقول له : تراه عند

---

(١) الحسائك : العداوات .

من يقيمك هذا الجاهل شاهداً يا أمير المؤمنين ، وأنت حاكم الحكام ؟ ولكن هيهات أن يغير ذلك الرشيد على ابن الربيع الذى أصبح موضع الثقة ، ومحل الاطمئنان ، ولا سيما فيما يختص بالبرامكة ومكانتهم عند الرشيد. فقد حكوا أن الرشيد قام عن مجلسه ، يريد الدخول إلى بعض حجر قصره ، وأن جعفراً أسرع ، فرفع له الستر ، وأن الرشيد جعل يتأمل عنقه تأملا شديداً ، فرآه جعفر وهو يتأمل ، فقال : ما متأمل أمير المؤمنين ؟ ، قال : حسن عنقك ، وحسن موقع الْجُرُبَّان منه ، فقال له : لا والله ، ما تأملت إلا موقع سيفك منه ، فقال له : أعيذك بالله من هذا القول ، واعتنقه وقبله ، ثم قال للفضل بن الربيع : قاتل الله جعفراً ، وذكر له الخبر ، وقال : ما تأملت عنقه إلا لموضع السيف منه .

فهو يطلعه على سر أضمره فى نفسه سنوات ، لم يبح به لأحد ، أو لعل الأمر كان خطة مرسومة بين ابن الربيع والرشيد ، وإلا فإنه ليس من الحنكة السياسية أن يبوح الخليفة بما فى نفسه بهذه السهولة ولا سيما أنه عزل محمد بن خالد بن برمك عن حجابته ، وولى مكانه الفضل بن الربيع .

٦ — موسى بن يحيى فى خراسان

ولى الرشيد موسى بن يحيى خراسان ، فأحسن السيرة فيها ، ووضع عن أهلها الخراج ، وعطف على الناس ، فأحبوه ، وفرحوا به ، والتفوا حوله ، وتناقل الناس حديثه وحديثهم ، وسار هذا الحديث بين حسّاد البرامكة ، فأحبوا أن أن يستغلوا هذا عند الرشيد ، فذهب إليه على بن عيسى بن[1] ماهان ، وأسرّ إلى الرشيد أمراً خطيراً ، أمراً يتعلق بسياسة الدولة فى بعض أقطارها ، وليس هو تفتقاً من العلويين ، ولا نزاعاً بين القحطانيين والمضريين ، ولا تمردا من الخوارج ، ولا استهانة بالدين من الزنادقة ، ولا خروجاً على الخليفة من بنى عمه ، وإنما هو موسى بن يحيى البرمكى ، تحدثه نفسه باقتطاع خراسان من جسم الدولة ، والاستقلال بها ؛ وشجعه على ذلك ما رأى من طاعة أهلها له ، ومحبتهم إياه ، فكاتبهم ، وعمل على الانسلال إليهم ، والوثوب معهم على الرشيد .

وكل حديث بشأن الملك مسموع ، فوقر فى نفس الرشيد شيء كبير من موسى ، وأوحش منه .

ويذكر المؤرخون أن موسى قل ماله ، وركبه دين ، فاختفى من غرمائه ، فتوهم الرشيد أنه خرج إلى خراسان ليتصل بأهلها .

وحدث أن خرج الرشيد إلى مكة حاجاً ، فلما صار إلى الحيرة ، وافاه

---

(١) على بن عيسى بن ماهان : من كبار القواد فى عصر الرشيد والأمين ، وكان أحد الذين حرضوا الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد ، فسيره الأمين لقتال المأمون فى جيش كبير ، فقتل طاهر بن الحسين ، قائد جيش المأمون سنة ١٩٥ هـ و سنة ٨١٠ م .

موسى من بغداد ، فما كاد يلقاه حتى أمر به فحبس ، وكان حبس موسى أول ثلمة ثلم بها البرامكة .

إلا أن أم الفضل بن جعفر ذهبت إليه ، وتشفعت فيه ، فشفع لها ، وأطلقه بعد أن ضمنه أبوه له .

وهذه الرواية نرويها على علاتها ؛ فإن الأخبار الكثيرة التى أوردنا قليلا منها عن ثراء البرامكة وغناهم وتفضلهم على الناس وجودهم ، وإعطاء السائل والمحروم ، وإغناء الفقير ، وإرضاء الغنى ، ووصلهم نعيم الناس بنعيمهم ؛ كل ذلك يجعلنا لا نصدق ، أو يجعلنا نشك فى أن موسى ركبه دين ، و كثر دائنوه ، وركبوه بالطلب حتى اضطر إلى الاختفاء منهم ، فأين أبوه يحيى ؟ ! .

وإن لم يكن ، فأين إخوته الفضل وجعفر ومحمد وغيرهم ؟

وأين ما يملكون من دور وقصور وضياع ؟ .

وأين ما يحمل إليهم من غلات وخراج ؟ .

بل أين خزائن هذا الملك الطويل العريض التى يحمل إليها من أطراف الأرض ماصاء ، وصمت ، ومفاتيحها كلها فى يد يحيى ؟ .

فإذا كان موسى قد اختفى حقاً ، فلا بد أن يكون هذا الأمر قد اختفى سببه ، وقد يكون الخروج إلى خراسان ولكنها غيبة أثارت الشك ، وحركت الظنون ، فوقر فى نفس الخليفة ما وقر ، فلم يكد يراه حتى قبض عليه وحبسه .

وليس معنى عفو الخليفة عنه ورضاه ؛ أنه نسى له هذا ، أو أن ما وقر فى نفسه منه قد زال ، وإنما هى السياسة قضت عليه بإطلاقه ، وقضت عليه بإظهار الرضا عنه ، فكان عفو ، وكان رضا ، ولكن إلى حين .

وما الذى دفع على بن عيسى بن ماهان على أن يشى بموسى بن يحيى ؟ .

لعله أراد أن ينتقم لنفسه من يحيى فى شخص ولده موسى ، ولم يختر الفضل ولا جعفراً ؛ لأنهما كانا لا يزالان على مكانهما عند الرشيد .

أما ما كان فى نفس على من يحيى ، فإن الرشيد أراد أن يولى علياً أمر خراسان ، فأشار عليه يحيى ألا يفعل ، فخالفه الرشيد ، وبعث علياً والياً عليها .

فلما ذهب إليها على ، ظلم الناس ، وقسا عليهم ، وجمع مالا كثيراً ، ولكى يستمر رضا الرشيد عنه أرسل إليه هدايا كثيرة من الخيل والرقيق والمسك والأموال وغيرها ؛ ففرح هرون بالهدايا فرحاً شديداً ، وعظمت فى عينيه ، وجل قدرها عنده ، وزاد رضاه عن على ، وشك فى نصيحة يحيى وإشارته عليه : ألا يوليه خراسان ، وأراد أن يعرفه أنه كان غير مخلص فى إشارته ، فقال له مازحاً :

هذا الذى أشرت علينا ، ألا نوليه هذا الثغر ، فخالفناك فيه ، فكان فى خلافك البركة ! ! .

فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ؛ جعلنى الله فداك ، أنا وإن كنت أحب أن أصيب فى رأيى ، وأوفق فى مشورتى ، فأنا أحب أن يكون رأى أمير المؤمنين أعلى ، وفراسته أثقب ، وعلمه أكثر من علمى ، ومعرفته فوق معرفتى ، وما أحسن هذا وأكثره ، إن لم يكن وراءه ما يكره أمير المؤمنين ، وأسأل الله أن يقيه ويعفيه من سوء عاقبته ، ونتائج مكروهه .

قال الرشيد : وما ذاك ، فأعلمه ؟ .

قال يحيى : ذاك أنى أحسب أن هذه الهدايا ، ما اجتمعت له ، حتى ظلم فيها الأشراف ، وأخذ أكثرها ظلماً وتعدياً ، ولو أمرنى أمير المؤمنين لأتيته بضعفها الساعة من بعض تجار الكرخ(١) .

---

(١) الكرخ : بالفتح ثم السكون : موضع اجتماع البقر والغنم ؛ يقولون : كرخت المال وغيره من البقر والغنم إلى موضع كذا أى جمعته فيه ، والكرخ : مواضع كلها بالعراق ، ومنها كرخ بغداد ، وهو المكان الذى أمر المنصور أن تجتمع فيه الأسواق كلها بين الصراة ونهر عيسى ، وأمر أن تجعل صفوفاً ، وأن يرتب كل صف فى موضعه ، على حسب النظام الحالى المعمول به

قال الرشيد : وكيف ذاك ؟ .

قال يحيى : قد ساومنا تاجراً على ما جاءنا به من الجوهر ، وأعطيناه به سبعة آلاف ألف ، فأبى أن يبيعه ، فأبعث إليه الساعة بحاجبى ، يأمره أن يرده إلينا لنعيد فيه نظرنا ، فإذا جاء به جحدناه ، وربحنا سبعة آلاف ألف ، ثم كنا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك ؛ وعلى أن هذا أسلم عاقبة ، وأستر أمراً من فعل على بن عيسى فى هذه الهدايا بأصحابها ، فأجمع لأمير المؤمنين فى ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا ، بأهون سعى ، وأيسر أمر ، وأجمل جباية ، مما جمع على فى ثلاث سنين .

ولعل ليحيى البرمكى دخلا فيما ورد على الرشيد من كبراء خراسان ووجوهها يشكون علياً ، ويذكرون أنه عاث ببلادهم ، ووتر أشرافها ، وأخذ أموال أهلها ، واستخف برجالها ، وذكروا له ولغيره ما كان عليه على من سوء السيرة ، وخبث الطعمة[1] ، ورداءة المذهب ، وسألوا أمير المؤمنين أن يبدلهم به من أحب من كفاته وأنصاره وأبناء دولته وقواده .

لعل ليحيى دخلا فى هذا ، وفى أكثر منه ، فقد أبلغ الرشيد أن علياً قد أجمع على خلافه ، وما زالت به شيعته أو شيعة يحيى ، حتى صوروا له هذه الشائعة حقيقة صدقها ، فجرد جيشاً ، وخرج به إلى الرى ، لتأديب على .

ولكنه لم يلبث أن لقيه على غير ما صوره الناس له ، فهو مطيع لسلطانه ، مؤمن بخلافته ، ومحترم لولاية العهد ، وقدم له الأموال والهدايا ، والطريف من المتاع والمسك ، والجوهر وآنية الذهب والفضة والسلاح ، والدواب ؛ شيئاً كثيراً ، أزال من نفسه ما كان قد علق بها .

الآن فى سوق الخضر والفاكهة فى مدينة القاهرة ؛ وسبب جمع الأسواق كلها فى هذا المكان ، يختلف فيه المؤرخون ، وقد أكثر الشعراء من ذكر كرخ بغداد فى أشعارهم .

(١) الطعمة : الرزق ، أو وجه الارتزاق والمكسب .

وهذه الظروف التى أحاطت بعلى ، أو جعلها يحيى تحيط بعلى؛ هى نفس الظروف التى أحاطت بموسى بن يحيى ، أو جعلها على بن عيسى تحيط به : وشاية هى نية الخروج على السلطان ، فيغضب السلطان ثم استرضاء السلطان ، فيرضى وكل منهما هيئت له الوشاية على نحو غير حكيم ؛ إلا أن موسى بقيت آثار الوشاية به قائمة فى نفس الرشيد ، فأعانت على النكاية به وبأبيه وإخوته .

٧ — السرف والبذخ

أجداد البرامكة من بيت الملك الفارسى ، ومن رجال الدين ؛ فهم منحدرون من رجال اعتادوا العز والجاه ، وألفوا الثروة والمال ، فكان همهم حينما آل الأمر إليهم : أن يحيوا ما دثر من سلطان آبائهم وعزهم وجاههم وثرائهم ، وعملوا على ذلك ما وسعهم العمل ، فملكوا الضياع الواسعة ، وأجروا فيها الأنهار ، وأغلوها زروعاً نضرة ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبا ، وتقلبوا فى أحضان النعيم ، وبنوا شاهق القصور ، وواسع الدور ، يتصابحون ويتماسون ، وأصبوحات كل يوم غير أمسياته ، وأصبغة الموائد تكثر وتتعدد ، وألوان الثياب وأنواعها تزيد وتتنوع ، حتى نسب إليهم أجودها وأغلاها ، فقيل : قلنسوة برمكية ، وقباء برمكى ، ولم يقل : قلنسوة عباسية أو رشيدية ، ولاقباء عباسى أو رشيدى ؛ وقالوا : جربانات برمكية ، وقالوا : إن جعفراً أول من عرض الجربانات[1] ، وحشاها قطناً ؛ قال أبو نواس فى جعفر :

ذاك الوزير الذى طالت علاوته   كأنه ناظر فى السيف بالطول

ولعل أول ما كان لهم ، أن خالداً أبا يحيي ، أقطعه المهدى قطعة أرض فى بغداد ، فبنى فيها بيتاً سكنه وربى فيه أولاده ، وعرف الحى بسويقة خالد ؛ فلما جاء يحيي ، وبدأت الدنيا تقبل عليه — بنى قصراً وسماه قصر الطين ؛ ثم

---

(١) الجربان : بضم الجيم والراء أو بكسرهما ، وتشديد الباء ، طوق القميص أو ما نسميه « ياقة » وكان جعفر طويل العنق ولذلك اضطر إلى إطالة جربانه وإقامته بما يحشوه به من القطن لكيلا يظهر طول عنقه ، بشكل قبيح ومع ذلك فإنه كان يعير به .

بنى كل من الفضل وجعفر قصراً عرف به ، وأضيف إليه ؛ فلما أحب الرشيد جعفراً ، وغلب جعفر الرشيد غلبة شديدة ، حتى صار لا يقدم عليه أحداً ، وأنس به كل الأنس ، وكان لا يناديه إلا : يا أخى ، وكان يدخل معه فى ثوبه — أنزله بالخلد ، قريباً من قصره .

ويكفى أن نذكر فى فخامة قصور البرامكة ، ما حدث به عمرو [1] بن مسعدة ، من أنه سار يوماً مع جعفر ، فلما صارا بإزاء قصر جعفر ، قال لعمرو : والله إنى لأعلم أنه ليس من بناء مثلى ، ولكن قلت : إن بقى لى فهو قصر جعفر ، وإن شره السلطان فى وقت من الأوقات ، فهو قصر جعفر ، وإن قضت عليه الأيام ، فهو قصر جعفر ، ويبقى اسمه وذكره ، ولعله أن يمر به بعض من لنا عنده إحسان ، فيترحم علينا ؛ قال عمرو : فوالله لكأن جعفراً كان ينظر إلى ما آلت إليه الحال فيه .

قصدنا من ذكر هذه الرواية أن البرامكة أنفسهم أسرفوا فى بناء قصورهم فى الشماسية [2] أو الخلد [3] ؛ أو غيرهما : إسرافاً شديداً ، وأحسوا هم ذلك الإسراف ، حتى كانوا يستكثرون هذه القصور على أنفسهم ، ولم يخفوا

---

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول وزير المأمون ، وأحد الكتاب البلغاء ، كان يوقع بين يدى جعفر بن يحيى البرمكى فى أيام الرشيد ، واتصل بالمأمون فرفع مكانته وأغناه ، وكان من كتاب الإيجاز ، توفى بمدينة أذنه بآسيا الصغرى سنة ٢١٧ ھ ، سنة ٨٣٢ م .

(٢) الشماسية : فى أعلى مدينة بغداد منسوبة إلى بعض شماسى النصارى ، وفيها باب الشماسية ، وبنى البرامكة بعض قصورهم ، ثم بنى فيها مقر الدولة بن بريه قصره سنة ٣٠٥ ھ ثم خربت وصارت صحراء موحشة يسكن فيها اللصوص وقطاع الطرق يتخطفون ثياب الناس وأموالهم .

(٣) الخلد : بضم أوله وتسكين ثانيه ، محلة كبيرة فى بغداد ، سميت باسم قصر الخلد الذى كان المنصور بناه على شاطىء دجلة سنة ١٥٩ ھ ثم بنيت حواليه منازل كثيرة ، فصارت محلة عرفت به . وقالوا : إن موضع الخلد قديماً كان ديراً فيه راهب ، ومكانه أشرف مكان فى بغداد لطيب هوائه . وزعموا أن المنصور سمى قصره الخلد تشبيهاً له بالخلد اسم من أسماء الجنة ، وأصله من الخلود وهو البقاء فى دار لا يخرج منها .

شعورهم . هذا عن بعض أصدقائهم ، فحدثوهم به .

وإن السبب الذى دفعهم إلى بناء قصورهم ، يدل على أنهم تأنقوا فيها ، وبالغوا فى أثاثها ورياشها ، وملئوها بكل جميل ومعجب من ألطاف العرب والعجم ، حتى كانت قصورهم موضع أحاديث الخاصة والعامة ، ومجالا واسعاً سرح فيه خيال الشعراء ما طاب له السروح .

ذكروا أن متظلما من أهل أصبهان تظلم إلى يحيى بن خالد من عامله بها ، وقال له : إنه ظلمنى ، وأساء معاملتى ، وأخذ ما لا يجب له منى ، وهدم شرفى فقال يحيى : قد عرفت جميع ما تظلمت خلا قولك : هدم شرفى ، ففسر لى ذلك ، فقال له المتظلم : أنا من بنى رجل كان بنى قصراً فخما ، هدمه الوالى ، وكان القصر ينسب إلى أبى ، فكان الرائى إذا رأى القصر وجلاله ، وعلم أنى من ولد البانى له ـ عرف من ذلك قديم نعمتى ، وجلالة أولى ؛ فاستحسن ذلك يحيى منه ، وقال للفضل وجعفر : لا شىء أبقى ذكراً من البناء فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكرا .

فاتخذ جعفر قصره على غير مثال سبق ، واتخذ الفضل قصره على مثل هذا ، وهنأ أبو نواس الفضل ببناء هذا القصر بقصيدته(١) المشهورة :

أربع البلى إن الخشوع لبادى   عليك وإنى لم أخنك ودادى

فتطير منها حيث بدأها بدءاً غير جميل ، واعترض عليه جعفر والحاضرون ، ومع ذلك فإنه لم يلبث أن ختمها ببيت يثير فى النفس موجة شديدة جداً من التشاؤم ، ولا سيما أنه سبقه ما يساعد عليها ، وهذا البيت هو :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتمو   بنى برمك من رائحين وغاد

---

(١) القصيدة بالديوان ص ٧٣ .

ولعل هذا الابتداء ، وهذا الانتهاء فى تلك القصيدة ، مقصود من أبى نواس .

ولعله كان قد عرف سراً من أسرار السياسة التى كانت تجرى فى الخفاء ؛ إذ ذاك بشأن البرامكة ؛ فهو يتعجل الحوادث ، ويشير إلى شر قريب الوقوع ، وقد يكون من أسبابه بناء هذا القصر .

ولعله يريد أن ينبههم إلى خطر عظيم ، سيحدق بهم ؛ ليحتاطوا لأنفسهم .

أو لعله شامت شماتة حاسد حانق متغيظ .

أو لعلها الشاعرية تركها تجرى على أذلالها من غير ترو ، فجرى هذان البيتان على لسانه من غير أن يقصد إلى شىء بذاته .

كل هذا جائز ، وكله محتمل .

ولعل الناس كانوا يتوقعون ما توقعه أبو نواس لهم قبل نكبتهم بزمن غير قصير ، ولكن أحداً لم يجرؤ أن يفاتحهم فى هذا الأمر ، وإلا فما بال محمد ابن الحصين يحدث فيقول : كنا مع جعفر بن يحيى بالرقة ، فنحن بين يديه ، وهو يأمر وينهى ، إذ خلا بأنس بن أبى شيخ ناحية ، ونحن نراه ، فأدخل صاحب الشرطة رجلا من أهل الذمة ، فوقفه من بعيد ، ودنا من جعفر ، فقال له : قد أحضرت الرجل الذى قد أمرت بإحضاره ، قال : فقطع ما كان فيه مع أنس ، والتفت ينظر إليه ، قال : وكان الرشيد قد أمر أهل الذمة بتغيير اللباس والمركوب ، ثم قال له وهو رافع صوته : ما اسمك ؟ ، قال : فلان ابن فلان ، قال : أبو من ؟ قال : أبو فلان ، قال : أنت الحرنانى[1] ؟ ، قال : نعم ، قال : الرقعة التى رفعتها رقعتك ؟ ، قال : نعم ، قال : وما فيها عنك ، وأنت تقوله ؟ ، قال : نعم ، قال : فأطرق جعفر ساعة ، ثم

---

(١) الحرنانى : نسبة إلى حران على غير قياس ، ومثل ذلك النسب إلى مانى : منانى ، والقياس : مانوى .

التفت إلى صاحب الشرطة فقال : خذه إليك ، فإن أمير المؤمنين قد أمرك بقتله وبصلبه ، فارتعنا لذلك القول ، ولم نعرف الرجل ولا الذى فى رقعته ، قال : فأخذ صاحب الشرطة بيده .

فقال له أنس بن أبي شيخ : اصلبه على أطول عود بالرقة ، قال : فالتفت إليه الحرانى ، فقال : إن شاء الله على أطول عود ، وإن شاء الله على أقصره ، ليس والله بعدى غيرك ، قال : فعجبنا من صرامته ، ومن ذلك القول ، وذهب به فقتل وصلب ؛ قال : فانتقلنا من موضع إلى موضع ، ومن بلد إلى بلد ، فكان بين القول وبين الحادث على البرامكة ثلاث سنين أو نحوها ؛ فقتل جعفر ابن يحيي بالأنبار(١) ، وحملت جثته إلى بغداد ، فصلبت على الجسرين قطعتين .

فلما دخل الرشيد الرقة(٢) ، قال له : ما فعل الحرانى الذى كان قال لجعفر ما قال ، وما فعلت خشبته ؟ ، فقيل له : ، الخشبة على حالها ، وجسم الحرانى على حاله ، إلا أنه قد بلى ، وبقى منه العظام .

فقال : أنزلوه من الخشبة ، واصلبوا جثة أنس عليها ، فرأيت أنساً على تلك الخشبة ، ولم نعرف قصة الحرانى ، ولا ما كان من أمره ، وعجبنا من انتهاء الخبر فى ذلك إلى الرشيد ، وما قال الحرانى لجعفر ، وصحة قوله .

هذه القصة تدل على أن الحرانى كان متنبئاً لجعفر وكاتبه أنس بما سيجرى عليهما من قتل وصلب ، أو أنه كان يعرف أن الرشيد من نيته أن يفعل هذا ، وتدل على أن العيون كانت تحيط بيحيي وأولاده من كل جانب ، تحصى

---

(١) الأنبار : مدينة قرب بلخ ، لها مياه وكروم وبساتين كثيرة ، وهى أيضاً مدينة على الفرات غربى بغداد ، فتحها خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ ، جدد بناءها أبو العباس السفاح ، وبنى بها قصوراً وأقام بها إلى أن مات .

(٢) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات ، وتسمى الرقة البيضاء ، فتحها عياض بن غنم مصالحة سنة ١٧ هـ من قبل سعد بن أبى وقاص ، ووصفها الشعراء فى شعر كثير .

عليهم القومة والقعدة ، واللفتة والهمسة ، والغمزة واللمزة ، وتبلغها إلى الرشيد كما حصلت ، أو تزيد عليها ما تراه أفعل فى نفسه ، وأشد إثارة لها ؛ ولذلك علم أمر الحرنانى وعرف قصته ، وعرف ما فعل به ، فى حين أن الناس الذين كانوا مع جعفر وفى مجلسه لم يعرفوا من أمر هذا الحرنانى شيئاً .

* * *

وبالغ الناس فى الحديث عن هذا القصر أو هذه القصور التى شيدها البرامكة ، واتخذوها مقاماً لهم ، وجرى ذكر قصور الخليفة على ألسنة الناس أيضاً ، وأنكروا منهم أن يكون لهم ما ليس للخليفة ، ونقموا منهم كذلك ما أفاضوا به على الشعراء المادحين لهم ، والمشيدين بذكر قصورهم ونعيمهم ، حتى إذا ما جرت النكبة عليهم بما جرت ، ذكروا أشياء ، واعتبروها مقدمات لما حدث ، تطيّر منها البرمكيون تطيراً جعلهم يفكرون بعض التفكير فى مصيرهم ، فهذا جعفر مثلا يجمع المنجمين ليختاروا له الوقت الذى ينتقل فيه إلى قصره ، فيختار له هؤلاء وقتاً من الليل ، فإذا حضر الوقت خرج على حمار من الموضع الذى كان نزله إلى قصره ، والطرق خالية ، والناس ساكنون ، حتى إذا وصل إلى مكان يقال له : « سوق [1] يحيى » ، رأى رجلا نائماً ، وهو يقول :

تَدَبَّرَ بالنجوم وليس يَدْرِى   ورَبُّ النجم يَفْعَل ما يريد

فاستوحشه جعفر ووقف ، ودعا بالرجل ، وقال له : أعد ما قلت : ، فأعاده فقال له: ما أردت بهذا ؟، قال: والله ما أردت به معنى من المعانى، ولكنه شىء عرض لى ، وجرى على لسانى فى هذا الوقت ، فأمر له بدنانير ، ومضى

---

(١) سوق يحيى : كانت بالجانب الشرقى ببغداد بين الرصافة وجامع السلطان ، وهى منسوبة إلى يحيى بن خالد ، كانت إقطاعاً له من الرشيد ، ثم صارت بعد البرامكة لأم جعفر ، ثم أقطعها المأمون طاهر بن الحسين ، ثم خربت بعد ورود السلجوقية إلى بغداد فلم يبق منها أثر .

وقد تنغص عليه سروره .

وقد كثر المال فى يدى بنى برمك ، وكثرت ضياعهم ، وتعددت إقطاعاتهم ، حتى تحدث الناس بشأنها كما تحدثوا بشأن قصورهم ؛ فلما أحس يحيي أن الرشيد بدأ يتغير عليه وعلى أولاده ، رأى أن يعمل الحيلة على التخلص من النكبة ، ورأى أن يستشير بعض أصدقائه المختصين به ، لعله يرى فيما يشيرون به عليه رأياً ينفع ، فذهب إلى صديق له هاشمى ، وشاوره فى أمره ، فقال له الهاشمى : إن أمير المؤمنين قد أحب جمع المال ، وقد كثر ولده ، فأحب أن يعقد لهم الضياع ، وقد كثرت ضياع أصحابك التى أنعمت بها عليهم ، فلو نظرت إلى ما فى أيديهم من ضياع وأموال ، فجعلتها لولد أمير المؤمنين ، وتقربت بها إليه — رجوت لك ولهم السلامة من مكروهه .

ورأى الهاشمى هذا يدل على ما كان يجرى من الاتهامات التى توجه للبرامكة ، سواء عرفها البرامكة أو لم يعرفوها ؛ ولعل هذا الحل كان لا يجدى عند الخليفة ؛ لأنه وقر فى نفسه ما وقر ، ولا يمكن نزعه منها ، فهو يريد أن يستولى على هذه الضياع غلاباً واقتداراً ، ولا يستولى عليها تفضلا وهبة ، فهل كان يقدر يحيي هذا ، حين رفض أن يعمل بمشورة الهاشمى ، وقال : جعلنى الله فداك ، لأن تزول عنى النعمة أحب إلى من أن أزيلها عن قوم كنت سبباً لهم ؟

والخلافة معذورة فى ذلك بعض العذر ، فإنهم نسوا أنفسهم ، حتى ضربوا الدنانير باسمهم ، وأكثروا منها ، ويقال إنه وجد لجعفر بن يحيي بركة فى إحدى دوره فيها أربعة آلاف دينار ، وزن كل دينار مائة دينار ودينار ، وعلى كل دينار من أحد جانبيه :

وأصفرَ من ضَرْبِ دارِ الملوك ... يَلوحُ على وجهه جعفر

ومن الجانب الآخر :

يزيدُ على مائةٍ واحدا إذا نالهُ مُعْسِر يُوسِر

وقد بلغ بهم النعيم أن زوجة يحيى كانت تجلس فى مجلسها وعلى رأسها مائة وصيفة أحياناً، لبوس كل واحدة منهن وحليها ، يخالف لبوس الأخرى وحليها .

وما لأصحاب الحوائج يكثرون القعود على دكان[1] على باب يحيى بن خالد؟ لأنه كان يسره أن يراهم، ويلقاهم ببشر وكلاءة ، ويقف معهم يتحدث إليهم ، ويقضى حوائجهم ، فإذا خرج يوماً ، ولم يجد أحداً منهم ، ينشد :

وليس أخو الحاجات مَن بات نائما ولكنْ أخوها مَن يَبيت على وَجَل

ولعل يحيى كان يبغى من وراء هذا معنى سياسياً ، ولذلك يحاول أن يطبع أبناءه على أن يكون لهم فى أعناق الرجال مِنن يذكرونها لهم فى أوقات يحتاجون فيها إلى ذكرها أو التذكير بها ، . ولذلك تراه يسأل مؤدب أحد أبنائه ، ويسأل أفراد حاشيته من الكتاب والأصحاب عن حاله ، فيقولون : قد بلغ من الأدب كذا ، ونظر فى كذا ، وقد اتخذنا له من الضياع كذا ، وبلغت غلته كذا ؛ فيتغير يحيى ، ويضيق بهم وبإجابتهم ، ويقول : ما عن هذا سألت ، إنما سألت : هل اتخذتم له فى أعناق الرجال مننا، وحببتموه إلى الناس ؟ ، فيقولون : لا ، فيرد عليهم: بئس العشراء أنتم ، وهو إلى هذا أحوج مما فعلتم .

* * *

هذه الأمثلة التى ذكرناها هنا ، والقصص التى أوردناها وسنوردها عن حوادث جودهم وكرمهم ، وغير ذلك مما ورد منثراً فى ثنايا البحوث الأخرى من الكتاب ، وما لم نذكره مما انتثر فى بطون الكتب الأدبية والتاريخية — تدل ،

---

(١) الدكان : الدكة يجلس عليها .

وإن كان بعضها فيه مبالغة غير مقبولة ولا معقولة — على أن هؤلاء بلغوا من الثراء حداً نازعوا به الخلفاء فنزعوهم ، وسابقوا به غيرهم من أمراء زمانهم فسبقوهم ، ثم استخدموا جزءاً كبيرا من هذا المال فى تقريب الناس منهم ، وتأليف قلوبهم إليهم، لينفضوا من حول غيرهم من الأمراء الذين ينافسونهم فى السلطان ، وينازعونهم الإمارة ، بل زادوا على الخليفة نفسه ، حتى أصبح يغار فى نفسه منهم ، ويحقد عليهم، ويجد ، ولكن لا يبوح ، وتستعر نار البغض فى صدره ولكنه يدعها تعتلج فى هذا الصدر.

ولقد عرف ذلك أصدقاؤهم ، ونبهوهم له : فقد جرى حوار بين جعفر وإبراهيم بن المهدى بشأن الدار التى بناها جعفر ، وأنفق على بنائها نحوا من عشرين ألف ألف من الدراهم ، فقال له إبراهيم ، وقد سأله عما إذا كان فى فى هذه الدار عيب :

الذى يعيبها عندى أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، وهو شىء لا آمنه عليك غداً بين يدى أمير المؤمنين .

قال جعفر : هو يعلم أنه قد وصلنى بأكثر من ذلك ، وضعف ذلك ، سوى ما عرضنى له .

قال إبراهيم : إن العدو إنما يأتيه فى هذا من جهة أن يقول : يا أمير المؤمنين ، إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم ، فأين نفقاته ؟ ! وأين صلاته ؟ !وأين النوائب التى تنوبه ؟! وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك ؟! وهذه جملة سريعة إلى القلب، والموقف على الحاصل منها صعب .

قال جعفر : إن سمع منى قلت : إن لأمير المؤمنين نعماً على قوم قد كفروها بالستر لها ، أو بإظهار القليل من كثيرها ، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندى ، فوضعتها فى رأس جبل ، ثم قلتُ للناس : تعالوا فانظروا (١).

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ٧٢ .

وهذا كلام فى النظر جميل ، وفى العقل أجمل ، ولكنه فى العاطفة المريضة ، والنفس المظلمة ، لا يجد له سبيلا .

وماذا يكون الرشيد أمام نفسه ، وأمام أهل بيته ، وأمام أصدقائه وأعدائه ، وأمام أصدقاء الخلافة وأعدائها — حينما يذكر أنه لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر ؟ ! ويغلب على الظن أن الذين يقولون هذا للرشيد واشون حاسدون ، لأنه لو صح هذا لكانت المملكة كلها ملكاً لجعفر ، إذ ليست المملكة إلا أقاليم وقرى ومزارع وبساتين ، فلا شىء يبقى بعد هذا .

٨ – تضييق البرامكة على الرشيد

لم ينس الرشيد ما كان ليحيي من فضل فى صيرورة الخلافة إليه ؛ فاستوزره وأمره ، وملكه وملك أولاده معه ، وارتمى فى أحضانهم سياسياً واقتصادياً وإدارياً ، وخلع نفسه أو كاد من كل شيء فى الدولة ؛ وقد أشرنا من قبل إلى أنه كان رجلا عصبي المزاج ، حاد الطبع ، متطرفاً فى كل شيء ؛ فهو إذا تعبد صلى فى اليوم مائة ركعة ، وإذا لها بالغ فى لهوه ، ونسى وقار الملوك واحتشامهم ، وإذا رضى نسى كل إساءة ، وإذا أساء نسى كل كريمة ؛ ولذلك لا تعجب أنه رضى عن يحيي وأولاده، فكانوا كل شيء ، ثم غضب على يحيي وأولاده فلم يكونوا شيئاً . ولعل البرامكة نسوا ، أو أنساهم السلطان الذى فى أيديهم أنهم أجراء عند الخليفة ، وأنهم من الخلافة فى حواشيها ، فمكنوا لأنفسهم من كل شيء، أو مكن لهم الخليفة من كل شيء . حتى أعطى يحيي مفاتيح خزائنه ، وتصرف فى نفقاته ونفقات عياله وحرمه ، وكان يضيق عليهم إذا أراد التضييق ، ويوسع عليهم إذا أراد التوسعة ، ثم يأتى عليه يوم يضيق ويبالغ فى التضييق ، ويتمادى ، ويرخى لنفسه العنان فى ذلك ، حتى تضيق زبيدة زوجة الرشيد وابنة عمه ، وتتبرم ، ويبلغ بها الضيق والتبرم أنها تشكو إلى الرشيد مضايقة يحيي لها فى النفقات .

وقد أخطأ يحيي فى ذلك خطأ جسيماً ، عجل به وبأولاده ، إذ كيف يجهل أو يتجاهل منزلة زبيدة من نفس الرشيد ، وهو أعلم الناس بها ؟ !

كيف يجهل أو يتجاهل أن الرشيد حدثته نفسه مرات أن يتنازل عن ولاية

العهد زمن أخيه الهادى ، وأنه يكفيه من الدنيا أن يعيش راضياً قانعاً مطمئناً فى ظل ابنة عمه زبيدة ؟ !

كيف يجهل أو يتجاهل أن زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، صاحبة المبرات والخيرات على الشعب ؟ !

إنه إذا صح له أن يصانع الخيزران أم الرشيد فى السنين الأولى من حكمه إلى أن ماتت ، فإنه ما كان يصح أن يجهل مكانة زبيدة .

تألمت زبيدة تألماً شديداً من معاملة يحيى لها ، ومن مضايقته إياها ، والتضييق عليها فى النفقة ، حتى إنه كان يغلق الخزائن ، ويحمل مفاتيحها معه ، وينصرف إلى بيته ، ويتركها ويترك من فى القصر من الحرم والجوارى فى حالة غير الحالة التى يصح أن يكون عليها حرم الملوك وجواريهم .

فلما ضاقت زبيدة ذرعاً اضطرت أن تشكو إلى الرشيد هذه المعاملة السيئة فلم يسمع لها ، ولم يصغ إلى كلامها ، ولكنها عادت تشكو بعد حين ، ثم عاودتها وعاودتها ، وإن التكرار لا بد أن يترك فى النفس أثراً ، وهذا الأثر مهما ضؤل ، فإنه يزداد فى كل مرة ، حتى يضطر الخليفة إلى السماع والإصغاء ، ثم إلى التفكير ، ثم إلى الشك ، ثم إلى المراقبة ؛ حتى يتأكد من أن ذلك يقع .

ساعد الخليفة على سوء الظن ، وعلى أن زبيدة صادقة — ما كان معه من سوء التصرف ، ومحاولة التضييق عليه ، والحد من إنفاقه ؛ فإن يحيى فى الوقت الذى يبيح لنفسه ولأولاده أن يبعثروا المال عن يمين وشمال ، وأن يغدقوا على من يستحق ومن لا يستحق — يقررون له مقداراً من المال لنفقاته ونفقات عياله ، ومقدارا آخر للحوادث التى تقع عليه ؛ فليس له أن يتجاوز أى المقدارين ، ولا أن يخلط بينهما ؛ ومن يدرى ؟! ، لعلهم يحدثون أنفسهم أن يطالبوه بقوائم يقدمها له ، مبيناً فيها الوجوه التى أنفق فيها المال ؛ ألا ترى أنه يطرأ عليه ظرف خاص ، يحتاج فيه إلى المال ، ويرسل إلى جعفر يقول له : يا أخى ؛ ويطلب منه عشرة

آلاف درهم؛ فيرد عليه : وأين المال؟ ! خمسة آلاف تكفى ، ويأخذها الرسول؛ وإن لم يأخذ ، فلا خمسة ولا ما دون الخمسة ؟ ! ولولا عطف بعض أصدقاء الخليفة عليه ، لما وجد المال الذى ينفقه فى اليوم الذى انقبض فيه المال عنه .

هذه الأمور بدأت تهد فى مركز البرامكة عند الرشيد، ولكن هدًّا بطيئاً ، فثارت زبيدة يوماً ، فأنكرت على نفسها وعلى زوجها أن يعيشا فى سياج من هذا السلطان القبيح الذى لا يجيزه أحد من الملوك ، ولا يرضاه ، مهما ضعف واستخذى ؛ فانتهزت فرصة ، أحسنت التأتى لها ، ونفذت إلى نفس الرشيد واعلمته ما كان بين جعفر وبين العباسة — إذا صحت قصتها على النحو الذى قدمناه — فبدأ الرشيد يفيق من نوم عميق كان يغط فيه بضعة عشر عاماً ، وصحا صحوة .

تنبه فيها لملكه ، فوجده على وشك أن ينهار .

وتنبه فيها لقومه ، فوجدهم من حوله فى حسرة وألم .

وتنبه فيها لدينه وعربيته وقوميته ، فوجد كل ذلك فى خطر بحسب ما رأى .

فأعمل الحيلة حتى تخلص هو وأسرته وقوميته وعربيته ودينه ولغته من عقبان كواسر ، كادت تفتك به .

مقدمات

ضاق الرشيد بالبرامكة ضيقاً شديداً ، وأنكر عليهم ما احتازوه لأنفسهم من سلطان ، وما صار لهم من مركز ممتاز فى نفوس الخاصة والعامة ، وما صاروا فيه من ثروة ضخمة ونعيم ملوكى ؛ فأصبح مركزهم فى الدولة يَبَزّ مركز كل وزير سبقهم ، أو مركز كل ذى نفوذ ؛ وأشبهت حالتهم من بعض الوجوه حالة أبى مسلم[1] الخراسانى فى زمن المنصور ؛ فإذا كان الساسة يجيزون لأبى جعفر أن يتخلص من الخراسانى ، فإنهم يجيزون للرشيد أن يتخلص من البرامكة ؛ لأن الخراسانى لم يكن وزيراً ، ولم يكن سياسياً ، ولم يتصرف فى شئون الدولة ، ولم يحتز لنفسه مالا ، ولم يتألف قلوب الشعب بأساليب الإغراء من البذل والسخاء والمصانعة ؛ ولكنه كان رجلا عسكرياً ، قوى الشخصية ، قوى الشكيمة ، قوى الإرادة ، سيفه فى يمينه ، وجيشه من ورائه ، والعجم فى حوزته ، ورهن إشارته ؛ فخشيه المنصور خشية شديدة ، واحتاط للتنكيل به أيما احتياط ، وأعد له عدة ، وتوقع أن الشعب سيثور له ومن أجله ؛ لأن العجم كان منهم من يجعله نبياً ، ومنهم من يوشك أن يجعله إلها ، وكانت شوكة الفرس فى خراسان قوية كل القوة ، وكان الأمويون ما زالوا يطالبون بالملك ، وكان العلويون يطالبون بالخلافة ؛ كل ذلك جعل المنصور يحتاط لنفسه برجال وقواد وجيوش .

والرشيد كان فى مركز أحرج من مركز المنصور ؛ لأن كثيراً من العرب كانوا يحبون البرامكة ، واستعبدهم إحسانهم ، وأرضاهم عنهم حسن سياستهم ،

---

(١) انظر الجزء الأول من كتاب (الوزراء العباسيون) للمؤلف

وجميل صنيعهم ، فليس عجيباً أن يثور العجم وكثير من العرب من أجل البرامكة إذا أصابهم مكروه من الرشيد ، ولذلك كان يتمنى الرشيد أن لو قتل رجل فدائى يحيي البرمكى ، ثم يأخذ هو الفدائى بيحيي ، وبذلك يتخلص من يحيي فى موقف سليم حكيم ، وقد صرح بذلك ليزيد بن مزيد[١] يوماً إذ قال له : ما بقى فى العرب من يفتك ؟ ! فقال يزيد : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟! فقال : رجل يقتل لى يحيي بن خالد ، فقال يزيد : أنا أقتله وآتيك برأسه ؛ قال الرشيد : ليس كذا أريد ، إنما أريد أن يقتله رجل فأقتله[٢] به ، وكان يتمنى ذلك قبل أن ينكب البرامكة بسنوات لأن يزيد بن مزيد مات سنة ١٨٥ هـ .

لذلك لم يكن بد من أن يحتاط الرشيد ، وأن يكتم أمره ، فلا يعلمه أحد لا تصريحاً ولا تلميحاً ، ولكنه كان يشتد به الضيق أحياناً إلى حد يجعله تبدر منه أمور ، لو تنبه لها الناس ، أو لو تنبه لها البرامكة ؛ لاحتاطوا لأنفسهم .

فمن ذلك مثلا أن جعفراً كان يتخذ للرشيد طعاماً كلما حج بعسفان[٣] ، فيقربه إذا انصرف شاخصاً من مكة إلى العراق ، فلما كانت سنة ١٨٧ هـ اتخذ الطعام جعفر كما كان يتخذه كل عام ، ثم استزار الرشيد كما كان يستزيره كل عام ، فاعتل عليه الرشيد فلم يزره ، ولم يأكل من الطعام الذى اتخذه له ؛ ولكن جعفراً أحسن به الظن ، وسار معه يرافقه حتى نزل الأنبار

ومن ذلك أن يحيي كان من عادته أن يدخل على الرشيد بلا إذن ، فدخل عليه يوماً كما كان يدخل من قبل ، فلما قرب من مجلس الرشيد سلّم ، فرد

---

(١) يزيد بن مزيد الشيبانى أمير ، قائد شجاع ، حارب الخوارج ، وقتل الوليد بن طريف الشيبانى زعيمهم ؛ تولى أرمينية واليمن ، وكان جواداً محبوباً ، مات سنة ١٨٥ هـ ، سنة ٨٠١ م ، ورثاه شعراء كثيرون .

(٢) نثر الدر لمنصور بن الحسين الآبى جـ ٣ ص ٨٢ مخطوط بمكتبة المؤلف .

(٣) عسفان : بوزان عثمان ؛ قرية جامعة بها نخيل ومزارع، تقع على الطريق بين مكة والجحفة .

عليه الرشيد رداً ضعيفاً ، فأحسّ يحيى أن فى نفسه شيئاً منه ، ولم يطق الرشيد أن يكتم ذلك ، فإنه انصرف بوجهه إلى أحد جلسائه ، وقال له : يدخل عليك ، وأنت فى مجلسك أحد بلا إذنك ؟ ! ! فقال جليسه : لا ، ولا يطمع فى ذلك ؛ فقال الرشيد : فما بالنا يدخل علينا بلا إذن ؟ ! .

يقول ذلك معرضاً بيحيى ومقرعاً له، فقام يحيى وقال : يا أمير المؤمنين ؛ قدمنى الله قبلك ، والله ما ابتدأت ذلك الساعة ، وما هو إلا شىء خصنى به أمير المؤمنين ، ورفع به ذكرى ، حتى أن كنت لأدخل ، وهو فى فراشه ، مجرداً حيناً ، وحيناً فى بعض إزاره ، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب ، وإذ قد علمت ، فإنى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الإذن ، أو الثالثة إن أمرنى سيدى بذلك ؛ فاستحيا الرشيد — وكان من أرق الخلفاء وجهاً — وعيناه فى الأرض ما يرفع إليه طرفه ، ثم قال : ما أردت ما تكره ، ولكن الناس يقولون .

فانظر كيف ينكر عليه أنه دخل عليه فى مجلسه من غير إذن ، وقد كان يدخل عليه فى فراشه مجرداً ، فلا ينكر ذلك منه ، وإن قوله : ولكن الناس يقولون ، كلام له مغزاه ، كان على يحيى أن يفهمه ، ويتنبه له ، ويتدبر أمره وأمر أولاده .

ومن ذلك أن يحيى دخل يوماً على الرشيد ، فقام الغلمان إليه كما كانوا يقومون ، فقال الرشيد لمسرور : مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار ؛ فلما دخل يحيى بعد ذلك ، لم يقم إليه أحد ، فاربد لونه ، وزاد إعراض الغلمان والخدم عنه ، حتى لقد كانوا يرونه فيعرضون عنه ، بل كان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره ، فلا يسقونه ، وإذا سقوه فلا يكون ذلك إلا بعد أن يدعو بها مراراً ، وهذا وضع لا يرضاه مقام الأمير الوزير ، ولا سيما أنه لم يعوده من قبل ، فماذا جرى ؟ ! وهل فكر الأمير الوزير فيما جرى ؟ !

* * *

يظهر أن هذه المسائل وأمثالها ، جعلتهم يفكرون فى الأمر بعض التفكير ؛ فإن جعفر بن يحيى قال يوماً لإبراهيم[١] بن المهدى – وكان إبراهيم صديقاً حميماً لجعفر – إنى استربت بأمر هذا الرجل – يعنى الرشيد – وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق فى نفسى منه ، فأردت أن أعتبر ذلك بغيرى ، فكن أنت ، فارمق ذلك فى يومك هذا ، وأعلمنى ما ترى منه .

ففعل ذلك إبراهيم فى يومه ، فلما نهض الرشيد من مجلسه ، كان أول أصحابه نهض عنه ، حتى صار إلى شجر فى طريقه ، فدخله ومن معه ، فأمرهم بإطفاء الشمع ، وأقبل الندماء يمرون به واحداً واحداً ، فيراهم ولا يرونه ، حتى إذا لم يبق منهم أحد ، إذا هو بجعفر قد طلع ، فلما جاوز الشجر قال : اخرج يا إبراهيم ، فخرج ، فقال : ما عندك ؟ ، قال إبراهيم : رأيت الرجل يهزل إذا جددت ، ويجد إذا هزلت ، قال جعفر : كذا هو عندى .

فهذا جعفر يشك فى معاملة الرشيد له ، ولكنه يتهم نفسه ، ويتهم تقديره ، فيستعين على تحقيق ذلك بصديق له عليه أياد فلن يغشه ، فيرقب الصديق الرشيد فى المجلس ، ويلاحظ حركاته وسكناته ، وإشاراته وعباراته ، وجده وهزله مع جعفر ؛ ثم يخرج أول الناس ، وينتظر جعفراً فى مكان مستور ، ويخرج جعفر آخر الناس ، حتى إذا لقى صديقه ، أخبره بما لاحظه ، فزاد شكه فيه .

ولعل يحيى كان يقدر هذا ، وكان يرى من حسن السياسة أن يقلل جعفر

---

(١) هو إبراهيم بن محمد المهدى بن عبد الله المنصور ، العباسى الهاشمى الأمير ، أخو هرون الرشيد . ولد ونشأ ببغداد ، وولاه الرشيد إمرة دمشق مرتين ، ولما أفضت الخلافة إلى الأمين ، انتهز فرصة الخلاف بين الأمين والمأمون ، ودعا لنفسه ، وبايعه كثيرون فى بغداد ، فطلبه المأمون فاستتر ، فأهدر دمه ، فجاءه مستسلماً ، فسجنه ستة أشهر ، ثم طلبه إليه ، وعاتبه على عمله فاعتذر فعفا عنه . وكان إبرهيم فصيح اللسان ، جيد الشعر ، وافر الفضل ، حازماً ، واسع الصدر ، سخى الكف ، حاذقاً بصنعة الغناء ، وأخباره كثيرة .

من الاتصال بالرشيد ، وألا يدخل فى منادمته وأن يترك الأنس به ؛ ولكن جعفرا لم يطعه ، فيغضب منه أبوه ، ويقول له بعد أن أعيته الحيلة فيه : إنى إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك ، وإن كنت لأخشى أن تكون التى لا شوى(١) لها .

ولم يخف يحيى ذلك عن الرشيد نفسه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ؛ أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ، ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك على منك ، فلو أعفيته ، واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعا بموافقتى ، وآمن لك على ؟ ! ! فلم يعجب الرشيد كلام يحيى ، وقال له : يا أبت ؛ ليس لك هذا ، ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل .

والإنسان إذا أحسن الظن بإنسان ، لم تقع عينه إلا على الحسن منه ، ولا يرى له قبيحاً ؛ بل إن القبيح فى عينه ، أو فى عين الناس ، يعتبره حسناً ، وإن لم يمكن اعتباره حسناً ، التمس له المعاذير ؛ فعين الرضا كليلة عن كل عيب ، وعين السخط كليلة عن كل حسن .

دخل ابن بختيشوع (٢) الطبيب يوماً على الرشيد، وهو جالس فى قصر الخلد من مدينة السلام ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عرض دجلة ؛ فنظر الرشيد ، فرأى اعتراك الخيول ، وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد ، فقال : جزى الله يحيى خيراً ، تصدى للأمور ، وأراحنى من الكد ، ووفر أوقاتى على اللذة .

---

(١) لا علاج لها ، ولا مخلص منها .

(٢) هو جبريل بن بختيشوع بن جرجس ، طبيب الرشيد ، وصديقه المختص به ، ويقال : إنه قويت منزلته عند الرشيد ، حتى قال لأصحابه : من كان له حاجة إلى ، فليخاطب بها جبرائيل ، فإنى أفعل كل ما يسألنى ، فيه ويطلبه منى ، فكان القواد يقصدونه فى كل أمورهم ، ولما توفى الرشيد ، خدم الأمين ، ولما ولى المأمون سجنه ، ثم أطلقه، وأعاده إلى مكانته عند أبيه الرشيد توفى سنة ٢١٣ هـ ، سنة ٨٢٨ م ودفن بالمدائن .

قال ابن بختيشوع : ثم دخلت إليه بعد أوقات ، وقد شرع يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ؛ فقال : استبد يحيي بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له ، وليس لى منها إلا اسمها .

فانظر إليه ، وقد نظر إلى الشيء الواحد بعينين : عين راضية مرة ، وعين ساخطة مرة أخرى ؛ فالعين الراضية أرته الشيء جميلا ، والعين الساخطة أرته الشيء نفسه قبيحاً ؛ ولم يستطع أن يخفى مظاهر السخط أمام ابن بختيشوع طبيبه ، مع أنه كان صديقاً للبرامكة ، فلا يتحرج من أن يذكر أمامه أنهم ينافسونه فى الملك ، وأن سلطانهم طغى على سلطانه ، حتى أصبح ملكاً ليس له سلطان .

وقد أحس جعفر تغير الرشيد عليه ، وأصبح يشك فى مستقبله ، وفى مصير علاقته وعلاقة أهله بالخلافة ، ولم يستطع أن يخفى ذلك فى نفسه ، بل صرح للخليفة ، وأعلمه أنه قاتله يوماً ما ؛ فقد كان جعفر يحضر مجلساً من مجالس الرشيد ، فلما قام عن مجلسه يريد الدخول إلى بعض حجر قصره — أسرع جعفر ورفع له الستر ، وقد أخذ الرشيد يتأمل عنق جعفر تأملا شديداً ، فرآه جعفر وهو يتأمل عنقه ، فقال : ما متأمل أمير المؤمنين ؟ .

قال الرشيد : حسن عنقك ، وحسن موقع الجربان منه ، فقال له جعفر : لا والله ما تأملت إلا موضع سيفك منه !

قال الرشيد : أعيذك بالله من هذا القول ، واعتنقه وقبله ؛ فلما انصرف جعفر ، قال للفضل بن الربيع : قاتل الله جعفراً ، ما تأملت عنقه إلا لموضع السيف منه .

وقد ساور القوم القلق مساورة شديدة ، حتى أصبحوا يخافون على أنفسهم أن يوقع بهم ، وصاروا لا يحبون أن يجتمع واحد منهم مع الرشيد على خلوة خشية أن يفتك به ؛ فقد دخل يحيي على الرشيد يوماً ، وقد بدأت حالهم تتغير ، وكان

الرشيد على خلوة ، فرجع يحيي ، فلما عرف الرشيد خبر مجيئه ورجوعه ، بعث إليه خادمه يلحقه ويقول له : يقول لك أمير المؤمنين : خنتنى فاتهمتنى ، فقال يحيي للرسول : قل له : يا أمير المؤمنين ؛ إذا انقضت المدة كان الحتف فى الحيلة ، ووالله ما انصرفت عن خلوتك إلا تخفيفاً عنك .

ولكثرة ما كان يفكر جعفر فى هذا ، ملك عليه الغدر به تفكيره ، وكان وهمه يصور له فى كل لحظة من لحظاته شراً يقع ، وشغل بذلك عقله الباطن حتى كان يرى فى منامه ما يزعجه .

حدث سهل[1] بن هرون ، قال : إنى لمحصل أرزاق العامة بين يدى يحيي بن خالد فى داخل سرادقه وهو مع الرشيد بالرقة ، وهو يعقدها بكفه إذ غشيته سآمة ، وأخذته سنة ، فغلبته عيناه ، فقال : ويحك يا سهل ! ! طرق النوم شفرى عينى ، وأظلت السنة خواطرى ، فما ذاك ؟ !

قلت : طيف كريم ، إن أقصيته أدركك ، وإن غالبته غلبك ، وإن قربته روحك ، وإن منعته عنتك ، وإن طاردته طلبك .

فنام أقل من فواق بكية[2] ، أو نزح ركية[3] ، ثم انتبه مذعوراً ، فقال : يا سهل ؛ لأمر ما ذهب — والله ملكنا ، وذل عزنا ، وانقطعت أيام دولتنا .

فقلت : وما ذاك ؟ ! أصلح الله الوزير .

---

(١) هو سهل بن هرون بن راهبون ، كاتب بليغ حكيم ، من واضعى القصص ، يلقب (بزرجمهر الإسلام) فارسى الأصل ، اشتهر فى البصرة ، اتصل بيحيى بن خالد ، ثم خدم المأمون ، ورأس خزانة الحكمة ببغداد ، وكان يتهم بالشعوبية ؛ والجاحظ كان معجباً به ، وعده من الخطباء والشعراء ، الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار وهو صاحب كتاب (ثعلة وعفرة) على نسق كليلة ودمنة . وصاحب الرسالة المشهورة فى البخل (مجلة المقتبس ٦ : ٥٦٠ ومجلة المجمع العلمى ٧ : ٥) .

(٢) البكية : الكثيرة البكاء ، والفواق : الريح التى تشخص من الصدر .

(٣) الركية : البئر تحفر ، والجنس فيها : الركى ، والجمع : الركايا .

قال : كأن منشداً أنشدنى :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر

فأجبته من غير روية ولا إجالة فكر :

بلى ؛ نحن كنا أهلهـا فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

فوالله ما زلت أعرفها فيه، وأراها ظاهرة منه إلى الثالث من يومه ،وإنى لفى مقعدى ذلك بين يديه أكتب توقيعات فى أسفل كتبه لطلاب الحوائج إليه ، قد كلفنى إكمال معانيها بإقامة الوزن فيها ، إذ وجدت رجلا ساعياً إليه ، حتى أومأ مكباً عليه ، فرفع رأسه ، وقال : مهلا ، ويحك ! ! ما أكتم خيراً ، ولا أستر شراً ، فقال له : قتل أمير المؤمنين الساعة جعفرا ! !

قال : أوفعل ؟ !

قال : نعم .

فما زاد أن رمى بالقلم من يده ، وقال :

هكذا تقوم الساعة بغتة[1] ! !

وهكذا كان البرامكة كلما قربت مدتهم ، تبلبلت خواطرهم ،وزاد وسواسهم ، وضعفت حيلتهم فلم يلتمسوا لأنفسهم مخرجاً مما هم فيه من حرج ، أو التمسوه فلم يوفقوا إليه ؛ لأنه إذا قضى الأمر ، وحم القضاء كلت الأفكار القوية ، وتبلدت الأذهان الذكية ، وعميت العيون البصيرة ، وأخطأ التقدير ، فالفرج شدة، واليسر عسر، والسعة ضيق ، والبلاغة عى ، والتفضل تطفل ، والعمل فضول ، والإصابة خطأ . ألا ترى أن الرشيد ينتثر الأرق ليلة بين أجفانه ، فيلتمس السمير ، فيجد الأصمعى ، فيروى له من جد الشعر وهزله ما يستجيده

---

(١) الإمامة والسياسة ص ٣٢٠ .

الرشيد ويستجيده الفضل – وكان حاضراً – حتى إذا طلب إليه الرشيد أن ينشد قصيدة عدى بن الرقاع التى مطلعها .

عرف الديارَ توَهُّماً فاعتادها

مضى فيها، فلما صار إلى وصف الجمل بدره الفضل بقوله : ناشدتك الله أن تقطع علينا ما أمتعنا به من السهر فى ليلتنا هذه بصفة جمل أجرب ، إذ ذاك يغضب الرشيد ، وينهر الفضل ، ويقول له : اسكت ، فالإبل هى التى أخرجتك من دارك ، واستلبت تاج ملكك ، ثم ماتت وعملت جلودها سياطاً ضربت بها أنت وقومك . فكأن الفضل حفظها فى نفسه ، ورأى ألا يفوتها على الرشيد ؛ فحينما هم بالانصراف من مجلسه ، وأخذ الخادم يصلح له عقب نعله فى رجله – وكانت عربية – قال له : عقرتنى يا غلام ؛ فقال الفضل : قاتل الله الأعاجم ! أما إنها لو كانت سندية لما احتجت إلى هذه الكلمة . فبدره الرشيد : هذه نعلى ونعل آبائى : كم تعارض فلا تترك من جواب ممض(١) ؟!

وهكذا كان الرشيد لا يدعه يعترض حتى يؤلمه بالجواب الذى يشعره بفضل العرب ، ولا يأتى ذلك إلا إذا كان وقر فى نفسه منهم أشياء وأشياء .

---

(١) خزانة الأدب ج ٤ ص ٣٤٦ ، أمالى المرتضى ج ٣ ص ٩٦ .

مقتل جعفر

صمم الرشيد على أن يفتك بجعفر بن يحيى ، وعلى أن ينكب أباه يحيى وإخوته ، عدا محمد بن خالد . وقد ذكرنا أموراً يلتمسها المؤرخون ، أسباباً تذرع بها الرشيد للإيقاع بالبرامكة ؛ وبعض المؤرخين يذكرون شيئاً منها ، أو يذكرون أشياء ، وقد يجعلون السبب واحداً ؛ فبعضهم يرى أنهم لم ينكبوا إلا بسبب العباسة ، وبعضهم يرى أنهم لم ينكبوا إلا بسبب يحيى بن عبد الله ، وبعضهم يرى أنهم نكبوا لأسباب كثيرة ، منها هذا وذاك ، وقد يرتفعون بهذه الأسباب إلى نيف وأربعين سبباً .

والحق أن الإيقاع بالبرامكة ليس شيئاً هيناً ، يكفى أن يبرره شىء أو شيئان ، كان يمكن تلافى ما ينشأ عنهما أو يترتب عليهما من أمور خاصة أو عامة ؛ وإنما هى أسباب كثيرة ، تجمعت وتعددت ، لعل أقواها خوف الرشيد على سلطانه ، أو توهمه أن البرامكة يحاولون أن ينتقصوه ، أو أنهم يسرون محاولة نصر عدو من أعدائه عليه ، وقد أحس ذلك ، وصرح فى كثير من المناسبات أن الخلافة على الحقيقة لهم ، وليس له منها إلا اسمها .

ومهما يكن من شىء ، فإن الرشيد خرج سنة ١٨٦ ﻫ إلى مكة ، فحج ، ثم انصرف من مكة ، فوافى الحيرة فى المحرم سنة ١٨٧ ﻫ ثم نزل فى العمر بناحية الأنبار ، وكان معه جعفر بن يحيى ، وقد بيت قتله ؛ وكتب التاريخ تسوق خبر مقتله مع اختلاف يسير فى اسم القاتل ، وفى كيفية وقوع القتل ، وفى المحاورة التى جرت بين الرسول القاتل وبين جعفر ؛ إلا أن هذا الخلاف ، لا يمس جوهر الموضوع ؛ لذلك نسوقه معتمدين فى روايته على المسعودى قال :

فلما كان اليوم الذى عزم فيه الرشيد على قتل جعفر ، دعا بالسندى بن شاهك ، فأمره بالمضى إلى مدينة السلام ، للتوكيل بدور البرامكة ودور كتّابهم وقراباتهم ، وأن يجعل ذلك سراً من حيث لا يعلم أحد ، حتى يصل إلى بغداد ، ثم يفضى بذلك لمن يثق به من أهله وأعوانه ، فامتثل السندى ذلك ، وجلس الرشيد وجعفر عنده فى موضع يعرف فى الأنبار بالقمر(١) ، فأقاما يومهما بأحسن هيئة، وأطيب عيش، فلما انصرف جعفر من عنده ، خرج الرشيد حتى ركب مشيعاً له ثم رجع ، فمضى جعفر إلى منزله ، وفيه فضلة الشراب ، ودعا بأبى بكار(٢) الأعمى الطنبورى ، وابن أبى نجيح كاتبه ، ومدت ستارة ، وجلس جواريه خلفها ، يضربن ويغنين ، وابن بكار يغنيه(٣) :

ما تريد الناس منا ما تنام الناس عنا
إنما همتهم أن يظهروا ما قد دفنا

وأمر الرشيد من ساعته ياسرا(٤) ، خادمه المعروف ، فقال له : إنى أندبك لأمر لم أر محمدا ولا القاسم(٥) أهلا له ولا موضعاً ، ورأيتك به مستقلا ناهضاً ، فحقق ظنى ، واحذر أن تخالفنى .

فقال : لو أمرتنى أن أدخل السيف فى بطنى ، وأخرجه من ظهرى ، لفعلت بين يديك ، فمر بأمرك فإنى والله مسرع .

فقال الرشيد : ألست تعرف جعفر بن يحيى البرمكى ؟ .

---

(١) فى بعض الكتب العمر ولم نقف على تصحيحه .
(٢) فى الطبرى وغيره : أبو زكار .
(٣) الذى فى الطبرى أنه كان يغنى قول الشاعر :
فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو ينادى
(٤) بعض الكتب تسميه : (مسرورا) .
(٥) يعنى الأمين والمعتصم ولديه .

فقال : يا أمير المؤمنين ؛ وهل أعرف سواه ؟ ! وهل ينكر مثل جعفر ؟ !

قال : ألم تر تشييعى إياه عند خروجه ؟ .

قال : بلى .

قال : فامض الساعة إليه فأتنى برأسه على أى حالة تجده عليها .

فأرتج على ياسر الكلام ، وأخذته رعدة ، ووقف لا يحير جواباً .

فقال : يا ياسر ؛ ألم أتقدم إليك بترك الخلاف على ؟ ! .

قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن الخطب أجل من ذلك ، والأمر الذى ندبتنى له يا أمير المؤمنين ، وددت لو أنى مت قبل أن يجرى على يدى منه شىء .

قال : دع عنك هذا ، وامض لما قد أمرتك .

فمضى ياسر ، حتى دخل على جعفر ، وهو على حال لهوه ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أمرنى فيك بكيت وكيت .

فقال جعفر : إن أمير المؤمنين يمازحنى بأصناف من المزاح ، فأحسب أن هذا جنس منه .

فقال : والله ما افتقدت من عقله شيئاً ، ولا ظننته شرب خمراً فى يومه مع ما رأيت من عبارته .

قال له : فإن لى عليك حقوقاً لا تجد لها مكافأة فى وقت من الأوقات إلا هذا الوقت .

قال : ستجدنى إلى ذلك سريعاً إلا فيما خالف أمير المؤمنين .

قال : فارجع إليه ، فأعلمه أنك قد نفذت ما أمرك به ، فإن أصبح نادماً ، كانت حياتى على يديك جارية ، وكانت لك عندى نعمة مجددة ، وإن أصبح على مثل هذا الرأى ، نفذت ما أمرت به فى غد .

قال : ليس إلى ذلك سبيل .

قال : فأصير معك إلى مضرب أمير المؤمنين ، حتى أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته إياك ، فإذا أبديت عذراً ، ولم يقنع إلا بمصيرك إليه برأسى ، خرجت ، فأخذت رأسى من قرب .

قال : أما هذا فنعم .

فمضينا جميعاً ، حتى مضرب الرشيد ، فدخل إليه ياسر ، فقال له : قد أخذت رأسه يا أمير المؤمنين ، وهذا هو بالحضرة .

فقال له : ائتنى به ، وإلا والله قتلتك قبله .

فخرج فقال : أسمعت الكلام ؟ ! .

قال : فشأنك وما أمرت به .

فأخرج جعفر من كمه منديلا صغيراً ، فعصب به عينيه ، ومد رقبته ، فضربها ، وأدخل رأسه إلى الرشيد ، فلما رأى الرأس بين يديه ، أقبل عليه ، وجعل يذكره بذنوبه ، ثم قال : يا ياسر ؛ ائتنى بفلان وفلان ، فلما أتى بهم ، قال لهم : اضربوا عنق ياسر ، فإنى لا أقدر أن أنظر إلى قاتل جعفر .

* * *

وهكذا قتل الرشيد جعفراً ، وقوى به ملكه ، ولكنه اضطرب لقتله اضطراباً شديداً ، وأحس أنه أتى أمراً عظيماً ، وحاول أن يخفف عن نفسه بعض ما بها ، فنظم شعراً يسرى به عن نفسه أنها قتلته ، ويلتمس لها المعاذير ، وينحى باللائمة على جعفر .

حدث الأصمعى أن الرشيد وجه إليه فى الليلة التى قتل فيها جعفراً ، فلما دخل إليه قال : يا أصمعى ؛ قد قلت شعراً فاسمعه ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين فأنشد :

لو أنَّ جعفرَ هابَ أسبابَ الردَى لنجا بمُهْجَتِهِ طِمِرٌّ ملجم[١]
ولكان مِن حَذَرِ المنون بحيث لا يسمو إليه به الغرابُ القَشْعَمُ[٢]
لكنه لما تقرَّب وقتُه لم يَدْفَعِ الحدثان عنه مُنَجِّم

قال الأصمعى : ورجعت إلى بيتى فلم أصر إليه حتى تحدث الناس بقتل جعفر .

ثم أمر الرشيد هرثمة[٣] بن أعين فحمل جثة جعفر إلى بغداد على بغل بلا إكاف[٤] ، ثم شطرت بأمر الرشيد شطرين وصلبت على ثلاثة جسور ، وظلت كذلك حتى أمر بحرقها فحرقت .

وقد كان لجعفر على الرشيد دالة ، وكان الرشيد يحبه من قلبه ، إلا أن حب السلطان يطغى على كل شىء ؛ ولعل جعفرا كان يعتمدعلى قوة شخصيته فى التأثير فى الرشيد : لأن خصوصيته به كانت ترفع بينهما كلفة الحديث إذا خلا كل منهما بصاحبه ، وتحدث بذلك المستشرقون ، واتخذوا من ذلك دليلا على استنباط العلاقات الخاصة بينهما ، وما أشبه شخصية جعفر مع الرشيد بشخصية يعقوب بن داود مع المهدى[٥] .

ولكنه بعد أن قتله قال : من غمط نعمتى ، واعتدى على وصيتى وجانب موافقتى — أعجلته عقوبتى ، وتمثل بقول القائل :

---

(١) طمر : فرس جواد طويل القرائم .
(٢) القشعم : المسن .
(٣) هرثمة بن أعين : أمير وقائد عباسى ، ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٨ ﻫ ، وعقد له على خراسان ، وانحاز إلى المأمون أيام الفتنة ، وأخلص له ، ثم نقم المأمون منه ، فحبسه، وديس بطنه ، فمات فى حبس مرو سنة ٢٠٠ ﻫ ، سنة ٨١٦ م .
(٤) الإكاف : البرذعة .
(٥) انظر الجزء الأول من كتاب « الوزراء العباسيون » ، فى ترجمة يعقوب .

من لم يؤدبه الجميل ففى عقوبته صلاحه

ولما عاد الرشيد إلى بغداد وجد جثته مصلوبة على ثلاثة جذوع ، فما كاد يقع بصره عليها حتّى اربد وجهه ، وأغفى بصره ، فلاحظ ذلك أحد رفاقه فقال له :

لقد عظم ذنب لم يسعفه عفو أمير المؤمنين ، فقال الرشيد ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، وكاد يبدو الجهش فى صدره : من يرد غير مائه ، يصدر بمثل دائه ، ومن أراد فهم ذنبه ، يوشك أن يقوم على مثل راحلته .

فهو يهدد كل من أراد أن يحاول معرفة السبب الحقيقى الذى من أجله قتل الرشيد جعفرا ، بأنه سيلقى مثل ما لقى جعفر .

إذن ، فما هو السبب يا ترى ؟!

حاولنا الكشف عنه ، استنباطا واجتهاداً والله أعلم بالسرائر .

أنس بن أبى الشيخ

اختص أنس بجعفر ، واتصل به ، ولم يفارق مجلسه ، وكتب له ؛ وكان أنس ذكياً فهماً ، نقى الألفاظ ، جيد المعانى ، حسن البلاغة ؛ وكان الرأى فيه كالرأى فى جعفر لشدة ملازمته له ، فمن أحب جعفراً أحب أنساً ، ومن كره جعفراً كره أنسا .

وكان الفضل بن يحيى يكره أنساً لاختصاصه بأخيه ، ولما كان بينهما من منافسة ، فهذا أنس يدخل على الفضل فى بعض يومه ، فيتحدث وينشد الشعر ، ويتملح ويتندر ، فيأتى فى كل ذلك بالعجيب الخفيف على القلب ، العذب فى الأذن؛ ولكن الفضل لبغضه إياه لا ينبض منه عرق ، ولا تنفرج شفتاه عن ابتسامة حقيقية أو مصطنعة، حتّى إذا انصرف أنس من المجلس قال لجلسائه متهكما : هذا أنس صديق أخى جعفر ، وما أدرى ما أعجبه منه إلا القدر المتيح ذلك .

وكان أنس فى رحاب جعفر ، فيتقلب فى ألوان النعيم ، ويباهى بما هو فيه ، ويتكبر على الناس : دخل عليه رجل ورأسه على مرفقة، والحجام يأخذ من شعره ، فقال له الرجل : ما يحملك على هذا ؟ فقال أنس : الكسل ، فقال الرجل : إن لقمان قال لابنه : إياك والكسل ، إياك والضجر ؛ قال أنس : ذاك والله لأنه لم يعرف لذة الكسل والفسولة(١) .

وكان أنس موضع سر جعفر ، فهو لا يخفى عنه شيئاً خاصاً أو عاماً

---

(١) الفسولة : الخمول .

ولو كان متصلا بالسياسة أو الخليفة ؛ خلا يوماً جعفر بأنس ، فأدخل إليهما الشرطى رجلا من أهل الذمة كان جعفر قد أمر بإحضاره ، وبعد مناقشات بينهما أمر بقتل الرجل وصلبه ، وقال أنس : اصلبه على أطول عود بالرقة ، فالتفت إليه الرجل وقال : إن شاء على أطول عود ، وإن شاء على أقصره ، ليس بعدى غيرك . وكان ذلك سنة ١٨٤ هـ ، أى قبل مقتل جعفر بثلاث سنين ، ولم يعلم أحد السبب فى قتل الرجل غير أنس .

وكان الرشيد يسىء الظن بأنس ، ولعله كان يخشاه خشيته لجعفر ؛ لذلك لم ير من الحكمة أن يعيش أنس بعد أن يقتل جعفرا ، فهو رأس الأفعى وجعفر ذنبها ، والحكمة تقضى عليه إذا قطع الذنب أن يقطع الرأس حتى يقضى على الشر من أساسه ، ويستأصل شأفته ، فأمر بقتله وصلبه فى الرقة على العمود الذى صلب عليه الذمى منذ ثلاث سنين .

وذلك أن الرشيد طلبه فهرب ، وطلب مسلم بن الوليد شاعرهم فهرب منه ؛ ثم وجدا عند قينة فى بغداد ، فكبس الشرطة بيتها ، وأتى بهما إلى الرشيد ، فأمر بإحضارهما فى مجلسه .

أما مسلم فقد تغير لونه ، فرق له الرشيد، وقال له : إيه يا مسلم ؛ أنت القائل :

أَنِس الهوى ببنى علىٍّ فى الحشا　　وأراه يَطْمَحُ عن بنى العباس !

قال : بل أنا الذى أقول يا أمير المؤمنين

أَنِسَ الهوى ببنى العُمُومَة فى الحشا　　مُسْتَوحشاً من سائر الإيناس

وإذا تكاملت الفضائل كنتمُ　　أَوْلَى بذلك يا بَنى العباس

فعجب الرشيد من سرعة بديهته ، وقال له بعض جلسائه : استبقه يا أمير

المؤمنين ، فإنه من أشعر الناس ؛ وامتحنه ، فسترى منه عجبا ؛ فقال له : قل شيئاً فى أنس ، فقال : يا أمير المؤمنين : أفرخ روعى ، أفرخ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك ، فإنى لم أدخل على خليفة قط ؛ ثم أنشأ يقول :

تَلَمَّظَ السيفُ من شَوْقٍ إلى أَنَسٍ ... فالموتُ يَلحظُ والأقدارُ تَنْتظِرُ(١)
فليس يَبْلغُ منه ما يُؤَمِّله ... حتى يؤامرَ فيه رأيَكَ القَدَرُ(٢)
أمضى من الموت ، يعفو عند قدرته ... وليس للموت عَفْوٌ حين يَقْتَدِرُ

فلما سمع الرشيد هذه الأبيات أمنه ، ثم جاء بأنس وناقشه بعض المناقشة ، وأخرج سيفاً من تحت فراشه وأمر أن يضرب به عنقه ، وجعل يتمثل :

تلمظ السيف من شوق إلى أنس ... فالموت يلحظ والأقدار تنتظر

فلما ضرب عنقه سبق السيف الدم ، فقال الرشيد : رحم الله عبد الله ابن مصعب !

ويقال : إن عبد الله بن مصعب كان أخبره أن أنساً مقيم على الزندقة ، فهو يتقرب إلى الله بقتله .

---

(١) تلمظ : أخرج لسانه بعد الأكل أو الشرب فمسح به شفتيه ، وتتبع به بقية الطعام بين أسنانه بعد الأكل ، والمراد : تصوير شدة تشوق السيف إلى أنس .

(٢) يؤامر : يشاور .

مصير يحيي وأولاده

أرسل الرشيد كتاباً إلى السندى بن شاهك ، نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : يا سندى ، إذا نظرت فى كتابى هذا ، فإن كنت قاعداً فقم ، وإن كنت قائماً فلا تقعد ، حتى تصير إلىّ .

وما كاد يصل هذا الخطاب إلى السندى ويقرؤه ، حتى دعا بدوابه ، ومضى إلى الرشيد فى العمر ، فلما وصل إلى الرشيد ، وكان فى الزو[1] فى الفرات دعاه ، فصار إليه فى مجلسه ، ووقف بين يديه ساعة ، ثم قال لمن كان عنده من الخدم : انصرفوا ، فانصرفوا ، ولم يبق إلا العباس بن الفضل والسندى ، وبقيا بحضرته ساعة ، ثم أمر العباس ، أن يخرج ويأمر برفع التخاتج[2] المطروحة على الزو ، ففعل .

وقال الرشيد للسندى : ادن منى ، فدنا منه ، وقال له :

أتدرى فيم أرسلت إليك ؟ .

قال : لا والله يا أمير المؤمنين .

قال : قد بعثت إليك فى أمر ، لو علم به زر قميصى ، رميت به فى الفرات ؛ يا سندى : من أوثق قوادى عندى ؟ قال السندى : هرثمة ابن أعين .

---

(١) الزو : سفينة .

(٢) التخاتج : الستور .

قال : صدقت ؛ فن أوثق خدمى عندى ؟ قال السندى : مسرور الكبير .

قال : صدقت ، امض من ساعتك هذه ، وجد فى سيرك ، حتى توافى مدينة السلام ، فاجمع ثقات أصحابك وأرباعك[١] ، ومرهم أن يكونوا وأعوانهم على أهبة ، فإذا انقطعت الرِّجل ، فعد إلى دور البرامكة ، فوكل بكل باب من أبوابهم صاحب ربع ، ومره أن يمنع من يدخل ويخرج ، خلا باب محمد بن خالد ، حتى يأتيك أمرى .

خرج السندى من العمر إلى مدينة السلام ، حتى إذا وافاها ، جمع أصحابه ، وفعل ما أمره به أمير المؤمنين .

ولم يمض إلا قليل حتى قدم هرثمة بن أعين بغداد يحمل جثة جعفر على بغل بلا إكاف ، وعنقه مفصول من جسده ، ومعه كتاب ، يأمر فيه السندى أن يشطره اثنين ، ويصلبه على ثلاثة جسور ، ففعل .

جرى كل ذلك ، وقتل جعفر ، وحمل إلى بغداد ، ويحي لا يعلم من هذا شيئاً .

بل إنه فى مساء تلك الليلة ، صار إلى أمير المؤمنين فى حراقة[٢] ، ودخل إليه من باب صاحب الخاصة ، وكلمه فى حوائج الناس وغيرها من إصلاح الثغور ، وغزو البحر ؛ ثم خرج للناس ، وقال لهم : قد أمر أمير المؤمنين بقضاء حوائجكم . وصرف الأمور إلى أن انقضى شطر من الليل ، ووافى إلى منزله ، وهو لا يعرف من مصيرهم إلا ما كانت تحسه روحه ، ويرهص

---

(١) الأرباع : جماعات الناس .
(٢) الحراقة : سفينة من سفن البصرة ، وفيها مرامى نيران يرمى بها العدو .

به قلبه، وكان مكبًّا على عمله ، يصرف شئون الدولة كعادته ، وكان جالساً مع سهل بن هرون يوماً كما قدمنا ، يكتب توقيعات فى أسفل كتبه لطلاب الحوائج ، فجاء إليه رجل يسعى ، يتّميد فى طريقه ، تسرع أنفاسه، وتختلط دموعه بزفراته ، يتعرض ريقه ، ويتلجلج لسانه ، ويزوغ بصره ، ويشرد ذهنه ، يضغط آهته فى صدره ، ويخفى نشيجه فى حلقه ؛ فما كاد يراه يحيي ، حتى رفع رأسه إليه، وقال: مهلا !! ويحك ! ! ، ما أكتم خيراً ، ولا أستر شرًّا ، قال له: قتل أمير المؤمنين الساعة جعفرا ، قال يحيي : أو فعل ؟ ! قال : نعم ، فما زاد أن رمى بالقلم من يده ، وقال : هكذا تقوم الساعة بغتة ؛ وقيل حينما قيل له : قتل الرشيد ابنك جعفرا — : قال : كذلك يقتل ابنه ، فقيل له : خربت ديارك ، فقال : كذلك تخرب دورهم . ثم كتب إلى صديق له : أنا بقضاء الله راض ، وبالخيار منه عالم ، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد ، وما يعفو الله أكثر ، ولله الحمد .

وفى الوقت الذى يقول فيه يحيي هذا يقول الرشيد : من غمط نعمتى واعتدى على وصيتى ، وجانب موافقتى — أعجلته عقوبتى .

من لم يؤدبه الجميـ ـل ففى عقوبته صلاحه

من يرد غير مائه ، يصدر بدائه ؛ ومن أراد فهم ذنبه، يوشك أن يقوم على مثل راحلته .

ولم يصبح صباح هذا اليوم حتى كان الرشيد أمر بالقبض على يحيي وأولاده وأحفاده جميعاً ما عدا أخاه محمدا[1] .

---

(١) أمر الرشيد أن ينادى فى الناس: إنه لا أمان لمن يؤوى أحداً من البرامكة إلا محمد ابن خالد وولده وأهله وحشمه ؛ ويقول المؤرخون: إنه استثناهم لما ظهر من نصيحة محمد له، وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة .

قبض على يحيى ، والفضل وخالد — ابنيه .

وقبض على عبد الملك ، ويحيى ، وخالد — بنى جعفر بن يحيى .

وقبض على العاصى ، ويزيد ، ومعمر — بنى الفضل بن يحيى .

وقبض على جعفر ، ويحيى ، وزيد — بنى محمد بن يحيى .

وقبض على إبراهيم ، ومالك ، وعمرو — بنى خالد بن يحيى .

وقبض على جميع مواليهم ، ومن كان منهم بسبيل .

وقبض على كل من لف لفهم ، أو همس بنفسه أمل فيهم .

وفرق الرشيد البرد فى الأمصار بقبض أموالهم ، وغلاتهم ، وضياعهم ، ودورهم ورباعهم ، ورياشهم ، ورقيقهم ، وحشمهم ، والدقيق والجليل من مواهبهم .

أما حرمه ؛ فقد أخرجن إلى دار البانوقة بنت المهدى .

وحبس الفضل فى ناحية من منازل الرشيد ، وحبس يحيى فى منزله ، ووكل بهم جميعاً حفظة ، تحت عين هرثمة بن أعين ، ثم حملوا إلى الرقة والرشيد فيها ، وحبس يحيى والفضل فى دير القائم(١) ، وابتذل يحيى وأولاده ، وصار القائمون عليهم لا يفرقون بينهم وبين خدمهم المحبوسين معهم فى المعاملة ، ولعلهم كانوا يفعلون ذلك إرضاء للرشيد ، ومع ذلك فقد حمل الرشيد إليهم أم الفضل ودنانير وعدة من خدمهم وجواريهم ، وكانت حالهم سهلة ، وأمورهم ميسرة فى كثير من حالاتهم ، حتى سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح ، فقسا عليهم ، وجددت التهمة لهم .

ولكنه كان يغضب فيثور ، فيأمر بالقسوة عليهم ، ثم يهدأ فيخفف عنهم . وأقيم لأولاد يحيى كل ما يحتاجون إليه من مطعم ومشرب وملبس ، وظلوا مطلقين من غير قيد ، أما كتابهم وخدمهم وحاشيتهم — فقد قيدوا ، وبقى

(١) دير القائم : على شاطىء الفرات من الجانب الغربى فى طريق الرقة من بغداد ، وقد خرب هذا الدير ، وكان اسمه « دير القائم الأقصى » .

يحيي موكلا به مدة ، ثم أرسل إليه الرشيد ، يسأله عن الموضع الذى يختاره لنفسه مقاماً ، والدار التى يريدها مسكناً ؛ ليحوله إليهما ؛ فكتب إليه يحيي : إن كنت راضياً عنى ، فأحب المواضع إلىّ أن أقيم فيه : مكة ، أو بعض الثغور ، وإن لم ترض عنى ، فلست أبرح موضعى ، أو ترضى عنى .

ويعتبر يحيي الرشيد ، نقض العهود الكثيرة ، والمواثيق العدة ، التى عقدها على نفسه : ألا ينقض ولا يبرم إلا بأمر يحيي ، وألا يبدأ يحيي بسوء ، وألا يناله بمكروه فى نفسه ، ولا ولده ، ولا فى شيء من ماله وحاله ، وكان يشهد على بعض هذه العهود جميع أهله ووجوه قواده وأصحابه .

وأمر الرشيد يوماً بضرب الفضل مائتى سوط ، وتولى ضربه مسرور الخادم ، فقال له الفضل : أنت تعلم يا أبا هاشم أنى كنت أقى عرضى بمالى ، فكيف أقى مالى بنفسى فى هذا الوقت ؟ ! والله ما عندى شيء ، ووالله لو كان عندى ما سترته ، ولا وريت عنه .

وقد أشفى الفضل من الضرب على أمر عظيم ؛ فكادت تزهق روحه ، فالتمس يحيي رجلا يعالجه ، فوجد رجلا من الذين كانوا يتصلون به ببعض الأسباب ، تولى علاجه ، فلقى مكروهاً شديداً من ألم العلاج ، ثم صلح وعوفى ، فاستدان له الفضل عشرين ألف درهم ؛ ليدفعها له أجراً على علاجه ، فرفض الرجل ، وانتهر رسول الفضل وقال : لو جئتنى بما يملكه الخليفة ما قبلته .

وفى بعض الوقت خرج الرشيد من بغداد إلى الرقة ، ولعله كان يخشى أن يتركهم فى بغداد ، فيثور الناس لهم . ويحاولوا أن يحدثوا فتوقاً فى الدولة من أجلهم ، يعز عليه بعد ذلك رتقها ، ولذلك أخرج يحيي وولده معه ، ووكل بهم ، فلما وصلوا إلى الرقة ، وجه الرشيد إلى يحيي ، يبيح له أن يقيم حيث شاء ، فلم يرد يحيي أن يقيم إلا مع ولده ، فعجب الرشيد ألا يرضى بأن يطلق ، ويقيم حيث يشاء ، ولا يرضى إلا أن يكون محبوساً مع أولاده ، فحبسه معهم ، ووسع

عليهم ، وأطلق لهم وصول ولدهم وحرمهم إليهم .

فإذا كان يحيى سيئ الظن ، يضمر فى نفسه أن ينتقم لنفسه ولولده المقتول منهم والمحبوس ؛ أفما كان فى إطلاقه من السجن تمكين له من ذلك ؟ !

يجوز أن يتمكن يحيى من ذلك ، لو أن الرشيد أطلقه إطلاقاً ، وتركه يقيم حيث يشاء ، وينتقل كيفما أراد ؛ ولكن الرشيد حمله معه إلى الجهة التى يريد أن يقيم فيها ، وإذا رضى يحيى أن يخرج من السجن ، فإن الرشيد لن يدعه من غير أن يوكل به سراً أو جهراً ، وإن لم يوكل به ، فإن أولاده رهائن عنده ، يضمنون حسن سير أبيهم ، وعدم عمله على إثارة قلق أو شغب يتصل بالخليفة أو بغيره مما عسى أن يكون فيه مساس بسمعة الدولة .

وقد ظل الفضل بن يحيى فى الحبس موكلا به حتى سنة ١٩٣ هـ ، فأصابه ثقل فى لسانه ، فلم يعد يفصح ويبين إذا نطق ، وأصابه ثقل فى شقه ، فلم يعد يسهل عليه أن يتحرك ، فعالجه أطباء زمانه ، فخفف عنه بعض ما به ، ثم لم يلبث أن عاودته العلة ، وألحت عليه ، فعقد لسانه ، وتوفى وسنه خمس وأربعون سنة ، فجزع عليه الناس .

وكثيراً ما استشفع الناس ليحيى عند الرشيد فلم يقبل شفاعة مهما كانت منزلة الشفيع عنده ، ولعل من أعز الناس عليه ظئره ومرضعته أم جعفر زوج يحيى البرمكى ، وقد جرى بينها وبينه حديث طويل سنذكره بعد .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن السيدة زبيدة زوج الرشيد وابنة عمه كانت تضيق بالبرامكة فى آخر أيامهم أشد الضيق ، وتنكر عليهم تضييقهم عليها فى النفقة أشد الإنكار ، فكانت لساناً حديداً عليهم بعض الوقت ، فساعدت فى إثارة الخليفة عليهم .

ولكن ابنها الأمين كان رضيع يحيى بن جعفر بن يحيى ، فرأى يحيى بن خالد أن يمت بذلك إلى الأمين ليشفع فيه عند أمه وأبيه ، وقالوا : إن الأمين وعده

أن يجعل أمه زبيدة تستوهبه من الرشيد هو وأولاده ، ولكن اللهو شغله عنهم فكتب إليه يحيي أبياتاً(١) :

يا مَلاذى وعِصْمتى وعِمادى ومُجيرى من الخطوب الشِّداد
بك قام الرجاء فى كلِّ قَلْب زاد فيه البَلاءُ كلَّ مزاد
إنما أنت نعمـةٌ أُعْقِبَتْها أَنْعُمٌ نفعُها لـكل العباد
ما أَظَلَّتْ سَحائبُ اليأسِ إلا خلت فى كَشْفِها عليك اعتمادى
إنْ تراخَتْ يداكَ عنى فُواقا أكلَتْنى الأيامُ أكلَ الجراد

بعث يحيي إلى الأمين بهذه الأبيات ، فأرسلها إلى أمه زبيدة ، فأعطتها الرشيد ، وتهيأت للاستشفاع عنده ، فلما فرغ من قراءتها لم ينقض حَبْوته حتى وقع فى أسفلها : عظيم ذنبك أمات خواطر العفو عنك . ورمى بها إلى زبيدة ، فعلمت أنه لا يرجع عما فعل .

ونحن نرجح أنه لو أرادت زبيدة أن تخلص فى الشفاعة وشفعت ، لجاز أن يغير الرشيد رأيه ولو بعض التغيير ، لأن منزلة زبيدة عنده لا تدانيها منزلة ، أليست هى زبيدة التى أراد أن يتنازل عن ولاية العهد مطمئناً راضياً ما دام يكفل لنفسه عيشاً رخياً فى ظل زوجته وابنة عمه هذه ؟ !

---

(١) تنسب هذه الأبيات لسليمان الأعمى أخى مسلم بن الوليد .

أم جعفر

هى فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة بن شبيب ، وقدمنا أنها أرضعت الرشيد على جعفر ، فهما أخوا رضاعة، وكان الرشيد ربى فى حجرها ، وغذى برسلها ، لأن أمه ماتت عن مهده ، فكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها ، والتبرك برأيها ، وكان قد آلى على نفسه ، وهو فى كفالتها — ألا يحجبها ، وألا تستشفعه لأحد إلا شفعها ، وآلت عليه أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا تشفعت لأحد لغرض دنيا ؛ فكم من أسير فكت، ومهم عنده حلّت، ومنغلق منه فتحت ، ومنبهم أمامه كشفت . وكربة فرجت ، وضيق وسعت ، ومظلوم أنصفت .

واحتجب الرشيد بعد قدومه ، فطلبت الإذن عليه من دار البانوقة أخته ، ومتت بوسائلها إليه ، فلم يأذن لها ، ولا أمر بشىء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لثامها ، محتفية فى مشيتها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب ؛ فقال : ظئر أمير المؤمنين بالباب ، فى حالة تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الوالد ، وشفقة أم الواحد .

فقال له الرشيد : ويحك يا بن الفضل ! ! أوساعية ؟ ! فقال : نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين، وحافية ، فقال : أدخلها يا عبد الملك ، فرب كبد كريم غذتها ، وكربة كشفتها ، وفرجة فرجتها ، وعورة سترتها .

فلما دخلت ، ونظر إليها داخلة ، محتفية ، قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس ، فأكب على تقبيل رأسها ، ومواضع ثدييها ، ثم أجلسها معه، فقالت:

يا أمير المؤمنين ؛ أيعدو علينا الزمان ، ويجفونا خوفاً لك الأعوان ، ويحردك بنا البهتان ، ويوسوس لك بإيذائنا الشيطان ، وقد ربيتك ، وأخذت برضاعى لك الأمان من دهرى ؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ ! قالت له ؛ ظئرك يحيى ، وأبوك بعد أبيك ، ولا أرشحه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته له ، وإشفاقه عليه ، وتعرضه للحتف فى شأن موسى أخيه ؛ فقال : يا أم الرشيد ؛ قدر سبق ، وقضاء حم ، وغضب من الله نزل .

قالت : يا أمير المؤمنين ؛ يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب .

فقال الرشيد : صدقت ، فهذا مما لا يمحوه الله ؛ فقالت : الغيب محجوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد يسيراً ، ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع (١)

فقالت بغير روية : ما أنا ليحيي بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قيل :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله : « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » ، فأطرق هرون قليلا ثم قال :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل (٢)

فقالت : يا أمير المؤمنين ، وهو يقول :

---

(١) البيت من قصيدة لأبي ذؤيب الهذلى قالها فى رثاء أبنائه الخمسة الذين أصابهم الطاعون فماتوا ، ومطلع القصيدة :

أمن المنون وريبها نتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع ؟

والقصيدة كاملة فى المفضليات والجمهرة .

(٢) هذا البيت والذى بعده من قصيدة لمعن بن أوس المزنى من قصيدة مطلعها

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل على أينا تعدو المنية أول

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى   يمينك فانظر أى كف تبدل ؟

قال الرشيد : رضيت ، فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ فهبه لله تعالى ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ترك شيئاً لله لم يوجده الله . فأكب الرشيد مليًّا ، ثم رفع رأسه وهو يقول : لله الأمر من قبل ومن بعد ، قالت : يا أمير المؤمنين ؛ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . ثم قالت : أذكرك يا أمير المؤمنين بأليتك : أن لا استشفعتك إلا شفعتنى ، فقال : وأنا أذكرك يا أم الرشيد ، بأليتك : أن لا شفعت لأحد تعرض لدنيا .

فلما رأته صرح بمنعها ، وما ذعن لمطلبها ؛ أخرجت له حقًّا من زمردة خضراء ، فوضعته بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ ! ففتحت عنه قفلا من ذهب ، فأخرجت منه حذاءه وحفضه وذؤابته وثناياه ، وقد غمس ذلك بمسك نثير فى الحق ، فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ أستشفع إليك ، وأستعين بالله ، وبما صار معى من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحيي عبدك وظئرك .

فأخذ الرشيد جميع ذلك فلثمه ، ثم استعبر ، وبكى بكاء شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومضى البشير إلى يحيي فلم يظن إلا أن البكاء رحمة عليه ، ورجوع الرشيد عنه ؛ فلما أفاق من بكائه رد جميع ذلك فى الحق ، وقال لها : لحسن ما حفظت الوديعة ، فقالت : فأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين ؛ فسكت ، وضم الحق ، ودفعه إليها ؛ وقال : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، قالت : وقال عز وجل : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وقال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » .

فقال لها : وما ذاك يا أم الرشيد ؟ ! فقالت : ما أقسمت لى به يا أمير المؤمنين ؛ ألا يحجبك عنى حاجب .

فقال لها : يا أم الرشيد ؛ أحب أن أشتريه محكمة فيه ، قالت : أنصفت

يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت غير مستقيلة لك ، ولا راجعة عنك ، قال : بكم ؟، قالت : برضاك عمن لم يسخطك .

قال : يا أم الرشيد ؛ أما لى عليك من الحق مثل الذى لهم ؟ ! قالت: بلى يا أمير المؤمنين ، إنك لأعز على ، وهم أحب إلى . قال لها : فتحكمى فى ثمنه بغيرهم ، قالت : بلى ، قد وهبتكه ، وجعلتك فى حل منه ، وقامت عنه ؛ فبقى الرشيد مبهوتاً ، ما يحير لفظة .

وخرجت عنه ، فلم تعد إليه .

وهذه قصة يجوز أن تكون قد وقعت ، ويجوز أن تكون من وضع القصاص ، وضعوها ؛ ليصوروا بها مقدار قسوة الرشيد على البرامكة ؛ وغلظته عليهم ، وعقوقه لأم جعفر التى أرضعته وربته ، وتنكره ليحيى الذى عرض نفسه للهلاك من الهادى ، وظل يدافع عن حق الرشيد فى الخلافة حتى حفظها له .

من ذيول النكبة

إبراهيم بن عثمان بن نهيك :

من رجال البرامكة المتصلين بهم ، حزن عليهم حزناً شديداً ، وكان لا يفتأ يذكرهم ، ويذكر جعفراً خاصة ، ويبكى جزعاً عليهم ، وحباً لهم .

وقد اعترته حالة نفسية شديدة ثائرة ، خفت لها أعصابه حتى تجاوز حد البكاء إلى حد طلب الثأر لجعفر من الرشيد قاتله ؛ فكان إذا خلا بجواريه وشرب ، قال : يا غلام ؛ سيفى ذا المنية ، فيجيئه غلامه بالسيف فينتضيه ، ثم يقول : واجعفراه ! ! واسيداه ! ! والله لأقتلن قاتلك ، ولأثأرن بدمك عن قليل ! ! وكان يكرر هذا كثيراً ، حتى ذاع فى الناس أنه يقول ويقول ، ثم انتقل هذا إلى الرشيد من طريق يشبه الطريق الذى نقلت به أخبار عبد الملك بن صالح إلى الرشيد ، فإن حساد إبراهيم والحانقين عليه ، أو حساد البرامكة الذين ما زالوا يبغضون أصدقاءهم — أغروا ابنا لإبراهيم وخادماً : أن يذهبا إلى الرشيد ، ويخبراه خبره ، وفتحت لهما الأبواب ، ويسر لهما مقابلة الخليفة ؛ وإن الذى يسر لهما ذلك وسهله هو الفضل بن الربيع الذى سهل مثل هذا ويسره لابن عبد الملك ابن صالح وخادمه فى وقتين متقاربين ؛ فإن الفضل دخل على الرشيد ، وأخبره خبراً عن إبراهيم ، فقال له الرشيد : أدخله ، فدخل ، فقال له الرشيد : ما الذى يقول الفضل عنك ؟ ! فأخبره بقول أبيه وفعله ؛ فقال له الرشيد : فهل سمع هذا أحد معك ؟ ! قال : خادمه ، فدعا خادمه سراً وسأله ، فقال : لقد قال ذاك غير مرة ولا مرتين ، فقال الرشيد : ما يحل لى أن أقتل ولياً من أوليائى بقول

غلام وخصى ، لعلهما تواصيا على هذا ، لمنافسة الابن على المرتبة ، ومعاداة الخادم لطول الصحبة .

ثم ترك ذلك أياماً ، أراد بعدها أن يمتحن إبراهيم بن عثمان بمحنة تزيل الشك عن قلبه ، والخاطر عن وهمه ؛ فاستدعى الفضل بن الربيع ، وقال له : إنى أريد محنة إبراهيم بن عثمان فيما رفع ابنه عليه ، فإذا رفع الطعام ، ووضع الشراب ، فقل له : أجب أمير المؤمنين ، فسينادمك ، إذ كنت منه بالمحل الذى أنت به ، فإذا شرب فاخرج ، وأخلنى وإياه .

فعل ذلك الفضل بن الربيع ، وقعد إبراهيم للشراب ، ثم وثب حين وثب الفضل بن الربيع للقيام ، فقال له الرشيد : مكانك يا إبراهيم ، فقعد ، فلما طابت نفسه ، أومأ الرشيد إلى الغلمان ، فتنحوا عنه ، ثم قال : يا إبراهيم ؛ كيف أنت وموضع السر منك ؟ فقال : يا سيدى ؛ إنما أنا كأخص عبيدك ، وأطوع خدمك ؛ قال : إن فى نفسى أمراً ، أريد أن أودعكه ، وقد ضاق صدرى به ، وأسهرت به ليلى ؛ قال : يا سيدى ؛ إذن لا يرجع عنى إليك أبداً ، وأخفيه عن جنبى أن يعلمه ، ونفسى أن تذيعه .

قال الرشيد : ويحك ! إنى ندمت على قتل جعفر بن يحيى ندامة ما أحسن أن أصفها ، فوددت أنى خرجت من ملكى ، وأنه كان بقى لى ، فما وجدت طعم النوم منذ فارقته ، ولا لذة العيش منذ قتلته .

فلما سمع إبراهيم ذلك من الرشيد ، نسى نفسه ، ونسى المقام الذى هو فيه ، ونسى أنه إذا سار فى تيار تفكير الخليفة ، فإنه إنما يذم عملا وقع ، وأمراً ليس فى الرجوع عنه سبيل ، ولا إلى مداواته حيلة ، ومن حسن السياسة مع الملوك ، ألا ينتقد ما عملوا ، وإن اعترفوا هم على أنفسهم بخطئهم ، لذلك لم يكن من الحكمة أن يقول إبراهيم للرشيد ، وقد أسبل دمعه ، وأذرى عبرته : رحم الله أبا الفضل ، وتجاوز عنه ، والله يا سيدى لقد أخطأت فى قتله ، وأوطأت العشوة

فى أمره ، وأين يوجد فى الدنيا مثله ، وقد كان منقطع القرين فى الناس أجمعين ؟!

كان إبراهيم صريحاً جريئاً وإن جانب الحكمة ، فإنه أغضب الرشيد الذى قال له: قم ، عليك لعنة الله ، فقام ما يعقل ما يطأ ، وأحس أنه أخطأ ، وأسرع إلى أمه يقول لها : يا أمى ؛ ذهبت والله نفسى ؛ قالت : كلا إن شاء الله ، وما ذاك يا بنى ؟! قال : ذاك أن الرشيد امتحننى بمحنة ، والله لو كان لى مائة نفس ، لم أنج بواحدة منها !

ولم يمض إلا بضع ليال حتى دخل عليه ابنه ، وقتله بسيفه .

نفسية الرشيد بعد النكبة

لا شك أن العشرة الطويلة بين الرشيد والبرامكة ، وأن أبوة يحيى للرشيد ، وأخوة جعفر بن يحيى له ، وموقف يحيى منه أيام الهادى ، ودفع الهادى عنه حين أراد أن ينقل ولاية العهد عنه إلى أحد أبنائه ، وأن الصلة الطيبة التى كانت بين الرشيد وجعفر — كل ذلك له فى نفس الرشيد أثر أى أثر ، فلا بد أن تعاوده الذكرى أحياناً ، ولا بد أن يتحرك فى نفسه حنين إلى عهود مضت ، وإلى مجالس أنس أو مجالس جد وصرامة ، أو مجالس مشاورة ومداورة ، أو مصاحبة فى سفر ، أو فى غزاة ، أو حج ، أو أى شىء مما كان يحدث بين الرشيد ويحيى وأولاد يحيى ؛ سبعة عشر عاماً فى الخلافة ، وقريباً منها قبل الخلافة .

وكانت نفس الرشيد تضطرب عندما تعاوده الذكرى ، فهو يأسف أحياناً على ما فعل ، ولكنه اضطر إليه اضطراراً ، محافظة على ملكه ، وكان يساوره الشك فيما دسه عليهم الناس أحياناً من أنهم حاولوا قتله ، أو انتزاع الملك منه .

وبعض المؤرخين يرى أنه ندم على قتل البرامكة ، وتحسر على ما فرط منه فى أمرهم ، وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم إلى حالهم ، وكان كثيراً ما يقول : حملونا على نصاحنا وكفاتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا إلى ما أرادوا منا لم يغنوا عنا شيئاً ، وينشد :

أقلوا علينا لا أبا لأبيكم من اللوم ، أو سدوا المكان الذى سدوا

ونرجح أن الرشيد كان لا يرى إعادتهم وإعادة دولتهم ، ولكنه كان يقول هذا حينما يرى تقصير خلفائهم عنهم ؛ ولو أنه أعادهم لكان مرتكباً بذلك أمراً عظيماً لايقره عليه حسن الرأى ولا حكمة السياسة ، ولا جمال التدبير ؛ لأنه وترهم

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

فى جعفر وفجعهم فيه فجيعة إن جاز أن ينساها الفضل ، فلن ينساها يحيي أبوه ، ولن ينساها أسباب جعفر ومواليه وأنصاره .

وكان بعد أن نكبهم يسأل كثيراً عن حقيقة ما كان يبلغه من الأخبار عنهم. استدعى يوماً أحد كتّابه ، واختلى به ، وأدناه منه جداً ، ثم سأله عن حال جعفر ، وعن حقيقة ما أشيع عنه من أنه أراد أن يغدر به ، أو أنه أراد أن يحتال لقتله ؛ فحلف له الكاتب أيماناً ، أكدها له : أنه ما عرف هذا منه قط ، ولا وجده حائداً عن طاعة ، ولا مقصراً فى موالاة ، ولا تاركاً معاداة من ظن به انحرافاً عنه ، وموالاة من وثق بموالاته .

فلما سمع الرشيد ذلك من الكاتب ، استعاده اليمين ثلاثاً فأعادها ، فبكى ، وقال : يا أسفى على جعفر !

وكان هذا الكاتب من خاصة البرامكة ، ومن الذين صودرت أموالهم وأملاكهم ، فلما سمع الرشيد ذلك منه رد عليه ماله .

ولما توفى يحيي ، بكى عليه الرشيد أحرّ بكاء وأمره ، واغتمّ غماً شديداً ، وقال : اليوم مات أعقل الناس وأكملهم .

ويخيل إلينا أن الرشيد خشى أن ينقض الناس مبايعة المأمون والأمين بولاية العهد ، ولعله كان يفهم أن يحيي وأولاده هم الذين يحملون الناس على الوفاء بتلك البيعة ، فأما وقد نكبهم فالناس فى حل من الخروج منها إلى غيرها ، ولا سيما أن للبرامكة أنصاراً كثيرين ، قد يفكرون فى إقلاق بال الرشيد ، وإقضاض مضجعه من هذه الناحية .

فكر الرشيد فى هذا ، فجدد البيعة لولديه الأمين والمأمون ، وذلك أنه خرج إلى الرى سنة ١٨٩ هجرية ؛ لأن واليها على بن عيسى بن ماهان ، عاث بخراسان ، ووتر أشرافها ، وأخذ أموالهم ، واستخف برجالهم ؛ فكتب رجال من كبرائها ووجوهها إلى الرشيد ، وكتبت جماعة من كورها وقراها إلى قراباتها

وأصحابها تشكو سوء سيرته ، وخبث طعمته ، ورداءة مذهبه ، وتسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به من أحب من كفاته وأنصاره ، وأبناء دولته وقواده ؛ لإصلاح ما أفسد على ، ورتق ما فتق ، ولاسيما أن الرشيد نمى إليه أنه أجمع على خلافه ، فخرج ومعه المأمون ، ولما صار بقرماش ، أشخص إلى على جماعة من القضاة وغيرهم ، وأشهدهم أن جميع ما له فى عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع ، وما سوى ذلك ، لعبد الله المأمون ، وأنه ليس له فيه قليل ولا كثير ، وجدد البيعة له على من كان معه .

وهذه المسألة فى ظاهرها قضاء على على بن عيسى ، وتأديب له ، لأنه أجمع على المخالفة ، وفى باطنها تجديد البيعة للمأمون ، بدليل أنه فى الوقت نفسه وجه هرثمة بن أعين ، صاحب حرسه إلى بغداد ، فأعاد أخذ البيعة على الأمين للمأمون ؛ وبالجملة جدد فى هذا العام ما كان صنعه له البرامكة قبل ذلك بأكثر من ست سنوات ليؤكد على الناس مبايعاتهم ، وليضمن عدم خروجهم منها ؛ ولو أنه كان مطمئناً إلى ما عمله بالنسبة للبرامكة لما كان فى حاجة إلى تجديد العهود وأخذ المواثيق على الناس ، بعد أن كان أخذها عليهم من قبل .

ولعل الرشيد كان يعتقد فيما بينه وبين نفسه أنه ظلم البرامكة ، وأن قتل جعفر كان من غير جريرة ارتكبها واستحق عليها أن يقتل ، وأن يشطر جسمه شطرين بعد فصل رأسه عنه ، وأن يصلب على ثلاثة جذوع فى مدينة السلام .

لعل هذه الفعلة كانت جريئة من الرشيد ، فكان ضميره يؤنبه عليها ، وكان يديم التفكير ، حتى كان يفزع وكان يروعه أن يذكر هذه الحادثة ؛ وقد يكون هذا الفزع ، يحدث له فى منامه رؤى تزيد فى هول ما يصوّر له خياله فى اليقظة ، وإلا ففيم كان هذا الهم الذى صبحه ذات يوم ، فجعله يفكر ويستغرق عليه التفكير مشاعره ، فيدخل عليه طبيبه جبريل بن بختيشوع ، ويقف أمامه فلا يفطن له ، فيتقدم إليه مستعجباً ، ويقول : يا سيدى ؛ جعلنى

الله فداك ؛ ما حالك هذا ؟ ! ! أعلة ؟! فأخبرنى بها ، فلعله يكون عندى دواؤها ؛ أو حادثة فى بعض من تحب ؟ ! فذاك ما لايدفع ، ولاحيلة فيه إلا التسليم ، والغم لادرك فيه ؛ أو فتق ورد عليك فى ملكك ، فلم تخل الملوك من ذلك ؛ وأنا أولى من أفضيت إليه بالخبر ، وتروحت إليه بالمشورة .

يستقصى جبريل الأحداث التى يصح أن تكون سبباً فيما هو عليه من الهم ، فلا يجد عنده واحداً منها ؛ وإنما هى رؤيا رآها فأفزعته ، وملأت صدره ؛ هى أنه رأى كأنه جالس على سريره ، إذ بدت من تحته ذراع يعرفها ، وكف يعرفها ، لا يفهم اسم صاحبها ، وفى الكف تربة حمراء ؛ ثم قال له قائل يسمعه ولا يرى شخصه : هذه التربة التى تدفن فيها ، فلما انتقل إلى طوس ، ذكر تلك الرؤيا ، فوثب متحاملا ، يقوم ويسقط ، واجتمع الناس من حوله : ما حالك ؟ ! وما دهاك يا أمير المؤمنين ؟ ! ثم رفع رأسه إلى جبريل ، وقال له : إنها الرؤيا التى رأيتها فى الرقة .

فما هذا الذى ملك عليه عقله وتفكيره ؟ !

إنه لشىء عظيم ، أثر فى نفسه ، وملأها رعباً ، وقد يكون قتل جعفر ، ويبدو لى أن نفسية الرشيد كانت قلقة أشد القلق ؛ فهو يحزن عليهم ، ويشتد به الحزن أحياناً حتى يبكى ؛ فهل كان يرى أنه ظلمهم ، فهو يخاف الله ، ويهوله شبح الظلم الأسود ، فيحزن ويبكى ؛ حتى لحظت عليه أخته عُلَيَّة(١) ذلك فقالت له: ما رأيت لك يوم سرور تاماً منذ قتلت جعفراً ، فلأى شىء قتلته ؟ فقال : يا حياتى ، لو علمت أن قميصى يعلم السبب الذى قتلت له جعفراً لأحرقته .

---

(١) علية بنت أمير المؤمنين المهدى ، أخت الرشيد ، كانت أديبة شاعرة ، تراسل بشعرها من تختصه ، وكان الرشيد يبالغ فى إكرامها واحترامها ، وكانت تحسن صناعة الغناء ، توفيت ببغداد سنة ٢١٠ هـ ، سنة ٨٢٥ م « الأغانى ، فوات الوفيات » .

وهل كان يذكر ما قدمت له يدا يحيى فى دفع أخيه الهادى عنه ومعاونته أمه الخيزران فى إتمام الخلافة له ، فيحزن ويبكى ؟ !

وهل كان يذكر ما قام به يحيى وأولاده فى تدبير شئون الملك ، وفى إخماد الثورات الجامحة التى كانت تقوم بين اليمنية والمضرية فى الشام ؛ فيحزن ويبكى ؟ !

وهل كان يذكر أن يحيى وأولاده هم الذين كانوا يوطئون له الأكناف فى الأقطار التى كانت تتفتق عليه كمصر وخراسان ؛ فيحزن ويبكى ؟ !

وهل كان يذكر أن يحيى وأولاده هم الذين جاهدوا ما جاهدوا حتى استتموا البيعة للأمين والمأمون ؛ فيحزن ويبكى ؟ !

إنه كان حينما يخلو لنفسه يذكر ذلك ، ويذكر غيره ؛ فيحزن ما شاء أن يحزن ، ويبكى ما طاوعه البكاء .

وكذلك كان يجلس مع أعوانه من بعدهم فيرى الفرق بين معين ومعين ، وبين شخصية وشخصية ، وبين رأى ورأى ؛ فيحزن ما شاء أن يحزن ، وقد يبكى إذا غلبه البكاء .

وبعد ذلك فإنه كان يذكر أحياناً أنهم أساءوا إليه فى حرمه أو فى ماله أو فى سلطانه ، أو فى أى شىء آخر كما يقدر هو — فيثلج قلبه ، وتطمئن نفسه ، ويرتاح ضميره ، وقد قيل : إن يحيى حينما اعتل وأشفى ، دعا برقعة ، وكتب فيها عهداً للرشيد هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : قد تقدم الخصم لموضع الفصل ، وأنت على الأثر ، والله الحكم العدل . وأوصى السجان أن ينقل هذه الوصية إلى الخليفة بعد أن يموت ، فلما مات أوصل السجان الوصية إلى الرشيد ، فلما قرأها كتب : الحكم الذى رضيت به فى الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك فى الدنيا ، وهو من لا ينقض حكمه ، ولا يرد قضاؤه .

فهو إذا قرأ كلام يحيي غضب ، وكتب تحته وهو غضبان .

وأيـًّا كان الأمر ، فإنه كان قلقا النفس ، مبلبل الخاطر ، مضطرب الفكر ، مزعزع الوجدان .

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٥٧ .

مصر فى عهد البرامكة

قدمنا أن الرشيد دفع خاتمه إلى يحيى بن خالد ، وفوّض إليه أن يولى ويعزل كما يشاء ، ومصر إحدى الولايات الإسلامية ، فكان لا بد أن يولى عليها يحيى من يشاء ، ويعزل من يشاء .

وقد حدث أنه لما مات الهادى استخلف الرشيد سنة ١٧٠ هـ على مصر على بن سليمان الأمير الهاشمى العباسى وكان من قبل والياً للهادى ، فبقى عليها ، وكان رجلا عدلا ، رفيقاً بالرعية ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، متصدقاً ؛ وكان مبالغاً متزمتاً متطرفاً ؛ فهدم الكنائس ، ومنع الملاهى وشرب الخمر ، وكان الناس يحبونه ، ويميلون إليه ، فلما رأى ذلك حدثته نفسه بالوثوب إلى الخلافة ، فعلم الربيع بذلك ، فعزله فى آخر ربيع الأول سنة ١٧١ هجرية .

وفى سنة ١٧١ هـ ولى على مصر موسى بن عيسى بن موسى ، وهو أمير هاشمى عباسى ، وبعد أن وصل أذن للنصارى ببناء كنائسهم التى كان على ابن سليمان هدمها ، وقد أفتى ببنائها الليث بن سعد ، وعبد الله بن لهيعة ؛ وكان موسى عاقلا جواداً ممدحاً متواضعاً رفيقاً بالرعية ، وكان يبكى عندما يعظ الواعظ ؛ وكان أديباً ؛ جلس يوماً بميدان مصر ، فأطال النظر فى النيل ونواحيه ، فقيل له : ما يرى الأمير ؟ فقال : أرى ميدان رهان ، وجنان نخل ، وبستان شجر ؛ ومنازل سكنى ، ودور خيل ، وجبان أموات ، ونهراً عجاجاً ، وأرض زرع ، ومرعى ماشية ، ومرتع خيل ، ومصايد بحر ، وقانص وحش ، وملاح سفينة ، وحادى إبل ، ومفازة رمل ، وسهلا وجبلا ، فى أقل من ميل فى ميل(١) .

(١) لم نجد هذه العبارة إلا فى كتاب النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٦٧ وما عداه من المراجع=

وفى سنة ١٧٢ هـ عزل موسى بمسلمة بن يحيى ، وهو ليس أميراً ولا هاشمياً ، وإنما هو بجلى خراسانى ، أو جرجانى ، ولم يحسن الولاية ، فتفتقت عليه البلاد ، فعزل بعد أحد عشر شهراً ، وفى هذه الشهور اختلف مع أهل الحوف(١) ، فأخرج العساكر لحفظ البحيرة التى كانت بالمغرب .

وفى آخر سنة ١٧٣ هـ عزل مسلمة بمحمد بن زهير الأزدى ، فاختل النظام ، وثار الناس على بعض أعوانه ، فعزل بعد بضعة أشهر .

وفى السنة نفسها عين داود بن يزيد بن حاتم المهلبى ، وهو الذى أخذ بيعة المصريين بولاية العهد للأمين ؛ وفى سنته استتب الأمن ، وسكن الحال ، واطمأن الناس .

وفى أول سنة ١٧٥ هـ عزل داود بموسى بن عيسى بن موسى الذى ولى مصر للمرة الثانية ، فحدثته نفسه بالخروج على الخليفة فعزله جعفر بن يحيى بعمر ابن مهران كاتب الخيزران تحقيراً لموسى ؛ وبعض المؤرخين لا يعدون عمر بن مهران من الولاة الذين ولوا شئون مصر ، مع أنه ورد فى المحاضرة الثالثة عن الأوراق البردية ومنها المحفوظ بدار الكتب المصرية ص ٩ ما يثبت ثبوتاً لا شك فيه أن عمر بن مهران ولى مصر ، وكان قائداً للجيش ، وكاتباً للخراج ؛ ويجوز أن إبراهيم بن صالح هو الذى استخلف عمر هذا بإشارة الرشيد ، ويجوز أيضاً أن جعفر بن يحيى هو الذى تولاها واستناب عنه عمر .

وفى سنة ١٧٦ هـ تولى إبراهيم بن صالح بن على الأمير الهاشمى العباسى للمرة

= كالطبرى ، وابن الأثير ، والمقريزى ، وابن كثير ، والذهبى ، والسيوطى ، والنويرى ، واليعقوبى لم يذكرها وقد أثبتناها لندل على حال العمارة فى هذه الأيام ، وقد نقلها عن النجوم الزاهرة المرحوم أمين سامى باشا فى كتابه تقويم النيل ج ١ ص ٣١ .

(١) الحوف : أرض بمصر أولها من جهة الشام وآخرها قرب دمياط ، والحوف قسمان : شرقى وغربى ، وهو يشتمل على بلدان وقرى كثيرة ، ولعله يساوى الآن شبه جزيرة سيناء و محافظة القنال وشمال مديريتى الشرقية والدقهلية .

الثانية ، (وكانت المرة الأولى فى سنة ١٦٥ هـ) زمن المهدى ، فمات بعد شهرين وبعد شهر من وصوله إليها ؛ وكان إبراهيم من وجوه بنى العباس ، خيراً ديّناً .

وتولى بعده عبد الله بن المسيب الضبى إلى رجب سنة ١٧٧ هـ ، فكانت مدته أحد عشر شهراً ثم عزل بإسحاق بن سليمان العباسى الهاشمى وأخذ فى إصلاح أمر مصر ، وزاد على المزارعين زيادة أفحشت بهم ، فسئمه الناس ، وكرهوه ، وخرج عليه جماعة من أهل الحوف ، فعزل سنة ١٧٨ هـ .

تولى بعده هرثمة بن أعين ، أحد أمراء الرشيد وخواص قواده ؛ ولاه على إمرة مصر ، وبعثه إليها فى جيش كبير ، فتلقاه أهلها بالطاعة ، وأذعنوا له ، ولم يبق والياً على مصر سوى شهرين ونصف شهر . وبعد هرثمة تولى عبد الملك بن صالح.

ففى هذه السنة تناوب على مصر ثلاثة عمال ، هم : إسحاق بن سليمان ، وهرثمة ، وعبد الملك .

وفى أول سنة ١٧٩ هـ تولى عبيد الله بن الخليفة المهدى ، وظل والياً قرابة تسعة أشهر .

وفى رمضان منها تولى موسى بن عيسى للمرة الثانية ، وبقى فى ولايته نحو عشرة أشهر ، وأخذ فى إصلاح أمور مصر ، وأصلح بين قيس ويمن الحوف .

وفى جمادى الآخرة سنة ١٨٠ هـ تولى عبيد الله بن المهدى ، وظل والياً إلى رمضان سنة ١٨١ هـ .

وتولى بعده إسماعيل بن صالح الأمير الهاشمى العباسى أمير مصر ، وكان شجاعاً فصيحاً عاقلا أديباً خطيباً .

وفى جمادى الآخرة من سنة ١٨٣ هـ صرف إسماعيل عن مصر بإسماعيل ابن عيسى الهاشمى العباسى ، وظل والياً ثلاثة أشهر إلا أياماً .

وفى رمضان من تلك السنة تولى الليث بن الفضل ، فمهد أمور مصر ،

واستوفى الخراج ، وظل والياً أربع سنوات وسبعة أشهر .

وفى جمادى الآخرة سنة ١٨٧ هـ عزل الليث بأحمد بن إسماعيل .

* * *

هؤلاء الولاة الكثيرون تولوا إمرة مصر زمن البرامكة ، أى فى نحو سبعة عشر عاماً ، وهم ثلاثة عشر حاكماً ؛ فكان الواحد منهم لا يكاد يولى حتى يعزل ، ولا يكاد يصل إلى الفسطاط حتى يستدعى إلى بغداد .

ومما يلفت النظر فى هؤلاء جميعاً أن منهم سبعة ولاة هاشميين عباسيين تربطهم بالخليفة قرابة قريبة .

وأن بضعة منهم تولوا غير مرة ؛ فموسى بن عيسى وليها ثلاث مرات ، وعبيد الله بن المهدى وليها مرتين ؛ وأن بعضهم قصرت مدته ، حتى ما يكاد يصل حتى يعزل ؛ فإسماعيل بن عيسى تولى أقل من ثلاثة أشهر ، وعبيد الله بن المهدى فى إحدى ولاياته ، لم يمكث أكثر من شهرين ، وفى سنة ١٧٨ هـ تداول الولاية ثلاثة ولاة .

والتولية والعزل على هذه الصورة ، إن دلت على شىء ، فإنما تدل على اضطراب فى السياسة العامة فى الدولة ، وعلى أن أولى الأمر لا يحسنون اختيار من يولون .

أو هم يحسنون اختيارهم ولكنهم يسيئون الظن بهم ، ويخافون أن يقووا ، ويتنمروا ، ويستبدوا بالسلطان .

أو أن السلطات العليا فى بغداد تتنازعها جهات مختلفة : فيحيى فى جانب ، والخليفة فى جانب ، وحجاب القصر فى جانب ؛ وقد يكون غيرهم أيضاً فى إحدى الزوايا يرقب ما يجرى من قريب أو بعيد ما يجرى هنا وهناك ، فإذا أتيحت له فرصة أبدى رأيه كما يريد ويهوى ، فلا تكاد إحدى هذه النواحى تختار شخصاً بعينه ، وتوليه أو توعز بتوليته ، ويتوجه الوالى المختار إلى مصر ،

حتى يخرج منافسوه أو منافسو مختاريه بغيره ، ولا يزالون به حتى يولى ، وهكذا دواليك : تولية وعزل ، وتقريب وإقصاء ، ورضى وسخط ؛ والأمور بين هذه المتناقضات تضطرب أى اضطراب : لأن الوالى لا يكاد يستقر ، ويرتب مشروعات الإصلاح ، ويدرس أحوال الناس ، ويتعرف منازعهم ومشاربهم — حتى يهبط عليه من يحمل معه خطاب العزل فيسمع ويطيع ، ويخرج إلى بغداد.

ومن أعجب العجب أن هؤلاء الولاة الذين يعزلون عن ولاية مصر أو أكثرهم ، لا يعزلون وهم على غضب من الخليفة ، ولكنهم يصلون إلى بغداد ، فيقربهم ويكرمهم ويوليهم أمورا أخرى لا تقل خطراً عن إمرة مصر .

فعلى بن سليمان مع أنه كان ينوى الوثوب على الخلافة والدعوة لنفسه ، خرج فى جيش مع الفضل بن يحيى لقتال يحيى بن عبد الله بالديلم .

وموسى بن عيسى بعد أن صرف عن مصر ، ولى الكوفة ثم دمشق .

ومحمد بن زهير الأزدى ، بعد أن عاد إلى بغداد ، جعل من القواد ، وندب للاستيلاء على تركة محمد بن سليمان بعد موته(١) .

وهرثمة كان يندبه الرشيد للجليل من الأمور .

وعبد الملك بن صالح ولى الجزيرة مرتين ، وغزا الروم .

وعبيد الله بن المهدى استصحبه الرشيد معه إلى خراسان فى حرب رافع بن الليث .

وإسماعيل بن عيسى بعد أن عاد من مصر ، أكرمه الرشيد ، ودام فى

---

(١) هو محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ؛ أخذ الرشيد تركته ؛ لأن أخاه جعفر بن سليمان كان يسعى به إلى الرشيد ، حسدا له ، يقول : إنه لا مال له ، ولا ضيعة إلا وقد أخذ أكثر من ثمنها ، ليتقوى به على ما تحدثه به نفسه — يعنى الخلافة . وإن أمواله حل طلق لأمير المؤمنين . وكان الرشيد يأمر بالاحتفاظ بكتبه ، فلما توفى محمد بن سليمان ، أخرجت الكتب الواردة من جعفر أخيه ، واحتج الرشيد عليه بها فى أخذ أمواله ، ولم يكن له أخ لأبيه وأمه غيره ، فأقر جعفر بالكتب ، فأخذ الرشيد جميع المال ، ولم يعط جعفراً درهما واحداً .

صحبته ، إلى أن حج معه سنة ١٨٦ هـ تلك الحجة التى سار فيها بأولاده وأكابر قواده إلى مكة ، وأكد البيعة بين أولاده ، وهى حجة الأعطيات . فإذا كان أكثر هؤلاء الولاة مرضياً عنهم ، فلم يعزلون ؟ !

وإن سياسة الولايات على هذه الصورة لا تكون مدعاة إلى استقرار أمن ، ولا شمول سلام ؛ ولا تكون باعثاً للطمأنينة ، ولا تجعل الناس فى حال من الرضا ، تدفعهم إلى العمل والإنتاج ، بحيث ترضى عيشتهم ، ويؤدون للوالى خراجه ، طيبة به نفوسهم ؛ لأنهم يؤدونه من فضل مالهم . ونلاحظ أن أكثر هؤلاء الولاة من الأمراء الهاشميين العباسيين ، وأن بعضهم كانت تحدثه نفسه بالخروج على الخلافة ، والتخلص منها .

فهل كان يحيي هو الذى يوليهم ، حتى إذا ظهروا للخليفة بهذا المظهر ، كرههم ، وزهد فيهم ، واطمأن ليحيي وأولاده ؟ !

وهل كان الخليفة هو الذى يوليهم على غير رضا من يحيي ، فيخلفون ظنه فيهم ، إما بمحاولة الوثوب على الخليفة ، وإما بسوء الإدارة ، وظلم الرعية ؟ !

وأيا كان الأمر ، فإن سوء إدارة الولاة الهاشميين ، أو عملهم على الخروج عن الطاعة — كان ينفر الخليفة منهم ، فيستدعيهم إلى بغداد ، ويولى غيرهم ، ولكنه لا يلبث أن يرضى عن كثير منهم كما قدمنا .

وإذا كان هذا شأن ولاية من الولايات الإسلامية ، فإن الولايات الأخرى : كالشام ، وبلاد فارس ، وبلاد المغرب — لم تكن أحسن منها حالا ؛ ولذلك يخطئ من يقول : إن الأمن فى هذه الفترة كان مستتباً ، وإن الشعوب الإسلامية كانت فى حال طيبة من الاستقرار والسلام والرفاهية ، والاطمئنان السياسى والاقتصادى . وقد سقنا لك الحالة فى مصر ؛ لتعرف منها الحالة فى غيرها من الأقاليم .

أثر النكبة فى الأدب

نكب الرشيد البرامكة ، فلم تنقض أخبارهم بانقضاء دولتهم ، ولم يمت ذكرهم بموت سلطانهم ؛ فإنهم ظلوا مذكورين على ألسنة الناس ، يرثيهم الشعراء سرًّا وجهراً ، ويضع الكتّاب قصص الكرم والجود ، والتمدح بالسيادة والسياسة ، وجميل الرأى ، وحسن التأتى للأمور ، والإشادة بما كان لهم من فضل وسلطان على الدولة وصاحب الدولة ، وظلت « العائلة فخرها ظاهر نحو قرن من الزمان [1] » .

ولقد بالغ الناس فى ذلك كثيراً ، وكانت مبالغتهم عن قصد ؛ لأن الفرس فى ذلك الحين كانت قد آلت إليهم الزعامة فى الأدب العربى ، فكبار الكتّاب فرس ، وفحول الشعراء فرس ؛ فالإشادة بمجدهم إشادة بمجد الفرس ، وتذكير بماضيهم السياسى والأدبى ؛ لهذا لم يكن عجباً أن نرى الشعراء يرثونهم ، ويتغنون بذكرهم ، مع أنهم يعلمون أن الرشيد حريص على ألا يرثيهم أحد ، وأن من يفعل ذلك يعرض نفسه لعقاب شديد ، ولكنهم يشعرون ، ويذيعون شعرهم فى الناس ، فتتناقله الرواة ، ويتناقله العرب والعجم ، ويصل إلى الرشيد ، فيغضب ويثور ، ويستدعى الشاعر ، ويؤاخذه على مخالفته أمر الخليفة ، فيعتذر الشاعر للخليفة ؛ لأنه رجل تفضل عليه البرامكة ، وأعطوه كثيراً من مالهم ، وأغدقوا عليه ، وهو يعترف بالجميل لصاحب الجميل ؛ ولو أراد نفسه على ألا يقول لم تطعه ، فهو دافع نفسانى قوى ، دفعه إلى القول ،

---

(١) خلاصة تاريخ العرب للعلامة سيديو ص ١٠٨ .

وإن كان فى ذلك القول مخالفة وتعرض لعذاب شديد ، يقع عليه من الخليفة .

وموقف الخليفة من هؤلاء الشعراء ، يختلف باختلاف الظروف والملابسات ؛ فهو أحياناً يغضب على الشاعر ويثور ، ويأمر بتوقيع العقاب عليه ، ولا يقبل منه عذراً ، وأحياناً يكون هادئ النفس ، رخى البال ، أو يكون الشاعر لبقاً حلو الحديث ، حسن التأتى فى الاعتذار ، فيقبل منه عذره ، ويخلى سبيله على ألا يقول .

وأيًّا كان الأمر ، فإن الشعراء رثوا البرامكة وبكوهم ، وأكثروا من رثائهم وبكائهم ، فبقى من شعرهم ما بقى وضاع منه ما ضاع .

والشعراء الذين رثوا البرامكة وبكوهم ، هم الشعراء الذين كانوا من قبل يمدحونهم ، ويأخذون منهم سنى عطاياهم ؛ ومنهم : الرقاشى ، والعطوى ، وعلى بن أبى معاذ ، وسلم الخاسر ، وصالح الأعرابى ، وأشجع ، ودعبل ؛ وكلهم من صنائعهم ، اصطنعوهم بالمعروف ، واشتروا ألسنتهم بالمال ، ونافسوا الرشيد فى ذلك منافسة شديدة ؛ فإنه كان مثلهم « يحب المديح ، ويجيز عليه الأموال الجزيلة[1] » ، ولكنهم كانوا أخف من الرشيد على قلوب الشعراء ؛ ولعلهم كانوا أوسع رحاباً ، وأخصب جناباً ، وأندى كفاً ، « فعظم أمرهم ، وأحبهم الناس ، والملوك على مثل ذلك لا تصبر[2] » .

وقد يكون كثرة مدح الشعراء لهم ، وكثرة ترددهم عليهم ، والتلطف لهم — نال من نفوسهم ، فأثر فيها ، وغرس حبهم فى قلوب الشعراء ؛ فمدحوهم عن إيمان وهم أحياء ، ثم رثوهم عن جزع وحزن وهم أموات ؛ والنفس إذا كانت متأثرة ، لا تبالى ما يصيبها ، بل كل ما يصيبها من أذى حسى ، يهون جداً بإزاء ما أظهرته مما يخالجها من شعور باطن ، وحس روحى .

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى . ص ١١١ .

(٢) تاريخ ابن الوردى ج ١ ص ٢٠٧ .

من مراثى الشعراء لهم

ومن(١) رثاء الرقاشى لهم :

أَلَانَ اسْتَرَحْنا واستراحَتْ رِكابُنا   وأمسك من يُجدِى ومن كان يَجْتَدِى
فقُلْ للمطايا قد أَمِنْتِ من السُّرَى   وطِىِّ الفيافى فَدْفَدًا بعد فدفد
وقل للمنــــايا قد ظَفِرْت بجعفرٍ   ولن تَظفرى من بَعْده بمُسَوَّدِ
وقل للعطايا بعــــد فَضْلٍ تعطَّلى   وقل لِلرَّزايا كلَّ يوم تَجَدَّدى
ودونكِ سَيْفاً بَرْمَكياً مُهَنَّدا   أُصِيب بِسَيْف هاشِمِىّ مُهَنَّد

وفيهم يقول فى شعر له طويل :

إن يَغْدِرِ الزَّمنُ الخئونُ بنا فقد   غَدَرَ الزمانُ بجعفر ومحمــــد
حتى إذا وَضَح النهارُ تكشَّفَت   عن قَتْل أكرمِ هالكٍ لم يُلْحَد
وَالْبِيضُ لولا أنهـا مأمورةٌ   ما فُلَّ حَــدُّ مُهَنَّدٍ بمهنَّد
يا آلَ بَرْمَكَ كَمْ لكم من نائل   ونَدًى كعَدِّ الرَّمْلِ غير مُسَرَّد(٢)
إن الخليفةَ ـ لا يُشَكُّ ـ أخوكُمُ ،   لكنَّه فى بَرْمكٍ لم يُولَد
نازَعتموه رَضاع أَكْرَمِ حُرَّةٍ   مخلوقةٍ من جَوْهرٍ وزَبَرْجَدِ(٣)
ملكٌ له كانت يَدٌ فياضَــــةٌ   أبداً تجود بطارِفٍ وبمُتْلَد
كانت يدًا للجود حتى غَلَّها   قدَرٌ ، فأضحى الجودُ مَغلولَ اليَدِ

---

(١) طبرى جـ ١٠ ص ٨٧ ، والعقد الفريد جـ ٥ ص ٣٥٠ .
(٢) مسرد : منقطع .
(٣) إشارة إلى أن الرشيد وجعفرا : أخوان فى الرضاعة .

وفيهم يقول سلم الخاسر :

هَوَتْ أنْجُمُ الجَدْوَى وشلّت يد الندَى ... وغاضَت بُحورُ الجودِ بعد البرامك
هوت أنجم كانت لأبنـاء برمك ... بها يَعْرف الحادى طريقَ المسالك

وفيهم يقول على بن أبى معاذ[1] :

يأيها المُغْتَرُّ بالدَّهر ... والدهرُ ذو صَرْفٍ وذو غَدْر
لا تأمَن الدهرَ وصَوْلاته ... وكُنْ من الدهر على حذَرْ
إن كنتَ ذا جهلٍ بتصْريفه ... فَانْظُرْ إلى المصلوب بالجِسْر
فإنّ فيـه عِبرةً ، فاعْتَبِرْ ... يا ذا الحِجا والعقلِ والفِكْر
وخذ من الدنيا صَفاً عَيْشِها ... واجْرِ مع الدهر كما يَجْرى
كان وزيرَ القائِم المرْتَضَى ... وذا الحِجا والفَضْل والذِّكْر
وكانت الدنيـا بأقْطارها ... إليه فى البَرِّ وفى البحر
يُشَيِّدُ المُلْكَ بآرائه ... وكان فيه نافذَ الأمْر
فبينما جعفرُ فى مُلْكه ... عشيّةَ الجُمْعَةِ بالقمر
يطيرُ فى الدُّنيا بأجْنَاحه ... بأهل طول الجلد والعمر
إذ عَثَر الدهر به عَثْرَةً ... يا وَيْلَتا من عَثْرَةِ الدهر !
وزَلَّت النَّعْلُ به زَلَّةً ... كانت له قاصِمَةَ الظهر
فغُودِرَ البائسُ فى ليلَةِ الـ ... سَبْتِ قتيلا مَطْلَعَ الفجر
وأصبح الفضل بن يحيى وقد ... أُحيط بالشيخ وما يَدْرِى

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٩٥ .

وجىء بالشَّيْخِ وأولادِه يحيى مَعاً فى الغُلِّ والأسْر
والبرْمَكيِّينَ وأتباعِهم مَنْ كان فى الآفاقِ والمِصْر
كأنما كانوا على موْعِدٍ كموعِدِ الناسِ إلى الحشْر
وأصبحوا للناسِ أُحْدُوثةً سبحانَ ذى السلطان والأمر

وفى قتل جعفر قال أبو العتاهية :

قولا لِمَنْ يرْتجى الحياةَ أمَا فى جَعْفرٍ عِبْرةٌ ويَحْياهُ ؟
كانا وَزِيرَىْ خليفةِ اللهِ ها رون هُما ما هُما خَلِيلاه
فذا كُمو جعفرٌ بِرِمّتـه فى حالقٍ رأسُه ونِصْفاه
والشيخُ يحيى الوزيرُ أصبح قد نحّاه عن نفسه وأقْصاه
شتت بعد التجميع شملهمُ فأصبحوا فى البلاد قد تاهوا
كذاك من يُسْخِطِ الإلهَ بما يُرْضى به العبدَ يَجْزِه الله
سبحان من دانت الملوكُ له أشهَدُ أن لا إلهَ إلّا هو
طُوبَى لمن تاب بَعْد غِرّتِه فتاب قَبْلَ المماتِ ، طُوباه

ومما قيل فى رثائهم ، وفيه تعريض بالفضل بن الربيع :

ما رمى الدهرُ آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمْرٍ بديع
إن دهراً لم يرْعَ حقًّا ليحيى غيرُ راعٍ حقًّا لآل الربيع

وقال أشجع :

ولّى عن الدنيا بنو برمك فلو تولى الناس ما زادا
كأنما أيامهم كلهـــا كانت لأهل الأرض أعيادا

وقال منصور النمرى :

أيدى بنى برمكٍ لدينا تبكى عليهم بكل واد
كانت بهم برهةً عروساً فأضحت الأرض فى حداد

وقال صالح الأعرابى :

لقد خان هذا الدهرُ أبناءَ برمكٍ وأى ملوك لم تخنها دهورها ؟ !
ألم يك يحيى والِيَ الأرضِ كلِّها فأضحى كمن وارته منها قبورُها ؟ !

وكان سليمان بن الوليد منقطعاً إلى البرامكة ، وفيًّا لهم ، رثاهم بعد نكبتهم بشعر يقطر حسرة ، ويفيض إخلاصاً ، ويدل على مقدار تأثره لفجيعتهم ، وحزنه عليهم ؛ ومنه :

هَدَا الخالون عن شَجْوِى وناموا وعينى لا يلائمها منام
وما سَهرى بأنى مُسْتَهَامٌ إذا سَهِرَ المحبُّ المستهام
ولكنَّ الحوادثَ أرَّقتنى فبى أرقٌ إذا هجع النِّيَامُ
أُصِبْت بسادةٍ كانوا عيونا بهم نُسقى إذا انقطع الغَمام
فقلتُ وفى الفؤاد ضريمُ نارٍ وللعبَرات من عينى انسجام
على المعروفِ والدنيا جميعاً ودولةِ آلِ برمكٍ السلام
جزعتُ عليكَ يا فضلُ بنَ يحيى ومن يجزعْ عليك فلا يُلام
هَوَتْ بك أنجم المعروفِ فينا وعزَّ بفقدِك القومُ اللئام

ومنها :

أمينَ اللهِ هبْ فَضْلَ بن يحيى لنفسك أيها الملك الهمام

وما طَلَبِي إليكَ العفوَ عنهم ... وقد قَعَدَ الوشاةُ به وقاموا
أرى سببَ الرضا عنه قويًّا ... على اللهِ الزيادةُ والتمام
نذرتُ علىَّ فيه صيامَ شهرٍ ... فإن تمَّ الرضا وَجَب الصيام
وهذا جعفرٌ بالجسْرِ تمحو ... محاسنَ وجهه ريحٌ قتام
أما واللهِ لولا خوفُ واشٍ ... وعينٌ للخليفةِ لا تنـــام
لَطُفْنَا حول جِذعك واستلمنا ... كما للناس بالحجرِ استلام
وما أبصرتُ قبلك يابن يحيى ... حُساماً قدَّه السيفُ الحسام
عِقابُ خليفةِ الرحمن فخرٌ ... لمن بالسيف أعقبَه الحِمام

* * *

الأدباء من غير الشعراء ، وموقف القصاص من النكبة

أما الأدباء ، من غير الشعراء الذين ذكرناهم ؛ فقد أطلقوا لأنفسهم العنان ، واستطاب خيالهم أن يضعوا أقاصيص كثيرة ، وينشروها على الناس ؛ قد يكون بعض هذه الأقاصيص صحيحاً ، لا ينكره العقل ولا الواقع ، وقد يكون لبعضها أصل ، زيد عليه ما يخرجه عن حد الواقع ؛ وقد تكون القصة كلها موضوعة ، فلا يستسيغها العقل ، ولا يجيزها الواقع ، وقد يكون سبب هذا ما سبق أن ذكرنا من أن أمرهم اشتهر ، وعرفوا بالجود ، فنسب إليهم من ذلك المعقول وغيرَ المعقول ، ولا سيما أن هذا العصر كانت القصة بدأت تظهر فيه ، وتتخذ لها مكاناً فى الأدب العربى ، وصارت تحتل صدراً من مجالس الخلفاء والأمراء ، وخرجت إلى المساجد ، ومجالس العلماء والمؤدبين ، ثم شغف بها كثير من العامة ، فانتجعوا القصاص وسمعوا منهم ، وأعجبوا بهم ، وكلما أمعن القاص فى الخيال ، كان أقرب من قلوب العامة ، وآلف لهم .

وظل الناس يتحدثون بهذه الأحاديث ، ويضربون بكرمهم المثل ، ويشبهون بهم الكرماء مبالغة ؛ ومن ذلك ما روى من أنه جرى ذكرهم ، ووصف الناس لهم بالجود ، وما قالوا فى كرمهم وجوائزهم فأكثروا ، وكان ذلك فى مجلس عبيد الله ابن يحيى بن خاقان ، فقال أبو الشبل عاصم بن وهب : أيها الوزير ؛ قد حكمت فى هذا الخطب حكماً نظمته فى بيتين من الشعر ، لا يقدر أحد أن يزيد عليه ، وأنا جعلته شعراً ؛ ليبقى ويدور ؛ أفيأذن الوزير فى إنشادهما ؟ فقال : قل ، فرب صواب قلته ، فأنشد[١] :

رأيتُ عُبَيْدَ الله أندَى أناملا وأكرمَ من فضل بن يحيى بن خالد
أولئك جادوا والزمانُ مساعدٌ وقد جاد ذا والدهرُ غيرُ مساعد

وقد يكون السبب فى وضع هذه القصص أن أدباء العرب من الفرس رأوا ما حل بيحيى وأولاده فحزنوا لذلك أشد الحزن ، وأنكروه ، وضاقوا به ؛ فسخطوا على الرشيد ، وبرموا به ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقفوا فى وجهه ، أو أن يثيروا عليه إخوانهم من الفرس ، فأرادوا أن يرفعوا مكانة البرامكة ، وإن كانوا فى جميع هذه القصص أو أكثرها ، يدسون اسم الخليفة ، ويظهرونهم بمظهر الموالين له ، المخلصين فى خدمته ، المقدمين له على أنفسهم فى مدارج المجد ، ومواطن الفخر .

وهم فى هذه القصص الموضوعة ، أو شبه الموضوعة — يسجلون على الخليفة أنه كان يلهو ، ويلعب ، ويجلس كثيراً إلى المغنين والمغنيات ، ويعقد مجالس الشرب فى داره ؛ فهو فى مجلسه تحف به الجوارى والقيان ، وبين يديه الأباريق المترعة ، تترجرج أفواهها ، والكئوس تتقارع حافاتها ؛ ليؤثروا فى نفوس أهل الورع والتزمت من رجال الدين ، وعلماء المذاهب ، ويثيروهم عليه ؛ وينسون

---

(١) نشوار المحاضرة ، وأخبار المذاكرة للتنوخى ص ١٢ .

وقاره وصلاحه ، وصلاته ، وصيامه ، وحجه ، وقيامه الليل إلا قليلا يتهجد .

ونحن نرجح أن هذه القصص ، ولا سيما التي حاولوا فيها أن ينالوا من الخليفة لم تنتشر فى عهده ، ولا فى عهد ولديه الأمين والمأمون ؛ ولكنها ظهرت حينما ضعفت الدولة ، وسيطر الفرس ثم الأتراك على الخليفة سيطرة قوية ، وشاع جلوس العامة إلى القصاص فى المساجد وفى غيرها ؛ ليسمعوا منهم ؛ فدسها الفرس إلى القصاص ، فزاد هؤلاء عليها ، وبالغوا فيها ، شأنهم فى كل قصة تقع فى أيديهم ، ليبالغوا فى التأثير على الناس ، فيبالغ الناس فى الإعجاب بهم ، ولا يبعد أن يكون القصاص أنفسهم ، وبخاصة الفرس منهم ؛ نسجوا على منوال ما روى لهم من هذه القصص .

فإذا جاء دور المؤلفين ، لم يتورعوا عن إثبات بعض هذه القصص فى كتبهم ، فوصلت إلينا كما رووها فألقت ضوءاً على ما كان جارياً فى هذا العهد .

* * *

نستخلص من هذا كله أن الفرس سجلوا لأبناء عمومتهم وإخوانهم من البرامكة — فيما زعموا — مجداً كبيراً ؛ فوضعوا تلك القصص تدور كلها أو أكثرها حول المبالغة فى الإعطاء لمغن غنى بحضرة يحيى أو الفضل أو جعفر : مقطوعة ، فأجاد غناءها ؛ أو لشاعر قصد أحدهم ، ومدحه بأبيات من الشعر أعجبته ؛ أو لغنى عبس له الدهر ، فسلبه ماله ، فلجأ إليهم ؛ أو لفقير ذهب إليهم يستجديهم ؛ أو لصديق أوجبت عليهم صداقتهم له ، أن يغدقوا عليه ؛ أو بمناسبة حفل خاص أقاموه لتزويج أو نحوه .

ولم يكن ذلك فى أهل بغداد فحسب ، ولكنهم كان الناس يقصدونهم من الشام والعراق ومصر وغيرها من الأقطار ؛ لأنهم سمعوا عنهم وعن حوادث جودهم وكرمهم ، فجابوا الأقطار ، واستسهلوا ما يقاسونه من صعوبة السفر ، ما دام ذلك يوصلهم إلى رزق واسع ، ونعيم عظيم .

وإن عطاياهم كانت – كما روى القصاص – متنوعة مختلفة ؛ فهى عشرات الألوف من الدنانير أحياناً ، ومئات الألوف من الدراهم أحياناً أخرى ؛ وقد تكون ضيعة أو أكثر ، تغل على صاحبها ما يغنيه فى زمانه ، ويغنى عقبه من بعده ؛ وقد يكون بجانب المال والضياع دواب من الخيل والإبل ، وقد يكون بجانب هذا كله تخوت من الثياب والقلانس البرمكية .

ولا أكون مبالغاً إذا قلت : إننا إذا جمعنا ما ذكر المؤرخون فى كتب التاريخ ، والأدباء فى كتب الأدب ؛ مما أعطوه الناس – وجدناه لا يرهق ميزانيتهم فحسب ، وإنما هو يرهق ميزانية الدولة نفسها فى زمانهم ، بالغة ما بلغت .

بل إذا صدقنا هذا ، فإنه يكون وراءه أضعاف أضعافه ، لم يذكره المؤرخون فى كتبهم ، ولم يروه الأدباء ؛ لأن هذه الأشياء ، إنما يدون بعضها مما اشتهر جداً ، وسار فى الناس . والذى لم يشتهر ، ولم يسر فى الناس ، يكون أكثر ، فهو لم يدون ؛ فإذا كنا نستكثر ما وصل إلينا ، ونقرر أنه يكون عبئاً ثقيلا على ميزانية الدولة نفسها ، بَلْهَ ميزانيتهم هم ؛ فكيف إذا قدرنا أن مثله أو مثليه لم يصل إلينا ؟ ! ! .

ومع ذلك ، فإننا نسوق بعض هذه القصص ، غير ما قدمناه عند الحديث عن جود البرامكة لتقع تحت نظرك ، وتعرف منها مبالغة القصاص فى قصهم :

١

من العقد الفريد للملك السعيد ، والمحاسن والمساوى

قال خادمُ أمير المؤمنين المأمون(١) : طلبنى أمير المؤمنين ليلة ، وقد مضى من الليل ثُلثه ، فقال لى : — خذ معك فلاناً وفلاناً وسمّاهما : أحدهما على ابن محمد ، والآخر دينار الخادم ، واذهبْ مسرعاً لما أقوله لك ؛ فإن أصحابَ الأخبار قد أكثروا فى أنّ شيخاً يحضُرُ ليلا إلى آثار البرامكة ، ويُنشد شعراً ويذكرهم ذكراً جميلا ، ويندبهُم ويبكى عليهم ، ثم ينصرف . فامضِ الآن أنت وعلىّ ودينار ، حتى تَرِدوا هذه الخربات ، فاستتِروا خلف جدار من هذه الجدر ، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب ، وأنشد شيئاً — فأتونى به .

قال : فأخذتهما ومضينا حتى وَرَدْنا الخربات ، وإذا نحن بغلام قد أتى ، ومعه بِساط وكرسىٌّ جديد ، وإذا شيخٌ وسيم ، له جمالٌ ، وعليه مَهَابة وَصلَف ، فجلس يبكى وينتحب ويقول : —

ولَمَّا رأيتُ السيفَ جَلَّل جعفرا ... ونادى منادٍ للخَليفةِ فى يَحْيِ(٢)

بكيتُ على الدنيا وأيقَنْتُ أنَّه ... قصارَى الفتى يوماً مُفارقَةُ الدُّنيا

أجعفرُ ؛ إن تَهْلِكْ فَرُبَّ عظيمةٍ ... كَشَفْتَ، ونُعْمَى قد وصلْتَ بها نُعْمَى

فقل لِلّذِى أَبْدَى ليحيى وجَعْفَرٍ ... شماتتَه : أَبْشِرْ ، لِتَأْتِيهِمُ الْعُقْبَى

---

(١) هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة العامة بعد مقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ — كان ميالا للعفو مطبوعاً على الخير ، راغباً فى العلم ، محباً للجدل ، وأخباره فى كل هذا مشهورة مأثورة ، توفى سنة ٢١٨ هـ وقد سبق بعض الحديث عنه ، وتجد فى الأجزاء التالية أكثر مما مضى .

(٢) جلله : علاه .

لَئِنْ زالَ غُصنُ الملكِ عن آلِ بَرْمَكٍ فما زال حتى أثْمرَ الغُصْنُ واسْتَعْلَى (١)
وَمَا الدَّهْرُ إلَّا دوْلَةٌ بعدَ دوْلَةٍ تُبدِّلُ ذا مُلْكٍ وتُعقِبُ ذا بَلْوَى
على أنَّها ليستْ تدومُ لِأَهْلِها ولَوْ أنها دامتْ لكُنْتُمْ بها أوْلَى
بَنِي بَرْمَكٍ ؛ كنتمْ نُجُوماً مُضِيئةً بها يَهْتَدِي فى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ مَنْ أَسْرَى
لِكُنْكُمُ أبكِى بعينٍ غزيرةٍ وَقَلْبٍ قَرِيحٍ لا يموتُ ولا يحْيَا

قال : فتراءينا (٢) له لما فرغ ، ثم قبضنا عليه ؛ فجزع وفزع ، وقال : مَنْ أنتم ؟ فقلتُ له : حاجبُ أمير المؤمنين ، وهذا فلان وفلان ! قال : وما تريدون منى ؟ فأعلمته ما أمر به أمير المؤمنين من أخذه إلى مجلسه ؛ فقال : ذَرْنِى أوصِ وصيةً فإنى لا آمنُ العَطب ، ثم تقدم إلى بعض الدكاكين ، وأخذ ورقة ، وكتب فيها وصية دفعها إلى غلامه ، ثم سرنا به .

فلما دخل إلى المجلس وَمَثَل بين يدى أمير المؤمنين زجره ، وقال له : من أنت ؟ وبماذا استوجب منك البرامكة ما تفعله فى خَربات دورهم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ للبرامكة عندى أياد خضراء ، أفتأذن لى أن أحدثك عن حالى معهم ؟ قال : قل .

قال : أنا يا أمير المؤمنين المنذر بن المغيرة من أهل دمشق ، كنت بها من أولاد الملوك ، فزالت عنى نعمتى ، كما تزول عن الرجال ، فلما ركبتنى الديون ؛ واحتجت إلى بيع مسقط رأسى ، ورءوس آبائى — أشاروا على بالخروج إلى البرامكة ، فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية ، وليس

---

(١) الجواب للشرط مع تقدم القسم ، وهو قليل ، وإليه أشار ابن مالك فى قوله :

وربما رجح بعد قسم شرط بلا ذى خبر مقدم

وهو مذهب الفراء ؛ ويرى الجمهور أن مثل هذا البيت اللام فيه زائدة .

(٢) تراءى له : تصدى .

معنا ما يُباع ولا ما يُرهن ، حتى دخلنا بغداد ، ونزلنا بباب الشام فى بعض المساجد ، فدعوت بثياب لى كنت قد أعددتها لأستميح[١] بها الناس فلبستها ، وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد أسأل عن دور البرامكة ، فإذا أنا بمسجد مزخرف ، وفيه مائة رجل بأحسن زى وزينة وبزّة ، وعلى الباب خادمان .

فطمعت فى القوم وولجت المسجد ، وجلست بين أيديهم ، وأنا أقدم وأؤخر ، والعرق يسيل منى ؛ لأنها لم تكن صناعتى ، وإذا بخادم قد أقبل فحدث الخادمين ، فدخلوا وأزعجوا القوم ، فقاموا وأنا معهم . فأدخلونا دار يحيى بن خالد ، ودخلت معهم ،فإذا يحيى جالس على دكة[٢] له وسط بستان ، فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحداً ، وبين يدى يحيى عشرة من ولده ، وإذا غلام أمرد حين عذر[٣] خداه ، قد أقبل من بعض المقاصير ، بين يديه خدام مقرطقون[٤] ، فى وسط كل خادم منطقة من ذهب ، يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل خادم مجمرة من ذهب ، فى كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر[٥] قد ضم إليه مثله من العنبر السلطانى ؛ فوضعوه بين يدى الغلام ، وجلس الغلام إلى جنب يحيى .

ثم قال يحيى للزبرقى القاضى : — تكلم فقد زوجت بنتى عائشة من ابن عمى هذا ، فخطب القاضى ، وزوج ، وشهدت أولئك الجماعة ، وأقبلوا علينا بالنثار[٦] وبنادق المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ، ونظرت وإذا

(١) استمحته : سألته العطاء .
(٢) الدكة والدكان : الذى يقعد عليه .
(٣) عذر الغلام : نبت شعر عذاره .
(٤) القرطق كجندب : ضرب من اللباس (معرب كرته) .
(٥) الفهر : الحجر ملء الكف .
(٦) النثار : ما تناثر من الشيء .

نحن مائة واثنا عشر رجلا ، فخرج إلينا مائة خادم واثنا عشر خادما ، مع كل خادم صينية فضة ، عليها ألف دينار شامية ؛ فوضع بين يدى كل رجل منا صينية ، فرأيت القاضى والمشايخ يصبون الدنانير فى أكمامهم ، ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ، ويقوم الأول فالأول حتى بقيت بين يدى يحيي لا أجسر على أخذ الصينية ؛ فغمزنى الخادم ، فجسرت وأخذتها ، وجعلت الذهب فى كمى ، وأخذت الصينية فى يدى ، وقمت ؛ فجعلت ألتفت ورائى مخافة أن أمنع من الذهاب بها .

فبينا أنا كذلك فى صحن الدار أكثرُ من الالتفات ويحيي يلحظنى – قال للخادم : ائتنى بذلك الرجل . فَرُدِدت إليه ؛ فأمر فسكبت الدنانير والصينية وما كان فى كمى ، ثم أمرنى بالجلوس فجلست ؛ فقال : ممن الرجل ؟ فقصصت عليه قصتى ، فقال : عَلَىَّ بموسى ، فأُتِىَ به ، فقال : يا بنى ؛ هذا الرجل غريب ، فخذه إليك واحفظْهُ بنفسك ونعمتك .

فقبض موسى على يدى ، وأخذنى إلى بعض دوره ، فأكرمنى ، وعاشرنى يومى وليلتى أكلا وشرباً ؛ فلما أصبح دعا بأخيه العباس ، وقال : إن الوزير أمرنى بالعطف على هذا الفتى ، وقد علمت اشتغالى فى دار أمير المؤمنين ، فاقبضه إليك وأكرمه ، ففعل . ثم لم أزل فى أيدى القوم يتداولوننى عشرة أيام ، لا أعرف خبر عيالى وصبيانى : أفى الأموات هم أم فى الأحياء ؟!

فلما كان اليوم العاشر رُفعت إلى يد الفضل ، فعطف علىّ وزاد فى الكرامة ؛ فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم ، فقالوا : قم فاخرج إلى عيالك بسلام . فقلت : وا ويلاه ! سُلبت الدنانير والصِّينيَّة ، وقد تمزقت ثيابى ، واتسخت ، وأخرُج إلى عيالى على هذه الحالة ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! ؛ فرفع الستر الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم الرابع ، ثم الخامس والسادس ، فلما رفع الخادم الستر السابع قال لى : تمنّ ما شئت ، وتقدم إلىّ

بقضاء جميع ما تأمر به . فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حُسناً ونوراً ، استقبلتنى منها رائحة النَّدِّ والعود ونفحات المسك ، وإذا أنا بصبيانى يتقلبون فى الحرير والديباج ، وقد حمل إلى ألفُ ألف درهم مبدَّرة ، وعشرة آلاف دينار ، وقَبَالَتان[1] بضيعتين ، وتلك الصينية فيها الدنانير والبنادق ، فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة ، لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطفونى ؟ !

فلما جاءت القوم البلية ، ونزلت بهم من أمير المؤمنين الرشيد النازلة ، قصدنى عمرو بن مسعدة وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفى دخلهما به ، فلما تحامل علىَّ الدهر كنت فى أواخر الليل أقصد خربات القوم ، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلىَّ ، وفاء لهم على إحسانهم .

فقال المأمون : علىَّ بعمرو بن مسعدة . فلما أتى به قال له : يا عمرو ؛ أتعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، هو بعض صنائع البرامكة ، قال : كم ألزمته فى ضيعتيه ؟ قال : كذا وكذا . فقال : رد عليه كل ما استأديته[2] إياه فى مدته ، وأوغروا[3] ضيعتيه تكونان له ولعقبه من بعده .

فعلا نحيب الرجل ! ، ولما طال بكاؤه قال له المأمون : أحسنا إليك فلم تبكى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ وهذا أيضاً من صنيع البرامكة ! أرأيتك يا أمير المؤمنين لو لم آت خرباتهم ، فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبرى بأمير المؤمنين ففعل بى ما فعل ؛ من أين كنت أصل إلى ما وصلت إليه ؟ ! .

قال إبراهيم بن ميمون : فلقد رأيت المأمون ، وقد دمعت عيناه ، واشتد حزنه على القوم ؛ وقال : صدقت ! لعمرى هذه أيضاً من صنائع البرامكة ؛ فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوف ، ولإحسانهم فاذكر !

---

(١) القبالة : الكفالة . (٢) استأداه مالا : إذا صادره وأخذه منه .
(٣) أوغر الملك الرجل الأرض : جعلها له من غير خراج .

٢

من الأغانى

قال أحمد بن يحيى المكى : دعانى الفضل [١] بن الربيع ودعا علويه ومخارقاً ، وذلك فى أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عنه ، إلا أن حاله كانت ناقصة متضعضعة .

فلما اجتمعنا عنده كتب إلى إسحاق [٢] الموصلى يسأله أن يصير إليه ، ويعلمه الحال فى اجتماعنا عنده ، فكتب إليهم : لا تنتظرونى بالأكل ؛ فقد أكلت ، وأنا أصير إليكم بعد ساعة .

فأكلنا وجلسنا نشرب حتى قرب العصر ، ثم وافى إسحاق فجلس ، وجاء غلامه بِقَطْرَميز [٣] نبيذ ، فوضعه ناحية ، وأمر صاحب الشراب بإسقائه منه ، وكان علويه يغنى الفضل بن الربيع فى لحن اقترحه الفضل عليه وأعجبه ، وهو :

فإن تَعجَبِي أو تُبصرى الدهرَ طَمَّنى [٤] ... بأحداثه طَمَّ المقصَّصِ بالجَلَم [٥]
فقد أترُكُ الأضيافَ تندَى رِحالُهم ... وأُكرِمُهم بالمَحْض والتَّامكِ السَّنِم . [٦]

---

(١) كان الفضل بن الربيع وزيراً للرشيد بعد زوال دولة البرامكة ، وبعد موت الرشيد ، استوزر للأمين ، ووقف معه ضد المأمون ، وبعد قتل الأمين تشفع طاهر بن الحسين للفضل عند المأمون فرضى عنه ؛ ومات سنة ٢٠٨ هـ وتجد الحديث عنه مفصلا فى الجزء التالى .

(٢) إسحاق الموصلى : من أشهر ندماء الخلفاء ، تفرد بصناعة الغناء ، وكان عالماً باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام ، وراوية للشعر ، وحافظاً للأخبار ، توفى سنة ٢٣٥ هـ

(٣) القطرميز : قلة كبيرة من الزجاج .

(٤) طمنى : غمرنى .

(٥) الجلم : الذى يجز به الشعر والصوف . والمقصص : الشىء الذى يقص .

(٦) المحض : اللبن الخالص بلا رغوة ، والتامك : العظيم السنام من الإبل ومثله السنم .

فقال له إسحق : أخطأت يا أبا الحسن فى أداء هذا الصوت ، وأنا أصلحه لك ، فجن علَّوَيْه واغتاظ ، وقامت قيامته. ثم أقبل إسحاق على علويه فقال له : يا حبيبى ؛ ما أردت الوضع[١] منك بما قلته لك ، وإنما أردت تهذيبك وتقويمك ؛ لأنك منسوب الصواب والخطأ إلى أبى وإلىّ ، فإن كرهت ذلك تركتك وقلت لك : أحسنت وأجملت . فقال له علويه : والله ما هذا أردت ، ولا أردت إلا ما لا تتركه أبداً من سوء عشرتك ! أخبرنى عنك حين تجىء هذا الوقت لما دعاك الأمير وعرفك أنه قد نشط للاصطباح : ما حملك على الترفع عن مباكرته[٢] وخدمته مع صنائعه عندك ؟ ، وما كان ينبغى أن يشغلك عنه شىء إلا الخليفة ؛ ثم تجىء ومعك قطرميز نبيذ ترفعاً عن شرابه ، كما ترفعت عن طعامه ومجالسته إلا كما تشتهى ،وحين تنشط ، كما تفعل الأكفاء ، بل تزيد على فعل الأكفاء[٣] . ثم تعمد إلى صوت قد اشتهاه واقترحه ، وسمعه جميع من حضر ؛ فما عابه منهم أحد ، فتعيبه ليتم تنغيصك إياه لذته ! أما والله لو الفضل بن يحيى أو أخوه جعفر دعاك إلى مثل ما دعاك إليه الأمير ، بل بعض أتباعهم ؛ لبادرت وباكرت ، وما تأخرت ولا اعتذرت . قال : فأمسك الفضل بن الربيع عن الجواب إعجاباً بما خاطب به علويه إسحاق .

فقال له إسحاق : أما ما ذكرته من تأخرى عنه إلى الوقت الذى حضرت فيه ، فهو يعلم أنى لا أتأخر عنه إلا بعائق قاطع ، إن وثق بذلك منى ، وإلا ذكرت له الحجة سراً من حيث لا يكون لك ولا لغيرك فيه مدخل . وأما ترفعى عنه ، فكيف أترفع عنه وأنا أنتسب إلى صنائعه ، وأستمنحه وأعيش من فضله مذ كنت؟! وهذا تضريب[٤] لا أبالى به منك . وأما حملى النبيذ معى فإن لى فى

---

(١) الوضع : الضعة .
(٢) باكره : أتاه بكرة : غدوة .
(٣) الأكفاء : النظراء المتماثلون .
(٤) التضريب : الإغراء بين القوم .

النبيذ شرطاً من طعمه وريحه ، وإن لم أجده لم أقدر على الشرب ، وتنغص على يومئذ ؛ وإنما حملته ليتم نشاطى ، وينتفع بى ؛ وأما طعنى على ما اختاره ، فإنى لم أطعن على اختياره ، وإنما أردت تقويمك ، ولست والله ترانى متتبعا لك بعد هذا اليوم ، ولا مقوما شيئا من خطئك ، وأنا أغنى له – أعزه الله – هذا الصوت فيعلم ، وتعلم ، ويعلم من حضر – أنك أخطأت فيه وقصرت ؛ وأما البرامكة وملازمتى لهم ؛ فأشهر من أن أجحده ، وإنى لحقيق فيه بالمعذرة ، وأحرى أن أشكرهم على صنيعهم ، بأن أذيعه وأنشره ؛ وذلك – والله – أقل ما يستحقونه منى .

ثم أقبل على الفضل – وقد غاظه مدحه لهم – فقال : اسمع منى شيئاً أخبرك به مما فعلوه ، ليس هو بكبير فى صنائعهم عندى ولا عند أبى قبلى ؛ فإن وجدت لى عذراً وإلا فلمْ : – كنت فى ابتداء أمرى نازلا مع أبى فى داره ، فكان لا يزال يجرى بين غلمانى وغلمانه وجوارىّ وجواريه الخصومة ، كما تجرى بين هذه الطبقات ، فيشكونهم إليه ، فأتبين الضجر والتنكر فى وجهه ، فاستأجرت داراً بقربه ، وانتقلت إليها أنا وغلمانى وجوارى ، وكانت داراً واسعة ، فلم أرض ما معى من الآلة لها ، ولا لمن يدخل إلىّ من إخوانى أن يروا مثله عندى .

ففكرت فى ذلك ، وكيف أصنع ؟ وزاد فكرى حتى خطر بقلبى قبح الأحدوثة من نزول مثلى فى دار بأجرة ، وأنى لا آمن فى وقت أن يستأذن علىّ صاحب دارى ، وعندى من أحتشم منه(١) ولا يعلم حالى فيقال : صاحب دارك ؛ أو يوجه فى وقت فيطلب أجرة الدار ، وعندى من أحتشم منه ، فضاق بذلك صدرى ضيقاً شديداً حتى جاوز الحد .

فأمرت غلامى بأن يسرج لى حماراً كان عندى ، لأمضى إلى الصحراء أتفرج فيها مما دخل على قلبى ؛ فأسرجه وركبت برداء ونعل ؛ فأفضى بى

---

(١) احتشم منه : استحيا .

المسير وأنا مفكر لا أميز الطريق التى أسلك فيها ، حتى هجم بى على باب يحيى بن خالد ؛ فتواثب غلمانه إلىّ ، وقالوا : إلى أين ؟ فقلت : إلى الوزير. فدخلوا فاستأذنوا لى ؛ وخرج الحاجب فأمرنى بالدخول ، وبقيت خجلا ، قد وقعت فى أمرين فاضحين : إن دخلت إليه برداء ونعل ، وأعلمته أنى قصدته فى تلك الحال ؛ كان سوء أدب ، وإن قلت له : كنت مجتازاً ، ولم أقصدك فجعلتك طريقاً ؛ كان قبيحاً . ثم عزمت فدخلت ، فلما رآنى تبسم ، وقال: ما هذا الزى يا أبا محمد ؟ ! قد علمنا أنك جعلتنا طريقاً ، فقلت : لا والله يا سيدى ، ولكنى أصدقك . قال : هات : فأخبرته القصة من أولها إلى آخرها ، فقال : هذا حق مستو ؛ أفهذا شغل قلبك ؟ قلت : إى والله ! وزاد، فقال : لا تشغل قلبك بهذا ، يا غلام ؛ ردوا حماره ، وهاتوا له خلعة . فجاءونى بخلعة تامة من ثيابه فلبستها ، ودعا بالطعام فأكلت ، ووضع النبيذ فشربت وشرب ، فغنيت ودعا فى وسط ذلك بدواة ورقعة ، وكتب أربع رقاع ظننت بعضها توقيعاً لى بجائزة ، فإذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع إليه الرقاع وساره بشىء ، فزاد طمعى فى الجائزة ، ومضى الرجل وجلسنا نشرب ، وأنا أنتظر شيئاً فلا أراه إلى العتمة[1] ؛ ثم اتكأ يحيى ؛ فنام . فقمت وأنا منكسر خائب ، فخرجت وقدم لى حمارى .

فلما تجاوزت الدار ، قال لى غلامى : إلى أين نمضى ؟ قلت : إلى البيت . قال : قد والله بيعت دارك وأشهد على صاحبها ، وابتيع الدرب كله ، ووزن ثمنه ، والمشترى جالس على بابك ينتظرك ليعرفك ، وأظنه اشترى ذلك للسلطان ؛ لأنى رأيت الأمر فى استعجاله أمراً سلطانياً ؛ فوقعت من ذلك فيما لم يكن فى حسابى ، وجئت وأنا لا أدرى ما أعمل ؛ فلما نزلت على باب دارى إذا أنا بالوكيل الذى ساره يحيى قد قام إلىّ .

---

(١) العتمة : وقت صلاة العشاء .

فقال لى : ادخل — أيدك الله — دارك حتى أدخل لمخاطبتك فى أمر أحتاج إليك فيه ، فطابت نفسى بذلك ، ودخلت ، ودخل إلىّ فأقرأنى توقيع يحيى : « يطلق لأبى محمد إسحاق مائة ألف درهم يبتاع له بها داره وجميع ما يجاورها ويلاصقها » . والتوقيع الثانى إلى ابنه الفضل : « قد أمرت لأبى محمد إسحاق بمائة ألف درهم يبتاع له بها داره ؛ فأطْلق إليه مثلها لينفقها على إصلاح الدار كما يريد ، وبنائها على ما يشتهى » . والتوقيع الثالث إلى جعفر : « قد أمرت لأبى محمد إسحاق بمائة ألف درهم يبتاع له بها منزل يسكنه ، وأمر له أخوك بدفع مائة ألف درهم ينفقها على بنائها ومرمتها على ما يريد ؛ فأطلق له أنت مائة ألف درهم يبتاع بها فرشاً لمنزله » . والتوقيع الرابع إلى محمد : « قد أمرت لأبى محمد إسحاق أنا وأخواك بثلاثمائة ألف درهم لمنزل يبتاعه ونفقة ينفقها عليه ، وفرش يبتذله[1] ؛ فمر له أنت بمائة ألف درهم يصرفها فى سائر نفقته » . وقال الوكيل ؛ قد حملت المال واشتريت كل شىء جاورك بسبعين ألف درهم ؛ وهذه كتب الابتياعات باسمى والإقرار لك وهذا المال بورك لك فيه فاقبضه .

فقبضته وأصبحت أحسن حالا من أبى فى منزلى وفرشى وآلتى ، ولا والله ما هذا بأكبر شىء فعلوه لى ، أفألام على شكر هؤلاء ؟ !

فبكى الفضل بن الربيع وكل من حضر . وقالوا : لا والله ؛ لا تلام على شكر هؤلاء . ثم قال الفضل : بحياتى غن الصوت ، ولا تبخل على أبى الحسن بأن تقومه له ، فقال : أفعل . وغناه ، فتبين علويه أنه كما قال . فقام فقبل رأسه ، وقال : أنت أستاذنا وابن أستاذنا وأولى بتقويمنا واحتمالنا من كل أحد ، ورده[2] إسحاق مرات حتى استوى لعلويه .

---

(١) الابتذال : ضد الصيانة .

(٢) رده : أعاده مثل ردده .

٣

من المحاسن والمساوى

قال محدث :

مدح شاعر أبا حاتم كاتب الديوان ، فلم يصله بشىء ، فأنشأ شعراً يقول فيه :

لَتُنْصِفَنِّى يا أبا حاتِمِ أو لأصيرَنَّ إلى حاكِمِ

فاحتفظها صاحب الخبر ، ورفعها إلى الرشيد ، فقال : صدق ؛ لولا أنى نائم ما كانت أمورى تجرى على هذه السبيل ، وأمر بإخراج الجرائد من الدار إليه ؛ فأول ما وجد على منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم .

فحدث صالح صاحب المصلَّى ، قال : دعانى الرشيد وهو على كرسى ، فقال : اذهب الساعة ، فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم ، فإن لم يؤدها إلى المغرب فاضرب عنقه ، وجئنى برأسه ، وأنا نَفِىٌّ(١) من المهدى ، لئن أنت دافعت عنه لأضربن عنقك ، قلت : يا سيدى ؛ فإن أعطانى بعضها ووقت لى فى بعضها وقتاً ؟ قال : لا .

فخرجت فأعلمته الخبر فأسقط فى يده ، وقال : ما أراد إلا قتلى ! ! لأنه يعلم أن مقدار مالى لا يبلغ ما به طالبنى ، ولكن ، تأذن لى أن أدخل بيتى فأودع أهلى ؟ ! فأذنت له ، فدخل ودخلت معه ، وبقيت واقفاً ؛ فبعث إلى أمهات أولاده وبناته ونسائه أن اخرجن إلى كما كنتن تخرجن عند موتى ، فإن هذا آخر أيامى ، ولا ستر لكن بعدى ! .

---

(١) فلان نفى : دعى ، قد نفى .

فخرجن إليه مشققات الجيوب ، مخمشات الوجوه ، بصراخ شديد ، فبكى إليهن ، وبكين إليه ، وبكيت معهن ، ثم ودعهن وخرج ، وهن فى أثره واضعات التراب على رءوسهن .

ثم قال : يا أبا مقاتل ؛ لو أذنت لى فى المصير إلى أبى على يحيى بن خالد البرمكى ، فكنت أوصيه بولدى وأهلى ، فقلت : امض .

وصرنا إليه ، وقد نزل فى ساعته ، وهو على كرسى يغسل يديه ، فلما توسطنا الدار ، جعل منصور يبكى ، ويمشى إليه ، حتى دنا منه ، وهو يسأله عن الحال ، فيمنعه البكاء من إخباره ؛ فقصصت عليه قصته : فقال ؛ ارجع إلى أمير المؤمنين ، وسله أن يهبه لى ، قلت : ما إلى ذلك سبيل ، ولا يرانى إلا والمال معى أو رأس المنصور ، كما أمرنى .

فقال لخادم له : ائت فلانة فسلها : كم لنا عندها من المال ؟ فانصرف ورجع ، فذكر أن عندها خمسة آلاف ألف درهم ! فقال لى : احملها وأبلغ أمير المؤمنين رسالتى فى باقيها . فأعلمته أن لا سبيل إلى حمل بعضها دون بعض ، فأطرق ، ثم رفع رأسه ، ثم قال : يا غلام ؛ ائت دنانير فقل لها : تبعث إلىّ بالجوهر الذى وهبه لها أمير المؤمنين ؛ فبعثت إليه بحقة[1] ، فقال : هذا جوهر ، ابتعناه لأمير المؤمنين بمائتى ألف دينار ، وهو عارف به ، وقد جعلته له بمائتى ألف دينار ، فاحمله إليه والرسالة ؛ فأبيت !

فوجه إلى الفضل ابنه : إنك كنت أعلمتنى أنك على ابتياع ضيعة نفيسة ؛ وقد أصبتها ، ولا يوجد مثلها فى كل وقت ، وابتياعها فرصة ، فاحمل إلى مالها ، فعاد الرسول ومعه ألف ألف درهم ؛ ووجه إلى جعفر ابنه أن يوجه إليه بألف ألف درهم ، فأنفذ إليه صكا إلى الجهبذ[2] بها !

---

(١) وعاء من الخشب أو العاج أو غير ذلك مما يصلح أن ينحت منه .

(٢) الجهبذ : النقاد الخبير .

فقبضت المال ، ووافيت الرشيد قبل المغرب ، وهو على حالته ينتظر رجوعى إليه ، فأخبرته الخبر ، فلما انتهيت إلى خبر الحقة ، قال : صدق ! وقد ظننت أنه لا ينجيه غيرهم ، احمل هذا المال أجمع إلى أبى على ، واردده عليه ، وأعلمه أنى قد قبلت ذلك عن منصور ، ورددته عليه ، ففعلت ذلك . ولقينى بعد ذلك يحى منصرفاً من الدار ، ومنصور معه يسايره ويضاحكه ، والناس خلفه ، فقلت ، والله لأنصحن هذا الشيخ الكريم ، فدخلت معه ، ودخل المنصور ودعا بغدائه ، فلما نهض المنصور قلت يا أبا على ؛ إنى والله ما رجعت إلا لنصحك ! وقد رأيت مكان هذا الرجل منك ؛ وكنا حين حملت المال أنهضته معى ، فوالله ما قطع نصف الصحن من الدار حتى تمثل بهذا البيت :

فما بُقيا عَلَىَّ تركتمانى ولكنْ خِفْتُما صَرَدَ[1] النِّبال

فعارض أكرم فعلك بألأم خصلة فيه ؛ فدعانى الامتعاض من ذلك إلى إخبارك ، فإنى من تعلم فى مودتك وطاعتك !

فأكب على الأرض ساعة ؛ ثم رفع رأسه فقال : اعذره ؛ فقد كان عقله عزب[2] عنه فى ذلك الوقت !

قال : فكان عذره له أحسن من إحيائه إياه !

---

(١) صرد الرمح صرداً : نفذ حده ، أى خفتما أن تصيب نبالى .
(٢) عزب : بعد .

٤

من المحاسن والمساوى

قال عمرو بن مسعدة :

رُفعَتْ قصة إلى المأمون منسوبة إلى محمد بن عبد الله ، يَمتُّ فيها بحرمة ، ويزعم أنه من أهل النعمة والقدر ، وأنه مولى ليحيى بن خالد ، وأنه كان ذا ضيعة واسعة ، ونعمة جليلة ، وأن ضياعه قبضت فيما قبض للبرامكة ، وزالت نعمته بحلول النقمة عليهم .

فدفعها المأمون إلى ابن أبى خالد[١] ، وأمره أن يضم الرجل إلى نفسه ، وأن يجرى عليه ، ويحسن إليه ، ففعل به ذلك ، وصلحت حاله ، وصار نديماً لابن أبى خالد لا يفارقه .

فتأخر عنه ذات يوم لمولود ولد له ؛ فبعث إليه ، فاحتجب عنه ؛ فغضب عليه ابن أبى خالد ، وأمر بحبسه وتقييده ، وإلباسه جبة صوف ؛ فمكث كذلك أياماً . فسأله المأمون عنه ؛ فقص عليه قصته ، وعظم جرمه ، وشكا ما يراه عليه من التيه والصلف[٢] والافتخار بالبرامكة ؛ والسمو بآبائهم .

فأمره بإحضاره ، فأحضر فى صوفه ؛ فأقبل عليه المأمون بالتوبيخ مصغِّراً لقدره ، مسَفِّهاً لرأيه ؛ وعظَّم فى عينه إحسانَ ابن أبى خالد إليه ، مع طعن على البرامكة ووضْعٍ منهم ، فأطنب فى ذلك .

---

(١) هو أحمد بن أبى خالد ، استوزره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له : إنى كنت عزمت على ألا أستوزر أحداً بعد ذى الرياستين ، وقد رأيت أن أستوزرك . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ اجعل بينى وبين الغاية منزلة يتأملها صديق فيرجوها لى ، ولا يقول عدوى قد بلغ الغاية ، وليس إلا الانحطاط . فاستحسن المأمون كلامه واستوزره . وظل أميراً عنده حتى مات سنة ٢١١ هـ وصلى عليه المأمون ؛ وستتحدث عنه فى جزء تال .

(٢) الصلف : التمدح بما ليس عندك .

فقال محمد : يا أمير المؤمنين ؛ لقد صغرت من البرامكة غير مصغر ، وذممت منهم غير مذموم ، ولقد كانوا شفاء أسقام دهرهم ؛ وغياث أجادب[١] عصرهم ، وكانوا مفزعاً للملهوفين ، وملجأ للمظلومين ؛ وإن أذن لى أمير المؤمنين حدثته ببعض أخبارهم ليستدل بذلك على صدق قولى فيهم ، ويقف على جميل أخلاقهم ، ومحمود مذاهبهم فى عصرهم ، والأفعال الشريفة والأيادى النفيسة ! !

قال : هات ؛ قال : ليس بإنصاف ؛ محدث مقيّد ، فى جُبـّة صوف ! !

فأمر فأخذ قيده . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ألم الجبة يحول بينى وبين الحديث ، فأمر فخلع عليه ، ثم قال : هات حديثك !

قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ كان ولائى وانقطاعى إلى الفضل ؛ فقال لى الفضل يوماً بمحضر من أبيه وأخيه جعفر : ويحك يا محمد ! ! إنى أحب أن تدعونى دعوة كما يدعو الصديق صديقه ، والخليل خليله !

فقلت : جعلت فداك ! شأنى أصغر من ذلك ، ومالى يعجز عنه ، وباعى يقصر عن ذلك ، ودارى تضيق عنه ، ومنّتى[٢] لا تقوم له ! قال : دع ذلك عنك ! فلا بد منه . فأعدت عليه الاستعفاء ، فرأيته جاداً فى ذلك ، مقيما عليه ؛ وسأله أبوه وأخوه الإعفاء ، وأعلماه قصور يدى عن بلوغ ما يجب له ويشبه مثله ؛ فقال لهما : لست بقانع منه دون أن يدعوَنى وإياكما ، لا رابع معنا !

فأقبل علىّ يحيى ، وقال : قد أبى أن يعفيك ، وإن لم يكن غيرنا فأقعدنا على أثاث بيتك فلا حِشمة[٣] منا ، وأطعمنا من طعام أهلك ، فنحن به

---

(١) الأجادب : الأراضى التى لا نبات بها .
(٣) المنة : القوة .
(٣) الحشمة : الاستحياء .

راضون ، وعليه شاكرون . فقلت : جعلت فداك ! إن كنت قد عرضت عليّ ذلك ، وأبيت إلا هتكي وفضيحتي ؛ فأرجو أن تؤجلني ، حتى أتأهب . فقال : استأجل[1] لنفسك . فقلت : سنة : فقال : ويحك ! أمعنا أمان من الموت إلى سنة ؟ ! .

فقال يحيي : أفرطت فى الأجل ، ولكنى أحكم بينكما بما أرجو ألا يرده أبو العباس ، واقبله أنت أيضاً . فقلت : احكم وفقك الله للصواب ، وتفضل عليّ بالفسح فى المدة . فقال : قد حكمت بشهرين .

فخرجت من عندهم ، وبدأت برم[2] دارى ، وإصلاح آلتى ، وشراء ما أتجمل به من فرش وأثاث وغير ذلك ، وهو فى ذلك لا يزال يذكرنى ، ويعدّ الأيام عليّ ، حتى إذا كانت الجمعة التى تجب فيها الدعوة قال لى : يا محمد ؛ قد قرب الوقت ولا أحسب أنه قد بقى عليك إلا الطعام ؛ فقلت : أجل يا سيدى !

فأمرت باتخاذ الطعام على غاية ما انبسطت به يدى ومقدرتى ، وجاءنى رسوله عشية اليوم الذى فى صبيحته الدعوة ، فقال لى : إلى أين بلغت ؟ ! وهل تأذن بالركوب ؟ قلت : نعم ، بكر ، فبكر هو ويحيي وجعفر ، ومعهم أولادهم وفتيانهم .

فلما دخلوا أقبل عليّ الفضل ، وقال : يا محمد ، إن أول ما أبدأ به النظر إلى نعمتك كلها صغيرها وكبيرها ، فقم بنا إلى الدار حتى أدور فيها ، وأقف عليها ؛ فقمت معه ، وطاف فى المجلس ، ثم خرج إلى الخزائن ، وصار إلى الاصطبلات ، ونظر إلى صغير نعمتى وكبيرها ، ثم عدل إلى المطبخ ، فأمر بكشف القدور كلها ، وأبصر قدراً منها ، فأقبل على أبيه ، وقال : هذه

---

(١) استأجله : طلب منه أن يضرب له فى ذلك أجلا .

(٢) رمها : إصلاحها .

قدرك التى تعجبك ، ولست أبرح دون أن تأكل منها ؛ فدعا برغيف فغمسه فى القدر ، وناول أباه ؛ ثم فعل ذلك بأخيه ، ودعا بخلال ، وخرج إلى الدار ، ووقف فى صحنها مسرحاً طرفه فى فنائها وبنائها وسقوفها وأروقتها . ثم أقبل علىّ وقال : من جيرانك ؟ قلت : جعلت فداك ؛ عن يمينى فلان ابن فلان ، وعن شمالى فلان ابن فلان ، وفى ظهر دارى رجل كبير ، لا يفتر فى بنائه ولا يقصر . فقال لى : أو تعرفه ؟ قلت : لا ؛ قال : ما كان ينبغى لك فى قدرك ومحلك من هذه الدولة أن يجترئ أحد أن يشترى شيئاً فى جوارك إلا بأمرك ، وأن ترضى لنفسك إلا بجار تعرفه !

فقلت : لم يمنعنى من ذلك إلا ما كنت فيه من الشغل بهذه الدعوة المباركة .

فقال لى : فأين الحائط الذى يتصل بداره ؟ فأومأت إليه ، فقال : علىّ ببناء ؛ فأتى به ، فقال : افتح ها هنا باباً ؛ فأقبل عليه أبوه ، وقال : نشدتك الله يا بنى ، ألا تهجم على قوم لا تعرفهم ! وأقبل عليه أخوه بمثل ذلك ، فأبى إلا أن يفتح الباب فلما رأيته قد رد أباه وأخاه ، أمسكت عن مسألته ، ففتح الباب ودخل ، وأدخلنى معه ؛ فدخلت داراً ، حار بصرى فيها من حسنها ، وانتهينا إلى رواق فيه مائة مملوك فى زى واحد ، عليهم الأقبية[1] من الديباج ؛ وإذا شيخ قد خرج فقبل يده ؛ فقال له . مر بنا ننظر فى مرافق هذه الدار ؛ فما دخلنا مجلساً إلا رأيناه قد فرش بما لا يحيط به الوصف .

ثم قال للشيخ : مر بنا إلى مكان الدواب ، فدخلنا اصطبلا فيه أربعمائة من البغال وغيرها ، فوجدت ذلك الاصطبل أحسن بناء من دارى .

ثم خرج نحو دور النساء والشيخ بين يديه ؛ فلما انتهى إلى الباب وقف الشيخ ، ودخل الفضل ، وأنا معه حتى دخلت بعض تلك الدور فإذا فيها مائة

---

(١) الأقبية : جمع قباء .

وصيفة[١] ، قد أقبلن فى حليهن وحللهن ؛ فوقفن بين يديه ، فقال : يا محمد ؛ هذه الدار أجل أم دارك ؟! فقلت : يا سيدى ؛ وما أنا ؟! وما دارى ؟! هذه تصلح للأمير لا غيره ! فقال : يا محمد ؛ هذه الدار بما فيها من الدواب والرقيق والفرش والأوانى لك ، ولك عندى زيادة ! .

فقلت فى نفسى : يهب لك ملك غيره ! فعلم ما فى نفسى ، فقال : يا محمد ؛ إنى لما سألتك هذه الدعوة تقدمت إلى القهرمان بشراء هذا البراح[٢] ، وأن يعجل الفراغ منه ومن بنائه ، وحولت إلى الدار ما ترى ؛ فبارك الله لك فيها .

وانصرف بى إلى أبيه وأخيه ، وحدثهما بما جرى ، فرأيت أخاه جعفرا قد معض[٣] من ذلك ، وتغير وجهه تغيراً عرفته ، ثم أقبل على أبيه يشكو الفضل ، ويقول : يتفرد بمثل هذه المكرمة من دونى ؛ فلو شاركنى فيها لكانت يداً أشكرها منه !

فقال : يا أخى ؛ بقى لك منها قطبها[٤] ! قال : وما هو ؟ قال : إن مولانا هذا لا يتهيأ له ضبط هذه الدار بما فيها إلا بدخل جليل ؛ فأعطه ذلك ! .

فقال : فرجت عنى يا أخ ! فرج الله عنك ! فدعا من وقته بصكاك[٥] لخمس قريات ، واحتمل عنى خراجها ، فخرجوا عنى ، وأنا أيسر أهل زمانى .

فهل تلومنى يا أمير المؤمنين على ذكرهم ، والإشادة بفضلهم ؟ !

فقال المأمون : ذهب القوم والله بالمكارم ! ! ثم أمر لمحمد بمائة ألف درهم ، وتقدم إلى ابن أبى خالد برد مرتبته ، وتصييره فى جملة خواصه ! .

---

(١) الوصيفة : الخادم .
(٢) البراح : المتسع من الأرض لا زرع بها ولا شجر .
(٣) معض من الأمر كفرح : غضب .
(٤) قطب الشيء : ملاكه ومداره .
(٥) بصكاك : جمع صك .

٥

من أنباء نجباء الأبناء

قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمى :

كانت أم جعفر بن يحيى تزور أمى ، وكانت لبيبة من النساء ، حازمة فصيحة برزة(١) ، يعجبنى أن أجدهاعند أمى فأستكثر من حديثها ، فقلت لها يوما : يا أم جعفر ، إن بعض الناس يفضل جعفرا على الفضل، وبعضهم يفضل الفضل على جعفر ، فأخبريني . فقالت : ما زلنا نعرف الفضل للفضل. فقلت : إن أكثر الناس على خلاف هذا . فقالت: سأحدثك واقض أنت — وكان ذلك الذى أردت منها :

قالت : كانا يوماً يلعبان فى دارى ، فدخل أبوهما فدعا بالغذاء وأحضرهما ، فطعما معه ، ثم آنسهما بحديثه ، وقال لهما : أتلعبان بالشطرنج ؟ فقال جعفر — وكان أجرأهما : نعم ؛ قال : فهل لاعبت أخاك بها ؟ قال جعفر : لا . قال : فالعبا بها بين يدىّ لأرى لمن الغلب ، فقال جعفر : نعم ؛ وكان الفضل أبصر منه بها ، فجيء بالشطرنج ، فصفت بينهما ، وأقبل عليها جعفر ، وأعرض عنها الفضل .

فقال له أبوه : مالك لا تلاعب أخاك ؟ فقال : لا أحب ذلك . فقال جعفر : إنه يرى أنه أعلم بها منى فيأنف من ملاعبتى ، وأنا ألاعبه مخاطرة(٢) .

فقال الفضل : لا أفعل . فقال أبوه : لاعبه وأنا معك . فقال جعفر : رضيت ، وأبى الفضل واستعفى أباه فأعفاه .

---

(١) البرزة من النساء : التى تظهر للناس ، ويجلس إليها القوم ، وهى مع ذلك عفيفة عاقلة .

(٢) المخاطرة : المراهنة .

ثم قالت لى : قد حدثت فاقض ، فقلت : قد قضيت بالفضل للفضل على أخيه . فقالت : لو علمت أنك لا تحسن القضاء لما حكمتك ، أفلا ترى أن جعفرا قد سقط أربع سقطات تنزه الفضل عنهن : فسقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج ، وكان أبوه صاحب جد . وسقط فى التزام ملاعبة أخيه ، وإظهار الشهوة لغلبه ، والتعرض لغضبه ؛ وسقط فى طلب المقامرة ، وإظهار الحرص على مال أخيه . والرابعة قاصمة الظهر حين قال أبوه لأخيه : لاعبه وأنا معك ، فقال أخوه : لا ، وقال هو : نعم ؛ فناصب[١] صفاً فيه أبوه وأخوه ؟ ! !

فقلت : أحسنت والله ، وإنك لأقضى من الشعبى[٢] ؛ ثم قلت لها : عزمت عليك أخبرينى : هل خفى مثل هذا على جعفر ، وقد فطن له أخوه ؟

فقالت : لولا العزمة[٣] لما أخبرتك ، إن أباهما لما خرج قات للفضل خالية به : ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك ؟ فقال : أمران ؛ أحدهما أنى لو لاعبته لغلبته فأخجلته ، والثانى قول أبى : لاعبه وأنا معك ، فما يسرنى أن يكون أبى معى على أخى . ثم خلوت بجعفر فقلت له : يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمت أخوك وتعترف ، وأبوك صاحب جد ؛ فقال : إنى سمعت أبى يقول : نعم لهو البال المكدود[٤] ؛ وقد علم ما نلقاه من كد التعلم والتأدب ؛ ولم آمن أن يكون بلغه أنا نلعب بها أو أن يبادر أخى فينكر ؛ فبادرت بالإقرار إشفاقاً على نفسى وعليه ، وقلت : إن كان توبيخ فديته من المواجهة به .

فقلت له : يا بنى ؛ فلم تقول ألاعبه مخاطرة ؟ ! كأنك تقامر أخاك وتستكثر

---

(١) ناصب الصف : وقف إزاءه وعاداه .

(٢) الشعبى : أحد رجال الحديث والقضاء .

(٣) عزم عليه : أقسم ، وعزمت عليك : أى أمرتك أمراً جداً ، وهى العزمة .

(٤) كده : أجهده وأتعبه ، والمكدود : المتعب .

ماله ! فقال : كلا ، ولكنه يستحسن الدواة التى وهبها لى أمير المؤمنين فعرضتها عليه ، فأبى قبولها ، وطمعت أن يلاعبنى فأخاطره عليها ، وهو يغلبنى فتطيب نفسه بأخذها .

فقلت لها : يا أماه ؛ ما كانت هذه الدواة ؟ فقالت : إن جعفرا دخل على أمير المؤمنين فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر محلاة بالياقوت الأزرق والأصفر ؛ فرآه ينظر إليها فوهبها له . فقلت : إيه .

فقالت : ثم قلت لجعفر : هبك اعتذرت بما سمعت ، فما عذرك من الرضا بمناصبة أبيك حين قال : لاعبه وأنا معك ؟ فقلت أنت : نعم ، وقال هو : لا . فقال : عرفت أنه غالبى ، ولو قمر لعبه لتغالبت معه ، مع ماله من الشرف والسرور بتحيز أبيه إليه .

قال محمد بن عبد الرحمن : فقلت : بخ بخ[1] ، هذه والله السيادة ؛ ثم قلت لها : يا أماه ، أكان منهما من بلغ الحلم ؟ فقالت : يا بنى ؛ أين يذهب بك ؟ أخبرك عن صبيين يلعبان ، فتقول : أكان منهما من بلغ الحلم ؟ . لقد كنا ننهى الصبى إذا بلغ العشر وحضر من يستحى منه أن يبتسم

---

(١) يقال : بخ بخ ، إعجاباً بالشىء وإظهاراً للسرور به .

تعليق :

هذه القصص التى أوردناها قليل من كثير مما ملئت به كتب الأدب والتاريخ والنوادر ؛ وهى كما ترى منها المعقول وغير المعقول ، ومنها ما يمكن أن يكون له أصل ، زيد عليه ، وغيّر فيه ؛ ومنها ما لا يكون له أصل أبداً ولكنه وضع وضعا فتناقله الرواة والقصاص ، وذكروه فى مجالس القص .

وأيا كان شأن هذه القصص فهى من غير شك ذخر أدبى يصور من قريب أو بعيد لوناً من ألوان الحياة الأدبية والحياة الاجتماعية فى عصر البرامكة بعض التصوير ، ويصور تصويرا أقوى هاتين الحياتين : الأدبية والاجتماعية ، فى العصر الذى يلى عصرهم ، وهو العصر الذى وضع فيه بعض هذه القصص ، وتصرف فى غيرها بالزيادة أو النقص أو التغيير والتبديل ، أو بهذه جميعاً .

فالذى يقرأ هذه القصص يعجبه أنه يقرأ قصة ، وأنه يطلع على بعض ما كان يروى ، على سبيل التندر ، عن قصور الخلفاء ومن فى حكم الخلفاء من الأبهة والفخامة ، فيسبح خياله فى جو غريب ، قد يملأ نفسه إعجاباً ، وقد يملؤها سروراً ، وقد يملؤها حزناً ؛ وقد يشيع فى جوانبها مزيجاً من هذا كله .

وقد أصاب واضعو هذه القصص ما أصابوا حين أرادوا أن يلبسوا الرشيد ثوب المتشدد المتعنت فى معاملة رجاله ، وحين أرادوا أن يجعلوا البرامكة شفاء للناس من هذا التشدد والتعنت ؛ وإلا فما بالهم يجعلونه مثلا يرسل إلى منصور ابن زياد[1] يستأديه عشرة آلاف ألف درهم تجمدت عليه نتيجة لإهمال الرشيد ، لأنه كان يكل أموره إلى غيره حتى نبهه لهذا صاحب الخبر؛ ثم هو يرسل إليه مشدداً بالخروج من المال ، أو بالخروج من الحياة ، ويهدد الرسول ،

---

(١) القصة الثالثة .

ويأمره ألا يعود إلا بالمال أو برأس منصور ؛ فيقع منصور فى حيص بيص ، ويضطرب ، ولا يجد له مخرجاً مما هو فيه ، فيسلم أمره إلى الله ، ويطيع الرسول ويخرج معه للقاء حتفه ، من غير أن يفكر فى هرب أو فى أى وسيلة ينجو بها من سيف الرشيد ؛ ولم ينفذ الرسول ما أمره به الرشيد من أنه لا يحضر إليه إلا بالمال أو عنق الغريم ؛ ولكن القاص مبالغة فى حبك القصة يحمل معه الغريم ، ويخرج وراءه نساءه وبناته ، يلطمن خدودهن ويخمشن وجوههن ، ويشققن جيوبهن ، ويحملن التراب فوق رءوسهن ، ويصرخن ويعولن ، بعد أن جلس وقتاً يبكى إليهن ويبكين إليه .

ولكنه لم يكد يفارق أهله ، ويسير إلى حيث يلقى حتفه ، حتى خطر بباله مفرج كرب المكروب ، ومغيث الملهوف ، أبو على يحيى بن خالد البرمكى ؛ فيحتال يحيى بعد أن عرف قصة الرجل على أن يجمع له المال من هنا وهناك ، كأنه كان لا يملك مثله ، وكأنه كان لا يستطيع أن يذهب إلى الرشيد ليحدثه فى شأن هذا الرجل ؛ وكأنه ليس صاحب المنزلة الأولى عند الرشيد فيرسل إليه صالحاً ليشفع للرجل عنده أو يهبه له ، فيجرؤ صالح على مخالفة يحيى ، ويأبى إلا أن ينفذ ما أمر به ، ولو كان فيه مخالفة ليحيى ؛ فيضطر يحيى إلى أن يستوهب أبناءه ، ويستوهب دنانير هبة أمير المؤمنين لها حتى يجمع المال ، ويرسله إلى أمير المؤمنين .

وإذ يعلم أمير المؤمنين قصة المال ، يعلن أنه لا يقدر أحد على إنقاذه إلا البرامكة ، فكأنه كان يعرف أن الرجل لا يملك المال ، وأن طلبه منه فيه عسف وظلم وتكليف بما لا يطاق ، فهم أصحاب فضل على من يعنيهم أمير المؤمنين .

ويزيد فضلهم حينما ينقل إليهم الواشى أن هذا الرجل الذى أنقذوه من موت محقق ينكر جميلهم ، ويقرر أنهم إنما فعلوا معه ذلك خوفاً منه ، وأنه يتمثل :

فما بُقْيا عليّ تركتماني ولكن خِفْتُما صَرَدَ النِّبال

فيلتمسون له العذر .

* * *

وبعد ؛ فهذه صفحات ، قدمنا فيها صورة من الصراع العنيف الذى قام بين مدنيتين قديمتين ، وحضارتين متباينتين ، فصرعت أحدثهما أقدمهما ، فعزّ على القديمة أن تموت ، فقام أبناؤها بحرب لم يجرد فيها سيف ، ولم يمشق رمح ؛ وإنما هى حرب المال والأدب والسياسة التى كانت تهز كرسى الخلافة هزاً عنيفاً ، فلايستقر عليه الخليفة ؛ فلم ير بدا من إرساء قوائم كرسيه على أعناق من خيّل إليه أنهم أقاموه له ؛ ففعل ؛ وما كان أحد يظن أنه يفعل ، بعد أن اعتقد الناس أن دولتهم أعجمية خراسانية(١) أو أنها دولة فارسية دخلها تحوير بالإسلام(٢) .

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) الإسلام والحضارة العربية لكردعلى .

DS
238
A1
B3

10000133935

DEC 1974

26 MAY 1982